# تكوين أوربا

تأليف

كرستوفر دوسن



ترجمة و مراجعة

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

و

الدكتور محمد مصطفى زيادة

اهداءات ٢٠٠٣

سرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيونى

الإسكندرية

الألف كتاب ٦٤٢

# تكوين أوربا

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب

# تكوين أوربا

تأليف
كريستوفر دوسن

ترجمة ومراجعة
الدكتور محمد مصطفى زيادة و الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ - ٥٢٣٠٩

١٩٦٧

هذه ترجمة كتاب :

THE MAKING OF EUROPE
( 400 — 1000 A. D. )

تأليف :

CHRISTOPHER DAWSON

# محتوى الترجمة العربية

صفحات



## القسم الأول

### عناصر تكوين أوربا



## القسم الثانى

### سيادة الشرق

صفحات



## القسم الثالث

### تكوين الدولة المسيحية فى غرب أوربا

# خرائط فى آخر الكتاب

( ١ ) الإمبراطورية عند نهاية عهد جستنيان .

( ٢ ) إمبراطورية شارلمان .

( ٣ ) تفكك الخلافة الإسلامية .

( ٤ ) أوربا عند مطلع القرن الحادى عشر الميلادى

# تصــدير

## الترجمة العربية

منذ عشر سنوات ، أو أكثر قليلا، نشأت بيننا نحن الاثنين فكرة لنقل هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية ، وذلك بعد أن وصل إلى طبعته السادسة الإنجليزية فى سبع سنوات قصيرة. ومنشأ هذه الفكرة رغبة خالصة منا فى تأدية خدمة صغيرة لتحقيق غرضين ثقافيين كبيرين ، أولهما إيجاد مادة عربية جيدة لتدريس مطالع العصور الوسطى الأوربية من ظواهرها الحضارية ، بالإضافة إلى تدريسها التقليدى من الحقائق التاريخية المرصوصة فى الكتب المتداولة ، وثانيهما إيجاد نموذج طيب لكتاب عربى يكون عنوانه — وموضوعه كذلك — تكوين الشرق الأوسط فى صدر الإسلام ، ويكون هدفه البرهان من طريق الظواهر الحضارية الشرقية وغيرها ، على ما بهذا الشرق الأوسط من وحدة حضارية متكاملة متنوعة الأجزاء ، بالإضافة إلى وحدته الجغرافية الطبيعية ، مثلما فعل مؤلف هذا الكتاب الأوربى فى كتابه .

ثم أخذنا نقلب النظر فى محتوى هذا الكتاب الأوربى، وصفحاته وفصوله وعناوينها ، وحواشيه وأصنافها ، وصوره التوضيحية وتعريفاتها وشروحها ، فإذا هو فى جملته وتفصيله كتاب مبتكر، تابع من مجموعة بحوث طويلة قام بها أعلام من الباحثين الأوربيين لبحث نواح حضارية محلية من التاريخ الأوربى ،

وقام مؤلف هذا الكتاب هنا بدراسة هذه البحوث، وإخراجها فى تأليف واحد، للتدليل على حقيقة الوحدة الأوربية الحضارية عبر التاريخ .

وتقديرا منا لما فى هذا الكتاب من معارف دقيقة ، وبحوث موضوعية مترامية فى أعماق التاريخ الأوربى ، فضلا عما فيه من منهجية عقلية فيها منافع للراغب فى الكتابة فى الأصول الحضارية للتاريخ الإسلامى ، على مستوى القمة العلمية التى يتبوأها هذا الكتاب الأوربى ، رأينا أن يكون عملنا فى هذه الترجمة إلى اللغة العربية على قاعدة مستمرة من المشاركة التامة فى الترجمة والمراجعة ، وها نحن الآن نرجو أن تجد فكرتنا المزدوجة مكافأتها المنشودة ، وأن تثمر ثمرتها الطيبة ، سواء فى إيجاد مادة إضافية جديدة لتدريس مطالع العصور الوسطى الأوربية بالجامعات العربية بالشرق الأوسط كله ، أو لتأليف تاريخ حضارى لهذا الشرق الأوسط العظيم فى صدر الإسلام .

ونود هنا أن نشكر جميع الزملاء الذين ساعدونا على توضيح ماغمض علينا أحيانا ، فى متن هذا الكتاب وحواشيه ، من عبارات فلسفية ، أو إشارات أدبية ، أو نصوص لاتينيــة كلاسية أو غيرها . ونخص بالذكر من أولئك الزملاء السالفين والحاضرين أبو العلا عفيفى ، ومحمد محمود السلامونى ؛ وإبراهيم أمين الشواربى ، وعبد اللطيف أحمد على ، ويحيى الخشاب ، وغيرهم .

ونود هنا كذلك أن نشكر رجال الإدارة وهيئة العمال بمطابع سجل العرب ، اعترافاً منا بجهودهم الفنية لإخراج هذه الترجمة العربية فى المستوى اللائق بها ،

كما نود أن نتقدم للقارىء العربى الحديث ، بأنحاء الشرق الأوسط ، راجين منه أن يصلنا دائما بمايتراءى له من مواضع نقد ، أو تعديل ، فى طبعات مستقبلة فى المكتبة العربية الجديدة .

**محمد مصطفى زيادة** **سعيد عبد الفتاح عاشور**
كلية الآداب بجامعة القاهرة

١٥ ذو القعدة سنة ١٣٨٦ — ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٧ .

# التعريف ببعض الصور التوضيحية

**المجتمع الجديد :**

يعدّ فن زخرفة الجدران لأقبية القبور أول ظاهرة واضحة فى الحضارة المسيحية ، وهو يوضح تماماً كيف استوعبت القوى الروحية الجديدة جميع المظاهر الخارجية للحضارة، الرومانية الهلينستية القديمة، وكيف عدلت فيها. ذلك أن الفن المسيحى الأول اتخذ النماذج التقليدية الهلينستية الشائعة فى زخرفة البيوت ، وطبعها بطابع روحى دينى عميق . ولذا تكونت موضوعات هذه الزخرفة من وحدات أو رموز عامة — سمكة أو يمامة أو أية صورة مستعارة من القصص الوثنى ، وترجع قيمتها إلى دلالتها الدينية والباطنية للعارفين . ومن أشهر هذه الصور شكل امرأة وهى تصلى ، وهى صورة ترمز فى وقت واحد إلى روح الميت،وروح الإنسان المتحرّر المستنير، كما ترمز إلى الكنيسة العذراء، عروس الروح، على قول المسيحيين .

وتختلف الصورة الواردة فى الشكل هنا عن معظم صور النساء المصليات، بما فيها من طابع خاص ، وهو يوحى بأنها صورة للميت المدفون فى القبر . وهذه الصورة — نقلا عن شرح ويلبرت — صورة عذراء راهبة ، وهى تبدو مرة أخرى فى الجزء الخلفى من الصورة،حيث تتسلم نقابها الرهبانى من أسقف . وبينما يفسر مؤلفون آخرون تلك الصورة بأنها تصور مختلف مراحل الحياة —

أى العذرة والزواج والأمومة — فهى تحمل كذلك طابعاً رمزياً عاماً ، بحيث تستطيع مناظرها أن تفهم أيضاً على أنها إشارات إلى سر التجدد الروحى ، أى الميلاد والتميد والاكتمال فى حياة الإنسان المسيحى الجديد .

**المسيح المعلم :**

تنغلب الصفة الكلاسية التامة على طراز هذا التمثال — الذى يرجع إلى القرن الثالث أو الرابع — إلى درجة تحمل صفته المسيحية موضع شك . ويبدو أن هذا التمثال يمثل المسيح فى صورة معلم، مرتدياً ملابس المعلم الهلينستى، وجالساً جلسته . وهنا كذلك — كما فى الصورة الأولى — نجد الفن المسيحى يتخذ موضوعات الفن العلمانى الكلاسى ، ويضفى عليها مغزى دينياً جديداً .

**الفن المسيحى الفرنجى فى جوانب صندوق الفرنج لحفظ المجوهرات :**

هذا الصندوق يرجع أصله إلى مملكة آنجليا ، ويحتمل أن يكون تاريخه نهاية القرن السابع ، وبذا يكون من تراث أزهى عصور الحضارة النورثمبرية فى الجزر البريطانية . ( انظر اللوحة العاشرة الخاصة بأناجيل لند سفارن ) . ويدل المظهر الفنى لهذا الصندوق دلالة واضحة على الطريقة التى امتزجت بها العناصر المسيحية والبربرية فى الفن الجديد، بين القبائل والأمم الشمالية . ونوضح الواجهة الأمامية من الجهة اليمنى من هذه اللوحة صورة الملوك المجوس الثلاثة ، ومن الجهة اليسرى — فيما يبدو — قصة ويلاند الحداد . أما صورة الغطاء العلوى للصندوق فتمثل البطل إيجيل — ويحتمل أن يكون أخ ويلاند — ، وهو يدافع عن داره ضد هجوم وقع عليه .

وأكثر الصور غموضاً هنا المنظر الموجود على الجانب الأيمن للصندوق ،

وهو يمثل شـكلاً له رأس حصان جالساً على ربوة ، وحوله بعض الأشـكال الأخرى. وعلى الرغم من المحاولات التى بذلت لربط هذا الشـكل بقصـة سيجورد وبرينهلد ، فإن شرحه الحقيقى ، فضلا عن شرح ما عليه من كتابة رومانية قديمة ، لا يزال موضع شك . أما سائر الأشـكال المرسومة على الجوانب الأخرى لهذا الصندوق ، وهى غير مصوّرة هنا، فتمثل قصة روميلوس وريموس ، واستيلاء الإمبراطور طيطوس على بيت المقدس .

وهنا لم تترك الـكتابة الرومانية القديمة أى مجال للشك فى المعنى المقصود.

**الملك والإله :**

يعدّ هذا المنظر الذى يمثل الملك والإله وجهاً لوجه عند الوثنيين القدماء — حيث يتلقى الملك من الإله جميع الشارات الملـكية المقدسـة — من أقدم موضوعات الفن الشرقى القديم ، كما أنه التعبير الـكلاسى للملـكية المقدسة . ويظهر هذا المنظر أولا فى مصر فى رسوم فرعون ، وهو يتلقى الهبات من هورس ، كما تبدو هذه الفـكرة نفسها فى حفلات التقليد الملـكى فى بابل، حيث يتقدم الملك ليمسك بيدى الإله بل ، وبذلك يكتسب حق السيادة العالمية . ويدل نقش صخرى تاريخه القرن الأول قبل الميلاد فى نمرود داغ بآسيا الصغرى،وهو يصور أنطيخوس الأول الـكوماجينى ممسكاً بيدى الإله مثراس، على أن هذا التعبير الزخرفى كان لا يزال سائداً بين القبـائل الإيرانية فى العصر الهلينستى . على أن أقوى ما يوضح هـذا التعبير الزخرفى هو ما حفظته النقوش الساسانية البارزة التى ترجع إلى القرن الثالث الميلادى . ومع أن هذه النقوش تؤدى إلى ما تدل عليه نقوش نمرود داغ من تأثير الفن الهلينستى، فهى فى نفس الوقت تنم عن روح قومية بالغة ، كما أنها تعـبر عن إحياء الحضارة الإيرانية القديمة ، وانتصار الديانة الشرقية والملـكية الشرقية على التيارات الغربية الدخيلة .

**صور المسيح فى الفن البيزنطى :**

يغلب أن تكون صور الفسيفساء الموجودة فى كنيسة سانت فيتالى بمدينة رافنا أجمل الأمثلة الدالة على المرحله الكلاسية فى الفن البيزنطى ، وهى ترجع إلى ما بين سنتى ٥٤٠ و ٥٥٠م. وليست هذه الصور الفسيفسائية فناً منسوباً لأقلية مضطهدة مجهولة ، كما هى الحال فى فن التصوير على جدران أقبية القبور ، بل تعبيراً ناضجاً لسلطان المسيحية على الملكية البيزنطية . واستمد الفن الجديد هذه القوة الروحية المسيطرة من الشرق ، ولاسيما سوريا بوجه خاص ، حيث لقنت الملكيات الشرقية القديمة جميع الناس — على قول دالتون — أن الفن أداة لإعلاء شأن السلطان الملكى الإلهى. ويقول دالتون كذلك، إن الربط بين الملكية والألوهية ، وهو الظاهرة التى أثرت أبعد الأثر فى الحياة زمن الدول القديمة ، لم ينسه الشرق السامى فى عصوره المسيحية الأولى التى لم تستطع أن تفصل بين الألوهية والقوة الجبارة المظلمة . وتراءى المسيح للآراميين فى تصويرهم على أنه ملك الملوك ، شاب ملائكى متناسق الأعضاء، كأحسن ما تصوره قواعد الفن الهلينستى . وتتضح هذه المثالية فى الفن البيزنطى فى كنيسة سانت فيتالى ، حيث تركز التصوير فى إعلاء شأن المملكتين العظيمتين ، وهما مملكة السماء ومملكة الأرض . وفى محراب الكنيسة توجد صورة المسيح جالساً فى جلالة فوق أفق العالم ، وتجرى من تحت قدميه أنهار الجنة الأربعة ، على حين يقف الإمبراطور والإمبراطورة بملابسهما الرسمية فى أسفل الصورة على جانبى بهو المرتلين، تحيط بهما هيئة البلاط الإمبراطورى .

على أننا نجد من جهة أخرى أن هذا الفن ورث تقاليد العالم الهلينستى، من حب للطبيعة والتزام للمثالية فى الجمال والانسجام. وأشد ما يكون هذا وضوحاً فى

تصوير المسيح الذى يبدو فى روحه الفنيةهلينياً أكثر منه شرقياً ، وهو مخالف تمام المخالفة لضخامة ملك الملوك فى كتدرائية مونريالى بإيطاليا .

**ولاء الشرق للمسيح المولود :**

ترجع صــور الفسيفساء الأولى فى كنيسة سانت أبوليناري نوڤو إلى العصر القوطى ، حيث كانت هذه الـكنيسة هى كنيسة البلاط الإمبراطورى الأريوسى . لـكن صــور موكبى القديسين فىصحن الـكنيسة ، وهما من الناحية اليسرى موكب العذارى يتقدمهن الملوك المجوس الثلاثة ، ومن الناحية اليمنى موكب الشهداء ، يرجع كل منهما إلى العصر البيزنطى أيام الأسقف أجنيلوس ( + ٥٨٩ م ) ، وأعيدإصلاح صورة الملوك الثلاثة فى القرن الماضى .

**الفن المسيحى الأيرلندى . مخطوطة أناجيل سانت جال :**

يرجع هذا المخطوط إلى نهاية القرن الثامن ، ويغلب أنه أجمل نموذج للفن الأيرلندى خارج الجزر البريطانية . وهذه الأناجيل كتبت — أو أكملت كتابتها — فى أوربا ، إذ يتغير خطها قرب نهاية المخطوط إلى خط الأحرف الأوربية الصغيرة التى كانت معروفة فى أوربا .

والفن المسيحى الأيرلندى فى القرن الثامن أعظم تراث الشعوب البربرية أصالة وابتــكاراً ، ومع أنه يدين بنصيب للمؤثرات الأجنبية ، فإنه أخضع تلك المؤثرات لخصائص قواعده فى التصوير . وهكذا يحتمل أن يكون منظر الصليب المسيحى فى هذه الصورة قائماً على نمط بيزنطى سورى، لـكن روح ذلك المنظر تبدلت تماماً، كما خضعت الأشكال البشرية فيه لمقتضيات الزخرفة . وفى مواضع أخرى من هذه الأناجيل — فى كتاب كنيسة كلز مثلا — استعمل

شكل الإنسان للزخرفة الخالصة ، دون أى اعتبار للتمثيل الطبيعى أو الشعور الإنسانى ، مما جعل الصورة كلها تحمل طابعاً سحرياً خارقاً فوق الخيال . ومع أن هذا الفن بربرى ، فهو بكل تأكيد ليس فناً ساذجاً أو حديث العهد ، بل ثمرة ناضجة لتراث معقد بالغ الاتقان ، وليس بينه وبين تراث بلاد البحر المتوسط من الصلة القريبة أو البعيدة إلا بمقدار مابين الفن الأيرلندى وفنون حضارة الأزتك بالمكسيك، أو حضارة المايا بأمريكا الجنوبية، من صلة معدومة .

**الفن الآنجلى المسيحى بالجزر البريطانية : ناجيل لند سفارن .**

يبدو من حرد الخاتمة ( وهو على أية حال ليس حرداً أصلياً معاصراً ) أن هذه المخطوطة من نسخ إيد فربث أسقف كنيسة لندسفارن (٦٩٨ــ ٧٢١م) ، هو الذى كتب هذه الأناجيل من أجل الرب والقديس كوثبرت أولا ،ثم جميع القديسيين بالجزيرة . وإذا استثنينا كتاب كنيسة كاز ـــ وهو إلى حد ما متأخر زمنياً ـــ فهذا المخطوط أجمــل نموذج باق لأساليب الخط والزخرفة الأيرلندية . ولذلك رفض الأستاذ ماكالستر قبول العبارة الواردة فى حرد الخاتمة ، ورجح أن هذه المخطوطة ذات أصل أيرلندى خالص . على أننا نجد من جهة أخرى أن موضوعات الصورة أقوى فى طابعها الكلاسى وأكثر تمثيلا للأشكال البشرية من المخطوطات الأيرلندية . ويبدو أن الصورة الواردة هنا نسخة من صورة فى مجموعة أمياتينوس ( أنجيل كيولفريد) ، وهذه بدورها يقال عنها إنها منقولة عن صورة من فن جنوب إيطاليا للفيلسوف كاسيودورس فى مكتبته . وينتمى تقويم الأعياد إلى فن حنوب إيطاليا ، أى إلى كنيسة نابلى . وتشير جميع هذه الظواهر إلى نورثمبريا، حيث التقت المؤثرات الكاتية بمؤثرات إيطاليا البيزنطية ، وهى المؤثرات التى دخلت الجزر البريطانية على يد هادريان رئيس دير نيسيدا قرب نابلى سابقاً ، والقديس بندكت الأسقف .

**الامبراطور الكارولنجى شارل الأصلع :**

هذه الصورة منقولة من مجموعة أوريوس التى كتبها برنجر وليوثارد من أجل شارل الأصلع سنة ٨٧٠ م ، والتى أهداها بعد ذلك أرنولف الكارنثى إلى دير سانت أميران فى راجنزبرج ، وهى تعد نموذجاً عظيماً لأقصى ما وصلت إليه مدرسة الفن الكارولنجى من تطور ، وهى المدرسة التى تعرف عادة باسم مدرسة كوربى ، لكنها تنسب الآن إلى مكتبة الإمبراطور فى سانت دنيس. ولم تتوافر الموارد المادية اللازمة لأعمال فنية خالدة للإمبراطورية الكارولنجية فى أواخر أيامها ، ولذلك لم تستطع الحضارة الإمبراطورية أن تعبر عن نفسها عندئذ إلا بهذه المخطوطات الفاخرة التى تجمعت فيها كل مواهب الخط والزخرفة الكارولنجية . وتعد هذه الصورة نموذجاً دقيقاً للعنصر البيزنطى الكلاسى فى الفن الكارولنجى ، وهى تصور الإمبراطور متوجاً ومرتدياً جلباباً قصيراً أزرق وعباءة بنفسجية . أما صورتا المرأتين المرسومتين على الجانبين فتمثلان شعوب الإمبراطورية ، واسمهما فرانكيا وقوطيا .

**الأسقف الكارولنجى :**

تملأ هذه الصورة واجهة فوق المذبح بكنيسة سانت أمبرجيو فى ميلان ، وهى تعد من أفخم نماذج القطع الفنية المعدنية ، فى العصر الكارولنجى ، وهى من صنع رجل اسمه المعلم ولفينوس، زمن أنجلبرت الثانى أسقف ميلان (٨٢٤— ٨٥٩ م ) . غير أنه يوجد بعض الشك فيما إذا كان إنتاج هذه القطعة الفنية فى ميلان بإيطاليا ، أو فى ريمس التى كانت مركزاً هاماً للفن الكارولنجى .

**دخول المسيحية الى البلاد الأوربية الشمالية : الملك كانوت :**

هذا الشكل مأخوذ من سجل نيومنستر ( ١٠١٦ — ١٠٢٤م ) بمدينة

ونشستر ، وهو السجل المحفوظ الآن فى المتحف البريطانى (مخطوط ستو ٩٤٤). ويوضح هذا الشكل فكرة العصور الوسطى فى الأصل الإلهى للسلطة الملكية ، مرموزاً لها بملاك بضع التاج على رأس الملك ، وهو كذلك موضع أهمية ، لأنه رسم معاصر للملك كانوت أعظم الملوك السكندناويين .

**الامبراطور لويس التقى :**

هذه الصورة مأخوذة من مخطوطة رابانوس ما وروس التى عنوانها مدائح الصليب المقدس ، وهى مكتوبة بماء الذهب على قطعة من المخمل البنفسجى فى فولدا،فى الربع الثانى من القرن التاسع، ونصور الإمبراطور فى ملابس رومانية، على أنه نموذج للجندى المسيحى ، وهى بلا جدال أعظم صورة دالة على الواقعية والفردية فى فن العصور الوسطى الأولى .

**الامبراطورية الرومانية المقدسة . الامبراطور أوتو الثالث يتلقى ولاء شعوب الامبراطورية :**

هذه الصورة مأخوذة من أناجيل أوتو الثالث التى تمت كتابتها فى رايخناو حوالى سنة ١٠٠٠ م ، وهى إحدى آيات مدرسة رايخناو التى كانت مركزاً لما هو معروف باسم النهضة الأوتوية.وتعد هذه الصورة شاهداً واضحاً على أهمية عهد أوتو الثالث فى التطور الثقافى فى العصور الوسطى ، لأنهـا على الرغم من تأثرها بالتقاليد الفنية البيزنطية ، فهى فى أعماقها مبتكرة ، وتدل على بداية الفن الجديد فى غرب أوربا فى العصور الوسطى . ووصف ناقد ألمانى حديث ، وهو هانز كارلنجر ، هذا الفن قائلا إنه وليد العلاقة المجددة بين الشمال والجنوب ، أى الاتحاد بين الفن البيزنطى الإمبراطورى ، والفن المعروف باسم الفن الشعبى المنسوب لما بعد العصر الكارولنجى . وظهر هذا الفن فى المملكة الكارولنجية

أصلا وقاعدة لجميع الجهود الوسطى ، فى أرض ألمانية ، وليس له نظير أو مقابل فى الجنوب أو الغرب ، على حين أن الفن البيزنطى المعاصر لم ينتج ما هو أبهى من ذلك . والواقع أن هذا الفن ، وهو المنسوب لما بعد العصر الكارولنجى ، دلّ على أن التلميذ أصبح أستاذاً ، وأن تصويره هذا الفن حقق الحلم الذى تخيله أوتو الثالث ، وهو إمبراطورية مسيحية عالمية تهيمن على جميع ممالك ذلك العصر .

# مقدمة المؤلف

أعتقد أنه ليس من الضرورى أن أذكر سبباً لتأليف كتاب عن المرحلة الزمنية التى نطلق عليها عادة اسم العصور المظلمة ، لأنه على الرغم من التقدم العام فى دراسات العصور الوسطى، وازدياد الاهتمام بحضارتها ، فإن هذه العصور المظلمة لاتزال موضوعاً مهملا غير مقدور القيم . والسبب فى ذلك أن كل قرن من القرون الوسطى — القرن الحادى عشر أو الثالث عشر — له طابع خاص مستقل، على حين تبدو المرحلة الواقعة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب و بين الغزو النورمانى لإنجلترا مرحلة زمنية غامضة مغلقة ، لامغزى لها فى عقول الغالبية العظمى منا . ثم إننا نميل مثلا إلى الكلام عن إنجلترا الأنجلوسكسونية كما لو أنها كانت على حال واحدة طوال تاريخها، ولا نذكر أن عصر إدوارد التقى تفصله عن عصر الغزو الأنجلوسكسونى مرحلة زمنية واسعة ، كتلك التى تفصل ذلك العصر عن عصر كرمويل ومازاران ، أو كتلك التى تفصل بين عصرنا الحاضر وعصر إدوارد الثالث وتشوسر .

والواقع أن تلك الحقبة التى نطلق عليها عادة اسم العصور المظلمة شهدت من التغييرات الخطيرة مالا يقل عما شهده أى عصر آخر من عصور تاريخ الحضارة الأوربية ، بل إنها كانت كما أقترح هنا فى عنوان كتابى هذا — أكثر هذه العصور ابتكاراً ، لأن تلك الحقبة لم تقتصر على ابتكار هذا أو ذاك من جوانب الحضارة الأوربية بل لبّ هذه الحضارة نفسها، أى الجذور والتوبة التى غدت

الحضارية التالية . وترجع بعض الصعوبة التى نلقاها فى فهم تلك الحقبة بالذات، فضلا عن تقديرها، إلى نواحى الابتكار فى نشاطها، وكانت هذه عملية داخلية حية دون أن تكشف عن نفسها بنتائج ظاهرة خلابة ، ولذا ينقصها البريق السطحى، الذى يغلب على عصور التطور الحضارى، مثل عصر النهضة الأوربية الكبرى ، أو عصر الإمبراطور أوغسطس قيصر .

ومع هذا فليست العصور السهلة الواضحة فى التاريخ أحق العصور بالدراسة ، فمن عظيم أفضال التاريخ أنه يجعلنا نتجرد عن أنفسنا ، وأنه يأخذنا بعيداً عن الحقائق الواضحة المقبولة ، ويكشف عن حقيقة غير معروفة لنا بدونه . ومن البديهى أن هناك ثمة قيمة حقيقية فى التعمق بعقولنا فى عصر يختلف تمام الاختلاف عما نعرف ، حيث نجد أنفسنا فى عالم مختلف عن عالمنا ، لكنه لا يقل بل يزيد عنة واقعية . ثم إن العالم الحاضر لا يعدو جيلا أو عصراً واحداً ، على حين تشغل الحضارة البيزنطية أو الحضارة الكارولنجية مثلا حياة قرون عديدة .

وينبغى أن يكون التاريخ أعظم دواء لمعالجة الزمنية المحلية الضيقة ، وهى التى وصفها برتراند رسل بأنها من أكبر خطايا مجتمعنا الحديث . غير أنه من سوء الحظ أن كثيراً من التاريخ مكتوب فى معظم الأحيان باتجاهات مختلفة ، فاتجه المؤرخون المحدثون مثلا — وبصفة خاصة فى إنجلترا — نحو استخدام الحاضر مقياساً مطلقاً للحكم على الماضى ، وتصوروا التاريخ على أنه حركة حتمية فى سبيل التقدم الذى يبلغ ذروته فى الأوضاع الحالية . ولهذا الاتجاه بعض التبرير عند كاتب من طراز هـ . ج ، ولز لأنه جعل هدفه إمداد المواطن الحديث بأساس تاريخى وقاعدة هذا المواطن إلى العالم . لكن هذه الطريقة فى كتابة التاريخ — بالغة ما تبلغ من الاتقان — ليست طريقة تاريخية ، لأنها تجعل الماضى

خاضعاً للحاضر ، وهى تؤدى إلى السير فى طريق الاستعلاء الريأنى الذى التزمه المؤرخون الهويج فى إنجلترا،أو فى طريق الرضا النفسى الذى يعيش فيه الرجل المادى المتزمت فى العصر الحاضر ،وهذا وذلك بدلا من تحرير الفكر من النزعة المحلية الضيقة بتوسيع الأفق الثقافى[1].

وثمة خطر آخر منشؤه استخدام التاريخ سلاحاً ضد العصر الحديث الحاضر ، من باب المثالية الرومانتية للماضى ، أو من باب التسخير لأغراض الدعاية الدينية أو القومية . والغرض الثانى من هذين الغرضين هو الأعظم أهمية ، لأن الرجل الرومانتى يعالج التاريخ على أنه غاية فى ذاته ، ونحن ندين فى الواقع إلى المؤرخين الرومانتيين بالمحاولات الأولى لدراسة حضارة العصور الوسطى لذاتها ، لا وسيلة لشىء آخر . أما المؤرخ المنصرف إلى الدعاية فتحدوه بواعث غير تاريخية ، وهو لذلك يتجه فى غير عمد نحو إفساد التاريخ فى سبيل الدفاع عن دعايته . وهذا هو الخطر الذى يقع فيه المؤرخون الكاثوليكيون فى مؤلفاتهم فى تاريخ العصور الوسطى ، منذ صوّرت النهضة الرومانتية مرحلة العصور الوسطى لأول مرّة على أنها مرحلة عصور الإيمان ، كما صورت حضارة العصور الوسطى على أنهما تعبير اجتماعى عن المثل العليا الكاثوليكية . ولم يكن هذا هو الحال قبل ذلك ، بل جنح مؤرخون كاثوليكيون من أمثال فليرى إلى اتجاه عكسى ، فانساقوا فى التحيز الذى شاع

(١) اتجهت طائفة معينة من المؤلفين المحدثين إلى نوع من التاريخ أقل درجة من هذا النوع ، إذ تدلر أوالات المؤلفون المحدثون إلى الماضى كأنه معرض حافل بأصناف الحيوانات الغريبة التى يقوم مؤلفو التراجم البراقة بعرض خصائصها للقارئ العام ، مقابل مكافآت مالية كبيرة من دور النشر والطباعة .

بعد عصر النهضة الأوربية الكبرى، بإطلاقهم على العصور الوسطى صفة العصور المظلمة التى خيمت عليها القوطية البربرية والجهل . غير أنه من المؤكد أنه منذ ماقبل القرن الماضى جنح الكتاب الكاثوليكيون إلى اتخاذ التاريخ ميداناً للدفاع والتبرير ، ووصفوا حضارة العصور الوسطى بالمثالية، لإعلاء شأن مثلهم الدينية . والواقع أن هذه الطريقة فى كتابة التاريخ تهدم الغرض الذى تتوخاه لنفسها ، لأن القارئ إذا تسرب إليه شك فلا يلبث أن يفقد الثقة فى كل ما يقرؤه لنفسه .

ومع هذا يستحيل من ناحية أخرى أن نفهم حضارة العصور الوسطى إلا إذا كان لدينا شىء من عطف وتقدير للديانة عموماً فى تلك العصور، وهنا يمتاز المؤرخ الكاثوليكى بميزة واضحة . . . ذلك أن مطلع العصور الوسطى يبدو حتماً للمؤرخ العلمانى غير الكاثوليكى أنه العصور المظلمة ، أى العصور المتبربرة العاطلة من الثقافة المدنية والأدب ، الخالية من كل شىء ماعدا الخلافات الغامضة ، أو العقائد البعيدة عن الأفهام ، أو الحروب الوحشية التى ليس لها أى مبرر اقتصادى أو سياسى . غير أن هذه العصور فى نظر الكاثوليكى ليست ظلاماً بل فجراً ، لأنها شهدت تحول الغرب الأوربى إلى المسيحية ، وتأسيس الحضارة المسيحية ، ونشأة الفن المسيحى والطقوس الكاثوليكية . وفضلا عن ذلك فهذه العصور هى عصر الرهبان ، وهى العصور التى بدأت بالآباء المسيحيين الأولين الذين عاشوا فى الصحراء، وشهدت ظهور الإسلام وانتهت بالحركات العظمى للإصلاح الديرى المقترنة باسم كلونى فى الغرب، واسم مونت آتوس فى الشرق. وبرهان ذلك أن أعظم الاسماء فى ذلك العصر اسماء رهبان، وهم القديس بندكت، والقديس جريجورى، والراهبان المعروفان باسم كولمبا فضلا عن وبيده

وبونيفاس وألكوين ورابانوس ماوروس ودنستان . ويرجع إلى الرهبان المسيحيين عامة عظيم الفضل فى الجهود الحضارية الكبرى فى ذلك العصر، سواء ما يتعلق منها بحفظ الحضارة القديمة ، أو بتحويل الشعوب الجديدة إلى المسيحية ، أو بتكوين مراكز جديدة للحضارة فى أيرلندة ونورثمبريا والإمبراطورية الكارولنجية .

ومن الصعب على أى باحث غير كاثوليكى أن يدرك المغزى التام لهذا التراث العظيم، ومع أن عدداً قليلا من العلماء ، مثل المرحوم هاينريخ جلتزر، أدى بهم اهتمامهم بالدراسات البيزنطية أو دراسات العصور الوسطى عامة إلى إدراك الناحية المثالية فى الحياة الديرية ورجالها[1] ،فأمثال هؤلاء الرجال نادر،وسوف تظل الديرية فى نظر المؤرخ المدنى أو غير الكاثوليكى ظاهرة غريبة غير مفهومة مثل اللامية فى بلاد التبت ، أو الكهنة عند السومريين القدماء . أما فى نظر المؤرخ الكاثوليكى ، فالنظم الديرية لا تزال جزءاً لازماً من عالمه الروحى،والطريقة البندكتية لا تزال تنظم حياة الناس من الكاثوليك كما كانت أيام بيده الإنجليزى، والكاثوليكيون لا يزالون يؤدون نفس الصلوات المقدسة، ويتبعون نفس المستويات الخاصة بالتقوى والتأمل فى خلق السموات والأرض . وهكذا تهيئ النظم الديرية جسرا حيا يستطيع الفكر أن يعود منه إلى ذلك المجتمع الغريب السالف فى القرن السادس الميلادى ، دون أن تنقطع صلته تماماً بالحياة الواقعية .

على أن هذا كله ضئيل القدر بالقياس إلى أهمية فهم العقيدة التى كانت

(١) انظر مقالة جلتزر التى عنوانها Promonachis ، ومعناها حياة الرهبان، وهى مطبوعة فى كتابه الذى عنوانه Ausgewahlte Kleine ، وكذلك مقدمة ابنه لذلك الكتاب .

مصدر الإلهام الروحى الأكبر لذلك العصر . وإذا نحن قلنا إن العصور الوسطى كانت فى مجموعها عصر إيمان ، فليس ذلك بسبب ما غلب عليها من مظاهر دينية ، كما لا يعنى أن أهل تلك العصور كانوا أفضل خلقاً وأكثر إنسانية وأشد عدلا فى علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية من أهل العصر الحاضر ، بل لأن أهل تلك العصور لم يثقوا فى أنفسهم أو فى إمكانيات الجهد البشرى ، وإنما وضعوا ثقتهم فى شىء آخر أعظم من الحضارة وأوسع من التاريخ . وبديهى أن هذا المسلك يشبه فى كثير من النواحى مسلك أهل الديانات الشرقية القديمة، لكنه يختلف عنه اختلافاً أساسياً فى أنه لم يلتزم السكينة والاستسلام للقدر فى شئون الحياة ، بل أدى إلى زيادة النشاط الاجتماعى بين الناس . وربما يرجع ذلك إلى أن الأسس التى قامت عليها أوربا نشأت فى جو من الخوف والضعف والشقاء ، وهو شقاء لا نستطيع أن نتصوره فى العصر الحاضر ، حتى بعد الكوارث التى ألمت بالعالم فى أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية . على أن ما نتج عن كوارث مطلع العصور الوسطى ، من حياة اليأس والضعف والخذلان المتناهى ، لم يتعارض مع روح الشجاعة والتفانى النفسى ، وهى الروح التى ألهمت الناس أن يقوموا بجهود ضخمة وحركات هائلة .

تلك هى روح العظماء الذين صنعوا ذلك العصر الجديد ، وأولهم القديس أوغسطين الذى أدرك ما فى عبادة القوة البشرية من غرور وتفاهة ، ثم القديس بندكت الذى بذر بذرة السلام والاستقرار الروحى وسط بلايا الحروب القوطية، ثم القديس جريجورى الذى حمل على كاهله مصائب العالم حين بدت صروح الحضارة تنهار حوله . ثم القديس بونيفاس الذى وهب حياته لنشر الديانة المسيحية ، على الرغم مما أحاط به من عوامل التثبيط وخيبة الأمل .

ومما يؤثر عن القديس أوغسطين أنه قال لا أشتهى لنفسى يوماً واحداً من أيام

الدنيا، وهذا القول يعبر عن العقيدة المسيحية الأساسية فى العصور الوسطى ، وهى عقيدة يصعب فهمها على الباحث الحديث الذى ينظر إلى التاريخ من زاوية بشرية ، لأن شئون البشر فى نظر الباحث الحديث هى الهدف الوحيد الذى يتجه إليه الرجل المتبصر فى دينه ودنياه . غير أنه إذا نحن لم ندرك وجهة النظر السابقة، فإن أعظم أعمال تلك العصور وأبقاها تبدو غامضة غموض المعبد البوذى لدى المالى الإنجليزى ، زمن الملكة فكتوريا . والواقع أن بيننا وبين الماضى الأوربى حاجزاً روحياً يفصلنا عن ذلك الماضى ، ويجعلنا مضطرين إلى دراسته دراسة ظاهرية لايحدونا فيها سوى ما يحدو الأثرى الباحث من حب الاستطلاع العلمى فى بقايا حضارة بائدة .

والخلاصة أنه إذا لمس القارئ من غير رجال الدين أن المسائل اللاهوتية والكنسية حظيت من هذا الكتاب بعدد من الصفحات ، وقدر من العناية أكثر مما ينبغى ، فعليه أن يذكر أنه من المستحيل أن نفهم الماضى إلا إذا أدركنا الأشياء التى اختصها أهل الماضى بمعظم اهتمامهم . وربما كان اهتمام اللاهوتيين بهذه الأشياء حتى العصر الحاضر مؤدياً إلى إهمال المؤرخين لها ، واهتمامهم دونها بالحركات الثانوية التى تجتذب العقل الحديث أكثر مما تجتذبه المشكلات الكبرى التى شغلت أهل الماضى، وتحكمت لا فى حياتهم الروحية فحسب ، بل فى نظمهم الاجتماعية ومدارج حياتهم العملية . وإذا أنا أطلت الكتابة فى هذه النواحى ، فليس غرضى من ذلك برهاناً على قضية لاهوتية ، أو تبريراً لوجهة نظر دينية ، بل محاولة لتوضيح الماضى . ثم إن هذا الكتاب ليس تاريخاً للكنيسة ، وليس تاريخاً للمسيحية ، وإنما هو تاريخ لحضارة سابقة على الحضارة الأوربية الحاضرة بالذات . ذلك أن أوائل العصور الوسطى هى

عالم أجداد أهل أوربا غير البعيدين كثيرا عنا ، وهو العالم الذى نبت منه الأوربيون الحاليون، ونشأ منه كيانهم القومى وكثير منهم تجرى فى عروقه دماء بناة عالم العصور الوسطى(١).

ويصر العلماء بحق على أن حياة الإنسان الحديث يكيفها تراثه الماضى الذى يرجع إلى زمن ما قبل التاريخ ، وإذا صح تطبيق هذا على أسلافنا ، أى أهل العصر الحجرى الأخير ، فهو أصح تطبيقاً على أجدادنا المباشرين الذين لا يزال تأثيرهم يشكل حياتنا ، ويعين اللغة التى نتكلمها ، واسماء الأماكن التى نعيش فيها . ذلك أن هذا هو الزمن الذى أخذ فيه تالد التراث الإنسانى يبدو ساطعاً فى ضوء التاريخ ، ويغدو حياً باتصاله لأول مرة بالحضارة الأعلى منه . ولولا هذه العملية الخلاّقة لما نشأ شىء يمكن أن نسميه الحضارة الأوربية ، لأن هذه الحضارة ليست صورة عقلية محررة مثل الحضارة التى صورها فلاسفة القرن الثامن عشر، وإنما هى تنظيم اجتماعى محسوس لا يقلّ واقعية عن الوحدات القومية التى نتحدث عنها ، بل يفوقها فى الأهمية .

ويرجع عدم إدراك هذه الحقيقة إلى أن العادة جرت على كتابة التاريخ الحديث من زاوية قومية ، ثم إن بعض عظماء المؤرخين فى القرن التاسع عشر كانوا دعاة لهذه العقيدة القومية، حتى إن مؤلفاتهم التاريخية لا تعدو أن تكون دعاية للقومية . ويظهر هذا واضحاً فى المؤرخين الفلاسفة الذين تأثروا بأقوال الفيلسوف الألمانى هيجل فى إعلاء شأن الدولة ، واعتبارها

---

(١) تكفى نظرة عابرة فى أى كتاب من كتب السلالات والأنساب الملكية للبرهان على أن جزءاً كبيراً من الطبقة الوسطى الإنجليزية مثلا يستطيع أن يرجع أصول سلالته، ونسبه لا إلى أيام إدوارد الثالث أو هنرى الثامن فحسب، بل إلى أيام شارلمان والقديس فلاديمير وبولسلاف ملك بولنداء فضلا عن أيام زعماء الفيكنج .

أسمى تعبير عن الفكرة العالمية ، كما يظهر واضحاً كذلك فى مؤلفات ترايتشيكه وفرود اللذين يمثلان القومية السياسية الخالصة . وسرت هذه الحركة خلال القرن التاسع عشر إلى الوعى العام، فحددت فكرة المواطن العام فى التاريخ ، وتسربت من الجامعة إلى المدرسة الأولية، ومن الباحث إلى الصحفى والروائى . ونتج عن ذلك أن كل أمة ادعت لنفسها وحدة حضارية، واكتفاء ذاتياً ليس فيها ، وقالت كل أمة إن مالها من نصيب فى التراث الأوربى عمل مبتكر ، لا يدين بشىء لغيره ، دون أية مراعاة للأساس المشترك الذى نبتت فيه جذور تراثها الخاص . ولم يقتصر هذا الخطأ على الدوائر النظرية الأكاديمية ، بل أدّى إلى تقويض أركان الحياة الدولية وإفسادها فى أوربا الحديثة ، ووجد ضالته المنكودة فى الحرب العالمية الأولى ، التى دلت على انشقاق فى الحياة الأوربية أخطر بكثير من جميع الحروب المتعددة السابقة، ولا نزال نرى نتائج هذا الانشقاق فى المنافسات القومية الجنونية التى تجرّ الدمار الاقتصادى على أوربا كلها. وأوربا اليوم ليست فقيرة فى عدد المفكرين الذين يدركون أخطار هذه الأوضاع ، لكن هؤلاء المفكرين -- إلا قليلا منهم — ينسون التراث الأوربى نسيان خصومهم له ، وهم يركزون آمالهم فى دولية خالصة لا أساس لها من التاريخ ، ويثيرون بذلك انفجاراً جديداً من العواطف القومية التى تبدو فى بعض الأحوال أشد من أية سابقة من سوابق القرن التاسع عشر .

على أن شرّ القومية لا يتأتى من الشعور بالولاء لتقاليد الماضى ، أو من المحافظة على الوحدة القومية ، أو من الإصرار على حق تقرير المصير ، بل يتطرق هذا الشرّ من اعتبار هذه الوحدة القومية الضيقة مرادفًا للوحدة الحضارية الشاملة التى هى فوق القومية .

والواقع أن الأساس للحضارة الأوربية ليس الدولة القومية، بل هو الوحدة الأوربية . ومع أن هذه الوحدة لم تتخذ حتى الآن شكلاً سياسياً ، وربما ظلت عاجزة عن ذلك أبداً ، فإنها على الرغم من ذلك تمثل مجتمعاً حقيقياً لا صورة فكرية ؛ وبفضل المشاركة فى هذا المجتمع بلغ كل من الحضارات الأوربية القومية المختلفة شكله الفعلى الحاضر .

ومما لاريب فيه أنه كان من السهل نسيان هذه الوحدة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حين بلغت الحضارة الأوربية من المكانة درجة جعلتها تبدو دون منافس ، وتصبح مرادفة لمعنى الحضارة العامة . لكن هذه الحال تغيرت فى العصر الحاضر تمام التغير، بعد أن غدت سيطرة أوربا موضع التحدى من كل ناحية ، وبعد أن أصبح من غير المعقول اعتبار كل من روسيا والولايات المتحدة الأمريكية امتداداً استعمارياً تابعاً للحضارة الأوربية ، إذ أخذ كل من هاتين الدولتين ينافس أوربا فى كثرة السكان والثروة ، ويقيم حضارة مستقلة خاصة به ، على حين أخذت شعوب الشرق تؤكد حقوق الحضارة الشرقية ، وعلى حين أخذنا نحن الأوربيين نفقد الثقة فى سمو تراثنا الخاص .

ومن سوء الحظ أن قضية أوربا لم تلق عناية أحد ، بل خلقت كل دولة قومية لنفسها آلافاً من المصالح المكتسبة المرتبطة بالدفاع عن قوميتها، ووجدت قضية الدولية العالمية نصراءها فى القوى النابعة من مذاهب الأحرار والاشتراكية والمالية الدولية . ثم إن الحضارات الشرقية بلغت درجة ملحوظة من الوعى الذاتى ، بعد أن استعارت بعض أشكال القومية الغربية ، واستخدمت نماذج غربية لإنشاء دعاية قومية . لكن أحداً لم يفكر حتى الآن فى إطلاق لفظ «أمة» على أوربا ، وهكذا راحت قضيتها ضحية الإهمال .

على أنه إذا كان للحضارة الأوربية أن تبقى فلابد لهـا أن تخلق وعياً أوربياً مشتركا ، وشعوراً عاماً بوحدتها التاريخية الحية. ولا محل هنا للخوف مما عساه ينجم عن هذا من خطر على السلام العالمى، أو يترتب عليه من ازدياد العداء بين أوربا والحضارات غير الأوربية . ذلك أن أشد ما يشمئز منه الرجل الشرقى فى العصر الحاضر هو الادعاء الأوربى المتغطرس بأن الحضارة الأوربية هى الوحيدة التى تستحق الاهتمام، على حين أن هذا الرجل الشرقى سوف ينظر إليها نظرة احترام إذا هى تكشفت له على أنها كلٌّ روحى، لا أن تتراءى له على أنها قوة مادية غامضة تسعى دائبة للسيطرة عليه، كما هى الحال الآن. والخلاصة أنه إذا كان من المستطاع أن تقوم حضارة قومية عالمية يوماً من الأيام، فلن يتم ذلك نتيجة إغفال التقاليد التاريخية العظمى فى الحضارة، بل نتيجة ازدياد الفهم المتبادل بين الناس.

غير أنه يجب أولا أن نمحو الصورة الخاطئة التى ارتسمت عن الماضى فى أذهان القرن التاسع عشر، وأن نحيى الشعور التاريخى بالتراث الأوربى، قبل أن يغدو من المستطاع أن تحتلّ الحضارة الأوربية مكانتها الجديرة بها فى معترك المجتمع الدولى المستقبل، كما يجب علينا أن نبذل فى فهم وحدة فى الحضارة الأوربية المشتركة مثلما بذلنا فى دراسة مختلف الخصائص القومية. وهذا هو ما حاولتُ القيام به على قدر طاقتى المحدودة فى هذا الكتاب، فلم أعمد إلى ربط الحضارة بأى جنس من الأجناس، أو قوم من الأقوام، أو إلى إعلاء شأن أوربا على حساب الحضارات الأخرى. والواقع أن المرحلة التاريخية التى اخترتُ التأليف فيها هى المرحلة التى يبدو فيها مستوى الحضارة الأوربية الغربية أقل كثيراً من مستوى جاراتها الشرقية العظيمة، حين لم يكن للحضارة الأوربية الغربية أى بريق ظاهر تؤثر به فى نفوسنا . وأعتقد أنه لهذا السبب بالذات — أى لأن هذا العصر صغير ضعيف بدائى المستوى — يصبح من السهل رؤيته كله مرة واحدة، وإدراك مختلف العناصر التى أسهمت فى

تكوينه . وبديهى أن البون شاسع بين البربرية التى امتلأ بها القرن الثامن وبين الكمال الممكنى (الآلى) الذى بلغه القرن العشرون للميلاد ، غير أنه يجدر بنا أن نذكر جيداً أننا أكثر بعداً من عالم الأوربيين الأقدمين عما كان الأوربيون الأقدمون أنفسهم بعيدين من عالم الإمبراطور شارلمان ، ولا سيما من ناحية الجوانب الظاهرية فى الحياة. ثم إن الحياة الاجتماعية فى العصر الحاضر، بغض النظر عن إمكانياتها الصناعية ـ تمتد جذورها إلى الماضى السحيق ، وهذا فضلا عما يوجد من رابطة حيوية بين المجتمع الأوربى الحديث والمجتمع الأوربى أوائل العصور الوسطى ، مع العلم بأن كلا منهما مرحلة من مراحل عملية حضارية واحدة . وهذه العملية ليست كلها نتيجة عوامل مادية واقتصادية عمياء ، بل كذلك عملية تطورية حية تجب دراستها على أنها وحدة كلية لكى يصبح من المستطاع فهم أجزائها المختلفة .

# القسم الأول

## عناصر تكوين أوربا

# الفصل الأول

## الإمبراطورية الرومانية

جرى العرف بيننا على أن نبنى نظرتنا إلى العالم وتصويرنا العالمى للتاريخ على أساس فكرة أوربا ، حتى صار من الصعب علينا أن ندرك طبيعة هذه الفكرة . ذلك أن أوربا ليست وحدة جغرافية طبيعية مثل أستراليا أو أفريقيا ، بل هى نتاج عملية طويلة من التطور التاريخى والتقدم الروحى . ومن الناحية الجغرافية ليست أوربا سوى امتداد شمالى غربى لقارة آسيا ، وهى أقل تجانساً طبيعياً من الهند أو الصين أو سيبريا . أما من الناحية البشرية فتتألف أوربا من أجناس شتى ، بحيث إن الإنسان الأوربى يمثل وحدة اجتماعية لا وحدة بشرية . وإذا نحن انتقلنا إلى الناحية الحضارية فلا نجد الوحدة الأوربية أساساً أو نقطة بداية للتاريخ الأوربى ، بل نجد هذه الوحدة هدفاً نهائياً لا يزال غير قريب المنال ، ولا تزال أوربا جاهدة فى سبيل ذلك الهدف منذ أكثر من ألف سنة .

ولم يكن لأوربا وحدة حضارية فى عصور ما قبل التاريخ لأنها ظلت عندئذ ملتقى عدد من التيارات الحضارية المختلفة التى نبع معظمها من الحضارات — العالية فى الشرق القديم ، وانساب إلى الغرب عن طريق التجارة والاستعمار أو عن طريق الاتصال الحضارى البطىء . وعلى هذا كان كل من البحر المتوسط

ونهر الدانوب والمحيط الأطلسى والبحر الباطى طريقاً رئيسياً لنشر الحضارة، وغدا كل من هذه الطرق ميدانا لتطور حضارى مستقل أضحى بدوره نقطة بداية لعدد من الحضارات المحلية .

على أن نشأة حضارة أوربية خالصة لا يرجع إلى التوازى والتجمع بين هذه التيارات الحضارية المستقلة بقدر مايرجع إلى تكوين مركز واحد لحضارة عالية، استطاعت أن تسيطر على التطوارت المحاية المختلفة وتستوعبها. وبدأت هذه العملية فى بحر إيجه اليونانى ، حيث ظهر حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد مركز حضارى أكثر مضارعة للحضارات العالية فى غرب آسيا منه إلى الحضارات الأوربية الغربية الهمجية . وعلى أركان هذا المركز الحضارى الباكر تأسست الحضارة اليونانية القديمة ، وهى المنبع الحقيقى للحضارة الأوربية .

والواقع أننا أخذنا عن اليونانيين جميع العناصر التى هى من أخص خصائص الحضارة الغربية عند الموازنة بينها وبين الحضارة الشرقية ، وهى العلوم والفلسفة الغربية والأدب والفن ، فضلا عن الفكر السياسى والفكرة الغربية فى القانون والنظم السياسية الحرة . ثم إن عصر اليونانيين هو الذى تولد فيه إحساس واضح بالتباين بين المثل الأوربية والمثل الأسيوية بالاستقلال الذاتى للحضارة الغربية . ومن الدليل على ذلك أن المثالية الأوربية للحرية تولدت فى أثناء الحرب الفارسية القديمة وأيامها العصيبة حين التقت أساطيل بلاد اليونان وأساطيل آسيا فى خليج سلاميس ، وحين قام اليونانيون المنتصرون عقب موقعة بلاتيا ببناء معبد لإلههم زيوس واهب الحرية .

وبديهى أن الحضارة الأوربية، بل الفكرة الأوربية عن الإنسان لا يمكن فهمها إذا نحن تركنا الهلينية جانباً ، ومع هذا فليست الحضارة اليونانية نفسها

أوربية بالمعنى الجغرافى ، إذ اقتصرت هذه الحضارة على شرق البحر المتوسط . وعلى حين قامت آسيا الصغرى منذ البداية بدور عظيم فى تطورها ،ظلت القارة الأوربية — بل أجزاء أوربية من بلاد اليونان ذاتها — بعيدة عن دائرة نفوذ هذه الحضارة . واحتفظت الحضارة اليونانية طول تاريخها بهذا الطابع الجغرافى المتوسط بدليل أنها على الرغم من امتدادها غرباً إلى صقلية وجنوب إيطاليا ، فإن اتجاهها التوسعى الرئيسى ظل شرقياً فى آسيا ، ولذا كانت البداية الأولى للحضارة الهلينية فى أيونيا ، وكانت النهاية لهذه الحضارة فى الإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية .

أما امتداد هذه الحضارة العالية إلى الغرب فالفضل فيه للدولة الرومانية التى غدت وظيفتها أن تكون حلقة الاتصال بين العالم الهلينى المتحضر فى شرق البحر المتوسط وبين الأمم المتبربرة فى غرب أوربا . وبينما كان الإسكندر الأكبر وقادته يفتحون بلاد الشرق ويبذرون بذور الحضارة الهلينية فى مساحات واسعة تمتد من نهر النيل إلى جيحون ، كانت روما تخطو خطوات وئيدة عسيرة فى أواسط إيطاليا فى سبيل بناء دولتها العسكرية المتينة القائمة على أكتاف المزارعين . وهكذا كان لجيل واحد فى السنوات بين ٣٤٠ ، ٣٠٠ ق.م. أن يرى نشأة هيئتين اجتماعيتين جديدتين هما نظام الملكية الهلينية ونظام الحلف الإيطالى ، وكلاهما مختلف عن الآخر تمام الاختلاف فى الروح والترتيب ، لكنه مقدور لهما أن يتقاربا وأن يتمازجا نهائياً بعضهما فى البعض الآخر ، وأن تتكون منهما وحدة مشتركة .

وكانت نتيجة هذه العملية من غير شك غلبة الجيوش الرومانية وتفوق العبقرية الرومانية فى التنظيم ، مع العلم بأن اليونانيين كانوا هم الغالبين فى النواحى

الاجتماعية والفكرية . وفى العصر الذى تغلغلت المؤثرات الرومانية فى الشرق الهلينى كانت المؤثرات الهلينية تتغلغل أيضاً فى الغرب الرومانى ، حتى تلاقت الحركتان تلاقياً تولدت عنه حضارة عالمية وحدت التنظيمات السياسية والحربية الرومانية بين أجزائها ، ولكنها قامت على أسس من التقاليد الحضارية الهلينية واستمدت الإلهام من المثل الاجتماعية اليونانية .

على أن هذه الحضارة العالمية لم تكن حتى وقتذاك أوربية ، لأن أوربا لم تكن ولدت فى القرن الأول قبل الميلاد ، ولأن روما نفسها كانت دولة فى البحر المتوسط ، وفتوحاتها مقصورة — حتى ذلك العصر — على الأراضى الساحلية المطلة على هذا البحر . أما إدماج القارة الأوربية فى الوحدة الحضارية التى شملت حوض البحر المتوسط فيرجع الفضل فيه إلى الكفاية الشخصية والعبقرية الحربية للقائد الرومانى يوليوس قيصر وهو مثل من الأمثلة الدالة على احتمال تغيير المجرى العام للتاريخ بإرادة فرد واحد .

ومن المعروف أن يوليوس قيصر عندما بدأ حملته على غاليا ، أى فرنسا الحالية، كان غرضه الأول — فى غير شك — تقوية سيطرته على الجيش، وتحقيق شىء يوازى به فتوحات منافسه بومبى فى الشرق ، ومع ذلك فمن الخطأ أن نقيس ما حققه يوليوس قيصر من فتح بأنه نتيجة عرضه لأطماعه السياسية . ذلك أنه من علامات العباقرة مثل يوليوس قيصر والإسكندر — على حد قول المؤرخ مومسن — أن مصالحهم ومطامعهم تطابق دائماً تحقيق أهداف عالمية ، ولذا استطاع يوليوس قيصر أن يستخدم الأوضاع العارضة فى السياسة الحزبية فى روما ليفتح عالما جديداً لحضارة البحر المتوسط . والواقع — على حد قول المؤرخ مومسن مرة أخرى — أن الفضل يرجع إلى يوليوس قيصر فيما يوجد من جسر

واصل بين مجد هلاس وروما التالد وبين أمجاد التاريخ الحديث ، وإليه كذلك يرجع الفضل فى أن غرب أوربا غدت مسحته رومانية ، وأن أوربا الجرمانية غدت صبغتها كلاسيكية ، وأن اسم كل من ثيمستوكليس وسكبيو له فى آذاننا رنين يختلف تمام الاختلاف عن اسم كل من الملك اشوكاوشا لمانصر ، وأن اسم كل من هومر وسوفوكليس ليس مثل الفيدا وكاليداسا أسماء جذابة فى روضة الباحث الأديب ، بل هى أزهار ساطعة فى حياتنا اليومية . وبينما انتهى أمر الإمبراطورية التى بناها سلفـه العظيم إلى الانهيار وسط زوابع العصـور الوسطى ، ظل مابناه يوليوس قيصر قائماً آلاف السنين التى تغيرت فيها الأوضاع الدينية والسياسية بين أجيال الجنس البشرى ، بل تحركت من أجلها مراكز الحضارة ذاتها ، على حين ظل بناء يوليوس قيصر قائماً فى صورة تستطيع أن نصفها بأنها نوع من الخلود[١] .

والمعروف أن هذا التقدير لأعمال يوليوس قيصر وأهمية ما أسهمت به روما فى بناء الحضارة الحديثة ، غدا موضع جدل واسع فى السنوات الأخيرة ، وذلك لأن النعرة القومية الحديثة أدت بالـكثيرين من الناس إلى مراجعة معايير القيم التاريخية ، وإلى رؤية حضارات الشعوب الأوربية المتبربرة بعين تختلف عن عين أجدادنا أهل عصر الحركة الإنسانية فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى الحركة التى استمـدت إلهامها من دراسة الآداب اليونانية والرومانيـة . وبدأت الشعوب الجرمانية ثم السكانية فى إحياء هذه النعرة القومية بتنظيم أعمال جدودهم أو المظنون بأنهم جدودهم ، مع التقليل من شأن ماندين به الشعوب الغربية للدولة الرومانية . واعتقد هؤلاء ، كما اعتقد كاميل جوليان فى مؤلفه

(١) انظر Mommsen : History of Rome, Eng. Trans., V, 102.

العظيم « تاريخ غاليا» أى فرنسا الحالية — أن الإمبراطورية الرومانية لم تكن سوى عنصر حربى دخيل ، دمر بقوته الوحشية مطالع حضارة ناشئة . ولا مشاحة فيما لهذه النظرة من أساس منشؤه ما اتصف به الغزو الرومانى فى ذاته من الوحشية والتدمير ، ولما اتسمت به الحضارة الإمبراطورية التى جاءت فى ركاب ذلك الغزو من الجمود والافتقار إلى الابتكار . غير أنه من العسير أن نجد دليلا مؤيداً لرأى كاميل جوليان بأنه كان فى استطاعة غاليا السكلتية أن نتقبل شاهق الحضارة الهلينية دون وساطة الدولة الرومانية ، أو أن نجد مبرراً لاعتقاد المؤلفين الألمان المحدثين بأنه كان فى إمكان العالم الجرمانى أن يشيد حضارة قومية زاهرة فى ظلال سيطرة أسيوية[1] .

ثم إنه ليس ثمة قانون حتمى للتطور من شأنه أن يحتم على برابرة الغرب أن يخلقوا من أنفسهم حضارات ، لأن أية حضارة قبلية ساذجة تظل على حالها دون تغيير لعدة قرون مادامت هى بعيدة عن أى مؤثر خارجى قوى ، كما نرى فى مراكش وألبانيا . والواقع أن نشأة حضارة جديدة لا نستطيع أن تتم بدون قدر كبير من الجهد ، على قول فرجيل نفسه فى العبارة الشهيرة «ماأعظم ما تطلبت تنشئة الشعب الرومانى من جهد جهيد » .

وليس فى استطاعتنا أن نقول بأنه كان فى مقدور السكلت أو الجرمان أن ينهضوا بذلك الجهد لو أنهم تركوا وشأنهم ، أو لو أن قوة غير قوة الدولة الرومانية كالفرس أو العرب أو الأتراك هى التى نهضت للقيام عنهم بتلك المهمة . وأقصى مانعرف هو أن تلك المهمة تمت فعلا ، وأنها تمت على يد الدولة

---

(١) انظر مثلا نظرية المؤرخ ستزيجوسكى فى كتابه الذى عنوانه Altai Iran ، وفى غير ذلك من مؤلفاته الحديثة .

الرومانية ، وأن أعمال الدولة الرومانية هى التى أخرجت غرب أوربا من عزلته المتبربرة وربطته بالمجتمع المتحضر فى حوض البحر المتوسط . وكان العامل الحاسم فى تحقيق هذه العملية ، شخصية يوليوس قيصر ، وهى الشخصية التى دلت أوضح دلالة على العبقرية الرومانية فى ميادين الفتح والتنظيم .

والواقع أنه من العسير أن نقطع بما تضمنه الهدف النهائى لأعمال يوليوس قيصر ، هل كان هذا الهــدف — كما رأى مومسن — رغبة يوليوس قيصر فى الاحتفاظ بالتقاليد المدنية للدولة الرومانية ، أو كما رأى إدوارد مير — وكثير غيره من الباحثين المحدثين — أنه كان يرمى إلى إنشاء دولة ملكية جديدة على أسس هلينية . ومن المعقول أن يشتمل كل من الرأيين السابقين على قسط من الصواب ، وإن تملك مارك أنطونيو فى الإسكندرية ورياسة أوغسطس فى روما يمثل كل منهما جانباً من الفكرة اليوليوسية القيصرية . وكيفما يكون الأمر فليس ثمة شك فى الأغراض والآراء التى هدف إليها الرجل الذى شاءت له المقادير أن يتم عمل يوليوس قيصر ، وهو ابنه بالتبنى ووريثه أوكتافيوس أوغسطس العظيم . ذلك أن أوغسطس فى حربه ضد ملكية أنطونيو وكليوباترة بالإسكندرية وقف وقفة البطل الذائد لا عن الوطنية الرومانية فحسب ، بل عن المثل الغربية بالذات . وفى نظر مؤيديه كانت معركة أكتيوم — مثل كل من ماراثون وسلاميس — معركة بين الشرق والغرب ، وكانت نصراً نهائياً للمثل الأوربية فى النظام والحرية على الاستبداد الشرقى . وفى المقطوعة الثامنة من ملحمة الإنياده يصور فرجيل فى سطور رائعة كيف كانت أرواح الشرق القديم المتبربر واقفة بالمرصاد ، لا ضد أرواح البركة الحارسة للدولة الرومانية فحسب ، بل ضد الآلهة اليونانية العظمى ، أى ضد بوسيدون إله البحر وأفروديتى

إلهة الحب ، وأثينا إلهة الحكمة والفنون . وهذا هو نص أبيات فرجيل : —

«وترى الآلهة جميعاً وعلى رأسهم أنوبيس النابح شاهرين سيوفهم فى وجه بنتونوس إله البحر وثينوس إلهة الحب والجمال ومنيرفا إلهة الحكمة والفنون »

ولم يكن مرجع النصر النهائى إلى مارس ( المريخ ) الرومانى إله الحرب بل إلى أبولون اليونانى :

«ونظر أبولون إله أكتيوم من عليائه فيما يجرى ، فأخذ يشد قوسه ، وسرى الفزع ، فأخذت مصر والهند وجميع بلاد العرب وبلاد سبأ تولى الأدبار » .

والواقع أن انتصار أوغسطس فى معركة أكتيوم أنقذ الحضارة الأوربية من أن يبتلعها الشرق القديم أو من أن يطغى عليها البرابرة الغربيون ، كما أنه افتتح عهدا جديداً لانتشار الثقافة الكلاسيكية. ففى الشرق تعاونت الإمبراطورية الرومانية والقوى الهلينية على نشر الحضارة اليونانية والحياة المدنية ، وفى الغرب أدخلت الإمبراطورية الرومانية كذلك أوربا الغربية والوسطى فى فلك حضارة البحر المتوسط ، وأقامت بذلك سدا منيعاً ضد غزوات البرابرة . ثم أتم أوغسطس قيصر وقادته جهود يوليوس قيصر بإيصال أطراف الإمبراطورية إلى نهر الدانوب بألمانيا من منبعه إلى مصبه فى البحر الأسود . وعلى الرغم من فشلهم فى مشروعهم العظيم لفتح ألمانيا حتى نهر الألب ، فإنهم على الأقل نجحوا فى جعل ألمانيا الجنوبية وحوض الراين جزءا من العالم الرومانى .

ومنذئذ — ولمدة تربو على أربعة قرون — تعرضت أوربا الغربية والوسطى لعملية اصطباغ بالحضارة الرومانية ، وهى عملية غيرت جميع ألوان الحياة وخلقت أساساً طيباً لما جاء بعد ذلك من تطور فى الحضارة الأوربية . ذلك أن صميم

الإمبراطورية الرومانية ارتكز على مزيد من دكتاتورية عسكرية ومجموعة من المدن الحرة ، مع العلم بأن المدن الحرة هى وريثة الثقافة الهلينية — سواء هلينية خالصة أو مطبوعة بطابع لاتينى — على حين اشتمات الدكتاتورية العسكرية على اللاتينية وما سبقها من التقاليد الملكية الهلينية العظمى .

ومع أن الناحية الحربية من البناء الروحانى هى التى تبدو لأول وهلة خالبة للأنظار ، فإن الناحية المدنية والهادفة إلى تأسيس المدن لاريب أكثر أهمية فى تاريخ الحضارة . والواقع أن أعظم أفضال الدولة الرومانية هو تأسيس المدن فى أرجاء القارة الأوربية ، وبقيام المدن نشأت فكرة المواطنة والتقاليد المدنية، وهى أعظم ماجاءت به حضارة البحر المتوسط .

على أن الجنود والمهندسين العسكريين من الرومان كانوا هم الأداة فى هذا الفضل العظيم ، إذ المعروف أن أوغسطس قيصر أعد الجيش الرومانى ليكون أفراده مواطنين فى المدن ورسلا لنشر الحضارة والنظم الرومانية فى الأقاليم الجديدة .

وفضلا عن ذلك ، لم تقتصر مراكز النفوذ الرومانى والحياة الرومانية على مدائن قدماء المحاربين مثل كولونيا وتريف وأكويليا ومريدا ، بل تعدتها إلى معسكرات الفرق الرومانية العاملة ، مثل سرميوم (نيش الحالية) ويورك وماينز . على أن الذى حدث فى معظم الأحوال هو أن تمدين الأقاليم الجديدة جرى بإعادة تنظيم الجماعات القبلية الذاتية وفق التنظيمات المدنية فى شبه جزيرة إيطاليا، أو عن طريق ضم الجهات القبلية المختلفة فى الحضارة إلى مدينة من المدن القائمة . وبذا اشتملت الدولة الرومانية على ألوان من تنظيمات ، أولها القبلية المتبربرة أو العشيرة ، ثم المدينة الإقليمية فى الولاية ، ثم المدينة ذات النظم المدنية

والحقوق اللاتينية ، ثم المدينة العسكرية الآهلة بالمواطنين الرومان . وهكذا شهدت الإمبراطورية الرومانية عملية دائبة مستمرة غايتها شيء من تساوى العالى بالواطى، وبمقتضى هذه العملية تحولت دول تابعة إلى أقاليم رومانية ، كما تحولت مدن إقليمية إلى مدن رومانية ، وغدت حقوق المواطنة الرومانية مسموحا بها لأهل الأقاليم .

وصارت كل مدينة من المدن مركزا سياسيا ودينيا المساحات المحيطة بها من الأراضى الزراعية ، على حين صار أصحاب هذه الأراضى هم الهيئة الحاكمة من المدنيين المواطنين . وكان الطريق الطبيعى أمام الرجل الذى يتحرر من الرق والرجل الذى يثرى من التجارة أن يعمد كل منهما إلى استثمار أمواله فى الأرض، وبذلك يصبح له حق إدراج اسمه فى سجل الضباط العشراوات أو العاشورين الصالحين لولاية المناصب المدنية ، على حين حصل العاشور الغنى على حقوق المواطنة الرومانية ، وربما استطاع بفضل علو مركزه المالى فى سجلات الإحصاء العام أن يصل إلى مرتبة الفروسية أو عضوية السناتو . ومع أن ممتلكات طبقة السناتو وممتلكات الخاص الإمبراطورى وممتكات الخزانة الإمبراطورية كان كل منها مستقلا فى إدارته عن إدارة ممتلكات المدينة من المدن ، فإن السناتور الرومانى اهتم كل الاهتمام بأن يسهم بثروته فى خدمة المدينة التى ينتمى إليها ، أو فى تحسين مرافقها ، كما هو واضح من أعمال بلينى أو هروديز أتيقوس . ثم إن الحكومة المركزية لم تكن غايتهـا مقصورة على جمع الضرائب، بدليل ماقام به كل من الإمبراطورين نوفا وتراجان من تخصيص أموال إمبراطورية لإمداد ملاك الأراضى الإيطاليين بقروض صغيرة الفائدة ، ثم تخصيص هـذه الفائدة لرفع مستوى السكان عن طريق المساعدات لأرباب الأسر الفقيرة واليتامى ، ثم امتداد هذا النظام بعد ذلك إلى مختلف الأقاليم الرومانية .

وكان المواطن الغنى فى الدولة الرومانية معـدوداً من سكان الريف بقدر ما هو من سكان المدينة ، إذ امتلك بالإضافة إلى قصره بالمدينـة ضيعة ريفية يفلحها عدد من الأرقاء والأقنان المبعثرين حول (الفيلا) التى اشتملت على أبنية الضيعة ، كما اشتملت على مستلزمات قصر تغلب عليه مخايل الترف ، لسكنى المالك . ولم تكن المدينة فى بريطانيا وشمال فرنسا سوى مركز للحكم والإدارة ، على حين عاش أولئك المواطنون غالباً فى ضياعهم ، وصار مستواهم الحضارى ظاهرة مشتركة فى أنحاء الإمبراطورية ، كما تشهد بذلك بقايا (الفيلات) فى إنجلترا من حمامات وأنابيب للتدفئة العامة وأرضيات مبلطة بالفسيفساء . وفى شمـال فرنسا وبلجيكا احتفظت هذه الضياع الريفية بمعالمها خلال غزوات البرابرة والعصور الوسطى ، بل إنها لا تزال حتى اليوم تحمل أسماء مستمدة من أسماء أصحابها الأصليين فى العصر الغالى الرومانى .

وأدى هـذا النظام خلال المائتين الأولى والثانية من عصر الإمبراطورية إلى تقدم سريع خارق فى الحياة المدنية والرخاء الاقتصادى فى الأقاليم الرومانية الجديدة . ففى غاليا وإسبانيا لم يقتصر الأمر على ذيوع الظواهر الخارجية للحياة المدنية فحسب ، بل تعداه إلى تغلغل الخصائص الاجتماعية والفـكرية للحضارة الرومانية الهلينية فى أنحاء البلاد ، على حين شهدت أقاليم الراين والدانوب تقدماً سريعاً مماثلا فى التعمير الزراعى والرخاء التجارى . وشارك فى ذلك الرخاء العام أقاليم الأطراف الرومانية مثل بريطانيا وداشيا ، إذ أخذ كل من هذين الإقليمين يتدرج فى مراقى حضارة البحر المتوسط . وهكذا صارت الإمبراطورية يربط بين أجزائها اجتماعياً قوانين عامة وحضارة مشتركة ، كما يربط بين أقاليمها

شبكة هائلة من الطرق التى جعلت المواصلات أكثر وأسهل أمناً بالقياس إلى أية حقبة زمنية أخرى قبل القرن السابع عشر .

وفى القرن الثانى الميلادى بلغت هذه الحركة التوسعية أوجها فى ظل الحكم الرشيد الذى اتصف به الأباطرة العظام من أسرتى فلافيان وأنطونين . وفى تلك المرحلة من تاريخ الرومان شهد العالم القديم من الرخاء والحضارة والسلام ما لم يشهده قبلا ، وبدت الدولة الرومانية كأنما حققت المثالية الرواقية بقيام دولة عالمية يعيش فيها جميع الناس فى وئام وسلام وتحكمها ملكية عادلة مستنيرة . لكن هذه المظاهر كانت خداعة .

ذلك أن هذا التوسع الحضارى المدنى الراقى حمل بين طياته بذور تدهوره وفساده ، لأنه جاء بتقدم سطحى مصطنع من شاكلة تقدم الحضارة الأوربية الحديثة فى بلاد الشرق أو فى روسيا القرن الثامن عشر . ويوضح ذلك أن هذه الحضارة فرضت على الناس فرضاً ولم تهضمها أو تتمثلها الشعوب المحكومة تمثلا تاماً . ثم إن هذه الحضارة فى أساسها كانت حضارة طبقة مترفة ، وهى طبقة البورجوازيين أهل المدن والمتعيشين عليهم . ومع أن عملية نمو المدن ساعدت على تقدم الحضارة فإنه ترتب عليها كذلك فتح أبواب لمصروفات عقيمة لأنواع من الضغط المستمر على موارد الإمبراطورية . والواقع أن نشأة كل مدينة من المدن الجديدة كان معناه نشأة خلية جديدة من الذين يعيشون على كد غيرهم من الكادحين على حد قول الأستاذ روستوفتزيف Rostovtzeff ، لأن انتشار الحضارة المدنية فى العصر الإمبراطورى أدى فى الحقيقة إلى أكثر مما أدى إليه التطور الصناعى الحديث من نظام استغلالى ضخم ضبط موارد البلاد المفتوحة وركزها فى أيدى فئة قليلة من الرأسماليين ورجال الأعمال . ولما كان

هذا النظام الاستغلالى قائماً على تمليك الأرض لا الصناعة ، فإنه جاء أقل مرونة وأقل مقدرة على الملائمة مع مشكلات نمو السكان فى المدن . على أنه كلما ظلت الإمبراطورية فى نمو واتساع ، ظل ذلك النظام مستطيعاً النهوض بتكاليفه لأن كل حرب توسعية جديدة ، أدت إلى ضم أراضى جديدة لتمدينها ، وإلى وجود أمداد جديدة من الأرقاء — أى الأيدى العاملة الرخيصة . غير أنه لم تكد عملية التوسع تبلغ نهايتها ولم تكد الإمبراطورية تقف موقف الدفاع ضد غزوات البرابرة الجديدة ، حتى أخذ الميزان الاقتصادى ينهار ، إذ بدأت موارد الإمبراطورية تتناقص كما بدأت مصروفاتها تزداد ازدياداً مستمراً . ثم اضطرت الحكومة الإمبراطورية إلى رفع مقادير الضرائب وغيرها من الموجبات الباهظة على المدن ، مما أدى تدريجياً إلى خراب الأرستقراطية المدنية الغنية ، وهى الطبقة التى أمدت المدن بالموظفين والحكام بغير أجر ، ونهضت فعلا بدفع الضرائب .

ثم إن انتشار المدن والتمدين أدى كذلك إلى إضعاف الأسس الحربية للامبراطورية الرومانية . فالجيش الرومانى كان قلب الإمبراطورية ، وهذا الجيش وما اشتمل عليه من مختلف الجنسيات والأديان ومختلف المصالح والمدن ، تولى قيادته العليا فى الواقع جيش صغير من الضباط المحترفين المتمرنين أحسن تمرين على شئون الجندية . غير أن هذا الجيش ظل مصدر خطر دائم ، لأنه كان أداة حربية أقوى وأعظم تدريباً مما تستطيع أن تسيطر عليه أداة دستورية فى دولة قائمة على أساس المدينة الدولة ، وهو ما قامت عليه الدولة الرومانية . ومن الدليل على ذلك أن الجيش الذى تألف من المواطنين الرومان زمن الجمهورية الرومانية لم يلبث أن أضحى أوائل القرن الأول قبل الميلاد جيشاً

محترفاً من المرتزقة ، بقيادة ضباط كانوا أنصاف سياسيين وأنصاف عسكريين مغامرين . ولذا كان أعظم الأعمال التى قام بهـا أوغسطس قيصر أنه تغلب على ما صارت إليه العسكرية الرومانية من تضخم فظيع ، وأنه أعاد المثالية التى يقوم عليها الجيش المواطن ، لا بالمعنى القديم بل بالمعنى الوحيد الممكن فى ظل الأوضاع الجديدة . وتنفيذاً لخطة أوغسطس قيصر غدا جيش الفيالق الرومانية مدرسة لإدراك واجبات المواطنة ، يقودهم مواطنون رومانيون من أصل إيطالى ومجندون من إيطاليا من مدن الأقاليم الأكثر اصطباغا بالصبغة الرومانية (١) .

ونال المواطن المندمج فى الجندية حقوق المواطنة الرومانية ، حتى إذا انتهت مدة الخدمة العسكرية — وهى ستة عشرة أو عشرون سنة — تسلم الجندى منحة من المال أو الأرض ، وعاد إلى الحياة المدنية فى المدينة التى جاء منها ، أو صار عضواً من أعضاء إحدى المحطات العسكرية التى ما برحت الدولة الرومانية تؤسسها واحدة بعد أخرى لتكون مراكز للحضارة الرومانية والنفوذ الرومانى فى أقاليم الأطراف . وهكذا صار الجيش الرومانى سبيلا أكيداً للنجاح الاجتماعى والاقتصادى ، واجتذب إليه المتطوعين من خيرة سكان الإمبراطورية ، على الرغم من صرامة أحوال الخدمة العسكرية . ففى كل مدينة من مدن إيطاليا ، وفى جميع المدن الإقليمية منذ عصر الإمبراطور فسباشيان ، دأبت نقابات رعاية الشباب على تدريب أبناء مواطنيهـا للخدمة العسكرية ، على حين نعم قدماء المحاربين بمركز مرموق ونفوذ فى الإدارة المدنية .

---

(١) استمدت الكتائب الإضافية الملحقة بالفيالق الرومانية جندها من سكان أقاليم الأطراف التى كانت أقل اصطباغاً بالصبغة الرومانية على أن قيادة هذه الكتائب كانت كذلك فى أيدى ضباط رومانيين ، وحصل جندها على حقوق المواطنين الرومانيين بعد تمضيتهم خمساً وعشرين سنة فى الخدمة العسكرية .

غير أن هذا النظام لم يلبث أن تدهور شيئاً فشيئاً لأن سكان المدن الإيطالية والأقاليم التي أكثر اصطباغاً بالصبغة الرومانية أخذت تذهب عنهم صلاحيتهم للخدمة العسكرية ، كما أخذ الجيش يفقد الروابط التي ربطت بينه وبين طبقة المواطنين في مختلف المدن . وباستثناء الحرس الإمبراطوري المتركز في روما ، غدا الجيش كله منذ عهد فسباشيان مؤلفاً من أبناء الأقاليم ، ولم يعد الإيطاليون يندمجون في فيالقه ، على حين غدت القاعدة العامة في القرن الثاني الميلادي — منذ عهد هدريان فصاعداً — أن يكون التجنيد محلياً ، وأصبحت الفيالق تعرف بأسماء أقاليم الأطراف الرومانية التي ترابط فيها . وهكذا ضاعت تدريجياً صلة الجيش الروماني بالسكان المواطنين أبناء الأقاليم التي أكثر اصطباغاً بالصبغة المدنية الرومانية ، وأمسى الجيش طبقة منفصلة ذات إحساس قوي بمتانة عصبيتها الاجتماعية . ومن الدليل على ذلك أن روح العصبية في كل من جيوش الراين — والدانوب والأقاليم الشرقية في القرن الأول الميلادي هي التي أدت إلى كارثة الحرب الأهلية سنة ٦٩ م ، وأن هذه الروح تفاقم خطرها حين بدأ التجنيد من طبقات اجتماعية دنيا . ولم ينته القرن الثاني الميلادي حتى أصبح معظم الجيش مكوناً من فلاحين لم تمسسهم الحضارة الرومانية إلا قليلا ، لم تتعد مصلحتهم وولاؤهم مدى كتائبهم وضباطهم . غير أن أولئك الضباط الذين جاءوا من الطبقات العليا . أي طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان — لم تربطهم بالجيش رابطة دائمة ، ولذا كانت سلطاتهم اسمية . أما السلطة الحقيقية في الجيش فتركزت في هيئة ضباط المئات الذين بدأ معظمهم نفراً من الأنفار ، وانهمكوا طول حياتهم في مهنتهم الحربية . ثم ازداد شعور الجيش الروماني بقوته خلال الحرب الأهلية التي أعقبت سقوط الإمبراطور كومودوس سنة ١٩٣ م ، واضطر الإمبراطور سبتميوس سفروس إلى زيادة امتيازات رجال الجيش وبخاصة ضباط.

المئات الذين منحوا مرتبة الفروسية وصاروا بذلك مؤهلين للمناصب العسكرية العليا .

ومنذئذ ، لم يكن فى استطاعة الأباطرة سوى أن يأخذوا بالمبدأ الذى استنه سبتميوس سفروس ، وهو « تجزل العطاء للجند ولاتعبأ بالآخرين » ، وهكذا تجدد الخلاف القديم بين المدينة الدولة والجيش المرتزقة ، أو بعبارة أخرى بين مثالية المواطنين المدنية والاستبداد العسكرى ، وهو الخلاف الذى أدى قبلا إلى سقوط الجمهورية الرومانية ، حتى استطاع أوغسطس قيصر أن يزيله مؤقتاً ، ثم هاهو ذا يظهر فى صورة أشد خطراً مما كان قبلا ليحطم التوازن الاجتماعى فى التنظيم الإمبراطورى . وأخذت الإمبراطورية رويداً رويدا تفقد مسحتها الدستورية التى جعلت منها مجتمعاً من المدن الحرة تحكمه سلطة ثنائية من السناتو الرومانى والرئيس الأعلى ، حتى أمست الإمبراطورية عسكرية استبدادية خالصة . وظل الحال على ذلك المنوال خلال القرن الثالث الميلادى — ولا سيما السنوات الخمسين الواقعة بين ٢٣٥ و ٢٨٥ حين تحكمت الفيالق الرومانية فى تولية الأباطرة وعزلهم حسبما تشاء أهواؤها ، وتمزق العالم المتحضر شر ممزق بسبب الحروب الأهلية وغزوات البرابرة . وكان كثير من أولئك الأباطرة رجالا صالحين وجنوداً شجعان ، ولكنهم كانوا جميعاً بدون استثناء — من ضباط المئات — ومعظمهم من أصل متواضع وقسطهم من التعليم ضئيل ، وجاءوا من ثكناتهم ليضبطوا أموراً ومسائل جديرة بأن تثقل كواهل أعظم الرجال السياسيين .

لذا لم يكن عجيباً أن تسير الأحوال الاقتصادية فى الإمبراطورية من سيىء إلى أسوأ ، تحت حكم سلسلة من الأباطرة العسكريين لخدمة المصالح الحربية.

فازدادت الضرائب زيادة ضخمة لسد مطالب الجند ومواجهة مطالب الحرب ، على حين تضخمت العملة تضخماً هائلا فى النصف الثانى من ذلك القرن (الثالث)[1] مما أدى إلى ارتفاع خطير فى الأسعار وانعدام الاستقرار الاقتصادى . لذلك لجأت الحكومة الرومانية إلى فرض ضرائب عينية جبرية ، كما لجأت إلى فرض خدمات سخرة زادت فى كروب المحكومين .

وهكذا أدت الفوضى العسكرية فى القرن الثالث الميلادى إلى تغيير عميق فى بناء المجتمع الرومانى . وهذا التغيير فى رأى الأستاذ روستوفتزيف لم يكن سوى ثورة اجتماعية ثأرت فيها طبقة المزارعين لنفسها عن طريق الجيش الرومانى من البورجوازية الغنية المتحضرة[2] . وربما يبدو فى هذا الرأى شىء من المبالغة ، غير أنه مع الفرض بأن صراعاً طبقيًا عامداً لم يوجد ، فإن النتيجة كانت واحدة ، وهى أن المدن الإقليمية خربت والطبقات الغنية أفلست ، والطبقة الأرستقراطية السناتورية القديمة حلت محلها طبقة عسكرية رومانية جديدة معظمها من أصول ريفية .

ثم استطاع دقلديانوس — وهو جندى من ريف إقليم دالماشيا — أن يختم على الفوضى العسكرية وأن يعيد الإمبراطورية إلى شىء من مكانتها ، ولكنها كانت غير الإمبراطورية الأولى ،لأن الأسس التى بنى عليها أوغسطس

(١) بلغ ثمن أردب القمح فى مصر زمن الإمبراطور دقلديانوس مالا يقل عن مائة وعشرين ألف درهم ، مع العلم بأن ثمن الأردب فى القرن الثانى الميلادى لم يزد على سبعة أو ثمانية دراهم . انظر .

Rostovtzeff : Social and Economic History of the Roman Empire, p. 419.

(٢) انظر كذلك Rostovtzeff ; op. cit., Chs X and XI.

قيصر قبلا — وهى السناتو الرومانى وطبقة المواطنين الإيطاليين والمدن الحرة فى الأقاليم — فقدت كلها منابع قوتها ولم تبق فيها سوى الحكومة الإمبراطورية والجيش الإمبراطورى . ولذا صار لزاماً أن تبدأ عملية إعادة بناء الإمبراطورية من القمة على أيدى جهاز بيروقراطى يؤمن بأشد أنواع الحكم المطلق . وتوافرت بذور ذلك التطور فى الإمبراطورية الرومانية منذ بدايتها ، لأنه على الرغم من أن الإمبراطور لم يكن من الناحية النظرية — فى القسم الغربى من الدولة — سوى الحاكم الأول للجمهورية الرومانية والقائد الأعلى للجيوش الرومانية ، فإنه شغل فى القسم الشرقى منها مركزاً مختلفاً ، إذ كان وريثاً لتقاليد الملكيات الهلينية العظمى ، وهى التقاليد التى كان ملوكها بدورهم ورثة الملكيات الشرقية القديمة .

هكذا كان الحال ، وبخاصة فى مصر التى لم تصبح يوما من الأيام جزءا من الجمهورية الرومانية ، بل جعلها أوغسطس قيصر ملكاً شخصياً للإمبراطور وأشرف على إدارتها موظفون إمبراطوريون . وبذلك حل الأباطرة الرومان محل البطالمة والفراعنة فى مصر ، فسيطروا على مقاليد مجتمع قائم على أتم تنظيم للاشتراكية الحكومية فى العالم القديم . وفى ذلك يقول الأستاذ روستو فتزيف « إن البناء الاقتصادى فى مصر البطلمية قام كله على أساس المركزية والإشراف الحكومى ،فضلا عن مبدأ تأميم جميع نواحى الإنتاج الزراعى والصناعى لحساب الحكومة وهو ما يختلف عن البناء الاقتصادى فى اليونان وإيطاليا ، فكان كل شىء فى مصر القديمة من أجل الدولة ولا يصل إلى الفرد إلا عن طريق الدولة ، دون أن يكون لمصلحة الفرد نصيب خاص . . . ولا يوجد فى تاريخ

التطور البشرى قيود على الملكية الفردية الخاصة أبعد أثراً وأكثر تنظيما من تلك التى عرفتها مصر البطلمية [١] » .

ويتلخص التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للإمبراطورية الرومانية أواخر أيامها فى أنه تاريخ لامتداد قواعد ذلك النظام المصرى الهلينى إلى سائر أقاليم الإمبراطورية . والواقع أن إدارة الضياع الإمبراطورية الواسعة ، وتطور الوظائف الرسمية ونظام الضرائب العينية والخدمات الإجبارية ، ثم نظام تجنيد الفرد فى العمل الذى يشغله فى النقابات الوراثية ، وربط المزارع بأرض زراعته ، وكذلك الصانع والتاجر بمهنته ، كل ذلك سارت عليه مصر سيراً دقيقاً لعدة قرون قبل أن تأخذ به سائر أقاليم الإمبراطورية الرومانية . على أن الشرق الهلينى كله عرف نظام الخدمة الإجبارية التى يؤديها الفرد للدولة ، وهو النظام الذى أخذ يمتد إلى الغرب منذ أوائل القرن الثانى الميلادى . ومعنى هذا أن النظم الشرقية التى أدخلها دقلديانوس فى الدولة الرومانية لم تكن شيئاً جديداً ، ما عدا أن هذه النظم الشرقية أصبحت جزءا أساسياً من النظام الإمبراطورى . ومعنى هذا كذلك أن نظم المدن الحرة القائمة على أساس الملكية الفردية ووجود طبقة متميزة على غيرها من المواطنين باتت ضرباً من المتناقضات التى فات أوانها بعد أن حل محلها نظام الدولة البيروقراطية الموحدة المرتكزة إلى مبدأ تعميم الخدمة للدولة .

وتعين على دقلديانوس وخلفائه أن يعيدوا تنظيم الإدارة الإمبراطورية المالية على تلك الأسس . ومع أن هذه العملية أدت بدون شك إلى زيادة هائلة فى الأعباء

---

(١) انظر Journal of Egyptian Archaeology, VI, 164

الاقتصادية المفروضة على السكان ، كما أدت إلى تناقص الحريات الاجتماعية والسياسية ، فنحن الذين نعيش فى القرن العشرين نجدنا فى مركز أفضل مما كان فيه مؤرخو القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لإدراك مشكلات ذلك العصر وتقدير العزمات الصارمة التى كافح بها أولئك الأباطرة الأليريون الأشداء ضد القوى الاجتماعية والاقتصادية التى هددت كيان الحضارة القديمة . ومن ذلك على أقل تقدير أن دقلديانوس استطاع أن ينجح فى تحقيق أهدافه الأولى ، وهى دفع خطر الغزوات الخارجية ووضع نهاية للفوضى العسكرية التى كادت تؤدى إلى القضاء على الإمبراطورية . واستطاع دقلديانوس ذلك كله بإعادة تنظيم الأحوال العسكرية الرومانية . يوضح ذلك أنه منذ بداية الدولة الرومانية كانت القاعدة الأساسية أن السلطة لا تتجزأ ، وأن الحكام العظام — القناصل — وممثليهم فى الأقاليم — نواب القناصل — كانوا بحكم وظائفهم قادة الجيوش الرومانية ، وظلت هذه القاعدة معمولا بها فى العصر الإمبراطورى بالنسبة للإمبراطور وممثليه فى الأقاليم — أى النواب الإمبراطوريين . ومعنى هذا من الناحية النظرية أن الدولة سيطرت على الجيش على حين كان معناه من الناحية العملية أن الجيش هو الذى سيطر على الدولة الرومانية ، سواء فى أواخر عصر الجمهورية أو خلال القرن الثالث للعصر الإمبراطورى. ثم أزال دقلديانوس هذه الحال بأن فصل تماماً بين السلطتين المدنية والحربية ، فغدا كل من الجيش وهيئة الموظفين المدنيين سلطة مستقلة بشئونها ، ولا تلتقى إحداهما بالأخرى إلا فى الرئاسة المشتركة — أى الإمبراطور . ولم يعد الحاكم الإقليمى نائباً إمبراطوريا فى إقليمه ، إذ انتهت سيطرته على الجيش وغدا إقليمه واحداً من مجموعة من الأقاليم يحكمها موظف جديد ، وهو النائب الإدارى المسئول

بدوره للمقدم البريتورى ، وهو أكبر وزراء الإمبراطورية ؛ وذلك بعد تصغير مساحة كل من هذه الأقاليم . وأعيد تنظيم الجيش كذلك بعد عملية مشابهة ، إذ حل محل فيالق الأطراف المرابطة على الراين والدانوب والحدود الشرقية — وهى الفيالق العظيمة التى أدت منافستها وثوراتها إلى حروب أهلية كثيرة — فيالق من الدرجة الثانية تتألف من طبقة وراثية من الجنود الريفيين ، على حين رابطت الفيالق الممتازة فى الداخل لتكون جيشاً ميدانياً تستطيع الدولة استخدامه حينما تطلبت الحاجة . وفى نفس الوقت نقص العدد التقليدى للفرقة من خمسة آلاف وأربعمائة رجل وتوابعهم ، إلى مابين ألف وألف وأربعمائة عليها واحد من الترابنة ، ويشرف عليها ضابط عسكرى جديد — وهو الدوقش — لا الحاكم المدنى . أما القيادة العليا للجيش فهى فى يد الإمبراطور نفسه . ولاستحالة أن يكون الإمبراطور فى كل مراكز القيادة فى وقت واحد أعاد دقلديانوس المبدأ الرومانى القديم الخاص بالسلطة المشتركة . فأشرك معه أولا زميله مكسميان، وعهد إليه بشئون الدفاع عن الأطراف الغربية ، ثم ضم إليه بعد ذلك الوكيلين الإمبراطوريين وهما القيصران قسطنطينوس وجاليريوس ؛ فأقام قسطنطين فى مدينة تريف للإشراف على الراين وبريطانيا ، وأقام جاليريوس فى سرميوم — غربى بلغراد الحالية للإشراف على الدانوب — على حين أشرف الزميلان الإمبراطوريان على مراكز خط الدفاع الثانى ، فأقام مكسميان فى مدينة ميلان للدفاع عن إيطاليا وأقام دقلديانوس فى مدينة نيقوميديا وهى المركز الاستراتيجى للإمبراطورية ، ومنه يستطيع الإمبراطور أن يراقب الدانوب فى الشمال والأطراف الفارسية فى الشرق . وهكذا لم تعد روما مركز الإمبراطورية بل أمست تعيش على ذكرى مجدها القديم، على حين أخذ تيار الحضارة ينحصر نحو الشرق . ثم أتم الإمبراطور قسطنطين ما بدأه دقلديانوس

من أعمال ، وتهيأ للإمبراطورية المجددة عاصمة جديدة وديناً جديداً ، وبذا افتتح قسطنطين أول صفحة من حضارة جديدة ليست فى شىء من الحضارة الكلاسيكية القديمة .

لكنه على الرغم من هذه التغييرات العميقة فى ذلك العصر المتأخر لم تندثر أعمال الدولة الرومانية ، إذ الواقع أن الناس لم يدركوا الوحدة الاجتماعية للإمبراطورية الرومانية تمام الإدراك ولم يفهموا الصفةالعالمية للدولةالتى أسستها روما إلا وقتذاك . ذلك أن الإمبراطورية كانت فى عصرها الأول تمثل خارج إيطاليا دولة أجنبية فرضتها حوادث الغلبة والنصر على عدد من الأقاليم المغلوبة ، وأن هذه الدولة لم تكن ذات علاقة بالفرد بقدر ما هى بالمجتمع المغلوب . ولم تكن الدولة فى نظر الفرد هى الإمبراطورية الرومانية ؛ بل المدينة التى ولد فيها واستوطنها . ولم تصبح هذه المواطنة المحلية فى الدرجة الثانية لدى الفرد بالقياس إلى تبعيته للإمبراطورية إلا بقدر ما كان فى بعض الأقاليم من طغيان البيروقراطية الإمبراطورية على الإدارة القديمة فى المدينة .

ويتضح من هذا كله أن اضمحلال المدينة القديمة لم يكن كارثة على طول الخط لأنه جاء مصحوباً بتطور نحو المواطنة الإمبراطورية . ثم إن القرن الثالث الذى شهد نشأة البيروقراطية المركزية فى الدولة شهد كذلك امتداد حقوق المواطنة الرومانية إلى أهل الأقاليم ، وتحول القانون الرومانى من قانون خاص بطبقة ممتازة إلى قانون عام للإمبراطوية كلها . ولم ينبع هذا التطور من رغبة الحكومة المركزية فى زيادة سلطانها على الناس فحسب ، بل نبع كذلك من المثل الاجتماعية والسياسية فى ذلك العصر . وتبدو هذه المثل واضحة فى مؤلفات

أدباء يونانيــين ، منهم ديو فم الذهب ( خريسستوم ) وآيليوس أرســتيديز ، وهما زعمــاء الحركة الأكاديمية التى هدفت نحو إحيــاء الثقافة الـكلاسيكية فى القرن الثانى الميلادى . ذلك أن هؤلاء الأدباء رأوا فى الإمبراطورية الرومانية تحقيقاً للفـكرة الهلينية القديمة الرامية إلى توحيد العـالم المتحضر . كما قاموا هم للأباطرة بشرح المثـالية الرواقية فى الملـكية المستنيرة التى يكرس فيهـا الحاكم حياته لخدمة المحـكومين وينظر إلى الحـكم لا على أنه امتياز بل واجب . ولذا لم يكن من غرض الأباطرة العظماء — من تراجان إلى مارقوص أوريليوس — فى القرن الثانى الميلادى ، وهم الذين أرسوا قواعد البيروقراطيـة ، أن يهدموا شيئاً من الحريات المدنيـة ، بل كان مثـلهم الأعلى — كما عبر عنـه مارقوص أوريليوس نفسه — أن « الدولة المثالية هى التى يوجد فيها قانون واحد منطبق على الجميع ، ويكون الحـكم فيها وفقاً لمبدأ المسـاواة فى الحقوق والحرية الفـكرية ، كما أن المثالية الملـكية هى التى تحترم قبل أى شىء آخر حرية المحـكومين » (١) وألهمت هذه المثل العـليا كبار المشرعين فى القرن التالى ومنهم أولبيان وبابنيان اللذين يرجع اليهما الفضل فى إدماج المبادئ الإنسانية المستنيرة التى ميزت أيام الأباطرة الأنطونيين فى صاب القانون الرومانى فى العصر المتأخر. ولم تختف هذه المبادئ حتى فى أحلك أيام أواخر الإمبراطورية، بل ظل المواطن الرومانى يشعر بأن الإمبراطورية رمز جميع ما فى العـالم من مدنية وعدل وحرية ، كما ظل المشرعون حتى القرن السابع الميلادى يرددون العبارة القديمة القائلة بأن « الإمبراطور الرومانى دون حكام الأرض جميعاً —

(١) انظر Marcus Aurelius, I, 14 (Long's trans).

هو الوحيد الذى حكم رعية من الأحـــــرار على حين سيطر رؤساء القبائل المتبربرة على رعية من العبيد » . [١]

وينبغى ألا نفترض أن الوطنية الرومانية اختفت لأن نظم المـدن الحـرة ذهبت أو لأن الإمبراطورية نفسها بدت كأنها فى هاوية الانحلال . والواقع أننا نستطيع على عكس المنتظر أن نرى فى ذلك العصر أوضح تصوير لما يدين به العالم من أفضال للدولة الرومانية . ويتضح هذا التصوير فى جميع مؤلفات القرن الخامس الميلادى ، سواء فى ذلك مؤلفات المسيحيين أو الوثنيين . [٢] والحقيقة أن الإيمان بالدولة الرومانية — لا الإيمان بأى إله من الآلهة الوثنية — هو الذى يفسر لنا استمساك بعض الأرستقراطيين المحافظين مثل سماخوس بالديانة الوثنية القديمة . وهـذا الإيمان بالدولة الرومانية هو الذى خلق نغمة من عميق الشعور والعقيدة فى أشعار كلوديان وروتليوس تاماتيانوس. وفى عبارات الولاء التى تقدم بها السناتور الغالى ناماتيان للدولة الرومانية — وهى فى أشد أيام محنتها — مايثير الإعجاب ، لاسيا وصفه لها بأنها « أم الآلهة والناس » واعتقاده بأنها سوف

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك قول برودنتيوس فى (Contra Symmachum, II, 816-819) مانصه « تختلف الرومانية عن الجرمانية البربرية اختلاف الإنسان عن الحيوان ، أو مثلاقى الشخص المتكلم عن الأخرس ، أو اختلاف المسيحية عن الوثنية » . وانظر كذلك رسالة البابا جريجورى العظيم إلى ليونتيوس .(Epp, XI, 4).

(٢) يستثنى من ذلك كتاب واحد مشهور هو من تأليف سالفيان وعنوانه (De Gubernatione) أى حكومة الله ، وهو كتاب بعدد مساوئ المجتمع الرومانى إلى درجة تجعل هذا الكتاب دفاعاً عن البرابرة الجرمان . وكانت هناك كما أوضحت فى موضـــع آخر تيارات خفيـــة مادية للامبراطورية الرومانية وللحضارة التى جاءت بها المسيحية فى ذلك العصر وظهرت هذه التيارات ظهوراً واضحاً فى آراء طائفة الدوناتيين كما يمكن العثور عليها فى مؤلفات القديس أوغسطين . انظر كذلك :
(A Monument to St. Augustine, p. 36 and 52-64)

تتغلب على جميع الكوارث التي حلت بها « لأن سنة الترقى أن يكون التقدم عن طريق المصائب » .

على أن السبب الأكبر الذى يجعل الدولة الرومانية القديمة جديرة بولاء ناماتيان وكلوديان — وأولهما من غاليا وثانيهما من مصر — أن السياسة الرومانية أوسعت فى منح الشعوب الخاضعة لها نصيبا من قوانينها ، كما جعلت العالم الرومانى كله يبدو كأنه مدينة واحدة .[1] وفى ذلك يقول كلوديان «إن الدولة الرومانية دون غيرها من الدول هى الدولة الوحيدة التى ضمت المغلوبين إلى صدرها ، وتعهدت الجنس البشرى كله بعد أن أطلقت عليه اسما واحداً[2] ». ولم تقتصر هذه الآراء على أرباب الدفاع عن الوثنية المتلاشية ، بل تعدتها إلى المؤلفين المسيحيين ، ومنهم أمبروز أسقف ميلان وهرشيوس المؤرخ المسيحى وبرودنتيوس الشاعر الرومانى . والواقع أن برودنتيوس يدلنا على معنى أوسع أفقا فى عالمية الدولة الرومانية ، إذ ربط بينها وبين المثالية التى جاءت بها الديانة العالمية الجديدة . وفى ذلك يقول متسائلا « ما السر فى المصير التاريخى للدولة الرومانية ؟ هذا السر هو أنها دولة أرادت توحيد البشرية ، لأن الدين المسيحى يتطلب بناء اجتماعياً يقوم على السلام والمحبة بين الأمم . فالعالم كله من الشرق إلى الغرب مزقته الحروب المستمرة ، وللقضاء على هذا الجنون علم الله الأمم

---

(١) جاء فى (Rutil, Itin. 63) ما نصه بعد ترجمته إلى العربية :
« وهكذا أخذت ياروما تمنحين الشعوب المغلوبة حق التمتع بالحقوق الخاصة لتجعلى من العالم مدينة واحدة ».

(٢) انظر كذلك (Boissier : La Fin du Pagnisme, II. p. 252. 7ed) علاوة على (Claudian : On the Second Consulate of Stilicho, 150) ونصه « إن روما وحدها هى التى احتضنت المغلوبين على أمرهم وجعلتهم ضمن اسم واحد »

أن تخضع لقانون واحد وأن تصبح كلها رومانية . وها نحن أولاء نرى البشر جميعاً وكأنهم مواطنون فى مدينة واحدة أو أعضاء فى بيت واحد . فالناس يأتون عبر البحار من بلاد بعيدة إلى مجمع واحـــد هـو روما ، والأمم تتحد عن طريق التجارة والثقافة والمصاهرة ، ومن امتزاج الأمم سوف يولد جنس واحد . ولذا فالسر فى الانتصارات والفتوحات الإمبراطورية الرومانية هو أن التنظيم الرومانى مهد الطريق لظهور المسيح . وهل كان يوجد مكان لله أو للحق فى عالم وحشى تطفح فيه عقول الناس بالحروب ، دون أن يـكون بينهم أساس عام للقانون ؟ »

ثم يختتم برودنتيوس عبارته بقوله :

« قف إلى جانبى أيها القهار وانفذ إلى هذه الأقطار المتحدة .

والآن أيها المسيح يستقبلك هذا العالم بعد أن يسوده

السلام وتسيطر عليه روما » . (١)

وهكذا استطاع برودنتيوس أن يدرك فى كثير من الدقة — المدى الحقيقى للتغييرات التى طرأت على العالم القديم ، مع العلم بأنه كغيره — من أمثال كلوديان أو ناماتيان — لم يكن يشعر ألبتة بقرب سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب . على أن الدولة الرومانية المسيحية الجديدة التى بشر برودنتيوس بقيامها كان من المقدور لهـا أن ترث الدولة الرومانية وأن تحفظ المثالية الرومانية الأولى بشأن الوحـدة العامة فى دنيا متقلبة . والواقع أن الأمم الجديدة دانت للدولة الرومانية بفكرة احتمال نشأة حضارة مشتركة بين جميع

---

(١) انظر Contra Symmachum, II, 636.

الأمم . وظل الناس خلال أوان الفوضى التى خيمت على العصور المظلمة التالية يذكرون السلام العالمى والنظام الذى نشرت ألويته الإمبراطورية الرومانية بفضل ما كان فيها من دين وقانون وحضارة مشتركة عامة . وكانت جهودأهل العصور الوسطى للعودة إلى الماضى واسترداد هذه الوحدة الضائعة والحضارة المفقودة مما أدى بالأمم الجديدة إلى السير قدماً نحو المستقبل ، ومهد الطريق لظهور حضارة أوربية جديدة .

# الفصل الثانى

# الكنيسة الكاثوليكية

يشرح تأثير المسيحية فى تكوين الوحدة الأوربية مثلا من الأمثلة الدالة على مدى ما تستطيع قوى روحية جديدة أن تحدث من تعديل وتوجيه فى مجرى التطور التاريخى . والتاريخ فى الواقع لا ينبغى تفسيره على أنه عملية مغلقة ، تأتى كل مرحلة فيه نتيجة حتمية ومنطقية للمرحلة السابقة عليها ، بل يحتوى التاريخ دائمًا على عنصر خفى عسير الفهم ، لا بسبب ما يعترى الحوادث التاريخية من عنصر المصادفة أو الأعمال الفردية الموهوبة ، بل بسبب ما تشتمل عليه القوى الروحية من قدرة على التجديد العام .

وتطبيقًا لهذا القول على العالم القديم ، نرى فى وضوح أن حضارة الإمبراطورية الرومانية وما فيها من مادية مصطنعة ، بدت ينقصها شىء من الإلهام الروحى أعمق من الطقوس الرسمية ، التى عرفتها المدن الحرة ، وأن من المتوقع أن يترتب على هذا النقص الروحى تسرب مؤثرات دينية شرقية ، مثلما حدث فعلا خلال العصر الإمبراطورى . غير أن أحدًا لم يكن باستطاعته أن يتنبأ بظهور المسيحية ، والطريقة التى غيرت بها الحياة والعقلية فى الحضارة القديمة .

وهذه الديانة التى شاءت المقادير لها أن تسود الإمبراطورية الرومانية ،

وأن تغدو جزءاً لا يتجزأ من الحياة الغربية تنتمى – ولا ريب – إلى أصل شرقى بحت ، وليس لها جذور فى الماضى الأوربى أو فى تقاليد الحضارة الكلاسيكية القديمة . غير أن شرقيتها لم تكن من نوع التلفيقات الدينية العالمية التى امتزجت فيها الفلسفة اليونانية بالطقوس والتقاليد التى أنبتها الشرق القديم ، بل هى نوع فريد من تقاليد قومية خاصة ظلت بنجوة من المؤثرات الدينية التى امتلأت بها بيئتها الشرقية ، كما ظلت بعيدة عن أى اتصال بالثقافة الغربية السائدة .

والواقع أن اليهود – دون شعوب الإمبراطورية الرومانية – هم الشعب الوحيد الذى ظل محتفظاً أشد الاحتفاظ بتقاليده الخاصة ، على الرغم من مغريات الحضارة الهلينية ، وهى الحضارة التى تقبلتها شعوب شرقية أخرى فى حماسة تفوق حماسة أعقابهم عند استقبال الحضارة الأوربية الحديثة . ومع أن المسيحية — بصميم طبيعتها — عارضت القومية الضيقة التى نادت بها اليهودية ، ونهضت برسالة عالمية ، فإنها جعلت نفسها وريثة إسرائيل ، وأقامت دعوتها لا على الأسس العامة فى التفكير الهلينستى ، بل على الأسس العبرية الخالصة ممثلة فى الشريعة اليهودية وأنبيائها . وهكذا اعتبرت الكنيسة المسيحية الأولى نفسها إسرائيل الثانية ووريثة الملك الذى وعد الإله به شعبه المختار ، واحتفظت بناء على ذلك بمثالية العزلة الروحية والمعارضة الأبدية للخارجين عليها ، وهى المعارضة التى قامت عليها جميع التقاليد اليهودية .

وهذا الشعور بالاستمرار التاريخى والترابط الاجتماعى هو الذى ميز الكنيسة المسيحية عن الأديان ذوات الأسرار الغامضة وغيرها من الأديان الشرقية المعاصرة ، وجعلها منذ البداية المنافس الحقيقى والبديل الوحيد عن الديانة الإمبراطورية الرسمية . على أن المسيحية لم تحاول أن تجعل من نفسها جهازا

سياسياً معارضاً للإمبراطورية لتحل محلها ، بل ظلت مجتمعا روحيا وجهازاً لعالم الآخرة ، واعترفت بحقوق الدولة ومطالبها فى هذه الحياة الدنيا . ومن جهة أخرى لم تستطع المسيحية أن تتقبل مثاليات الحضارة الهلينستية أو أن تشترك فى الحياة الاجتماعية السائدة فى الإمبراطورية . ومثال ذلك أن فكرة المواطنة — وهى الفكرة الأساسية فى الحضارة الكلاسيكية القديمة كلها — تحولت فى المسيحية إلى نظام روحى ، فصار المسيحيون حجاجا عابرين فى هذه الدنيا — غرباء أو أجانب — مواطنهم الحقة فى مملكة الله ، بل إن رابطتهم الاجتماعية فى هذه الحياة الدنيا ، هى تبعيتهم للكنيسة لا تبعيتهم للمدينة أو الإمبراطورية .

وهكذا بدت الكنيسة ، إن لم تكن دولة داخل الدولة ، فهى على الأقل هيئة مستقلة بشئونها ، وغاية فى ذاتها ، ولها تنظيمها الدينى وإدارتها الدينية ، ونظامها الحكومى وقانونها ، فضلا عن قواعد عضويتها وتلقين أصولها . وصادفت الكنيسة هوى فى نفوس جميع الفقراء والمستضعفين والمحرومين الذين لم يجدوا فى النظم القائمة إنصافا ، ولا سيا أولئك الذين ضاقوا بالفراغ الروحى والفساد الناخر فى الحضارة المادية المسيطرة على المجتمع ، وهم الذين أحسوا بالحاجة إلى حياة روحية جديدة ونظرة دينية إلى الحياة . ولذا أضحت الكنيسة ملاذ تيارات السخط والمعارضة للحضارة السائدة ، فى صورة أبعد عمقاً من أية حركة من حركات القلق السياسى أو الاقتصادى ، لأنها كانت حركة احتجاجية غاضبة لا ضد الظلم المادى ، بل ضد المستويات الروحية والقيم الاجتماعية التى سادت العالم القديم .

وعبرت هذه المعارضة عن نفسها تعبيراً صادراً عن وحى الإلهام فى سفر

الرؤيا الذى تم تأليفه فى آسيا الصغرى حين باتت الكنيسة مهددة بالاضطهاد نتيجة للتطبيق العام لعبادة الإمبراطورية والإمبراطور، وذلك زمن دومشيان. ومن ذلك التعبير وصف هيئة الكهنوتية الرومانية الوثنية بأنها النبى الكذاب الذى يدعو الناس أن يسجدوا لوحش قرمزى — هو الإمبراطورية الرومانية — وأن يعبدوا صورته، كما يدعوهم إلى أن يختتموا بخاتمه الذى بدونه لا يصح لهم بيع أو شراء. ومن ذلك أيضاً تصوير روما نفسها (١) — بأنها امرأة جالسة على وحش قرمزى، وأنها الزانية أم البغايا التى سفكت دم القديسين والشهداء من أتباع عيسى عليه السلام، وهى التى وصفها فيرجيل سابقاً بأنها «أم الأرباب الفريجية تتوجها أبراج ويبهجها نسلها». (١) ومن ذلك أيضاً تصوير ملائكة السماء وأرواح الشهداء المسيحيين وهى تنتظر يوم الانتقام حين تنهار قوة المدينة العظمى، وتتردى روما فى الحضيض الأبدى كما يتردى حجر كبير من أحجار الطاحون فى البحر.

وفى هذا دليل دامغ على اجتماع قوى العداء الروحى واللعنة التى أخذت تنخر فى أسس القوة الرومانية. ذلك أن الإمبراطورية نفرت منها أقوى القوى الحية فى ذلك العصر، وكانت هذه المنافرة الداخلية أشد نكيرا من الحرب والغزو الخارجى فى انهيار الحضارة القديمة، إذ المعروف أن الحياة ذهبت عن المدن الحرة وأن روح الحضارة الكلاسيكية كانت فى دور الاحتضار، وذلك قبل أن ينفذ البرابرة إلى داخل الأراضى الإمبراطورية وقبل أن تبدو عليها علامات

---

(١) انظر الإنيادة (Aoneiãd. IV, 785) حيث يقول فيرجيل فى وصف روما.
« فهى مثل الأم البركتينية كويبلى أم الأرباب الفريجية، المتوجة بالتاج ذى الأبراج تجول بعربتها مدن فريجيا فرحة بذريتها سلالة الآلهة، محتضنة فئة من أحفادها، وكلهم من أهل السماوات العلى ».

الانهيار الاقتصادى . ومع أن عملية تشييد المدن ومعابدها وتماثيلها وملاهيها استمرت مثلما كان عليه الحال فى العصر الهلينستى ، إلا أن ذلك لم يكن سوى مظاهر كاذبة تخفى وراءها انهياراً جوفيا ، على حين بدأ المستقبل زاهرا للكنيسة الناشئة .

غير أن المسيحية لم تحرز النصر إلا بعد كفاح طويل مرير ، إذ نشأت الكنيسة فى ظل أدوات العقوبة وفأس الإعدام ، حتى بات كل مسيحى مهدداً بالتعذيب البدنى والموت . واصطبغت نواحى الحياة المسيحية الأولى بفكرة الاستشهاد ، التى لم تعد مبعثا للخوف فحسب بل صارت مثلا أعلى وأمنية عزيزة ، لأن الشهيد غدا هو المسيحى الكامل بالإضافه إلى أنه بطل من أبطال صراع المجتمع الجديد ضد المجتمع القديم ، حتى إن المسيحيين الذين خارت قواهم فى ساعات محنتهم كانوا ينظرون إلى الشهداء على أنهم من أسباب خلاصهم فى الدنيا وحمايتهم فى الآخرة . وحسبنا أن نقرأ رسائل القديس سيبريان أو كتاب الشهادات التى جمعها اتكون فى متناول « جند المسيح » أو كتاب « مديح الشهيد » الذى ينسب إليه ، لندرك مدى السمو الحماسى الذى حلقته مثالية الاستشهاد فى العقايه المسيحية . وتبلغ هذه المثالية درجة التعبير الشعرى الرفيع فى السطور التالية من رسالة القديس سيبريان إلى مسيانوس، وهى رسالة جديرة بشهرتها الواسعة ، ونصها « أيتها القدمان المقيدتان قيدا مباركا ، سوف يفك قيدكما أمر الله لا مطرقة الحداد . أيتها القدمان المقيدتان قيدا مباركا ، إنكما مقودتان إلى الجنة عن طريق الخلاص ! أيتها القدمان المقيدتان فى هذه الحياة الدنيا ، لتكونا ماضيتين فى حرية دائمة عند الله ! أيتها القدمان اللتان تتعثران الآن بين القيود والأثقال ، ولكنكما تمشيان فى سرعة إلى المسيح فى طريق

المجد ! فلتعمل القسوة فى هذه الدنيا ــ سواء نبعت من الضغينة أو الخبث ــ على تقييدكما هنا فى القيود والأغلال ما تشاء ، فاسوف تذهبان من هذه الدنيا ومن هذه المتاعب إلى مملكة السماء . إن الجسد لا ينعم فى المحاجر والمناجم بالأرائك والوسائد ، لكنه ينعم بنعمة روح المسيح وسلوانه . إن الجسد الذى أجهده العمل يبيت منهوكا على الأرض ، ولكنه ليس عذابا بل نعيما أن يبيت الجسد مع المسيح . أيها المسيحى المؤمن ! إن قدميك ويديك قذرة قبيحة المنظر لم يغسلها ماء ، وهى مكسوة بالوسخ ولكنها تنطوى على نظافة روحانية داخلية ، مع أن الجسم نفسه مبنى على القذر . وفى هذه الحياة الدنيا يقل وجود الخبز ، ولكن الإنسان لا يحيا فى هــذه الدنيا بالخبز فقط بل بإرادة الله . وإذا أتتك رعدة فسوف تحتاج إلى ملبس تتدثر به أو تتزمل ، لكن الذى يتدثر بصفات المسيح لا يلبث أن يشعر بوفرة الملبس والزينة . »[1] ويتضح من هذه العبارات أنها ليست موعظة بلاغية لواعظ ذائع الصيت من أرباب البيان ، بل نفثة رجل دينى لم يلبث أن لقى الموت هو الآخر فى سبيل الدين ، وهى نفثة نادى بها زملاءه الأساقفة والقساوسة « وسائر الإخوة من شهداء الله فى المحاجر والمناجم » .

ومن الصعب المبالغة فى أهمية المثالية الداعيــة فى ذلك العصر إلى أن الفرد أداة سالبة فى دولة عالية قادرة على كل شىء ، لأن هذه المثالية نفسها كانت عند رجال الدين هى الملاذ النهائى للتجربة الروحية . والواقع أن هذه المثالية دون غيرها من العوامل هى التى ضمنت النصر التام للكنيسة ، لأنها أوجدت للخاص والعام أن المسيحية فى هــذه الحياة الدنيا هى الوحيدة الباقية التى لا يستطيع أن يسيطر عليها الجهاز الهائل للدولة الجديدة القائمة على فكرة الموضوع .

---

(١) St. Cyprian, Ep. Lxxvi, Trans. R.E. Wall

وبينما ناضلت الكنيسة نضال حياة أو موت ضد الدولة الإمبراطورية وحضارتها الهلينستية ، كان عليها كذلك أن تخوض حربا شاقة ضد القوى النامية المنبعثة من الديانات الشرقية . ذلك أنه تحت ستار المظاهر الحضارية الهلينستية ظلت التقاليد الدينية للشرق القديم ناشطة تسرى تدريجيا فى الحياة الفكرية فى ذلك العصر ، فانتشرت الديانات الغامضة النابعة من آسيا الصغرى غربا كانتشار المسيحية نفسها ، وانتقلت ديانة متراس مع الجيوش الرومانية إلى الدانوب والراين والأطراف البريطانية ، كما انتقلت عبادة إيزيس المصرية ، وعقائد أدونيس وأتارجاتيس الشامية ، وعقيدة حداد البعلبكية ، وعقيدة إله الشمس الحمصية ، مع تيارات التجارة الشامية والهجرة نحو الغرب . وذلك على حين أخذت ديانات جديدة تظهر فى خفايا المجتمع الشرقى مثل المانوية كما أخذت تظهر كذلك — فى أشكال جديدة — عقائد البابليين الخاصة بعبادة الكواكب .[1]

على أن أهم ما نتج عن هذه الحركة التلفيقية الشرقية هو الثيوصوفية الغنوصية — أو مذهب الاتصال بالرب — وهى التى غدت خطرا محدقا بالكنيسة المسيحية فى القرنين الثانى والثالث . وقامت هذه الثيوصوفية على أساس

---

(١) ازداد اهتمام الباحثين حديثاً بطائفة المانديين أو طائفة « مسيحى القديس حنا » التى ظهرت فى بابل الجنوبية ، وهى الطائفة الوحيدة التى ظلت باقية حتى اليوم دون طوائف الديانات المذكورة بالمتن . وحاول لدزبارسكى وريتزنشتاين إثبات أن هذه الطائفة يتصل أصلها بجماعة الأسينيين اليهود وبأتباع حنا المعمدان ، وعلى ذلك يكون للنصوص المالدية علاقة هامة بأصول المسيحية . غير أن س.أ بالس يرهن فى كتابه الذى عنوانه :

(Mandaean Studies, 1919) أن التوازى بين هذا المذهب والعقيدة اليهودية سطحى يرجع الى عصر متأخر نسبياً ، وأن المالدية فى أصلها فرقة من الأدرن الغنوصيين الذين تأثروا بعد ذلك بمؤثرات العقائد الزرادشتية فى العصر الساسانى . كذلك عارض بالس النظرية التى سبق أن نادى بها براندت والتى تقرر أن أسس المعتقدات المالدية تقوم على الديانة البابلية القديمة .

الثنائية بين الروح والمادة ، والربط بين العالم المادى والشر ، وهى ثنائية ترجع منابعها إلى بلاد اليونان والأناضول — لا إلى بلاد فارس — بدليل ورودها السابق قديما فى الأساطير الأورفية اليونانية أو مذهب الأسرار الغامضة ، وفى فلسفة أمبيدوقليس . على أن هذه الثنائية أحاطت بها شعوذات كثيفة من السحر ، ومحاولات ثيوصوفية مصدرها فى غير شك من أصول بابلية وشرقية .

ولقيت هذه الصوفية الشرقية الغربية قبولا فى عقلية مجتمع امتلأ بإحساس عميق بالخيبة واستولى عليه ظمأ شديد للخلاص ، كما حدث للمجتمع الهندى قبل ذلك بستة قرون .لذا لم تكن هذه الصوفية خطراً سطحياً على المسيحية فحسب ، بل هددت بضمها إليها عن طريق تحويل الشخصية التاريخية للمسيح إلى رمز من رموز الفضائل الخالدة ، وبإحلال المثالية الوثنية الداعية إلى تحرير الروح من دنس العالم المادى محل المثالية المسيحية الداعية إلى تطهير الجسد والاجتهاد فى سبيل الوصول إلى مملكة الله على أنها حقيقة اجتماعية تاريخية . ولم تقتصر هذه الصوفية على تأثيرها المباشر فى الغنوصية المسيحية فى طريقتى كل من فالنتين وباسيليدس ، بل تعدته إلى تأثير غير مباشر فى سلسلة طويلة من هرطقات شرقية صغرى ، وهى سلسلة متصلة تبدأ حلقاتها من سيمون الساحر فى عصر الحواريين إلى عصر الببالصة فى التاريخ البيزنطى . وبلغ من قوة هذه الصوفية فى القرن الثانى أنها اجتذبت إليها ثلاثا من أكبر شخصيات المسيحية الشرقية ،هم مارقيون فى آسيا الصغرى ثم طاطيان وباردسانيس مؤسسا الأدب الأرامى الجديد فى سوريا .

ولو كانت المسيحية فرقة من الفرق الدينية الشرقية أو إحدى الديانات

السرية فى الإمبراطورية الرومانية ، لكان حتما عليها أن تندمج فى عملية التلفيقات الدينية الشرقية . لكن المسيحية استطاعت أن تبقى بمنأى عن هذه العملية بفضل جهاز كنسى قائم على أساس من السلطان الاجتماعى الذى ميزها عن سائر الهيئات الدينية المعاصرة . ذلك أن الكنيسة اعتبرت نفسها منذ البداية — كما رأينا — أنها الدين الجديد ، أى أنها على قول الكتاب المقدس « شعب مختار وكهنوت ملكى وأمة مقدسة أفردها الرب بنعمته »[1] وغدت هذه الكنيسة المقدسة تيوقراطية تستمد إلهامها وحكومتها من الروح القدس ، على حين غدا حكامها - وهم الرسل - لا ممثلين المجتمع الذى عاشوا فيه ، بل ممثلين للمسيح الذى اختارهم وجعلهم أخلافه على سلطانه الإلهى . وظلت فكرة السلطان الرسولى الإلهى أساسا للنظام الكنسى بعد عصر الرسل ، فاعتبر الناس أن « المشرفين » والشيوخ الذين أشرفوا على الكنائس المحلية خلفاء الرسل ، كما تمتعت الكنائس ذوات الصلة المباشرة بالرسل بمكانة مرموقة ونفوذ خاص بين سائر الكنائس .

هكذا كان الحال بشأن كنيسة روما ، لأنه لما كان لبطرس مكانة فريدة بين الرسل الاثنى عشر ، فإن الكنيسة الرومانية - التى رجعت أصولها إلى القديس بطرس - احتلت مكانة خاصة بين سائر الكنائس . ودليل ذلك واضح فى القرن الميلادى الأول ، قبل أن ينتهى عصر الرسل تقريبا ، إذ نرى روما تتدخل مثلا فى شئون كنيسة كورنثه تدخل صاحب السلطان العام . وتدل الرسالة الأولى التى وجهها كليمنت إلى الكورنثيين ( حول ٩٦ م ) دلالة واضحة على المثالية الكهنوتية الكنسية التى اتخذها المجتمع الجديد قاعدة

(١) انظر رسالة بطرس الأولى - الإصحاح الثانى ( ٩ ) .

لتنظيمه ، إذ يقول مؤلف تلك الرسالة إن النظام هو القانون الكونى ، وكما أنه أساس الطبيعة الظاهرة للعيان ، فهو كذلك أساس المجتمع المسيحى .(١) وينبغى للمؤمنين أن يلتزموا النظام والطاعة لمن هم أعلى مرتبة ، وهو ما امتاز به الجيش الرومانى . وكما أن المسيح جاء من الله ، جاء الرسل من المسيح ، وهؤلاء بدورهم « عينوا أتباعهم الأولين بعد تجربتهم روحيا — ليكونوا أساقفة وشمامسة للمسيحيين بعدهم . ونظرا لعلمهم بأن سوف يتنافس المتنافسون فى سبيل الحصول على لقب الأسقفية ، أضافوا إلى أقوالهم ملحقا بأنه إذا أدركت الوفاة أولئك الأتباع حل محلهم فى وظائفهم غيرهم من الصالحين » . وعلى هـذا يغدو ضروريا أن تتجنب كنيسة كورنثة التنازع والتحاسد وأن تخضع لشيوخ الكنيسة المعينين حسب القواعد المرعية ، لأنهم يمثلون المبدأ الرسولى للسلطان الإلهى .(٢)

ويتسم مذهب القديس كلمنت بطابعه الرومانى الخالص بمـا فيه من إصرار على التنظيم الاجتماعى والتهذيب الخلقى ، على أنه يشترك فى كثير من النواحى مع تعاليم الرسائل الرعوية ، وهو فى غير شك يدل على روح البساطة التقليدية للكنيسة المسيحية الأولى . وهذه الروح هى التى أنقذت المسيحية من الضياع فى بطائح التلفيقات الدينية الشرقية .

---

(١) ويلوح من وضوح هذا الأمر أن المؤلف اللاهوتى الألمانى زوم ذهب إلى القول بأن هذه الرسالة نقطة البداية فى نظام الكنيسة القانونى . وأن هذا النظام الكنسى القانونى فى نظره هو الذى حل الفكرة الدينية السابقة على ذلك . ولكن يبدو على قول هارناك أن فكرة سلطة رسولية إلهية قديمة قدم الكنيسة نفسها . وأن هذه الفكرة تتضح وضوحا كافياً فى قرارات مجمع بيت المقدس الدينى .

( انظر سفر أعمال الرسل ، الإصحاح الخامس عشر ، ٢٣ — ٢٧ ) .

(٢) انظر I Clement, xx, xxxvii, xi - xliv, etc.

وفى القرن التالى استشهد القديس إيريناوس مرة بعد أخرى فى رده على الغنوصية بالسلطان الاجتماعى فى التقاليد الرسولية ضد شطحات الثيوصوفية الشرقية ، فقال ما نصه « إن الغنوصية الحقيقية هى ماجاء فى تعاليم الرسل ودساتير الكنيسة الأولى فى مختلف البلاد » وأضاف إيريناوس إلى ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية مركز الوحدة وضمين العقيدة الأصلية(١).

وعلى هذا الوجه استطاعت الكنيسة المسيحية الأولى أن تظل حية وسط

---

(١) جاء فى (Irenaeus ; Against Heresics, III, p. 3) ما نصه :

« نستطيع بفضل ما ازدانت به الكنيسة الرومانية من تقاليد وعقيدة جاءت إلى الناس وانتقلت إلينا على يد سلسلة غير مقطوعة من الأساقفة أن نخرس جميع أولئك الذين اجتمعوا بدافع من شهرة أو غرور فى نفوسهم ،أو بدافع من عمى فى بصائرهم أو عناد فى قلوبهم بحيث لا ينبغى لهم أن يجتمعوا . ومن الضرورى أن تتبع كل كنيسة من الكنائس ، أى كل جماعة من الجماعات المؤمنة المنتشرة فى أنحاء البلاد ، هيئة الكنيسة الرومانية ، لأنها بفضل أصلها الأعلى هى الكنيسة التى احتفظت دائما بتقاليد تلاميذ المسيح الأولين ، وهى تقاليد حملتها كل هذه الجماعات المؤمنة . »

ويلاحظ أن شيئا من الخلاف يحوم حول عبارة « بفضل أصلها الأعلى » الواردة هنا بهذه الحاشية ، والتى نقلها المؤلف من اللاتينية إلى الإنجليزية ، ثم نقلها المترجمان هكذا إلى اللغة العربية . أما مصدر الخلاف فهو أن هذه العبارة اللاتينية الأصل سبق ترجمتها فى كثير من المصادر كالآتى « بفضل زعامة أقوى » أو « بفضل سلطة أعلى » غير أنه لا سبيل إلى الشك عندى فى أن اللفظ اللاتينى يؤدى إلى ترجمته إلى لفظ « أصل » فى اللغة العربية وأنه يشير إلى أصل الكنيسة ، كما هو وارد فى عبارة القديس سيبريان (Ep. LIX, 13) ونصها « والذين يجرؤون على عبور البحار قاصدين كرسى القديس بطرس وكنيسته الأصلية التى نشأت منها الوحدة الكنسية » . وفى هذه العبارة مايدل على أن المقصود هنا هو « الأصل الأعلى » أى الكنيسة . وهذا الرأى هو الذى استخدمه أوبتانوس والقديس أوغسطين فى الرد على الدوناتيين ، كما هو واضح فى السطور التالية « قوموا بإحصاء القساوسة ، أو على الأقل القساوسة الذين جلسوا فى كرسى بطرس ، وانظروا إليهم واحدا بعد آخر ،لأنهم خلفاؤه من الآباء الأولين فى ذلك الكرسى الذى هو الأصل ، أى الصخرة التى لا تستطيع أبواب جهنم أن تتغلب عليها » .

انظر (Psalmus c. partem Donat 18)

حركات الهرطقة والانقسام المذهبي فضلا عن الاضطهاد الإمبراطورى لها ، بل استطاعت أن تجعل من نفسها هيئة دينية عالمية ضد الدولة العالمية الوثنية . وعلى هذا لم يبق سوى خطوة واحدة للسيطرة على الإمبراطورية نفسها وقيام المسيحية ديناً رسمياً للدولة التى أعاد الإمبراطور قسطنطين تنظيمها . وسواء أكانت اعتبارات سياسية أم غيرها هى التى حركت قسطنطين إلى موقفه من المسيحية ، فهذه مسألة جدلية [١] ، غير أنه كان مخلصاً — ولا ريب — فى قوله الذى أعرب عنه فى رسالته إلى أهل الولايات الرومانية ، بأن الرب هو الذى جاء به من بريطانيا بأقصى الغرب لإبادة أعداء المسيحية ، الذين لولا ذلك لاستطاعوا هم إبادة الدولة الرومانية . وربما أرسخ هذا الاعتقاد فى نفس قسطنطين إيمانه كذلك بأن كلا من نظام الكنيسة المسيحية وطابعها العالمى يجعلها الحليف الروحى المتمم للإمبراطورية العالمية . وكيفما يكون الأمر فالمعروف أن هذه هى النظرة التى فسر بها المؤرخ يوزبيوس ـ أسقف قيصرية ـ مجرى الحوادث ، وهو المادح المسيحى الرسمى للإمبراطور قسطنطين ؛ إذ قال « إن إلهاً واحداً لجميع البشر تم إعلانه ، عمل حين ظهرت وانتعشت قوة عالمية واحدة ، وهى الإمبراطورية الرومانية . وبذا زالت الكراهيات الدائمة المتأصلة التى يضمرها شعب لشعب آخر ، وكذلك اهتدى الناس إلى مبدأ الإله الواحد وإلى الطريق الوحيد للدين والخلاص وإلى عقيدة المسيح ، كما تركزت فى نفس

---

(١) ناقش هذه المسألة الأستاذ نورمان بينز فى سلسلة محاضرات — رالى لسنة ١٩٢٩ ، حيث قال إن العامل المسيطر على حياة الإمبراطور قسطنطين هو « اعتقاد هذا الإمبراطور فى أنه موكول إليه برسالة شخصية من رب المسيحية ، وأنه ربط نفسه لذلك نهائيا بالمسيحية وكنيستها وعقيدتها ، وأنه اعتقد أن رفاهية الإمبراطورية مرتبطة بالكنيسة ، وعلى ذلك فإن المثالية البيزنطية المستندة إلى قيام إمبراطورية رومانية مؤسسة على العقيدة المسيحية ومتحدة مع الكنيسة ، ترجع أصلها إلى وجهة نظر قسطنطين .

الوقت بجميع مظاهر السيادة الرومانية الإمبراطورية فى سخص سيد واحد ، وشمل السلام أرجاء العالم . وهكذا شاء الرب أن تنبت نعمنان مباركتان لخير البشر ، وهما الإمبراطورية الرومانية والعقيدة المسيحية [1] » .

والواقع أن اعتراف الدولة الرومانية رسمياً بالكنيسة المسيحية ، وارتباط الكنيسة المسيحية بالدولة الرومانية أصبحا عاملا أساسياً مزدوجاً فى تكوين نظام اجتماعى جديد ، إذ نالت الكنيسة حريتها ، وقدمت للإمبراطورية فى مقابل ذلك مواردها الحيوية فى الناحيتين الروحية والاجتماعية ، ثم أخذت الكنيسة تحل شيئاً فشيئاً فى أواخر عصر الإمبراطورية محل التنظيم المدنى القديم ، وغدت أداة للوعى العام . ولم تكن الكنيسة فى ذاتها هى السبب فى زوال نظام المدينة الحرة ، لأن ذلك النظام أخذ يدخل وقتذاك دور الأفول نتيجة لضعفه الذاتى ، لكن الكنيسة هى التى هيأت بديلا جديداً استطاعت حياة الناس أن تجد فيه وسائل جديدة للتعبير عما بأنفسهم . ذلك أن النظام المدنية التى قام عليها المجتمع القديم أمست أشباحاً جوفاء ، بل صارت الحقوق السياسية فى الواقع التزامات مالية ، وصار الأمل فى تحقيق المواطنة المستقلة متركزاً فى التبعية للكنيسة . وفى الكنيسة وجد الفرد كل المساعدة المادية والاقتصادية ، فضلا عن الحرية الروحية ، إذ أفسح المجتمع الروحى الكنسى مجالا للنشاط الاجتماعى المطلق والتعاون الحر ، وهما مما لم تسمح به استبدادية الدولة . ولذا اتجهت صفوة المواهب الفكرية والكفايات العلمية المعاصرة إلى خدمة الكنيسة .

---

(١) انظر Oration in Praise of Constantine. XVI

وهكذا شهدت جميع مدن الإمبراطورية فى عصرها المتأخر فئات المسيحيين الجدد يعيشون جنبا إلى جنب مع المواطنين القدماء ، على حين أخـذت فئات المواطنين القدماء تفقد امتيازاتها الاجتماعية وحقوقها السياسية ليحل محلها المسيحيون ، وهم أبناء الـكنيسة وأهل المسيح . وعلى هـذا النحو أخذت قوة رجال الدين المسيحيين ونفوذهم فى الازدياد ، على حين أخـذ نفوذ الهيئة المدنية وسلطانها فى التدهور والنقصان ، وهـو سلطان الإدارة والبلديات . واستمر ذلك حتى صار الأسقف المسيحى أهم شخصية فى حياة المدينة والممثل للمجتمع كله . والواقع أن وظيفة الأسقف هى الوظيفة ذات الأهمية العظمى فى العصر الجديد ، إذ مارس الأسقف سلطة تـكاد تـكون مطلقة فى أسقفيته وأحاطت به هالة سماوية من الوقار والهيبة ، ومع هذا ظلت صفة الشعبية لاصقة بوظيفته لأنها مستمدة من مطلق اختيار الناس . وبالإضافة إلى نفوذه الدينى ومقامه نائباً عن المجتمع ، باشر الأسقف سلطات قضائية رسمية ، لا على رجال الدين وممتلكات الـكنيسة فى أسقفيته فحسب ، بل فى جميع القضايا التى يحتكم فيها أصحابها إليه ، ولو كان سبق عرضها على محكمة مدنية . ونتج عن ذلك أن الأسقفية أصبحت فى أواخر عصر الإمبراطورية القوة الوحيدة القادرة على مواجهة الإدارة الإمبراطورية ومقاومتها ، إذ حتى الموظف الإمبراطورى — بالغا مابلغ من كبرياء — أن يتعرض لأسقف . ولدينا عـدة أمثلة دالة على تدخل الأساقفة لا دفاعا عن حقوق أفراد فحسب ، بل عن حقوق المدن والولايات .

ونهضت الـكنيسة كذلك لمساعدة الناس اقتصاديا فى أثناء الضيق المادى المستمر والفقر المنتشر فى أواخر عصر الإمبراطورية . والواقع أن المخصصات الـكنسية الهائلة غدت وقتذاك « حقاً للسائل والمحروم » ، وأن الـكنيسة فى

المدن الكبرى — مثل روما والإسكندرية — أخذت على نفسها تدريجاً مسئولية إطعام الفقراء ورعاية المستشفيات وملاجئ الأيتام .

ونادى القديس أمبروز بأنه من العار أن توجد بالكنائس آنية من الذهب على حين يوجد أسرى فى حاجة إلى من يفديهم . ويقال إنه عندما عم الخراب إيطاليا بسبب المجاعات والغزوات المتبربرة ، تحمل القديس جريجورى جميع أعباء مسئولياته حتى إنه كف مرة عن القداس عندما سمع بموت رجل فقير جوعاً فى روما ، إذ اعتبر نفسه مسئولا عن موته .

ويدل هذا النشاط الاجتماعى على مدى انتشار محبة الكنيسة بين الناس ، كما يدل على النفوذ الشخصى للأساقفة ، فضلا عما أدى إليه من مسائل جديدة فى العلاقة بين الكنيسة والناس . ذلك أن الكنيسة أصبحت ركنا ضرورياً لمصلحة المجتمع العام ، ورباطا وثيقا بالنظام الاجتماعى القائم ، حتى غدا ثمة خطر أن تصبح الكنيسة جزءاً من الدولة الإمبرطورية . ونبدو بذور هذا التطور واضحة فى نظرية أوريجين فى وظيفة الكنيسة[١] ، حيث يوازن أوريجين بين المجتمع المسيحى والمجتمع الإمبراطورى، ويقارن الكنيسة المحلية بهيئة المواطنين فى كل مدينة من المدن ، وهى الهيئة المعروفة باسم اكليزيا . وكما اشتملت هذه الهيئة على مجلس إدارى وحكام ، اشتملت الكنيسة المسيحية كذلك على هيئة من رجال الدين ورئيس عام هو الأسقف . ثم إن مجموعة الكنائس، أى «هيئة مجالس الكنيسة جميعاً » تقابل وحدة مجموعة المدن فى الإمبراطورية . وهكذا

(١) راجع (Contra Celsum, III, 29, 30) وقارن بما جاء فى (Battifol, L'Eglise Naissante, ch, VII)

كانت الكنيسة فى نظر أوريجين كأنها « كون مخلوق فى كون مخلوق مثله» بل إن أوريجين ذهب إلى حد تصور الإمبراطورية بعد أن تصبح مسيحية ويصبح المجتمعان هيئة عالمية واحدة هى « مدينة الله » .

ثم غدا التنظيم الكنسى فى القرن الرابع محتذيا للتنظيم الإمبراطورى ، ولم يقتصر ذلك على قيام أسقف لكل مدينة من المدن وامتداد سلطة الكنيسة إلى أقصى الحدود الإدارية للمدينة ، بل أصبح الإقليم الإدارى أيضاً إقليما كنسيا على رأسه مطران مقيم فى الحاضرة الإدارية للإقليم . وفى أواخر القرن الرابع نشطت الجهود لإيجاد وحدة كنسية أو أرخونية مؤلفة من عدة أسقفيات على نسق الوحدة الإدارية التى تتألف من عدة أقاليم ويحكمها نائب إمبراطورى .

والنتيجة المنطقية لهذا التطور هى أن تصبح عاصمة الإمبراطورية كذلك عاصمة للكنيسة . وربما بدا أن هذه النتيجة كانت متوقعة نظراً لما لكنيسة روما — وهى المدينة الإمبراطورية — من أولوية على سائر الكنائس . لكن روما لم تحتل فى القرن الرابع مكانتها الفريدة التى احتلتها فى القرون السالفة ، بعد أن انتقل محور البحر المتوسط مرة أخرى إلى الشرق الهلنستى ، فلم يتخذ الأباطرة مدينة روما مقاماً لهم منذ إعادة تنظيم الإمبراطورية على يد دقلديانوس ، ومن ثم أخذت أهمية العاصمة القديمة تتدهور سريعاً ، ولاسيما بعد تأسيس العاصمة الجديدة ، القسطنطينية سنة ٣٣٠ م .

وأثرت هذه التغييرات كذلك فى مركز الكنيسة الرومانية . ففى أوائل عصر الإمبراطورية كانت روما مدينة عالمية وكانت اليونانية لغة الكنيسة الرومانية ، غير أنه منذ القرن الثالث الميلادى غدت روما وكنيستها

لا تينية تدريجياً [١] ، وجنح كل من الشرق والغرب إلى الانفصال بعضهما عن بعض . ثم وضحت الناحية الدينية من هذا الجنوح أواسط القرن الثالث الميلادى عندما قام الأساقفة الشرقيون بزعامة القديس فيرمليان — بمعارضة البابا ستفن حول مسألة إعادة تعميد الهراطقة ، وازداد هـذا الجنوح وضوحاً فى القرن التالى . والواقع أنه منذ عصر قسطنطين فصاعدا أخذت الـكنائس الشرقية تتطلع إلى توجيهات القسطنطينية لا روما ، وأصبح مركز الوحدة هو البلاط الإمبراطورى لا الـكرسى الرسولى . وغدا هـذا الاتجاه واضحاً فى أواخر عهد قسطنطين نفسه ، بل بلغ من سياسـة ابنه وخلفه قسطنطيوس الثانى أنه استبق القيصرية البابوية التى اتصف بها فيما بعد زمن جستنيان ، حين جعل الـكنيسة فى الولايات الشرقية تابعة للدولة تمام التبعية معتمدة على الحـكومة الإمبراطورية كل الاعتماد .

وكان الجهاز الأساسى فى السياسة الدينية التى سار عليها قسطنطين وأخلافه هو المجمع الدينى العام ، ولم يـكن ذلك المجمع منظمة دينيـة صرفة مثل المجامع الأقليمية السابقة ، بل يدين بوجوده للسلطة الإمبراطورية [٢] ، لأن الإمبراطور احتفظ لنفسه بحق الدعوة لذلك المجمع العام ، وهو الذى يقرر بنفسه جدول المسائل

---

(١) كان القديس هيبوليتوس آخر المسيحيين الرومانيين الذين كتبوا مؤلفاتهم باللغة اليونانية . وفى منتصف القرن الثالث استعمل نوفاتيان اللغة اللاتينية فى التأليف ، ولو أنه نحتمل أن اللغة اليونانية بقيت لغة الصلوات الدينية حتى القرن التالى .

(٢) كتب هارناك قائلا عن هذه المجامع الدينية العامة « بأنها كانت فى جميع الأحوال تنظيما سياسياً ابتكره أكبر رجال السياسة فى عصرهم ، وكان هذا التنظيم سلاحا ذا حدين يحمى وحدة الـكنيسة المعرضة للخطر ويحد فى نفس الوقت من استقلالها »

انظر (History of Dogma, Eng. trans, III, 127)

التى يناقشها المجمع ، ويصادق على قراراته بالموافقة الإمبراطورية . غير أنه إذا كان ذلك المجمع العام فى أيدى أباطرة فقهاء فى الدين من وزن قسطنطيوس وجستنيان — أصبح أداة للسيطرة الإمبراطورية على الكنيسة أكثر منه جهاداً لحكومة ذاتية فى الكنيسة ،فإنها كانت كذلك هيئة نيابية مثلما كانت المجامع المسكونية العظيمة أولى المجالس الشورية الجدلية على وجه الإطلاق[(١)] .

ثم إن الكنائس الشرقية فى القرن الرابع بدت أبعد من أن تكون أداة سلبية فى خدمة حكومة مهيمنة على الشئون الكنسية ، بل امتلأت هذه الكنائس بحياة روحية فكرية مستقلة . وإذا احتلت الكنيسة الغربية مرتبة ثانية فى التاريخ الكنسى لذلك العصر ، فرجع هذا فى الغالب إلى أن التيارات الدينية العظمى وقتذاك نشأت كلها وتركزت فى الشرق .

وفى الشرق كذلك نشأت الرهبانية والديرية التى خلقت المثاليات الدينية المسيطرة على العصر الجديد . وعلى الرغم من سرعة انتشار هذه الحركة فى طول الإمبراطورية وعرضها ، فإنها ظلت تستمد الإلهام من الرهبان والمتنسكين فى الصحارى المصرية .

وكان الشرق كذلك هو الذى ابتدع الشعر الدينى الجديد ، فضلا عن

---

(١) انظر مقالة (H. Gelzer, Die Konzilienals Reichparlamente) فى مجلة (Ausgewahlte Kleinne Schriften, 1907) حيث حاول أن يثبت أن هذه المجامع المسكونية سارت على نهج مجلس السناتو الرومانى القديم فى تنظيمها وإجراءاتها .

التقويم الكنسى للأعياد الدينية السنوية ، وهو التقويم الذى أصبح عاما للكنيسة المسيحية (١)

ثم إن الشرق هو الذى مزج التقاليد المسيحية بتراث الثقافة الفلسفية اليونانية ، وجعل للعقيدة المسيحية ثوبا علمياً لاهوتياً . وبدأت قواعد ذلك التطور فى القرن الثالث على أيدى أوريجين والمدرسة الجدلية بالإسكندرية ، ثم استمرت هذه العملية التطورية فى القرن التالى على أيدى يوزبيوس فى فلسطين ، وإتناسيوس فى الإسكندرية ، ثم على أيدى ثلاثة العظماء القبادوقيين اليونانيين ، وهم القديس باسل المشهور والقديس جريجورى أسقف نازيانزوس والقديس جريجورى أسقف نيسا . وبفضل جهود أولئك جميعاً استطاعت الكنيسة أن تصوغ العقيدة المسيحية فى قالب عقلى وأن تتجنب خطر الرضوخ لتقاليد غير مفهومة من جهة ، فضلا عن خطر التحليل العقلى السطحى للمسيحية ، كما هو الحال فى الأريوسية من جهة أخرى .

ومما لا شك فيه أن هذه العملية — أى عملية التطور اللاهوتى — صحبتها مناقشات جدلية عنيفة ، حيث هبطت الميول العقلية فى اللاهوت اليونانى إلى

---

(١) أوضح الأب كابرول كيف نبتت فكرة الدورة الطقوسية فى القرن الرابع من سلسلة الاحتفالات المحلية المرتبطة بالأماكن المقدسة فى بيت المقدس . من ذلك أن احتفالات أسبوع الآلام فى روما كانت فى أصلها تقليدا لهذه الدورة المحلية ، وأن مجموعة الكنائس المحيطة باللاتران فى روما حيث كانت تجرى هناك هذه الاحتفالات إنما جاءت وليدة فكرة الهياكل المقدسة القائمة فى بيت المقدس .

انظر (Cabral : Les Origines Liturgique Conf. 13)

مستوى منازعات ميتافيزقية دقيقية . وربما أحسنت الكنيسة الشرقية صنعاً — على قول دوشين — لو أنها فكرت فى المسائل الجدلية حول الطبيعة الإلهية أقل مما فكرت فى واجبات الوحدة . (١) على أن التطور فى اللاهوت العقلى لم يكن السبب الوحيد ، بل السبب الرئيسى للهرطقة والانقسام الدينى . ولولا ذلك التطور لغدت جميع نواحى الحياة الفكرية المسيحية فقيرة كل الفقر . ولكى ندرك مايدين به الغرب للشرق ، يكفى أن نقيس الفجوة الفاصلة بين القديس أوغسطين والقديس سيبريان . فكلاهما كان غربيا من أصل إفريقى . وكلاهما دان بالكثير للتراث اللاتينى لترتليان ، السابق زمنيا على كل منهما . غير أنه على حين لم يدخل القديس سيبريان ألبتة فى تأملات فلسفية ، ولم يكن لا هوتيا بالمعنى العلمى لهذه الصفة فإن القديس أوغسطين لم يقل فى العمق الفلسفى عن أعظم الآباء اليونانيين ، بل إنه على قول هارناك جمع بين أوريجين وإثناسيوس وزاد عليهما زيادة كبيرة .

لكن هذا التقدم الكبير لا يمكن تفسيره على أنه تقدم للاهوت المسيحية الغربية ، مع تسليمنا بالموهبة الشخصية الفائقة للقديس أوغسطين نفسه . إذ الواقع أن التطور اللاهوتى الغربى فى القرن الذى أعقب أيام ترتليان كان تطوراً رجعياً ، والمؤلفون أمثال أرنوبيوس وكوموديان لم يكونوا فى مؤلفاتهم

---

(١) انظر (Duchesne : Eglise Separée, p. 57)

« وكان الأحرى بدلا من الإطالة فى فلسفة المناقشات حول المصطلحات ومعارضة وحدة المسيح الطبيعية لوحدته الأقنومية ، وهما الوحدتان اللتان ليستا سوى طريقة واحدة ممثلة فى الأقنوم الأوحد المتحكم فى الطبيعتين ، أن يوجه اللاهوتيون عنايتهم نحو مسائل أقل ألوهية وأكثر حيوية . ذلك أنهم كانوا يحاولون فى وحدة المسيح وهى سر من الأسرار ويهملون وحدة الكنيسة التى كان احترامها واجباً عليهم . »

لا هوتيين مجددين ، بل مقلدين لأسلافهم مع شيء من التعديل الظاهري[١] .

أما التغيير الحقيقي فجاء خلال النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي ،حين دخل علم اللاهوت اليوناني بلاد الغرب على أيدي الآباء اللاتين ، أي هيلاري أسقف بواتييه ، وأمبروزأسقف ميلان ، والقديس جيروم ، وروفينوس أسقف أكويليا ، وفيكتورينوس أستاذ الخطابة الذي اعتنق المسيحية متأخراً ، على حين جاء إلى الغرب القديسان مارتن أسقف تور وكاسيان أسقف مارسيليا — وكلاهما من مواطني أقاليم الدانوب — بالمثاليات الشرقية الجديدة الداعية إلى الرهبانية والديرية[٢] .

والواقع أن الآباء اللاتين — باستثناء القديس أوغسطين — لم يكونوا متعمقين ميتافيزيقيين أو مفكرين، بل كانوا تلاميذ اليونانيين في المسائل اللاهوتية ، واقتصر نشاطهم على جعل الثروة الفكرية التي أنتجها الشرق المسيحي في متناول العالم اللاتيني . ومع هذا كانوا ورثة التراث الغربي ، فربطوا بين معارفهم الجديدة والقوة الخلقية وروح النظام ، وهي النواحي التي ميزت الكنيسة اللاتينية وأكسبتها طابعها الخاص . ومن الدليل على ذلك أن اهتمامهم بالمسائل اللاهوتية كان عندهم دائماً ثانوياً بالقياس إلى إخلاصهم للتقاليد الدينية وحرصهم على الوحدة الكاثوليكية . ولم يكن ثمة مجال المشكلات اللاهوتية ، لأن المسيحيين في الولايات الغربية مابرحوا أقلية ضئيلة من السكان ، ولذا ظلت

---

(١) يتضح تخلف الغرب وعزلته في المسائل اللاهوتية من قول القديس هيلاري نفسه إنه لم يسمع بالعقيدة النيقية حتى وقت نفيه سنة ٣٥٦ م انظر (De Synodis)

(٢) ونلاحظ هنا كذلك دخول الشعر الديني إلى الغرب على أيدي القديس هيلاري وأمبروز .

الكنيسة أقل تعرضاً للخلافات المذهبية الداخلية ، كما ظلت محتفظة باستقلالها الروحى الذى تمتعت به فى العصر السابق لعهد الإمبراطور قسطنطين .

ويتضح هذا تمام الوضوح فى مسألة الجدل الأريوسى حين ظهرت الأريوسية فى الغرب ، لا على أنها خطر داخلى فى جوف العقيدة المسيحية ، بل على أنها هجوم خارجى طارئ على الحرية الروحية فى الكنيسة . وعبر هوسبوس أسقف قرطبة العظيم عن موقف الغرب أحسن تعبير فى الاحتجاج الذى وجهه إلى الإمبراطور قسطنطيوس الثانى ، ومنه مانصه « نهضت بواجب وظيفتى وأصغيت إلى اعترافات القاصدين إلى فى أثناء الاضطهاد الدينى الذى أثاره جدك مكسميان ضد الكنيسة ، فإذا أنت رغبت فى تجديد ذلك الاضطهاد فليسوف تجدنى على استعداد لاحتمال كل شىء ، لأن ذلك أفضل عندى من خيانة الحق وإهراق الدماء البريئة . . واذكر أنك بشر فان ، واخش يوم الحساب ... ولا تتدخل فى الشئون الكنسية ولا تمل علينا شيئاً منها ، بل الأفضل أن تتعلم منا ماينبغى أن تعتقد ، بشأنها . فالرب جعل لك حكم الإمبراطورية وجعل لنا حكم الكنيسة ، وأى فرد يحاول معارضة سلطانك يعرض نفسه لمعصية الرب . وحذار أنت كذلك لئلا تجد نفسك مرتكباً جريمة كبرى باغتصاب سلطان الكنيسة . إن المسيح أمرنا أن نعطى ما للقيصر لقيصر وما لله لله . وليس لنا أن نغتصب لأنفسنا السلطان الإمبراطورى كما ليس لك أن تتدخل فى إدارة الشئون الدينية المقدسة[1] » .

---

(١) هذا الخطاب وارد باليونانية فى :

(Athanasius, History of the Arians, p. 44)

ولكن الأستاذ دوصن يقرر هنا أنه نقله عن الترجمة الفرنسية :

(Tillemont : Memoires, Tome VII, 313)

وذهب القديس هيلارى أسقف بواتيه إلى أبعد من ذلك، إذ هاجم الإمبراطور بكل ما أوتى من قوة أسلوبه الكلاسيكى، فكتب مثلا «نحن نحارب اليوم ضد مضطهد ماكر وعدو دساس، أى ضد قسطنطيوس المسيح الدجال الذى تلهب سياطه الظهور ولكنها توغر الصدور، والذى لايحكم على الناس بالحياة فى السجون بل يفنيهم بالموت، والذى يشرف بعضهم بعبودية القصور بدلا من أن يلقى بهم فى حرية السجون . . . والذى لا يقطع الرقبة بالسيف بل يساب الروح بالذهب . .»(١)

وأكثر من هذا قوة وصلابة أقوال لوسيفير أسقف كاليارى، إذ تشف عناوين مقالاته عن روح من العداء والتحدى التى تذكرنا بكتابات ترتوليان ضد السلطات المدنية، ومن هذه العناوين «المرتدون الملكيون»، أو «عدم المغفرة عن المذنبين فى حق الرب» أو «واجب الاستشهاد».

ومن هذا يستدل على أن الكنيسة الغربية ظلت أقل ما تكون اعتماداً على الدولة، بل كان الخطر الأدنى احتمالا هو أن تصبح الكنيسة بعيدة عن الإمبراطورية وتقاليد الحضارة القديمة كما حدث للكنيسة الدوناتية فى أفريقيا والكنيسة فى مصر بعد القرن الخامس .

على أن هذا الخطر أمكن اجتنابه بفضل عودة الإمبراطورية الغربية إلى المسيحية الأصلية على عهد أسرة فالنشيان، ومن جهة أخرى بفضل نفوذ القديس أمبروز والتطور الجديد فى الثقافة المسيحية . والواقع أن الكنيسة الغربية وجدت

---

(١) انظر (Contra Constantium imperatorem, 5)

فى شخص القديس أمبروز — دون أية شخصية أخرى — زعيما فى استطاعته أن يتمسك بحقوق الكنيسة تمسكاً لا يقل عن القديس هيلارى فى شدته ، وهو فى نفس الوقت صديق مخلص للأباطرة وخادم أمين للإمبراطورية .

وكان أمبروز رومانيا حقاً من الطراز الرومانى الأول ، ولد وتربى فى جو التقاليد السائدة بين طبقة الموظفين المدنيين فى الإمبراطورية ، وبذا جاء إلى خدمة الكنيسة مزوداً بما اشتهر به الموظف الرومانى من روح عامة وإخلاص للواجب العام . ولم يقلل إخلاصه للمسيحية من ولائه للدولة الرومانية بحال ، إذ اعتقد أن الإيمان الحق سوف يكون مصدر قوة جديدة للإمبراطورية، وأنه كما انتصرت الكنيسة على الوثنية فسوف تنتصر الإمبراطورية المسيحية على البرابرة .

ومن الدليل على رسوخ هذا الاعتقاد ما كتبه أمبروز إلى الإمبراطور جراشيان قبيل القيام بحملته ضد القوط ، ومنه ما نصه . . « سر أنت، وتقدم فى حماية درع الإيمان ، مسلحاً بسيف الروح القدس ، وامض نحو النصر الذى وعدنا به الرب منذ القديم البعيد وأنبأنا به أنبياء الرب . . . . إن جيوشنا لا تتقدمها النسور الحربية أو تهتف بها الطيور الطائرة ، بل يرشدها اسمك أنت أيها السيد المسيح ، وكذلك صلواتنا عليك . إن هذه الأرض ليست للكافرين ، بل هى إيطاليا التى غدا دينها أن ترسل رجال الدين إلى مختلف الأقاليم . هى إيطاليا التى كثيراً ما أغراها أهل الإغراء ، لكنها لم تنخدع أبداً لإغرائهم . هى إيطاليا التى حماها جلالتكم طويلا والتى تنقذونها أنتم الآن من البرابرة»(١) .

---

(١) انظر De Fide, II, XVI. 136, 142 (trans. H. de Romestin).

ومن هذا وذاك يتضح أن أمبروز كان أول الدعاة إلى مثالية الدولة المسيحية فى الغرب ، كما كان يوزيبوس أسقف قيصرية الشرق . غير أن أمبرور يختلف تمام الاختلاف عن يوزبيوس فى تصويره لواجبات الحاكم المسيحى والعلاقات بين الكنيسة والدولة . ذلك أن موقف يوزبيوس من الإمبراطور قسطنطين اقتصر على موقف أسقف يدين بالفضل للبلاط البيزنطى ، وهو يحيط شخص الإمبراطور بهالة سماوية من السلطان على غرار الهالة التى أحاطت الملكيات الثيوقراطية القديمة دائماً فى الشرق القديم . أما أمبروز فانتمى إلى تقاليد أخرى ، إذ يقف فى منتصف الطريق بين مثالية العصور القديمة القائمة على المسئولية المدنية ومثالية العصور الوسطى المنادية بسمو السلطة الروحية . ذلك أن أمبروز جمع فى شخصه شيئاً من صفات الحاكم فى العصور الرومانية وشيئاً من صفات البابا فى العصور الوسطى ، فرأى أن قانون الكنيسة لا يمكن تطبيقه إلا على أيدى حكامها ، أى الأساقفة الذين يخضع لسلطانهم جميع الناس حتى الإمبراطور نفسه. وفى ذلك كتب أمبروز ما نصه « إن مركز الإمبراطور يكون داخل الكنيسة لا فوقها . . . . وفى شئون العقائد الدينية يكون الأساقفة قضاة الأباطرة المسيحيين لا أن يكون الأباطرة قضاة الأساقفة» [1] ولهذا نرى أنه على حين يخاطب يوزبيوس الإمبراطور قسطنطين على أنه مخلوق مقدس يعلو أحكام البشر [2]، لا يتردد أمبروز

(١) انظر (Ambrose, Ep. XXIV,4,5)

(٢) انظر مثلاما كتبه يوزبيوس فى مدح قسطنطين ، ونصه «دعى أضع أمامك أيها الإمبراطور القوى المنصور بعض الأسرار الربانية المقدسة ، لا بقصد تعليمك لأنك استقيت علمك من الرب ، ولا بقصد إفشاء سر هذه العجائب الخفية التى لم يكشف الرب عنها عن طريق أحد من البشر بل عن طريق مخلصنا المسيح وما أعقب ظهوره من ضوء ساطع مستمر ، وإنما أردت أن أوضح هذه الأسرار أملا فى هداية الجاهلين إلى نور الحق ، ولكى أشرح بواعث أعمالك — المشبعة بروح التقوى — للذين لا يعرفونها » . (Cf. Cap. xi)

فى زجر الإمبراطور نيودسيوس العظيم ومحاسبته على أعماله المنافية للعدالة. فيقول له ما نصه «است إلا بشراً استولت عليك الضلالة، وعليك أنت أن تستولى عليها، فإن الخطيئة لا نمحوها إلا الدموع والتوبة» . (١)

ولمواقف القديس أمبروز تأثير بعيد المدى فى مثاليات الكنيسة الغربية، إذ ساعدت على تقوية التحالف بين الكنيسة والإمبراطور، على حين حفظت الفكرة الغربية التقليدية للسلطان فى الكنيسة . وفى الشرق ظلت الكنيسة ملزمة بالرجوع إلى الإمبراطور والمجامع الدينية —التى اعتاد دعوتها للمحافظة على وحدة الكنيسة، على حين لم تبلغ الحركة المجمعية فى الغرب هذا المستوى من الأهمية، بل رأت الكنيسة العربية فى الكرسى البابوى فى روما مركزاً للوحدة والنظام الكنسى . ولا أهمية هنا لمحاولات مجمع سارديكا سنة ٣٤٣ — والإمبراطور جراشيان سنة ٣٧٨ لتحديد جغرافية البابوية وسلطانها، بالقياس إلى الاعتقاد التقليدى بأولوية الكرسى البابوى الرومانى وأصالة «الولاء لروما» على أنهما أساس طبيعى للكاثوليكية . ثم اكتمل هذا التطور فى القرن الخامس على يد البابا ليو الذى وحد بين عقيدة القديس أمبروز فى الوظيفة الإلهية للإمبراطورية الرومانية، وبين الاعتقاد التقليدى بأولوية الكرسى الرسولى البابوى، على حين أتم القديس أوغسطين — فى نفس القرن — التطور اللاهوتى الغربى، وزود الكنيسة بالآراء التى غدت رأس المال الفكرى للمسيحية الغربية لألف ونيف من السنين .

---

(١) انظر (Ambrose; Ep. LI. 11)

ولهذا نجد أنه عندما انهارت الإمبراطورية الغربية بسبب ضربات البرابرة ظلت الكنيسة بنجوة من هذه الكارثة ، إذ كانت هيئة مستقلة تحمل فى جوانحها عنصر وحدتها فضلا عن جهاز سلطانها الاجتماعى . ولهذا استطاعت الكنيسة فى آن واحد أن تصبح وريثة الحضارة الرومانية القديمة وممثلتها ، وأن تصبح كذلك معلماً ومرشداً للشعوب البربرية الجديدة عليها هذه الحضارة . ولم يكن الحال كذلك فى الشرق حيث أصبحت الكنيسة البيزنطية مرتبطة أشد ارتباط بالإمبراطورية ، وغدا الاثنان جهازاً اجتماعياً واحداً لا يمكن تجزئته دون أن يتحطم ، وأضحى كل شىء فيه تهديد لوحدة الإمبراطورية كفيلا بتهديد وحدة الكنيسة . ونتج عن ذلك أنه على حين استطاعت الإمبراطورية فى الشرق أن تقاوم هجمات البرابرة ، فقدت كنيستها وحدتها بسبب حركة القوميات الشرقية ضد المركزية الكنسية التى سارت عليها الدولة البيزنطية . ثم أخذت النعرة القومية بين الشعوب الشرقية تصطبغ بصبغة دينية خالصة ، ونهضت الكنيسة لمقاومة هذه النعرة القومية الدينية ، مما ترتب عليه أخيراً سيطرة الكنيسة على الدولة .

غير أنه على الرغم من انفصال قسمى الإمبراطورية الرومانية دينياً وسياسياً بعضهما عن بعض منذ القرن الخامس الميلادى ، فإن ذلك الانفصال لم يكن تاماً ، إذ ظلت البابوية تحتفظ بنوع من الصدارة فى الشرق ، لأن أسقف روما ظل فى أعين الشرقيين محتفظاً بشىء من صفة خاصة — على قول هارناك — وهى صفة

لم يتصف بها سائر الأساقفة ، أو هى هالة نورانية أضفت عليه سلطاناً خاصاً.(١) ثم إن الكنيسة الغربية ظلت تنظر إلى نفسها كأنها كنيسة الإمبراطورية كلها، كما ظلت تعترف بالطابع المسكونى العالمى للمجامع العامة التى دعى الأباطرة البيزنطيون إلى انعقادها .

وانطبقت هذه الأحوال على المرحلة التاريخية التى نحن بصدد البحث فيها . على أن الرابطة الدينية بين الشرق والغرب لم تتهدم نهائياً إلا فى القرن الحادى عشر ، حين بدت وحدة مستقلة منفصلة فى الثقافة والدين عن سائر أجزاء العالم الرومانى القديم .

---

(١) انظر Harnack: History of Dogma (Eng. trans). III. 226 حيث يقول « على أن بريق هذه الهالة لم يكن بالدرجة الكافية لتضفى على صاحبها حصانة مطلقة ، لأنها كانت هالة مشوبة بشىء من قلة الوضوح بحيث كان من المستطاع عدم الانتباه إليها دون أن يترتب على ذلك صدام مع روح الكنيسة العالمية » وكما أشار هارناك (Ibid. p. 226 n. 2) كان مؤرخا الكنيسة اليونانيان وهما ـ سقراط وسوزومين ـ شاهدى عدل على المركز الذى أحرزه الكرسى البابوى فى القسطنطينية فى القرن الخامس ، وكلاهما علمانى ومن رجال القانون. انظر كذلك (Batiffol. Le Siege Apostolique 411-414)

# الفصل الثالث

## التراث الكلاسيكي والديانة المسيحية

إذا دانت أوربا بكيانها السياسى للإمبراطورية الرومانية وبوحدتها الروحية للكنيسة الكاثوليكية ، فهى تدين بثروتها الفكرية إلى عامل ثالث هو التراث الكلاسيكى الذى يعد كذلك أحد الأركان الأساسية التى أسهمت فى تكوين الوحدة الأوربية .

والواقع أنه يصعب علينا أن ندرك مدى ماندين به للتراث الكلاسيكى ، بعد أن غدا جزءا أساسيا مكملا لمزيج الحضارة الغربية ، حتى إننا لم نعد نشعر بما لهذا التراث من أثر خاص فى تفكيرنا. وظل التراث الكلاسيكى فى طول التاريخ الأوربى وعرضه ، الأساس الدائم للأدب الغربى والحياة الفكرية الغربية؛ فساعدت الثقافة الرومانية أولا على نشره فى غرب أوربا ثم بقى هذا التراث بعد سقوط روما ، وظل باقيا خلال العصور الوسطى على أنه جزء من التراث الفكرى للكنيسة المسيحية . وعند ما حل عصر النهضة الأوربية الكبرى تحرك ذلك التراث فى قوة جديدة ، وأضحى مصدر الإلهام والنموذجية فى الآداب الأوربية الجديدة ، بل أضحى أساس التربية المدنية .

وهكذا ، ولمدة ألفين من السنوات على وجه التقريب ، ظلت الأجيال

الأوربية تذهب إلى مدارس متشابهة فى مناهجها الكلاسيكية ، وندرس دراسة تقليدية فى مؤلفات الأساتذة الكلاسيكيين من أمثال هومر وهوراس وفرجيل، بحيث ظل التلاميذ فى مدارسهم والطلاب فى جامعاتهم يستخدمون فى القرن التاسع عشر نفس المؤلفات ، وتتجه عقولهم نحو المستويات التى سارت عليها عقول أسلافهم الرومان قبلهم ، منذ ألف وثمانمائة من السنين .

ولذا يكاد يكون من المستحيل أن نبالغ فى تقدير التأثير الجمعى لهذا التراث القديم المتصل التأثير ، والذى لا يشبهه فى التاريخ شىء سوى التراث الكنفوشيوسى فى الصين . ومما يدعو إلى الالتفات أن يبدو هذان التراثان كأنهما على وشك الاقتراب من النهاية والزوال فى وقت واحد وتحت تأثير قوى واحدة .

غير أن التراث الكلاسيكى الأوربى يختلف عن التراث الصينى فى خاصية هامة ، وهى أن التراث الكلاسيكى على الرغم من ارتباطه الوثيق بالحضارة الرومانية لم ينبت فى غرب أوربا ، وأن الدولة الرومانية لم تنشئه ، لأن دورها كان أقرب إلى دور الوسيط فى نقل ذلك التراث من موطنه الأصلى فى العالم الهلينى إلى الغرب . والواقع أن التراث الكلاسيكى هو الهلينية لا أقل ولا أكثر ، وربما كانت أعظم الخدمات التى أدتها الدولة الرومانية للحضارة هى تكييف التراث الكلاسيكى الهلينى تكييفاً ماهراً مطابقاً لحاجات العقل الغربى وأساليب اللغات الغربية ، حتى غدت اللغة اللاتينية لا وسيلة بديعة للتعبير عن الحياة الفكرية فحسب ، بل وسيلة كذلك لحمل بذور الحضارة الهلينية فى غمرة التيارات البربرية . ولهذا يحتل عظماء المؤلفين الكلاسيكيين فى القرن الأول قبل الميلاد — وخاصة شيشرون وفرجيل وليفى وهوراس — من المكانة والأهمية فى

تاريخ أوربا ما يفوق قيمتهم الأدبية الخالصة ، مع ما لهذه القيمة الأدبية من ضخامة ، وذلك لأنهم آباء التراث الأدبى الغربى ودعائم الصرح الذى قامت عليه الحضارة الأوربية .

ويشرح ذلك أنه فى الوقت الذى نجحت الدولة الرومانية خلاله فى السيطرة على العالم الهلنستى كله ، توطدت سيطرة التراث الكلاسيكى الهلينى على العقل الغربى ، بفضل ما اصطبغ به الأدب اللاتينى فى عصر أوغسطس قيصر من صبغة هلنستية . ثم ظلت هذه السيطرة الهلينية تزداد وتنتشر خلال القرنين الأول والثانى من تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، فشهد هذان القرنان من ناحية نهضة فى التراث الهلينى فى صورته الكلاسيكية البحتة فى أنحاء العالم اليونانى ، كما شهدا من ناحية أخرى انتقال الصورة اللاتينية للتراث الهلينى إلى الأقاليم الرومانية الغربية وغدا أساساً لثقافتها ، وهى الصورة التى اكتمل نموها فى القرن الأول قبل الميلاد ولا سيما فى إنتاج شيشرون . وانتشرت الثقافة الكلاسيكية انتشاراً واسعاً فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية . ولم تصبح المدن الكبرى وحدها — مثل روما وإنطاكية والإسكندرية وقرطاجنة — مراكز لنشاط تعليمى عظيم ، بل شاركتها فى ذلك مدن إقليمية مثل ما دورا فى إفريقية ، وأوتون وبردو فى غاليا ، وقرطبة فى إسبانيا ، وغزة وبيروت فى الشام . وكتب الشاعر جوفنال ، يصف مدى التهافت على التعليم ، حتى بين البرابرة ، فقال ما نصه :

« أصبح يوجد للعالم الآن أثينا يونانية وأثينا رومانية ، وأخذت فصاحة

غاليا تعلم محامى بريطانيا ، كما أخذت بلاد تيول[١] البعيدة تستأجر أحد أمراء البيان » .

وكانت هذه الثقافة أدبية خالصة ، ولم يكن للعلوم فيها سوى مكانة ضئيلة ، ما خلا فى الإسكندرية . والواقع أن علم البلاغة كانت له السيطرة على التعليم كله ، كما كان الخطيب الناجح معبود جمهور المتعلمين ، وذلك منذ أخذ فى تعليمه جورجياس وأصحابه من السوفسطائيين فى القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تعهدته مدارس العالم الهلينى بعنايتها . على أن علم البلاغة كان أوسع كثيراً مما نفهمه نحن من هذا الاسم ، إذ كان يمثل منتهى دائرة الدراسات التثقيفية — وهى التى أطلق عليها اسم الفنون الحرة ، والتى كانت أصلا لما عرفته العصور الوسطى باسم المجموعة الرباعية والمجموعة الثلاثية[٢] .

وبصرف النظر عن هذه المثالية العريضة التى تمسك بها شيشرون وتاكيتوس لعلم الخطابة، فإن الخطيب الخالص — مثل كونتليان أوأرستيديز — لم يكن عالماً من أهل العلم وكفى، بل هدف إلى ما هو أوسع من المعرفة ، أى ثقافة

---

(١) تيول اسم أطلقه الرومان على جزيرة فى شمالى أوروبا الغربى ، ويحتمل أن تكون جزيرة شتلاند أو أيسلند ، وقالوا إنها الحد الأقصى للعالم من ناحية الشمال .

(٢) ترجع هذه المثالية فى تعليم العلوم الحرة إلى عصر السوفسطائيين أنفسهم ومنهم بصفة خاصة هيياس الأليايوى . غير أن عدد العلوم الحرة لم يتحدد نهائياً إلا فى عصر مارتيانوس كابلا وغيره من المؤلفين فى أواخر عصر الإمبراطورية . أما تقسيم هذه الفنون إلى مجموعتين وهما المجموعة الثلاثية والمجموعة الرباعية ، فيرجع من الناحية التاريخية إلى مابعد ذلك ، بل يرجع إلى عصر النهضة الكارولنجية ترجيحاً . ومن جهة أخرى فإن فكرة اعتبار الفنون الحرة فى العصور الوسطى أساساً تمهيديا لدراسة اللاهوت ، ترجع فى الواقع إلى اتجاه قديم جداً، أى إلى بوسيدنيوس وفيلو ، ومنهما انتقلت إلى المشتغلين بالعلوم فى مدينة الإسكندرية .

أدبية عامة هى الإنسانية . والواقع أن المثالية الإنسانيـــة فى الثقافة — وهى النموذج الذى سيطر على التربية والتعليم الحديث منذ عصر النهضة الأوربية الـكبرى — يدين بنشأته إلى حركة إحيائية فى ذلك العصر ، تستهدف ممارسة أساليب البلاغة القديمة . ونستطيع أن نقول كذلك إن ممارسة هذه الأساليب البلاغية القديمة ظلت حية فى العصور الوسطى على مقياس أوسع مما ننصور ، بل لم يخل عصر من عصور التاريخ الأوربى من أثر واضح لها . ثم إن الـكاتب الأديب الذى يخاطب الجمهور المتعلم كان من نتائج هذه الثقافة دون غيرها من الثقافات . وكان ألـكوين وحناسالسبورى وبترارك وأرازمس وبودين وجروشيوس ونولتير ، خلفاء البلاغيين الأقدمين . ولم يكن هذا سوى ناحية من نواحى التراث الـكلاسيكى الذى استمدت منه الثقافة الأوربية روح الابتـكار .

غير أنه بدا فى القرن الرابع الميلادى كأن الديانة المسيحية الجديدة تهـــدد سيطرة التراث الـكلاسيكى الوثنى تهديداً خطيراً . ذلك أن المسيحية قامت على أسس تراث شرقى لا تربطه صلة بالهلينية ، فضلا عن أن روحها ومثاليتها عارضت روح البلاغيين والأدباء الوثنيين أشد المعارضة . ثم إن المسيحيين لم يدينوا بشىء للتراث الـكلاسيكى الوثنى ، بل كان لهم تراثهم الـكلاسيكى الخاص وهو مجموعة الأسفار الدينية المقدسة التى اختلفت فى أسلوبها وروحها عن الأدب الوثنى اختلافاً عميقاً لم يترك أول الأمر مجالا لشىء من التفاهم بين الجانبين . وكتب ترتوليان فى هذا المعنى متسائلا « ما العلاقة بين أثينا وبيت المقدس ؟ وما التفاهم المحتمل بين الأكاديمية والـكنيسة ؟» . وأنـكر القـــديس بولس الرسول كل علاقة بجمال الأسلوب أو حكمة الفلسفة العلمانية ، فقال ما نصه

«أين الحكيم ؟ أين الكاتب ؟ أين مباحث هذا الدهر ؟ ألم يجهّل الله حكمة هذا العالم ؟ لأنه إذا كان العالم فى حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة . لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة . . . . . . . . . . »[1]

وهكذا اتجهت المسيحية لا نحو المجتمع العالى وما فيه من عقلية معقدة عقيمة ، بل إلى الروح البشرية وحاجاتها ، وإلى التجربة الروحية التى يرنو إليها كل إنسان . ومصداق ذلك قول ترتوليان « تقدمى أيتها الروح وانطقى بشهادتك . لكنى لا أدعوك وأنت تنطقين بالحكمة الدنيوية بعد تهذيبك فى المدارس وتدريبك فى المكتبات وامتلائك بمعارف الأكاديميات والأروقة الأتيكية . إنى أخاطبك وأنت على فترة من البساطة والبدائية والخلو من التهذيب والتعليم ، حين تكونين ولا شىء غيرك فى القلوب ، أى حين تكونين الشىء النقى الكامل فى قلب الفرد ، سواء أكان على سفر أم مقيما بين أهله أم مشغولا بعمله اليومى[2] » .

والواقع أن معظم المسيحيين الأولين لم يكونوا من أرباب العلم والثقافة ، بل كان أغلبهم من أهل الطبقة الدنيا وفقراء الطبقة الوسطى فى المدن ، على حين كان أغلبهم فى الريف من الفلاحين الذين لم يمسهم من الثقافة الكلاسيكية شىء ، واحتفظوا بلغاتهم الإقليمية الوطنية ، أى السريانية أو القبطية أو البونية . ومن

---

(١) انظر رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس — الإصحاح الأول ( ٢٠ — ٢٤ )

(٢) انظر Tertullian . De Testimonio Animae. 1
Trans. Roberts and Donaldson.

الطبيعى والحال هذه أن ينظر أرباب التراث الكلاسيكى إلى المسيحية بأنها خصيمة العلم والثقافة ، وأن يربطوا بين مصائر الهلينية والوثنية القديمة ، كما فعل الإمبراطور جوليان أو الفيلسوف فرفريوس الصورى . ولم يجد رجل الثقافة الكلاسيكية فى تفكيره القانع بالمتوسط أو مادونه ، مايتفق مع تزمت الشهداء ورهبان الصحراء الذين حرموا كل شىء من شأنه أن يجعل الحياة بهيجة ، وأنذروا بقرب فناء الحضارة المدنية كلها . ولذا وصف ماكسيموس مادورا المسيحية — وهو رجل البلاغة الوثنى الذى كاتب القديس أوغسطين — بأنها محاولة لبعث الوحشية الشرقية ، لإحلال دين — أصحابه مجرمون محكوم عليهم بالإعدام ، وأسماؤهم بونية بشعة — محل جليل شخصيات الآلهة الكلاسيكية(١) .

وعلى الرغم من هذا كله كانت عملية من الهضم والتمثيل تجرى وقتذاك دون أن يهتم لها زعماء الفكر فى ذلك العصر . وعن طريق هذه العملية أعدت الكنيسة نفسها لاستقبال الثقافة الكلاسيكية وبناء ثقافة مسيحية جديدة . ومن الدليل على ذلك أن أفراداً من المثقفين الذين اعتنقوا المسيحية حديثاً — مثل جستين النهيد وأثيناجوراس — أخذوا منذ أوائل القرن الثانى الميلادى يخاطبون جماعات المتعلمين ، ويحاولون أن يبرهنوا على أن تعاليم المسيحية تتفق مع مثاليات العقلية المستمدة من الفلسفة القديمة . وأشهر هذه المحاولات حوار عنوانه « حوار أوكتافيوس » ألفه منوسيوس فيلكس ، وهو حوار شيشيرونى يغلب عليه طابع كلاسيكى خالص فى شكله وروحه . وإذا كان من المعروف أن ترتوليان — وهو أعظم الآباء اللاتينيين المدافعين عن المسيحية — كتب

---

(١) انظر Aug. Epist. xxi.

ما كتب بروح تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فمن المسلم به أنه كان من فحول رجال البلاغة مع تجاهله لمقتضيات التقاليد الكلاسيكية ، وأنه استأدى أساليب المحامى الرومانى فى خدمة الديانة الجديدة .

وبلغ هذا الاتجاه الواضح بين دعاة المسيحية لاستقبال الفكر الهلينى والثقافة الهلينية أقصى ما بلغ من تطور فى مدرسة الإسكندرية فى القرن الثالث . وكان كل من أوريجين وسلفه كلمنت أول من فكر فيما غدا المثل الأعلى للعصور الوسطى ، وهو أن تكون سيطرة العلوم أساساً لعلم اللاهوت المسيحى ؛ إذ رأى أوريجين أنه كما اعتبر اليونانيون أن الفنون والعلوم مرحلة إعدادية لدراسة البلاغة والفلسفة ، فينبغى أن تكون الفلسفة نفسها دراسة إعدادية للاهوت ، بمعنى « أن قول أتباع الفلاسفة بأن الهندسة والموسيقى والنحو والبلاغة والفلك كلها خادمات للفلسفة ، ينبغى أن نقوله عن الفلسفة نفسها بالنسبة للاهوت[1] » . وقرر جريجورى ثوماتورجوس — تلميذ أوريجين — « أنه ينبغى لنا أن نتعرف ونقارن بكل ما لدينا من مواهب بين جميع كتابات القدماء ، سواء كانوا فلاسفة أو شعراء ، فيما عدا كتابات الملاحدة ، وبذا نعطى كل شىء حقه »[2] . وكانت نتيجة هذا المنهج تركيب مزجى عميق المدى بين المسيحية والفكر الهلينى ، وهو ما أثر تأثيراً عميقاً فى جميع مراحل تطور اللاهوت المسيحى ، ولكنه أثار من أول الأمر معارضة كبيرة ، على أساس أن هذا المنهج يناقض تقاليد المسيحية ، وهو قول حق

---

(١) انظر Philocalia, xiii, 1 (Trans. W. Metcalfe)

(٢) انظر Gregory Thaumaturgus . Panegyric of Origen xiii (Trans. W. Metcalfe).

فى بعض النواحى على وجه التأكيد . غير أنه مما ينبغى ملاحظته أن هذه المعارضة لآراء أوريجين لم يكن معناها أى عداء للثقافة الهلينية ، بغض النظر عن الفلسفة الهلينية ذاتها . والواقع أن كلا من المعسكرين لم يخل من هلينية ، بدليل أن زعيم المعارضين لأوريجين — وهو مثوديوس الأولمبى — ذهب إلى أبعد من أوريجين نفسه فى الولاء للتراث الكلاسيكى [١] .

وهكذا رسخت أوتاد الثقافة الكلاسيكية فى بناء الكنيسة منذ أوائل القرن الرابع ، وأعقب السيادة المسيحية فى الدولة الرومانية حركة إحيائية عظيمة فى ميدان الأدب . وتزعم هذه الحركة من أعلام البلاغة فى القرن الرابع هيمريوس وثمتيوس وليبانيوس ، وهم وثنيون ، ولكن لم تعوزهم قلة التلاميذ والمقلدين بين المسيحيين ، بل كثيرا ما فاق الكتاب المسيحيون أساتذتهم فى ذلك العصر من وجهة النظر الأدبية البحتة . والواقع أن آباء الكنيسة فى القرن الرابع - سواء فى الشرق أو فى الغرب - كانوا بالضرورة «خطباء مسيحيين» مشاركين لمنافسيهم الوثنيين فى الثقافة والتقاليد ، ولم يكن أدبهم تكراراً لانهاية له لموضوعات بالية مصدرها قاعات الدرس ، بل كان أداة لقوة روحية جديدة . وقبل ذلك بثلاثة قرون دلل تاكيتوس على أن الخطابة غدت جوفاء غير واقعية لأنها لم تعد تملأ وظيفة حيوية فى المعترك السياسى ، إذ الخطابة — على قوله « كالنار تحتاج إلى وقود يطعمها وحركة تذكيها ، وهى تسطع فى أثناء احتراقها » [٢] . ثم استطاعت الخطابة عن طريق الكنيسة أن تستعيد هذه

(١) وجاء كتاب مثوديوس المسمى « وليمة » (Symposium of the Ten Virgins) مقلداً معقداً لحوار أفلاطونى .

(٢) انظر (Dialogus de claris oratoribus, 30)

الصلة الحيوية بالمجتمع حين وجدت فى أكليزيا الجماعات المسيحية بديلا عن أكليزيا المدن اليونانية . وبذا انفسح المجال مرة أخرى لمناقشة أعمق المشكلات فى حماسة شديدة أمام مستمعين من جميع الطبقات ، كما حدث عندما ألقى القديس حنا فم الذهب مواعظه على أهل أنطاكية ، حين كان مصير هذه المدينة معلقاً فى كف القدر . وفى ذلك الجو غدت أعوص المسائل اللاهوتية تأخذ بلب رجل الشارع ، أما الرجل الذى يستطيع أن يتكلم أو يكتب فى هذه المسائل فى شىء من الفصاحة والمهارة ، فكان ضامناً لنفسه نفوذاً واسعاً .

وينطبق هذا طبعاً — ولأول وهلة — على العالم المتكلم باليونانية ، أى عالم أثناسيوس وأريوس ، وباسل وإينوميوس، وكيرلس وثيودوريت . على أن التقاليد الخطابية كانت ذات شأن قوى كذلك فى الغرب اللاتينى ، ولو أن هذه كانت تقاليد الرومانيين من الحكام والخطباء لا تقاليد السفسطين والديماجوجيين الهلينيين . ومما لا شك فيه أن العالم الهلينى ظل محتفظاً بزعامته الحضارية ، وأن يوزبيوس أسقف قيصرية ، والقديس باسل ، وجريجورى أسقف نيسا ، وجريجورى أسقف نازيانزوس ، كانوا أوسع وأعمق ثقافة فى الأدب والفلسفة من أى معاصر لهم فى الغرب ، وحفظوا تقاليد المدرسة الأوريجنية، على حين ورثت التقاليد الغربية شيئاً من روح القانون والسلطان التى دعا إليها ترتوليان وسيبريان . على أن ظهور الثقافة المسيحية الجديدة فى القرن الرابع أدى إلى إيلاف الشرق والغرب مرة أخرى ، بدليل أن القديس أمبروز كان دءوبا على دراسة الأدب اليونانى ،وأنه يدين لمؤلفات الأدباء اليونانيين أكثر مما يدين به لكل من ترتوليان وسيبريان اللذين أهملهما تمام الإهمال . ثم إن القديس جيروم تلقى تعليمه اللاهوتى فى الشرق حيث تتلمذ على القديس

جريجورى نازيانزوس وأبوليناريوس أسقف اللاذقية ، كما أنه درس على أوريجين ويوزبيوس .

وفضلا عن ذلك كان جنوح الكنيسة إلى مسايرة الثقافة العلمانية واستيعاب الآداب الكلاسيكية والفكر الكلاسيكى واضحاً فى الغرب وضوحه فى الشرق . ومثال ذلك أن القديس أمبروز عمد إلى تزيين مواعظه بمقتطفات من فرجيل وهوراس ، كما اتخذ من شيشيرون نموذجاً ومرشداً فى أشهر تأليف له ، وعنوانه « وظائف رعاة الكنيسة » . ثم إن التقاليد الشيشيرونية غدت ركناً أساسياً فى الثقافة المسيحية الجديدة ، وتأثر بها أدب آباء الكنيسة الأولين منذ زمن لاكتانتيوس حتى زمن أوغسطين ، وهذا مع العلم بأن القديس جيروم كثيراً ما أشار فى عبارات قاسية إلى خطر الأدب الوثنى . وكثيراً ما جعل المعاصرون قصة الرؤيا الشهيرة التى اتهم فيها بأنه «من أتباع شيشيرون لا من أتباع المسيح» دليلا على عداوة المسيحية للثقافة الكلاسيكية [1] . على أن المغزى الصحيح لهذه القصة هو أن حب جيروم للأدب الكلاسيكى بلغ من العمق درجة جعلته مصدراً للإغراء الروحى . ولو أنه لم يقف فى وجه ذلك الاتجاه لكان من المحتمل أن يغدو خطيباً ولا شىء أكثر من ذلك ، وفى هذه الحالة كانت العصور الوسطى تفقد أعظم إنتاج دينى خالد ، وهو الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس . ذلك أن جيروم لم يحاول فى ترجمته للكتاب المقدس أن يتبع مستويات شيشيرون بل أوسع للعظمة الفطرية فى الأصل العبرى أن

---

(١) انظر (Epist XX 11) وقارن ذلك بما ورد فى (Rufinus Apol. II, 6) وجواب القديس جيروم على هذه التهمة فى (Apol. I. 30-31)

تنعكس فى أسلوبه ، وبذا أغنى اللغة اللاتينية بمحصول جديد من التعبير اللغوى . ومع أن جيروم حاول أن يكون معتدلا فى حماسته ، فإنه لم ينس أبداً حبه الدافق لشيشيرون أعظم الخطباء ، « توليوس ( شيشيرون ) الذى اعتلى قمة الفصاحة الرومانية ، أمير الخطباء ومهذب اللغة اللاتينية » .(١)

ويروى روفينوس — فى شيء من الضغينة — أن جيروم فى أواخر عمره كان يدفع للنساخ مقابل ما ينسخونه له من خطب شيشيرون ومحاوراته أكثر مما يدفعه مقابل نسخ المتون الكنسية (٢) ، وأنه علم الأطفال فى بيت لحم قراءة فرجيل والشعراء الوثنيين . والواقع أن جيروم كان أبعد من أن يكون خصما للتراث الكلاسيكى ، بل إنه كان أعظم أبناء الكنيسة انغماساً فى الأدب الوثنى وأعمقهم تأثراً بالتقاليد الخطابية . ثم إن روح التعصب والعناد التى ضاق بها كثير من النقاد المحدثين لم تنشأ عن تعصب دينى فى نفس جيروم المتزمت ، بل عن سرعة الغضب فى نفس جيروم الباحث ، بدليل التشابه العجيب بين هجماته الأدبية وهجمات العلماء الإنسانيين فى عصر النهضة ، وهم أنفسهم من أشد المعجبين بالقديس جيروم (٣) .

---

(١) انظر مقدمة ( Hebraicae Quaestiones in Genesim Cauallera ) حيث يقول القديس جيروم « إذا كان رجل مثل شيشيرون لم يسلم من النقد ، فليس عجيباً إذا صاط خنزير قذر فى وجه رجل فقير بسيط مثلى » .

(٢) انظر ( Rufinus . Apol ii. 8 )

(٣) ومثال ذلك أن المصلح الدينى الهولندى أرازمس يتحدث عن جيروم قائلا « هذا الرجل المجيد الذى يفوق جميع المسيحيين بلا منازع . علمه وفصاحته ! ما أعظم الثروة التى تفيض بها مؤلفاته فى الآثار والأدب اليونانى والتاريخ ! وما أعظم أسلوبه وما أعظم ما فى بيانه من سحر يجعله يترك وراءه لا جميع المؤلفين فحسب بل بدا كأنه يعيش مع شيشيرون نفسه Epist. 134 trans. Nichols (=C. P. 141 ed. Allen ) ولجأ القديس=

ولا يوجد فى الواقع نظير لتأثير جيروم فى الديانة المسيحية ، بل إن القديس أوغسطين نفسه لا يدانيه فى ذلك . على أن تأثير جيروم كان أدبياً لا فكريا أو لا هوتياً ، إذ التقى فى شخصه التياران الروحيان العظيمان ، وهما الأدب الكلاسيكى والإنجيل ، ومن شخصه انبثق هذان التياران مرة أخرى فى تيار واحد ارتوت منه ثقافة العصور الوسطى .

ويبدو تأثير التراث الكلاسيكى أكثر وضوحاً فى نشأة شعر مسيحى جديد، مع العلم بأنه باستثناء القديس جريجورى نازيانزوس فإن المحاكاة الحرفية للنماذج الكلاسيكية فى الشرق أفسدت أية تلقائية فى الشعور . ووجدت هذه المحاكاة أقصى تعبير لها فى محاولة أبوليناريوس اللاذقى وابنه ترجمة الكتاب المقدس نظماً وفق أساليب الشعر الكلاسيكى وأوزانه . وأنتج هذا الاتجاه فى الغرب مجموعة النقول الإنجيلية التى وضعها جوفنكس ، كما أنتج محاولات بارعة ولكنها مضللة ، لنظم قصائد فى موضوعات إنجيلية من فقرات مأخوذة عن أشعار فرجيل بعد فصلها عن سياقها الأصلى . غير أن الغرب تفوق على الشرق بتقاليده الشعرية الحية ، وفى القرنين الرابع والخامس استوعبت الثقافة المسيحية الجديدة هذه التقاليد استيعاباً تاماً . ومثال ذلك أن بولينوس أسقف نولا — الذى كتب تاريخ حياته هنرى فوجهان الإنجليزى — كان إنسانياً

= جيروم — كما فعل العلماء الإنسانيون فيما بعد — إلى التشهير بخصومه عن طريق نعتهم بألقاب مأخوذة من الأدب الكلاسيكى . وأطلق على روفينوس اسم لوشوس لافنيوس أو كالبورنيوس لاناريوس ( نقلا عن سالوست ) كما أطلق اسم كاتلين ولنتولس على بلاجيوس ومساعديه . وفى أثناء النزاع الشهير بين بوجيو وفرانسسكو فيللفو تمسك فيللفو بما وقع بين جيروم وروفينوس ليدلل على تمادى خصومه فى تنديدهم به . انظر رسائل فيللفو الواردة فى ملحق ٤ ، ٤٢ من كتاب Walser : Poggius Florentinus

مسيحياً بمعنى الكلمة ، وهو الأب الروحى لكل من فيدا ومنتيانوس . ولم يكن بولينوس شاعراً عظيما ، لكنه تحلى بنصيب كبير من الثقافة ، كما امتاز بشخصية نبيلة جذابة . وكان تأثيره أعمق من تأثير جيروم وأوغسطين فى التعريف بمثاليات الثقافة المسيحية الجديدة بين الطبقات المتعلمة فى الأقاليم الغربية .

غير أن أعظم الشعراء المسيحيين كان برودنتيوس الإسبانى المعاصر لبولينوس ، وهو الذى وصفه بنتلى الإنجليزى بأنه « المسيحى الذى اجتمعت فيه عبقرية فرجيل وهوراس معاً » . ودل برودنتيوس — دون جميع المؤلفين المسيحيين — على احترام تام للتقاليد الكلاسيكية فى جانبيها الأدبى والاجتماعى ، ولم يقاربه أحد من الشعراء الوثنيين فى وطنيته المدنية وإخلاصه لاسم روما العظيم ، التى لم ينظر إليها بعين ترتليان وأوغسطين على أنها دليل من دلائل الكبرياء البشرى والطموح . ورأى برودنتيوس — كما رأى دانتى بعده — أن الإمبراطورية تمهيد إلهى لتوحيد البشرية فى ظل المسيح — وأن الأخوين فابيوس والأخوين سكبيو أدوات خفية لتحقيق هذا الغرض الإلهى ، كما أن الشهداء ضحوا بأرواحهم كتضحية الفيالق الرومانية فى سبيل روما . ومصداق ذلك أن آخر عبارة كتبها القديس لورانس جاءت دعاءا لروما إذ قال ما نصه « أيها المسيح ، تفضل على أتباعك الرومان بأن تصبح مدينة روما نفسها مسيحية ، وهى التى جعلتها لسائر الناس مركزاً لعقيدة دينية واحدة . . . وتفضل على روما بأن تصبح مرشدة لأشتات البلاد البعيدة لتمتد كلها فى ظل عقيدة واحدة ، وأن يصبح روميلوس من المؤمنين ، وأن يغدو مهيئاً نفسه

للإيمان » . [1] ولا حاجة إلى القول بأن ذلك كله تحقق تماماً ، إذ أصبحت روما القناصل وروما الشهداء وحدة « وأصبحت أضواء السناتو تتمبل عتبات كنيسة الرسل . وأصبح البابا الذى يضع الشرائط المقدسة حول رأسه يحمل علامة الصليب على جبهته كما أصبحت كلوديا الفستالية العذراء تحثو على ركبتيها أمام مذبح كنيسة القديس لورانس . » [2]

ونجد فى أشعار برودنتيوس وبولينوس أسقف نولا كيف تحولت عقيدة الشهداء إلى نظام اجتماعى ومظهر من مظاهر التقوى المدنية ، وهى العقيدة التى ترجع أصولها إلى معارضة العقل المسيحى للمطالب المادية التى تطلبتها السلطة العلمانية . ورأى برودنتيوس كذلك أن الوطنية المحلية القديمة التى سيطرت على المدينة الدولة وجدت مجالا جديداً فى الاعتقاد فى القديسين المحليين ، فوصف لنا مدن إسبانيا وهى تقدم نفسها أمام الله يوم الحساب وكل منها تحمل مخلفات شهدائها المحليين ، وبذلك غدا القديس المسيحى شفيع المدينة وحاميها الذى يضفى عليها من مجده :

« استلقى كلية إلى جانبى فى القبور المقدسة أيتها المدينة المجيدة ، وانبعى بعد ذلك الأرواح والأجساد — بكامل هيئتك — حالما تبعث من القبور » [3]

---

(١) انظر ( Peristephanon .II , 433 )
(٢) انظر ( Peristephanon . II . 517 )
(٣) انظر ( Peristephanon . IV . 197 )

والخلاصة أن التوفيق بين المسيحية والتقاليد الكلاسيكية فى القرنين الرابع والخامس — وهو التوفيق الذى يتراءى واضحاً فى ثقافة آباء الكنيسة وفى الشعر المسيحى الجديد — كان له أعمق الأثر فى تكوين العقل الأوربى ، على أن الباحث الحديث يميل بعض الأحيان إلى اعتبار التراث الخطابى كله نوعاً من الادعاء العلمى الأجوف ، وإلى إهمال شيشيرون نفسه على أنه ثرثار ثقيل الظل ، لكن الحقيقة هى — كما سبق أن أوضحت هنا — أننا ندين للخطيب وعمله التعليمى ببقاء الأدب الكلاسيكى وجميع التقاليد الخاصة بمذهب الإنسانيين . ولولا هذا وذاك لغدت الحضارة الأوربية لا فقيرة فحسب ، بل لاختلفت اختلافاً جوهرياً عن صورتها الحالية ، ولانعدم وجود العلوم الدنيوية والأدب الدنيوى ، ما خلا أدب المنشدين ومؤلفى الأساطير . ولو أن ذلك تم لاقتصرت الثقافة الراقية على الثقافة الدينية ، كما حدث فى العالم الشرقى باستثناء الصين . وبعبارة أخرى كان بقاء الأدب الكلاسيكى والتقاليد الخطابية لا سبباً فى قيام آداب أوربية حديثة فحسب ، بل ساعد كذلك على تكوين المزاج العقلى الأوربى ، كما ساعد على تنشئة النظرة العقلية النادرة للحياة ، وهى النظرة التى غدت إحدى خصائص الحضارة الغربية . والواقع أن تعايش هذين التراثين الروحى والأدبى — أولهما يتمثل فى الكنيسة والإنجيل ، والثانى فى الهلينية والأدب الكلاسيكى — أثر أعمق تأثير فى ثقافتنا ، وأن هـذا التأثير والتعاشق المتبادل أغنى الفكر الأوربى غناء ما كان باستطاعة تراث واحد — مهما عظمت قيمته — أن يحدثه بمفرده .

ومن المعروف أن هذا الطابع البلاغى الأدبى للفكر الأوربى له عيوبه ، إذ إن هذا الطابع مسئول جزئياً عن التكلف الذى يعتبر من أكبر مواطن

الضعف فى الحضارة الأوربية . ثم إن تعايش تراثين فكريين من أصول مختلفة أدى إلى نوع من الثنائية وانعدام المجانسة فى الثقافة الأوربية ، وهو ما لا وجود له فى الحضارات الأكثر بساطة والأكثر تجانساً وتوحيداً . يضاف إلى ذلك أنه لا يمكن القول عقلا بأن التقاليد الخطابية كانت كل ما هنالك من الإنتاج الفكرى فى العالم القديم ، إذ هى لا تعدو تطوراً جزئياً ضيقاً يمثل ناحية واحدة من نواحى العبقرية الهلينية ، ويعجز بطبيعته عن تقدير جهودها العلمية والميتافيزيقية . على أن المسئولية الحقيقية فى عجز ثقافة العصور الوسطى عن الاحتفاظ بتراث العلوم اليونانية لا تقع على الكنيسة ، بل على رجال البلاغة ؛ وذلك لأن التراث العلمى اليونانى ابتعد عن التراث الأدبى لرجال البلاغة خلال العصر الهلينى ، ولذا لم يستوعبه الغرب اللاتينى استيعابه للجانب الأدبى من الثقافة اليونانية . وكان كل ما هنالك من إنتاج لاتينى فى العلم دوائر معارف من تأليف هواة مثقفين مولعين بالكتابة مثل فارو وبلينى ، ومؤلفات هندسية لمهندسين ومساحين . أما المؤلفات العلمية الجديرة بهذا الوصف فترجع كلها إلى علماء يونانيين مثل جالين وكلوديوس بطلميوس فى القرن الثانى الميلادى ، وهما خاتمة العبقريات المبتكرة فى تاريخ العلوم القديمة . غير أنه مما يدعو إلى التأمل أن جالين عاش واشتغل فى روما ، ومع ذلك فإن مؤلفاته لم ينقلها ناقل إلى اللاتينية إطلاقاً إلا فى العصور الوسطى .

ومع هذا بقيت التقاليد العلمية حية حتى فى أواخر عصر الإمبراطورية ، ولكن ذلك اقتصر على الشرق ، حيث ازدهرت العلوم بصفة خاصة فى مدرستى الإسكندرية وأثينا ، اللتين سيطر عليهما تمام السيطرة وقتذاك أصحاب

الأفلاطونية الحديثة . ذلك أن أصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة هدفوا منذ القرن الرابع فصاعدا إلى جمع نتاج العالم اليونانى كله فى وحدة نظامية مبنية على مذاهبهم الميتافيزيقية — واللاهوتية . ثم إنهم هدفوا فضلا عن ذلك إلى التوفيق بين أرسطو وأفلاطون ، وبين بطلميوس وأرسطو . ولذا اتجهت جهودهم لا إلى البحث المبتكر بل إلى الشرح والتفسير فى المؤلفات القديمة . وقام منهجهم الدراسى على أساس مؤلفات أقليدس ونيقوماخوس ، وبطلميوس وجمينوس ، وأرسطو وأفلاطون ، مع استمرار ازدياد أهمية أرسطو ، حتى بلغت ذروتها على أيدى فلاسفة الإسكندرية فى القرن السادس ، وهم أمونيوس وسمبلبقيوس ودامسقيوس وحنافيليونس المسيحى ، وأولئك جميعاً دلوا على سعة معرفة عجيبة بالعلوم القديمة . وكان لهذا الإحياء الأرسطى أهمية عظمى للمستقبل ، ومرجع الفضل فى بدئه منذ أوائل القرن الثالث للشارح العظيم إسكندر أفروذسياس . غير أن هذا الإحياء لم يصل إلى الغرب اللاتينى إلا متأخراً فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وذلك فى صورة سطحية عن طريق كتابات الفيلسوف الرومانى القديم بوئيشيوس .

غير أنه على الرغم من قصور التقدم العلمى فى الثقافة اليونانية عن التأثير فى الغرب ، فإن الفلسفة اليونانية ممثلة فى الأفلاطونية الحديثة أثرت تأثيراً مباشراً فى الثقافة المسيحية اللاتينية الجديدة . ذلك أن معظم الفلسفة فى الغرب تمثل حتى وقتذاك فى الأخلاق الرواقية الداخلة فى صميم التقاليد الخطابية ، لاسيما مؤلفات شيشيرون وسينكا . ولم يكن هناك أى تفكير ميتافيزيقى جديد . أو أية ملاحظات سيكولوجية مبتكرة . ثم حدث حول نهاية العصر

الإمبراطورى أن أخرج العالم اللاتينى فى شخص القديس أوغسطين عبقرية مبتكرة عميقة ، وهو القديس الذى وجدت الثقافة المسيحية الجديدة فى تفكيره تعبيرها الفلسفى الأعلى . وكانت الخطابة كذلك مهنة أوغسطين ، وعن طريق شيشيرون بدأ تفكيره يتجه اتجاهه الأول نحو دراسة الفلسفة . ثم جاءت نقطة التحول فى حياته بعد ذلك بإحدى عشرة سنة ، حين تأثر بمؤلفات أصحاب الأفلاطونية الحديثة ، وهى المؤلفات التى نقلها إلى اللاتينية ماريوس فيكتورينوس — الخطيب الذى اعتنق المسيحية . وبفضل هذه المؤلفات بدأ أوغسطين يقتنع بفكرة الوجود الموضوعى للحقيقة الروحية ، كما استمد منها الفكرتين الأساسيتين اللتين ظلتا قطب الرحى لفلسفته ، وهما فكرة أن الله أصل الوجود والعقل الأول — أى أنه هو الشمس بالنسبة للعالم المدرك — ، وفكرة أن النفس طبيعة روحية تجد سعادتها فى المشاركة فى النور اللدنى .

غير أن أوغسطين لم يقنع بالاتجاه العقلى فى الفلسفة اليونانية ، ولذا لم يقف عند المطالبة بنظرية جدلية بالحق ، بل طالب كذلك بمباشرتها تجريبياً . وفى ذلك يقول أوغسطين ما نصه « إن الأفلاطونيين رأوا الحق فعلا ، ورأوه ثابتاً راسخاً ساطعاً شاملا لجميع الأنواع فى جميع المخلوقات . لكنهم رأوه عن بعد .... ولذا لم يستطيعوا أن يجدوا الطريق الذى يحتمل أن يصلوا منه إلى هذه الحضرة اللدنية العظمى التى تسمو عن الألفاظ الوصفية وتبلغ أقصى مراقى السعادة الأبدية »(١) .

ووجد أوغسطين ذلك « الطريق » فى المسيحية فقط ، أى فى الحكمة

---

(١) انظر ( Sermo 141 )

العلوية التي تهدى الإنسان لا إلى الحق فحسب ، بل تمده بالوسيلة للوصول إلى ثمرته . ثم استكملت فلسفة أوغسطين طابعها النهائى من التجربة التى مر بها هو نفسه عند اعتناقه المسيحية ، وهى تجربة التدخل الروحى الذى بلغ القوة بحيث غير من شخصيته ، كما غير الترتيب الإدراكى للعقل إلى ترتيب حيوى للبر والإحسان . وهكذا انتهى التطور الروحى الذى بدأ بتأليف شيشيرون تاريخ حياة صديقه هورتنسيوس الخطيب الشهير ، بالاعترافات التى كتبها القديس أوغسطين ؛أى أن الحكمة ( Sapientia ) التى اشتهر بها الخطيب الرومانى وصلت مرتبة النضج والتمام فى تأملات ( Contemplatio) المتصوف المسيحى العظيم .

ومن هذا يتضح أن فلسفة أوغسطين تختلف عن فلسفة أوريجين — وهو أعظم المفكرين المسيحيين فى العالم اليونانى — بطابعها الشخصى العميق . ذلك أنه على الرغم من بقاء فلسفة أوغسطين يونانية بتمسكها بوجود نظام عقلى مسيطر على العالم ، وبإحساسها بالخير والجمال فى جميع المخلوقات (١) ، فإنها كانت غربية ومسيحية فى آن واحد بتمسكها بالأحكام السلوكية الخلقية وبسبب ما أوسعت للإرادة من مركز رئيسى .

والخلاصة أن فلسفة أوغسطين فى جوهرها فلسفة ناجمة عن تجربة روحية ، ولذا فهى مصدر للتصوف الغربى والأخلاقيات الغربية ، فضلا عن أنها مصدر التقاليد الغربية فى المثالية الفلسفية .

---

(١) انظر مثلا ( De Trinitate . VIII . iii )

وفى القرنين الخامس والسادس صار تأثير أوغسطين مسيطراً على جميع بلاد الغرب المسيحى ، فكان المؤرخ أوروزيوس ( هورشيوس ) وبروسبر الأكويتينى ، وليو العظيم ، وفولجنتيوس الرسبى جميعاً من أتباع فلسفة أوغسطين ، ثم صارت التقاليد الأوغسطينية فى صورة مبسطة عن طريق القديس جريجورى العظيم ، هى التراث الثقافى للكنيسة فى العصور الوسطى . غير أن هذه التقاليد اللاهوتية لزمتها رغبة متزايدة فى الابتعـاد عن الثقافة الكلاسيكية ، إذ جنح العمق الذى اتسم به تفكير أوغسطين نحو تضييق مدى النشاط الفكرى وتركيز الانتباه كله فى قطبى الحياة الروحية ، وهما الرب والروح . ومن الواضح أن هذا الاستبداد الدينى لم يترك مجالا للأدب الخالص أو للعلم الخالص ، إذ قال القديس أوغسطين إن المعرفة « التى لا يرغب الناس عنها شيئا سوى أن يعرفوا » ليست فى ذاتها سوى فضول لا فائدة فيه ، من شأنه أن يبعد العقل عن هدفه الواحد الحق وهو معرفة الرب وحبه ، فمن الخير للإنسان أن يعرف الرب عن أن يعرف عدد النجوم أو أن يبحث عما خفى من أسرار الطبيعة ، « وبديهى أن الشخص الذى يعرف كل هذه الأشياء ولا يعرفك يارب يكون شقيًا . والسعيد هو الذى يعرفك ، وإن لم يعرف هذه الأشياء . أما الذى يعرفك --- يارب — ويعرفها كذلك ، فهو يسعد لا بفضل معرفته لها ، بل بفضل معرفته لك . »[(١)]

وشاءت المقادير أن تسيطر هذه النظرة على الثقافة الكنسية والديرية فى الغرب اللاتينى لعدة قرون . ومع هذا لم يكن ثمة خطر من بخس قيمة الثقافة الكلاسيكية طالما ظل الغرب محتفظا بالتقاليد الرومانية البيزنطية بشأن قيام بيوقراطية مثقفة

(١) انظر ( Aug. Confessions . V . 3 ) . وكذلك ( X . 35 )

مدربة فى مدارس البلاغة . ومن الدليل على ذلك أن النهضة التى طرأت على الثقافة العلمانية نتيجة حركة الإحياء البيزنطى فى القرن السادس لم تعدم نظيراً لها فى الغرب الذى سيطرت عليه النظرة الأوغسطينية . ويبدو هذا واضحاً بصفة خاصة فى أفريقية حيث غدا بلاط آخر ملوك الونداليين مقصد طائفة صغار الشعراء الذين حفظت أشعارهم المجلدات الأربعة والعشرون للكتاب الذى عنوانه «مختارات سالمسيان» ، وحيث أنتج الجيل التالى لهؤلاء ملحمة كوريبوس التى عنوانها «يوحنا» ، وهى آخر نموذج خالص للتقاليد الكلاسيكية فى الشعر اللاتينى . كذلك كان الحال فى إيطاليا — على عهد ثيودريك — إذ ظلت الإدارة المدنية فى أيدى موظفين على جانب عظيم من الثقافة ، مثل الفيلسوف الرومانى القديم بوئشيوس وسيماخوس وكاسيدروس ، وهؤلاء بذلوا جميع ما فى وسعهم لحفظ تراث العلوم الكلاسيكية . ولم يكن بوئشيوس آخر الكلاسيكيين فحسب ، بل كان كذلك أول المدرسيين ومن أعظم رجال التربية ، وعن طريقه عرف الغرب فى العصور الوسطى منطق أرسطو ومبادئ الرياضيات اليونانية . وختمت وفاته المحزنة على الجهود التى شرعها لترجمة المؤلفات الفلسفية . على أنها أمدت العالم عوضا عن ذلك بكتابه الذى عنوانه « سلوى الفلسفة » ، وهى تحفة فلسفية تعبر تعبيراً كاملا عن الوحدة بين الروح المسيحية والتقاليد الكلاسيكية ، على الرغم مما يسرى فيها من تحفظ عامد ، وقصد فى التعبير .

وألهمت هذه المثالية نفسها كاسيودورس الذى أسهم أكثر مما أسهم به بوئشيوس فى بناء قنطرة ثقافية تصل بين ثقافة العالم القديم وثقافة العصور الوسطى . وبذل كاسيدورس جهوده خلال النصف الأول من حياته — وهو وزير فى خدمة دولة القوط الشرقيين — لتحقيق الوحدة الدينية والتوفيق بين

الغزاة الجرمان والثقافة الرومانية ، على حين كرس النصف الثانى من حياته لخدمة الكنيسة وترويض الثقافة الكلاسيكية القديمة لحاجات المجتمع الكنسى الجديد ومثاليات الحياة الديرية. ويبدو كاسيدورس كأنما أدرك أن الدولة وحدها لم يعد فى مقدورها أن تكون جهازاً صالحاً لخدمة الثقافة العالية الجديدة ، وأن تراث الحضارة الكلاسيكية لا يستطاع إنقاذه إلا بجعله تحت رعاية الكنيسة ، لذلك شرع كاسيدورس —أواخر سنوات الحكم القوطى بمعاونة البابا أجابتيوس— فى تأسيس مدرسة مسيحية فى روما ، لتقوم فى الغرب بمثل الوظيفة التى قامت بها سابقاً فى الشرق مدرسة الإسكندرية الجدلية .

غير أن هذه المشاريع أحبطها قيام الحروب القوطية التى جلبت على الثقافة الإيطالية من النكبات مالم تجلبه غزوات القرون السابقة مجتمعة. لكن كاسيدورس أبى أن يستسلم للفشل . ومع أنه اضطر إلى اعتزال الحياة العامة واللجوء إلى الحياة الديرية ، فإنه وجد فرصة لتحقيق المثالية التى ابتغاها فى الدير الذى أسسه فى ضياعه الواسعة فى بلدة فيفاريوم بإقليم قلورية بجنوب إيطاليا ، حيث جمع مكتبة كبيرة وقام على تأليف منهجين للدراسات الديرية فى كتابه الذى عنوانه «قوانين الرسائل الدينية والدنيوية» ، وهى إحدى المصادر الأساسية لتاريخ الثقافة فى العصور الوسطى . ويتناول الجزء الأول من تلك القوانين — وهو الأهم — مسألة التعليم الدينى ، ويصر على ضرورة التزام مستوى دراسى عال فى البحث فى الكتاب المقدس أو كتابة نسخ منه . أما الجزء الثانى من القوانين فيشتمل على موجز عام لمنهج العلوم السبعة الحرة — ولا سيما النحو والبلاغة والجدل — أى المنهج الدراسى القديم الذى عرفته أواخر أجيال الإمبراطورية الرومانية القديمة فى صورة معدلة ملائمة لحاجات المجتمع المسيحى الجديد . ذلك أن

كاسيدورس اعتبر العلوم الحرة — كما اعتبرها جريجورى نازيانزين وأوغسطين قبله — وسيلة لا غاية للتعليم الدينى ، لكنها وسيلة ضرورية ، لأن إهمال هذه العلوم يؤدى إلى إضعاف الثقافة اللاهوتية وفقرها ، وهى التى جاءت تلك العلوم لخدمتها . ولذا غدت دراسة الشعراء والمتوسلين الوثنيين ( أمراء النثر ) مسموحاً بها ، بل ضرورية ، لاستحالة إتمام المعرفة بالعلوم الحرة بدونها .

وهكذا كان دير فيفاريوم نقطة البداية فى تقاليد العلوم الديرية ، وهى العلوم التى صارت فيما بعد فخر الطريقة الديرية البندكتية . وبذلك ورثت الديرية الغربية تراث الثقافة الكلاسيكية وأنقذته من الانهيار الذى حل بالحضارة العلمانية فى الغرب اللاتينى فى نهاية القرن السادس .

ونحن ندين للمكتبات الديرية ولحجرات نسخ المخطوطات بجميع مالدينا فى العصر الحاضر من بقايا الأدب اللاتينى الكلاسيكى ، سواء بصيانة هذه البقايا بحفظها فى لغتها اللاتينية الأصلية ، أو بترجمتها إلى اللغات الأوربية المتفرعة منها . والمعروف أن الديرية الإيطالية نفسها تأثرت بذلك الانهيار ، وأن كاسيدورس لم يخلف أحداً بعده فى وطنه . على أن آماله وأعماله لم تلبث أن اضطلع بها وأتمها أبناء عالم جديد ، هم الرهبان الأيرلنديون والأنجلوسكسونيون الذين مهدوا الطريق لحركة إحياء التراث الكلاسيكى المسيحى ، وهى الحركة التى سطعت نهائيا فى العصر الكارولنجى .

# الفصل الرابع

## الجرمان

الأركان الثلاثة التى تقدم شرحها هى الدعائم الحقة التى قامت عليها الوحدة الأوربية . لكن هذه الأركان ليست فى ذاتها هى التى كونت أوربا، بل هى الدعائم البنائية التى ساعدت على تشكيل مادة الحضارة الأوربية . وهذه المادة نفسها مصدرها دنيا البرابرة وفوضاها المظلمة . ذلك أن البرابرة كانوا هم المادة البشرية التى تشكلت منها أوربا ، أى أنهم العشائر التى نبع منها العنصر القومى فى الحياة الأوربية ، تمييزاً لهم من الدولة والكنيسة .

وقديماً قلل رجال العلم ورجال الدين المسيطرون على التعليم والفكر من أهمية هذا العنصر القومى، لأن اهتمامهم تركز فى تقاليد الثقافة العليا — أدبية كلاسيكية كانت أو مسيحية دينية . ولأنهم كانوا بحكم وظائفهم حماة هذه التقاليد ، ولأنهم مقتوا مقتاً طبيعيا كل شىء تشتم منه رائحة البربرية. ولم يدرك أحد تمام الإدراك مبلغ أهمية العنصر القومى فى الحضارة الأوربية إلا فى القرن التاسع عشر ، حين سيطرت على أوربا حركة قومية كاسحة ، وأدى تيار تلك القومية الجديدة إلى التقليل من أهمية العناصر الكلاسيكية والمسيحية فى الحضارة الأوربية ، واعتبار أن كل شىء مستمد من القوة الحيوية النابعة من

العبقرية القومية . هذه هى الروح التى سيطرت على مؤرخى المدرسة التيوتونية فى القرن التاسع عشر فى ألمانيا وإنجلترا على السواء، وكذلك على الكتاب الحاملين لواء الحركة السلافية فى شرق أوربا، وأنصار حركة الإحياء الكلتى فى أيرلندا وفرنسا . وتبلغ هذه الروح ذروتها فى العصر الحاضر فى نظريات مؤلفين مثل ستروبجوسكى ، إذ يرون أن التاريخ الأوربى تعرض للتشويه جيلا بعد جيل بسبب التأثير الضار الذى أحدثته التقاليد الكلاسيكية والكنيسة الكاثوليكية ، وكلاهما يرجع أصله إلى البحر المتوسط ، وهو ذاته منبت اصطناعى لنمو ثقافات ضعيفة مصطنعة . ويرى أولئك المؤلفون أن الأصول الحقة للروح الأوربية النوردية ، موجودة فى الفن والحضارة البربرية فى أقاليم السهوب ( الإستبس ) الآسيوية .

وهذه الحركة الكاسحة لها ما يبررها على الرغم مما فيها من هذه المبالغات، لأن القبائل البربرية لم تكن كمية راكدة سالبة بالقياس إلى ما طرأ عليها من جديد أنواع النشاط الذى جاءت به حضارات أرقى ، بل كان لها هى الأحرى تقاليد حضارية خاصة بها . ونحن الآن فى بداية المعرفة بمدى أقدمية هذه التقاليد وعمقها بفضل البحوث المتعلقة بعصور ما قبل التاريخ . وتدل هذه البحوث التى ترجع بنا إلى العصر البرونزى وما قبله ، على قيام مراكز للحضارة فى أوربا الوسطى والشمالية، حيث تطورت هذه المراكز تطوراً مستقلا ، ولم يقتصر أثرها على الشعوب القريبة المجاورة فحسب ، بل امتد إلى الحضارة الأرقى فى شرق البحر المتوسط .

وربما يبدو لأول وهلة أن ليس ثمة ما يبرر وصف هذا النوع من

الحضارات القديمة بأنها بربرية . غير أن لفظ البربرية بالمعنى الذى نستخدمه لا يقصد به الوحشية بأى حال من الأحوال ، بل أية مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى الذى لم يبلغ مرحلة التنظيم الراقى الناجم عن الاستقرار المدنى والدولة ذات الحدود الإقليمية المعينة ؛ أى أن المقصود به — بعبارة أخرى — حضارة القبيلة تمييزاً لها من حضارة المدينة . أما جوهر المجتمع البربرى فهو أنه يرتكز إلى قاعدة القربى وصلة الدم ، لا إلى قاعدة المواطنة أو سلطان الدولة المطلق . ومع أنه من المعروف أن قاعدة القربى ليست العنصر الوحيد فى تكوين المجتمع القبلى ، لأن عوامل إقليمية وحربية تدخل كذلك غالباً فى ذلك التكوين ، فمن الواضح أنه على حين تكون الوحدة فى الدولة المتمدينة هى الفرد أو الجماعة ذات المصلحة الاقتصادية الواحدة ، إذا بالوحدة فى المجتمع القبلى هى العشيرة التى تجمع بين أفرادها صلة القربى ، بحيث تتوقف حقوق الفرد ، لا على علاقته المباشرة بالدولة ، بل على مركزه فى عشيرته . وكذلك الحال فى النظر إلى الجريمة ، إذ هى ليست جريمة ضد الدولة ، بل هى حادثة يترتب عليها نزاع أو مفاوضة للتفاهم بين عشيرتين ، ويتحمل وزرها عشيرة القاتل جميعاً ، وينبغى تسويتها بتعويض عشيرة القتيل . غير أنه من المعروف كذلك أن الوحدة السياسية العليا فى القبيلة لم تتألف دائماً من رجال تربطهم صلة الدم ، ولو أنهم كانوا يزعمون لأنفسهم مثل هذه الوحدة استناداً إلى شجرات أنساب مزعومة ، بل كانت هذه الوحدة السياسية العليا فى العادة اتحاداً إقليمياً أو حربياً بين عشائر من ذوى القربى .

وعلى هذا ، وعلى الرغم من معارضة العلماء الأيرلنديين الوطنيين مثل الأستاذ ماكنيل والأستاذ ماكلستر ، يكون من المعقول أن نصف التنظيم الاجتماعى

فى أيرلندا الـكلتية بأنه تنظيم قبلى ، لأنه كان لا يقل عن تنظيم الجرمان الأقدمين فى الاعتماد على العشائر التى تربطها روابط القربى مثـل البطون والأفخاذ [١]. أما النفور من قبول هذا التعريف ، فمن الواضح أن منبعه ماينطوى عليه لفظ قبيلة من معنى النقص الحضارى . غير أن القبيلة — ولو أنها تعد صورة بدائية نسبية من صور التنظيم الاجتماعى — تحتوى على فضائل تحسدها عليها أنواع من المجتمع الأكثر رقيا ، لأن الحياة القبلية تتلاءم مع عـلو مستوى الحرية الشخصية والاحترام الذاتى ، كما أنها تخلف فى كل فرد من الأفراد روحا قوية من الولاء والإخلاص نحو القبيلة وزعيمها . ولذا يكون التطور الخلقى والروحى فى القبيلة متفوقا بمراحل واسعة فى أغلب الأحيان عن حضارتها المـادية . ثم إن المثـالية القبلية — ولا سيما بين القبائل الرعوية المولعة بالحروب — تنطبع بالضرورة بطابع البطولة . والواقع أننـا نستطيع القول بأن تقاليد البطولة التى استلهمتها الملاحم الشعرية والأساطير القومية — يونانية أو جرمانية أو عربية — تدين بوجودها إلى الحضارة القبلية ، وذلك فى العادة حين تحتك هذه الحضارة القبلية بحضارة أخرى أرقى منها ، وتـكون هى فى نفس الحين فى دور التفـكك والانحلال .

---

(١) كتب الأستاذ ما كاستر قائلا « التوات لفظ كلتى معناه مجتمع من الناس ولا يشترط أن تربطهم رابطة الدم ، ولذا لا يصح إطلاق اسم قبيلة على مثل هذا المجتمع . وتستخدم هذه التسـمية غير الصـحيحة فى كل زمان ومـكان للإشـارة إلى أيرلندا الـكلتيـة ( The Archaeology of Ireland. p. 25 ) غير أنه من الواضح — كما سبق أن أشرنا هنا — أنه ليس من الضرورى أن تكون القبيلة وحدة من أناس تربطهم رابطة الدم والقرابة ، بل تتكون فى معظم الأحوال من عدد من البطون والأفخـاذ كما هو الحال فى أيرلندا .

وفى الوقت الذى احتكت فيه الحضارة الرومانية بعالم البرابرة ، سيطرت حضارة الكلت والجرمان القبلية ذات الصبغة الحربية على جميع القارة الأوربية ، وأكسبتها مظهراً سطحياً من الوحدة الحضارية القومية. غير أن الحضارة البربرية لم تكن شيئًا واحداً أو متجانسا ألبتة ، بل أنواعا متنوعة من ألوان محلية مهجنة بعضها ببعض ، وأشكالا جديدة مختلطة من ذلك التهجين . وكانت الحال فى أوربا البربرية كالحال الذى نرى فى العصر الحاضر فى غرب أفريقيا ، حيث نجد دولا وطنية إفريقية فى مرتبة من علو المستوى الاجتماعى والسياسى ، جنبًا إلى جنب مع قبائل لم يتغير مستوى الحياة فيها عما كان عليه منذ أبعد عصور ما قبل التاريخ . ثم إن الطريقة التى نقسم بها خريطة أوربا القديمة بين عدد صغير من الشعوب التاريخية ، وهى شعوب الكلت والجرمان والتراقيين وهكذا ، تؤدى بنا إلى فكرة خاطئة تمام الخطأ عن التقسيم الحقيقى .ذلك أن هذه الشعوب لم تكن أمما كما يحتمل أن نتصور — بل مجموعات قبلية متفككة محتوية على أو منتشرة بين — بقايا عدة شعوب وحضارات أقدم منها . وفى مثل هذه الحال تستطيع مجموعة من القبائل الشغوفة بالحروب أن تخضع لسلطانها مساحة واسعة من الأراضى وأن تضفى عليها اسمها ، ولكنها لا تقيم مع ذلك دولة أو حضارة موحدة ، إذ الواقع أنه على الرغم مما ينشأ من مجتمع حاكم وطبقة من المحاربين الفاتحين ، تبقى حياة الفلاحين الخاضعين على حالها ، بل تحفظ بعض الأحيان لغتها وديانتها وتجنح دائما إلى الاحتفاظ بتقاليدها الاجتماعية والثقافية الخاصة بها .

وعلى هذا كلما كان المجتمع مبنيا على الحرب كلما كانت حضارته أكثر سطحية وأكثر تفككا . ثم إن تتابع موجات الغزو على بلد من البلاد لا يعنى دائما

تغييراً فى السكان ، بل إنه لا يتعدى فى كثير من الحالات حلول أرستقراطية محاربة محل أخرى فى السيطرة . على أن الطبقة المسيطرة تكون عادة هى المسئولة عن التمهيد لنشأة نوع جديد أرقى من الحضارة ، لكنها لا تستطيع أن تتخذ صفة الاستمرار ، بل ربما زالت دون أن تترك أثراً ثابتاً فى حياة السكان من الفلاحين . ومن ناحية أخرى لم توجد فى الأقاليم التى لم تمسها الحروب والفتوح متباينات واضحة بين مختلف عناصر المجتمع ، بل انتظم جميع الناس فى طابع حضارى واحد تغلب عليه البساطة والبدائية . وطبيعى أن تكون حضارات هذا الطراز متأصلة فى نفوس أهلها بحيث لا يسهل تغييرها ، وهى توجد عادة فى الأقاليم المتخلفة المجدبة التى لا تجتذب أطماع الفاتحين . أما الأقاليم الأغنى والأحسن موقعاً فهى التى تتعرض للغزوات المتكررة ، ولذا فهى الأقاليم التى تكون قليلة الوحدة الاجتماعية وتتعرض لأنواع التغييرات الحضارية .

ولهذه العوامل المتقدمة أهمية خاصة فى أوربا البربرية نظراً للصفة الحربية التى اتسم بها السكان والكثرة العددية لحركات الغزو . والواقع أننا سوف نرى أن ثنائية الحضارة — كما يتضح فى التباين بين النبيل المحارب والفلاح القن — لم تقتصر على عصر البرابرة ، بل تناقلتها عصور تالية ، وكانت لها تأثيرات هامة فى تصور حضارة العصور الوسطى .

وأعظم هذه الحضارات الحربية ، وأكثرها دلالة على سائر الحضارات ، هى الحضارة الكلتية ، إذ خرج الكلت المحاربون من موطنهم الأصلى — فى الجنوب الغربى من أرض ألمانيا والشمال الشرقى من أرض فرنسا — وانثالوا فى طول القارة الأوربية وعرضها بسيوفهم العريضة وعجلاتهم الحربية ، فخربوا روما

ودانى ، وأخضعوا جميع الشعوب المنتشرة بين المحيط الأطاسى والبحر الأسود ، وأسسوا محطات لهم فى جوف آسيا الصغرى وأوكرانيا ، على حين خضعت لهم أوربا الوسطى كلها ، بما فى ذلك أحواض الراين والرون والدانوب والألب الأعلى والبو والدنيستر(١) .

ومن الواضح أن هذه المساحة الشاسعة من الأراضى لم يسكنها شعب كلتى متجانس الملامح والصفات . بل كان الكلتيون أرستقراطية حربية، تتولى حكم البلاد المفتوحة من معسكراتها التلية ( الأكوام ) duns العظيمة ، وهى التى لاتزال توجد بقاياها فى مختلف أرجاء أوربا حتى العصر الحاضر(٢) . وحمل الكلتيون أينما ذهبوا معهم طرازاً خاصاً بهم من الحضارة والفن ، وهو طراز منشؤه الأقاليم الجبلية الألبية فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، ويستمد اسمه من محطة لاتين La Tene السويسرية . وهكذا ـ ولأول مرة فى التاريخ ـ أظلت حضارة مشتركة الجزء الأكبر من قارة أوربا ، إذ انفرد بالسيطرة من الأطلنطى حتى البحر الأسود جنس واحد يتكلم لغة واحدة، ويتسم بنوع واحد من التنظيم الاجتماعى ، فضلا عن العادات وطرق المعيشة . غير أن هذه الحضارة كانت لزعماء ومحاربين ، فلم تؤثر تأثيراً عميقاً فى حياة الشعوب الخاضعة ولم تحل محل ما كان هنالك من تقاليد حضارية محلية أقدم منها . وشذت عن ذلك

(١) شرح الأستاذ بارفان شرحاً وافياً أهمية العنصر الكلتى فى إقليم داشيا وأراضى حوض الدانوب ، حيث تخللت الحضارة الكلتية أرجاء المجتمع كله . انظر :
V. Parvan . Dacia. Ch IV ( Carpatho — Danubians and Celts .)

(٢) يقابل هذه المعسكرات فى تاريخ الحضارة المصرية القديمة من باب الترجيح كوم تروجه وكوم امبو والكوم الطويل وكوم حمادة وكوم الشقافة وكوم الدكة وغيرها من الأسماء المصرية التى يحتمل أن ترجع كذلك إلى عصور ضاربة فى القدم ) حاشيه للمترجم ) .

أيرلندا في أقصى الغرب حيث تخللت الحضارة الكلتية أرجاء المجتمع كله ، بفضل استمرار الكلتيين الفاتحين سادة لم ينازعهم منازع في البلاد مدة ألف من السنين . أما سائر الأقاليم الأوربية فذهبت عنها الحضارة الكلتية بنفس السرعة التي جاءت إليها قبل ظهور قوة أعظم بأساً ، وهي قوة الإمبراطورية الرومانية التي جنت ثمار الفتوحات الكلتية . غير أنه لم يكن في طاقة الغاليين الكلتيين الذين نهبوا مدينة روما في القرن الرابع قبل الميلاد أن يروا ما سوف يكون من ارتباط مستقبل شعوبهم جميعاً بمستقبل تلك المدينة الإيطالية المستقلة الصغيرة ، مع العلم بأن هذا هو الذي شاءته المقادير .

وتفصيل ذلك أن روما منذ بدأت في إخضاع قبائل الغاليين في شمال إيطاليا ، وهي تستولي على جميع بلاد الكلتيين حتى أتت على إمبراطوريتهم العظيمة . وحيثما سبق للكلتيين أن هدموا من حضارات محلية ، كان الرومان يحلون محلهم في سهولة ، حتى إذا وصلوا إلى مجتمع الشعوب الجرمانية الأكثر بساطة وتجانساً ، وقفت روما عن التقدم . والواقع أن امتداد الإمبراطورية الرومانية في أوربا يطابق مدى الإمبراطورية الكلتية مطابقة ملحوظة[١] .

غير أن شاذة هامة شذت عن هذا كله ، وهي أن مركزين اثنين من أقدم

---

(١) يؤكد بارفان (Parvan op. cit. p 166) بصفة خاصة وجود تعاون متصل بين العناصر الكلتية والعناصر الرومانية في وسط أوربا فيقول « ولمرة ثانية استطاعت وحدة كلتية كبرى أن تعمر شمال إيطاليا وتطير في أوربا ، وفي هذه المرة كانت الدولة الرومانية هي الرابحة . ومن الدليل على ذلك أننا نرى حضارة واحدة تستخدم طريقاً عظيماً واحداً للمواصلات بين أقاليم تلك الحضارة الممتدة من مدينة لوجدونوم ( ليون الحالية ) في غاليا إلى مدينة سرميوم ( نيش الحالية ) عند مصب نهر نابيس في نهر الدانوب ، وأن جميع الطرق الكبيرة الأخرى تلتقي في ذلك الطريق العظيم ، سواء أكانت آتية من الأقاليم الكلتية الواقعة حول الراين أو الدانوب ، أم من أقاليم إيطاليا اللاتينية الرومانية » .

مراكز الحضارة وأهمها فى أوربا،وهما بوهيميا وموارفيا وترنسلفانيا ولاشيا (الأفلاق)، بقيتا خارج الإمبراطورية بسبب اتخاذ الرومان خط نهر الدانوب حداً لإمبراطوريتهم . ومع هذا زالت السيطرة من هذه الأقاليم منذ القرن الأول قبل الميلاد ، وحلت محلها دول جديدة ، نتيجة لغزوات جرمانية أو نهضة عنصر من العناصر الوطنية بين السكان . ففى سنة ٦٨ قبل الميلاد أسس بوربستا مملكة فى داشيا على ضفاف الدانوب الأدنى ، وبعد ذلك بأربع وسبعين سنة استولى ماردودوس ملك الماركومانى على بوهيميا وأقام دولة قوية . وهاتان المملكتان — ولاسيما المملكة الثانية هما اللتان كانتا همزة الوصل بين الجرمان والإمبراطورية الرومانية ، إذ اتصلتا اتصالا دائماً بالإقاليم الرومانية ، كما اكتسبتا كثيراً من عناصر الحضارة الأرقى عن طريق التجار والصناع الرومانيين الذين استقروا داخل هاتين المملكتين .

وبهذه الطريقة نشأ طراز مختلط من حضارة رومانية جرمانية انتشرت فى طول القارة الأوربية وعرضها ، حتى إن جميع النواحى المادية من حضارة إسكندناوة فى أقصى الشمال وهى الحضارة التى ظلت فى حال متخلفة مدة المرحلة الأولى من عصر الحديديين — تغيرت بتأثير حضارة البحر المتوسط ، وهى التى وصلت إلى حوض البحر البلطى ، لا عن طريق التجارة البحرية من غاليا الشمالية ومصب الراين فحسب ، بل كذلك من أوربا الوسطى مباشرة عن طريق نهرى الألب والفستولا . ومما يدل دلالة واضحة على قوة تيار التأثير الجنوبى على الحضارة النوردية وقتذاك استخدام التصميمات الكلاسيكية فى فى الرسوم الزخرفية ، ومنها التصميم المتعرج الذى يتصف به الفن فى ذلك العصر فى شبه جزيرة شتلاندا ، وكذلك استخدام أنواع من الأسلحة والدروع

الرومانية واستيراد أوانٍ زجاجية وبرونزية ونقود رومانية . ويذهب الأستاذ شتلج إلى أبعد من ذلك بقوله إن ظهور أسلوب جديد للدفن وأثاث المقابر فى الجنوب الشرقى للنرويج وفى جزيرة شتلاندا — وهو شبيه بأسلوب الأطراف الرومانية — إنما يرجع إلى عودة محاربين شماليين عادوا إلى بلادهم بعد أن عملوا مرتزقة فى جيوش الماركومانى. ويعتقد الأستاذ نفسه أن أول حروف تيوتونية — وهى الحروف الرومانية — ظهرت فى المملكة الماركومانية فى القرن الثانى الميلادى ، لا فى المملكة القوطية فى روسيا الجنوبية فى القرن التالى كما يتواتر عادة فى المراجع[١] .

وكيفما يكون الأمر ، فلا ريب فى أن روسيا الجنوبية كانت السبيل الرئيسى الذى عن طريقه وصل تأثير حضارة البحر المتوسط إلى الجزء الشرقى من عالم البرابرة . ويبرهن على ذلك بأن المدن اليونانية ، منذ العصر الأول للاستعمار فى إقليم شبه جزيرة القرم والأقاليم المجاورة — لاسيما أولبياوخيرسونيس فضلا عن دولة البوسفور الأهلية التى اصطبغت بالحضارة اليونانية — كانت كلها تتاجر ناشطة مع إقليم السهوب ( الإستبس ) الروسية منذ أوائل عصر الاستعمار اليونانى إلى عصر الدولة البيزنطية . ثم إن روسيا الجنوبية كانت من أهم مصادر القمح فى العالم القديم . وتزخر المقابر اليونانية والسيثية والسارماتية فيها بأجمل منتجات الفنون والصناعات اليونانية والكامبانية والسكندرية[٢] . وفى أثناء العصر الرومانى حل السارماتيون وهم شعب إيرانى من آسيا الوسطى

---

(١) انظر :

H. Shetelig : Prehistoire de la Norvege. 154-159 Oslo. 1926

(٢) انظر Rostovtzeff : Iranians and Greeks in South Russia.

محل السيثيين فى السيطرة على أراضى السهوب ؛ وأخـذت المؤثرات الإيرانية تعمل فى الحضارة اليونانية السيثية فى البلاد الساحلية . غير أن المدن اليونانية بقيت مزدهرة فى حماية الرومانيين، وظلت منتجات صناعات البحر المتوسط تجد طريقها بعيداً إلى جوف روسيا .

وهكذا تعرض عالم البرابرة من كل ناحية فى القرن الثانى الميلادى لمؤثرات حضارية أرقى آتية من البحر المتوسط ، وبدا كأن القارة الأوربية كلها تسير نحو التطبع بالطابع الرومانى . غير أن الموقف تغير تمام التغير فى القرن التالى ، فلم يعد نفوذ الحضارة الرومانية فى صعود ، وأخذ ضغط عالم البرابرة يزداد بدرجة هددت كيان الإمبراطورية الرومانية . ومنذئذ وقفت الإمبراطورية الرومانية موقف الدفاع ، وأخذت حضارتها تشف عن مؤثرات بربرية .

على أن عودة العنصر البربرى إلى الحياة الأوربية يرجع فى ذاته لدرجة كبيرة إلى سياسة الدولة الرومانية . ذلك أن الضغط الذى دأبت عليه الدولة الرومانية بقوتها الحربية ونفوذها الحضارى نحو الشعوب الجرمانية لعدة قرون، أدى إلى تغيير حضارة تلك الشعوب وإلى تبديل أحوال حياتهـا الوطنية ، إذ اكتسبت أساليب حربية جديدة ، كما اضطرت إلى الاتحـــاد لمقاومة القوى الرومانية المنظمة. ثم إن الجنوح الطبيعى لهذه الشعوب نحو التوسع أوقفه ضغط لاهوادة فيه من ناحية أقاليم الأطراف الرومانية، حتى اضطرت عشائر الأطراف الجرمانية المقابلة لها إلى الارتداد مرة أخرى نحو أقاليمها الداخلية . ولذا كانت جميع الأطراف الجرمانية الخارجية ، تضطرم بحركة ثائرة مكبوتة لا تستطيع أن تجد لها مخرجا إلا عن طريق انفجار عنيف. ولم تؤد حروب الدانوب إلى تهدئة

تلك الحركة زمن الإمبراطورين تراجان وماركوس أوريليوس — على الرغم مما تراءى في تلك الحروب من نجاح — بل أدت على العكس إلى تعجيل الكارثة بتخريب داشيا والمملكة الماركومانية، وهما اللتان كانتا عنصر الاستقرار الوحيد في عالم البرابرة، والسبيلان الرئيسيان لنشر مؤثرات الحضارة الرومانية. ومنذئذ تهدم ستار الدول أشباه المتمدينة الحاجزة بين الإمبراطورية وعالم البرابرة، وباتت الإمبراطورية وجها لوجه أمام قوى البربرية الداخلية المتحركة.

وينبغي أن نذكر هنا أن العالم الجرماني اتخذ شكلا جديداً منذ عصر الحروب الماركومانية، إذ اختفت الشعوب القديمة التي نقرأ عنها في كتابات يوليوس وتاكيتوس، وحلت محلها مجموعات جديدة من الشعوب التي تكونت إما بمجيء شعوب جديدة من الشمال، وإما باندماج بقايا القبائل القديمة بعضها في بعض على هيئة اتحادات حربية أو عصبات قومية. ففي حوض الراين الأدنى ظهر الفرنجة، وفي ألمانيا الجنوبية عاد الألليماني قوة مسيطرة، على حين قام إلى شرقيهم اتحاد الهرمندوري. ثم الوندال في سيلزيا، ثم القوط — وهم أعظمهم جميعاً — في أوكرانيا وروسيا الجنوبية.

وهاجر القوط في القرن الثاني من مواطنهم القديمة حول البحر البلطي إلى روسيا الجنوبية حيث اتصلوا بأهل السهوب (الإستبس) من السارماتيين الإيرانيين. ثم تقدم أولئك القوط نحو البحر الأسود منذ أوائل القرن الثالث، وأقاموا دولة قوية من خليط من عناصر جرمانية وسارماتية. وبذلك فقدت المدن اليونانية في شبه جزيرة القرم استقلالها، وهي ثالث المراكز الحضارية العظمى في عالم البرابرة، إذ تخربت مدينتا أولبيا وتيراس، على حين غدت

خرسون ومملكة البسفور — المصطبغتان بالصبغة الهلينية — ولايات خاضعة . ومنذئذ ، لم يعد هذا الإقليم مصدرا رئيسياً لنشر الحضارة اليونانية الرومانية فى أوربا الشرقية ، بل صار مركزاً لحضارة بربرية جديدة انتقلت منها مؤثرات شرقية — وبوجه خاص إيرانية — إلى جميع أنحاء العالم الجرمانى .

وصحب هذه التغييرات انتقال عام فى محور الحضارة ، وهو انتقال كان له أبعد الأثر فى الحضارة الأوربية ، ذلك أن حضارة الإمبراطورية وحياتها الاقتصادية أخذت من ناحية تفقد حيويتها رويدا رويدا نتيجة للأسباب التى تقدم شرحها ، كما أخذ العالم الشرقى من ناحية أخرى يستيقظ لنشاط حضارى عظيم . ولهذا كان قيام مملكة الفرس الساسانية سنة ٢٦٦م أهم حدث فاصل فى القرن الثالث ، لأنه يدل لا على قيام دولة عالمية شرقية فحسب ، بل على تحدى تقاليد الحضارة الإيرانية القومية للسيطرة الغربية ، أو بمعنى أدق للحضارة الهلينية التى سيطرت على الشرق والغرب مدة خمسمائة من السنين . وترتب على هذا أن عالم البحر المتوسط بات مهدداً لا من البرابرة من ناحية الشمال فحسب ، بل من التحدى الصادر من حضارة أعرق من حضارته ؛ بعد أن استردت حيويتها وأخذت تفرض سيادتها على غزاتها السابقين .

ثم كان أن هبت العاصفة فى منتصف القرن الثالث ، فتعرضت الإمبراطورية الرومانية التى أنهكتها الحروب الأهلية والثورات المتواصلة لهجوم أعدائها من جميع الجهات ؛ إذ هاجر الفرس فى الشرق وهاجر القوط والسارماثيون عند نهر الدانوب ، وهاجر الفرنجة والألامانى عند نهر الراين .

وفى مدة حكم الإمبراطور جالينوس ( ٢٥٣ - ٢٦٨ ) أنزلت الغزوات

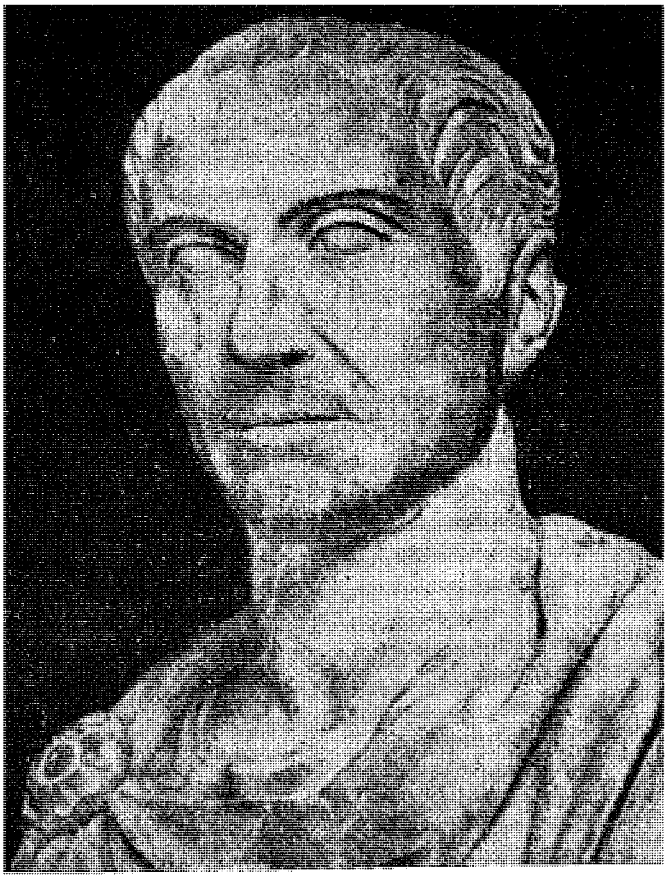
البربرية والحروب الداخلية والطواعين، أنواع الخراب بالإمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها ، فتخربت أنطاكية على أيـدى الفرس، واستولى القوط على أثينا، وأحرق السارماثيون معبد ديانافى إفسوس . كذلك خرب الفرنجة والألمانى غاليا وإيطاليا ، وتدمرت فى إسبانيا البعيدة مدينة تراكونا الغنية . ومع هذا كله لم تندثر الدولة الرومانية : بل أنقذها أباطرتها العسكريون الإلليريون ؛ وهم كلوديوس وأورليان وبروبس ، الذين دفعوا بالبرابرة إلى الوراء ، وقضوا على محاولات المغتصبين الإقليميين لهدم وحدة الإمبراطورية ، وأعادوا تثبيت الأطراف الإمبراطورية على نهر الراين والدانوب ، كل ذلك دون أن يضحوا بأكثر من إقليمى داشيا وألمـانيا الجنوبية الغربية .

لـكن حال الإمبراطورية أمسى — كما رأينا — غير حالها الأولى ؛ إذ بدت الإمبراطورية الجديدة زمن دقلديانوس وقسطنطين نصف شرقية ، وهى أكثر شبها بالمملـكة الفارسية منها بالجمهورية الرومانية . ذلك أنها لم تعتمد على دعامة جيش المواطنين ، بل على قوة حربية نصف جرمانية تؤيدها فرق احتياطية متبربرة مما وراء الأطراف الرومانية . وكذلك لم يعد الأباطرة رؤساء السناتو الرومانى ، وعناوين التراث المدنى القديم ـ كما كان الحال على عهـد الإمبراطور أوغسطس وعهد الأباطرة الأنطونيين ـ بل باتوا يعيشون فى أقاليم الأطراف بين جنودهم من البرابرة ، مثـــل فالنشيان الأول ، أو يحيط بهم طواشيوهم وموظفوهم فى عزلة شرقية اتسم بها بلاط القسطنطينية أورافنا ، مثل هونوريوس

وتاوداسيوس الثانى. والواقع أن الإمبراطورية ذاتها غيرت وجهتها، فلم تعد تنظر نظرة داخلية إلى نفسها ؛ أى إلى عالم البحر المتوسط ومدنه المستقلة ومركزه فى روما ، بل أخذت تتطلع خارجياً من حواضرها الجديدة فى تريف وميلان وسرميوم والقسطنطينية نحو أطراف الراين والدانوب والفرات. وهكذا انتهت حضارة البحر المتوسط وعصرها العظيم، وبدأ عصر جديد من التطور الأوربى .



المجتمع الجديد .



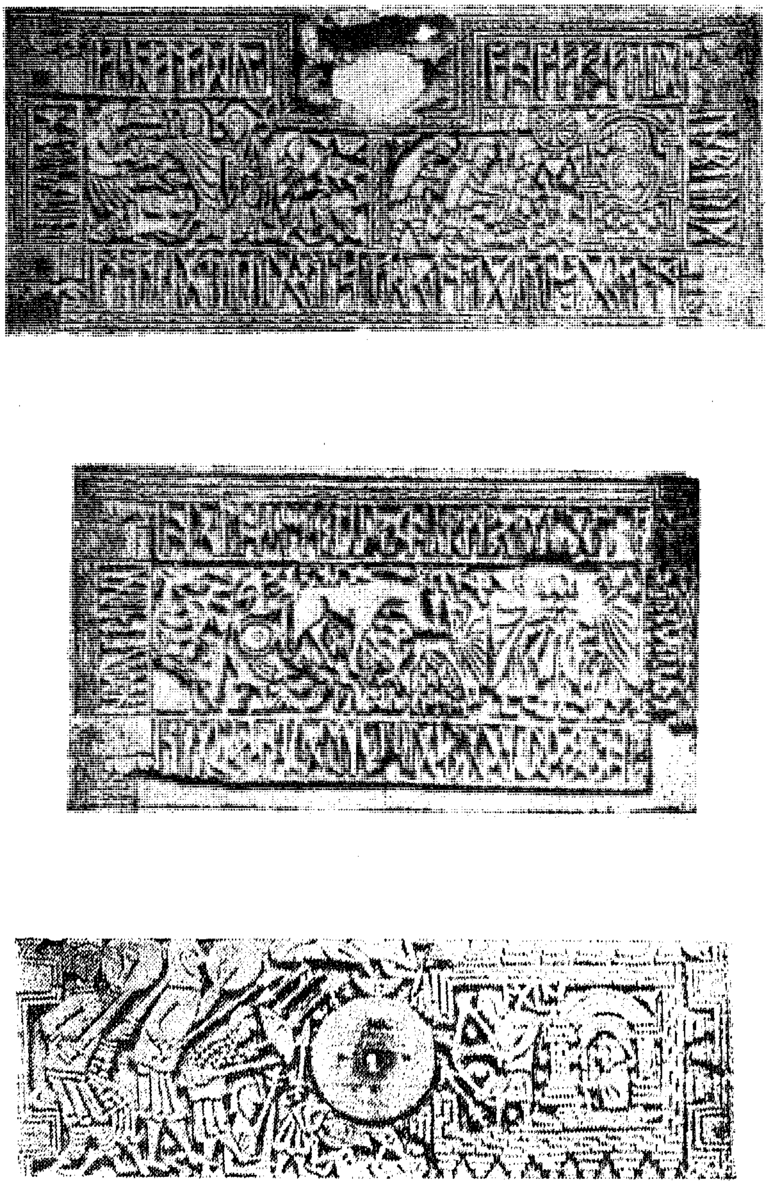
يوليوس قيصر .



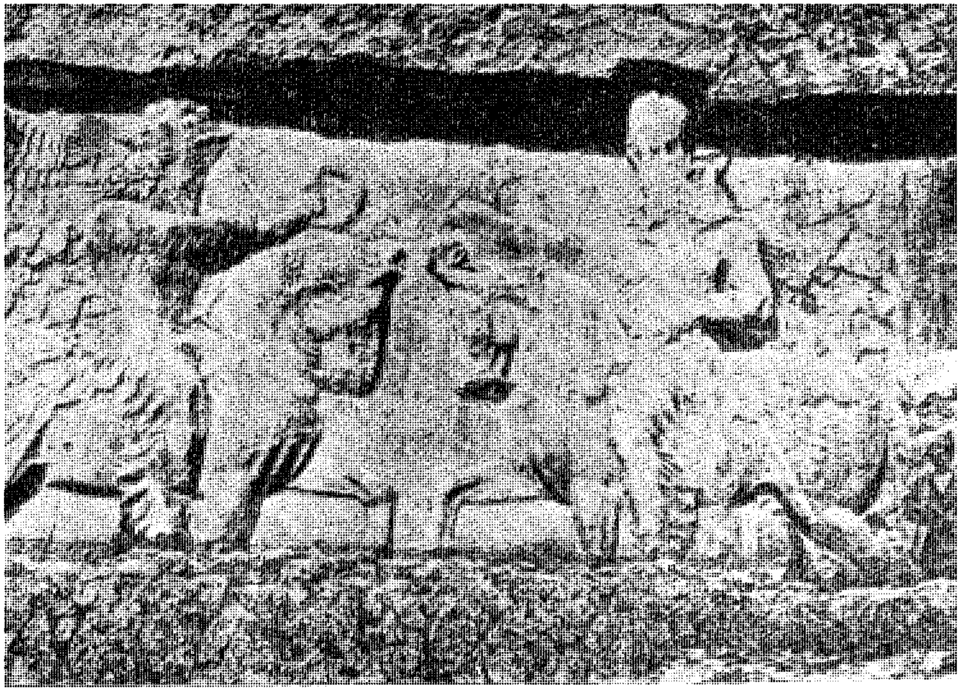
الإمبراطور قنسطنطين الـكبير .



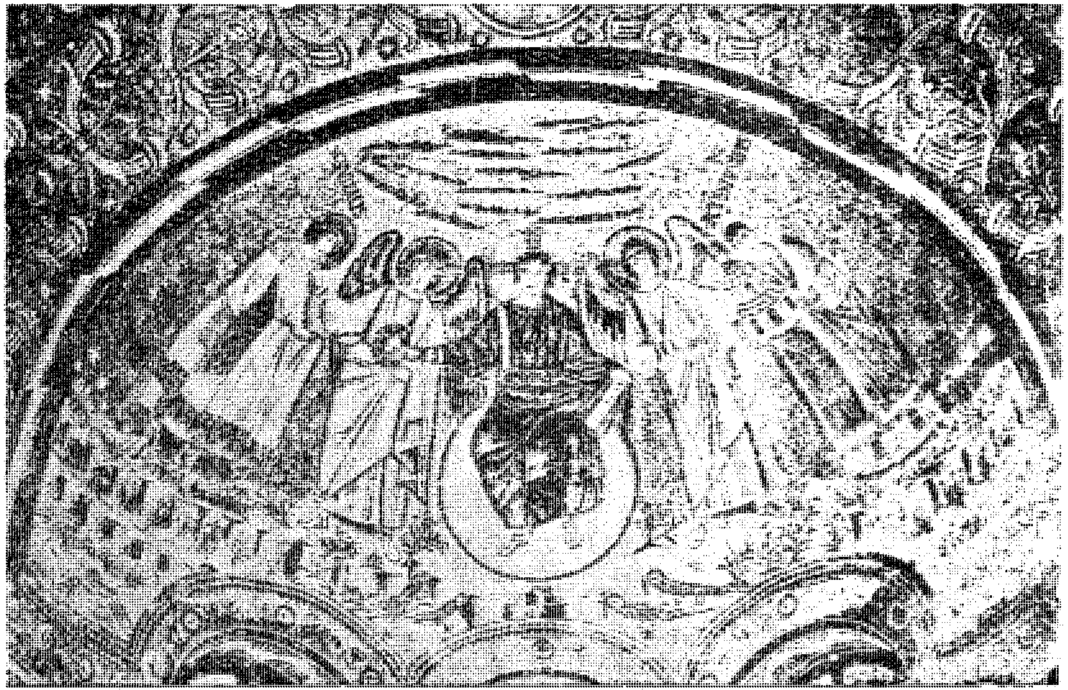
المسيح المعلم .



الفن المسيحى الفرنجى
جوانب صندوق الفرنج لحفظ المجوهرات .



الملك والإله



صور المسيح فى الفن البيزنطى .



ولاء الشرق للمسيح المولود .



الفن المسيحى الأيرلاندى مخطوطة أناجيل سانت جال .



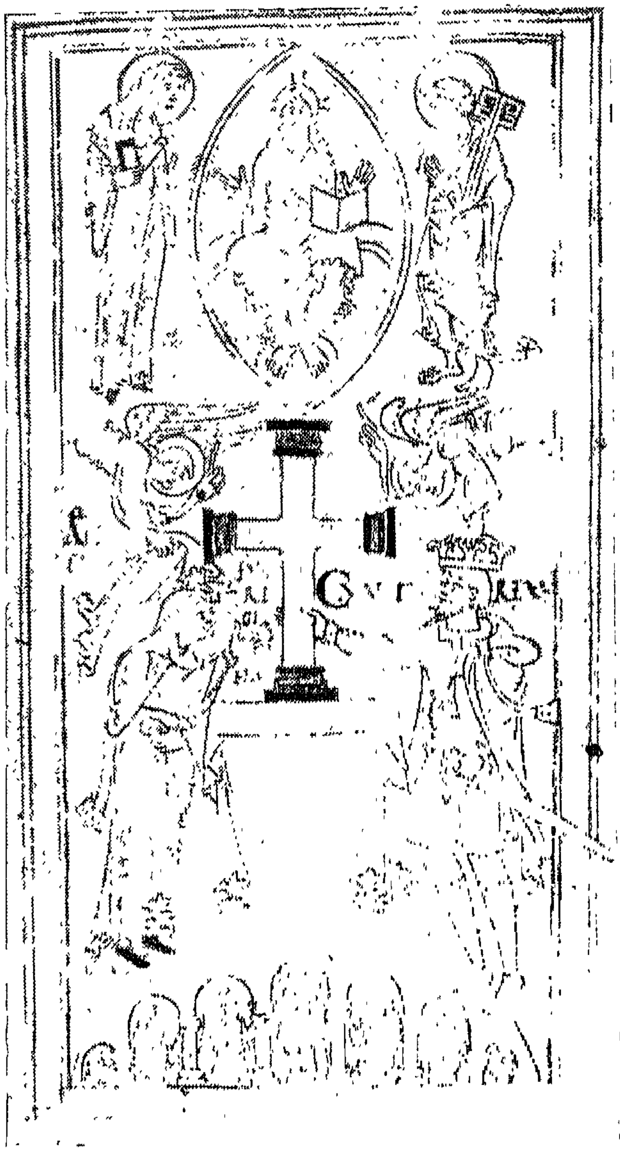
الفن المسيحى الأنجلى بالجزر البريطانية أناجيل لندسفارن .



الإمبراطور الـكارولنجى شارل الأصلع .



الأسقف الكارولنجي .



دخول المسيحية الى البلاد الأوربية الشمالية . الملك كانوت .



الإمبراطور لويس التقي.




الإمبراطورية الرومانية المقدسة . الإمبراطور اوتو الثالث يتلقى ولاء شعوب الإمبراطورية .

# الفصل الخامس

## غزوات الجرمان وسقوط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوربا

أجمع المؤرخون على اعتبار عصر الغزوات الجرمانية وتأسيس الممالك الجرمانية الجديدة فى غرب أوربا ، مرحلة من أعظم مراحل التحول فى تاريخ العالم ، وحداً فاصلا بين العصور القديمة والعصور الوسطى . ويمكن مقارنة هذا العصر بعصر الغزوات التى هدمت الحضارة الميقينية فى الأزمنة الإيجية القديمة ، من حيث إنه آذن مثله بظهور عنصر بشرى جديد وبداية تطور حضارى كذلك جديد . غير أنه من السهل أن نبالغ فى وصف ناحية الكارثة التى ترتبت على ذلك التطور ، مع العلم بأن انقطاع الصلة بالتراث الحضارى القديم بعد غزوات البرابرة كان أقل مفاجأة وأقل شمولا مما حدث فى بداية عصر الحديد الذى أعقب انهيار الحضار الميقينية .

ووضح لنا مما تقدم كيف اندثرت حياة الحضارة الكلاسيكية القديمة منذ القرن الثالث، وكيف ظهرت حضارة جديدة، مرجعها لا إلى البرابرة الجرمان بل إلى تسرب مؤثرات جديدة من الشرق . وبعبارة أخرى زالت الحضارة القديمة القائمة على قواعد المدينة الدولة ودياناتها المدنية بسبب عملية تدريجية

من الباطن ، وحلت محلها ملكية ثيوقراطية متحالفة تحالفاً وثيقا مع الديانة العالمية الجديدة ، أى المسيحية . غير أنه حين ارتبط هذا التطور ارتباطا شديدا بتراث شرقى متوطن بالغ فى القدم ، إذا به فى الغرب يبدو جديداً تمام الجدة دون أن يكون له أى أساس فى سالف التاريخ . ولذا عجز هذا التطور عن أن يجعل له جذورا فى الغرب ، بل نجد بدله شيئاً من النمط الأوربى القديم من المجتمع القبلى آخذا فى الظهور مرة أخرى ، بحيث قام على أنقاض المدن الإقليمية المستقلة مجتمع ريفى متكون من ملاكين نبلاء وفلاحين أقنان ، وهو ما كان قائما بأوربا الوسطى قبل قيام الدولة الرومانية . وعلى هذا لا ينبغى أن نفسر العصر الجديد فى الغرب بعنيف حلول الشعوب الجرمانية بأقاليم الإمبراطورية الرومانية فحسب ، بل كذلك بعودة الحياة إلى نمط قديم من المجتمع فى أراضى الإمبراطورية نفسها ، كما نرى ذلك واضحا كل الوضوح فى الأقاليم الغربية من بريطانيا الرومانية . والواقع أن انهيار النظام الإمبراطورى وقيام الدويلات الإقليمية الجديدة كان من المحتمل حدوثه على غرار ما حدث فعلا ، حتى لو لم يتدخل الغزاة البرابرة .

وبدأ هذا التغيير فى المجتمع فى الأقاليم الغربية للإمبراطورية منذ نهاية القرن الثانى الميلادى . وكانت الظاهرة الأولى فى هذا التغيير اضمحلال البلديات والطبقات المتوسطة ، وإعادة تكوين المجتمع على أساس طبقتى الملاكين والفلاحين. ورأينا فيما سبق كيف أدى ازدياد ضغط الضرائب والسيطرة الحكومية إلى ذهاب الحياة من البلديات ذوات الحكم ، وهى التى كانت خلايا فى التنظيم الإمبراطورى الأول . وبذلت الحكومة الإمبراطورية كل ما فى وسعها بوسائل إجبارية لتحريك جهاز الحياة البلدية نحو نشاط مصطنع ، ولمنع الطبقات

المتوسطة من هجرة المدن أو التهرب من التزاماتهم بالاندماج فى صفوف الأرستقراطية السناتورية أو بشراء وظيفة اسمية بلا عمل فى الخدمة الإمبراطورية، غير أن الحكومة كانت تهدم بيدها اليسرى ما تقيمه بيدها اليمنى ، لأنهم جعلوا حياة الطبقة المتوسطة مستحيلة من الناحية الاقتصادية . ولذا لجأت الحكومة إلى تزويد الجهاز الإدارى المدنى ( البلدية ) بموظف إمبراطورى — الكونت —؛ وهو مسئول مباشرة أمام الحكومة المركزية، ولا يخضع لدستور البلدية ؛ كما لجأت الحكومة كذلك إلى نقل المسئولية إلى أفراد من أرباب النفوذ مثل الملاكين المجاورين أو الأساقفة المسيحيين .

والواقع أن المدينة لم تعد أداة هامة فى حياة الإمبراطورية بعد أن غدت الدولة من الناحية الاقتصادية ذات طابع زراعى خالص، وغدا الاهتمام الأول للحكومة هو المحافظة على إعداد السكان الزراعيين واستمرار النشاط الزراعى . واعتمدت المالية الإمبراطورية اعتماداً كلياً على ضريبة الأرض التى كان تقديرها لا على أسس الدخل ، بل على أساس وحدة مُعينة هى اليوجوم —أو السنتوريا (أى المائة) فى الولايات الغربية— باعتبارها متوسط مايتملكه الفلاح الواحد من الأرض ، وهذا هو نظام الحصة الزراعية فى التاريخ الإنجليزى القديم ، وهو من الناحية النظرية مقدار مايكفى من الأرض لأسرة واحدة ، ويصلح أن يكون وحدة مالية ومقياساً زراعياً عاماً[1] .وقام تقدير الوحدة فى كلتا الحالتين على أساس المساحة

(١) يرى مؤلفون أوربيون حديثون —مثل دوبش Dopsch, (Grundlagen, 1, 341-345) وشوماخر ( Shumacher lii, 273. etc. 351-356 ) أن لفظ Hufe الإنجليزى يحتمل أن يكون مأخوذاً من كلمة Sors اللاتينية التى استخدمها المستوطنون الرومان للدلالة على قطعة مكونة من عدة قطع من الأراضى الزراعية، مضافا إليها حقوق الرعى ومساحات الخلاء .

التى يمكن زراعتها باستخدام زوج واحد من الثيران ، مع العلم بأن المساحة كانت فى الغرب أكبر كثيراً منها فى الشرق، لا نحطاط مستوى الزراعة والضرائب . غير أن مساحة الوحدة الرومانية اختلفت باختلاف إنتاجها ، فتكون مساحتها فى الشرق خمسة فدادين من الكروم ومن الأرض الزراعية الخصبة، أو ستين فداناً من الأرض الأقل جودة ، على حين بلغت الوحدة المائة فى الغرب مائتى يوجيرا أى مائة وعشرين فداناً . غير أن الوحدة كانت فى جميع الحالات وحدة معينة تقاس فعلا وتسجل على أيدى موظفى المساحة . وأطلق الاصطلاح على التقدير لفظ كابيتاتيو أى ضريبة الرأس ، كما أطلق عليه كذلك لفظ يوجاتيو أى ضريبة الأرض ، وفى ذلك دلالة على قوة العلاقة بين الأرض واليد العاملة فيها . وإذا خلت واحدة من هذه الوحدات من الزراعة ترتب على ذلك نقص مباشر فى الإيراد العام ، ولذا عمدت الحكومة إلى اتباع ماجرت العادة به فى مصر ، فلم تقف عند إلزام المزارعين الأحرار وسلالتهم بالأرض التى يستأجرونها، بل حرمت على الملاكين بيع الأراضى بدون العبيد الذين يقومون على زراعتها أو بيع العبيد بدون الأراضى التى يزرعونها . ثم إذا خانت حصة من الحصص من الزراعة بسبب وفاة متملكها أو اختفائه فيجب على الملاك المجاورين أن يضموها إلى مابأيديهم من أراضى ، ليصبحوا بذلك مسئولين عن الضريبة المفروضة عليها . غير أن هذه السياسة التى ا تبعتها الحكومة هدمت الأغراض المأمولة منها ، إذ غدا حمل الضرائب باهظا (بحيث بلغ بعص الأحيان ٥٠ ٪ من قيمة المحصول ) ، حتى تلاشت فئة صغار الملاك من الوجود واضطر أفرادها إلى الهرب أو الوقوع فى أسر الديون .

وترتب على هذا كله ازدياد أعداد الأرستقراطية السناتورية التى انفردت بحق

حماية نفسها وحماية أتباعها من فداحة المطالب المالية ؛ لأن تقرير الضرائب المستحقة على هذه الطبقة لم يدخل فى اختصاص موظفى المدن المجاورة ، بل كان من اختصاص الحاكم الإقليمى نفسه . ومن المعروف أن سلطة الملاك من الملاكين على عبيده غدت محدودة ؛ فلم يعد العبيد متاعا يباع ويشترى بل أصبحوا أقنانا مرتبطين بالأرض التى يعيشون عليها ، وليس من المستطاع فصلهم عن حصصهم مما جعلهم يتمتعون بحياتهم العائلية الخاصة بهم . غير أنه من المعروف من باب التعويض من ناحية أخرى ، أن سلطة المالك على مزارعيه الأحرار ازدادت زيادة هائلة بحيث تعين عليهم عادة لا تأدية الإيجار غلة أو عينا فحسب ، بل القيام بالعمل مدة محددة فى أرض المالك الخاصة به . ولما كان المالك مسئولا عن ضريبة الأرض التى يؤديها أولئك المزارعون فإنهم لم يكونوا أقل ارتباطاً بالأرض من العبيد . ولما كان المالك كذلك يقوم عنهم أمام الخزانة المالية ، فإنه قام عنهم كذلك أمام القضاء . وتولى المالك كذلك سلطة المحافظة على الأمن، وعقد فى كثير من الحالات محكمته المحلية الخاصة به بين أتباعه . وهكذا اندمج العبيد والمزارعون الأحرار بعضهم فى بعض طبقة واحدة من الفلاحين أنصاف العبيد ، وكلهم تابع سياسياً واجتماعياً لسيدهم تبعية مطلقة . ثم انضم إلى هؤلاء وأولئك أعداد متزايدة من صغار الملاك فى سبيل الحصول على وسيلة يتخلصون بها من ضغط جباة الضرائب، وذلك بأن ألجأوا أنفسهم لولاية نبيل من النبلاء المجاورين ونزلوا له عن أراضيهم على شريطة الاستمرار فى التمتع باستغلالها .

وهكذا كان نوع من المجتمع شبه الإقطاعى يدق أوتاده فى غرب أوربا قبل سقوط الإمبراطورية ؛ فنسمع فى القرن الخامس أن نبيلا من النبلاء مثل

أكدكيوس — استطاع أن ينفق على أربعة آلاف من الفقراء زمن المجاعة وأن يجند فرقة من الخيالة زمن الحرب ، كما نسمع بقلعة بورجوس الحصينة التابعة للنبيل بونتيبوس ليونتيوس ، وهى التى وصف سيدنيوس أبو ليناري جدرانها وأبراجها وصفاً يدل على أنها لم تقل عن قلعة بارون إقطاعى فى العصور الوسطى . وبديهى أنه كلما تصدع التنظيم الرومانى ، أخذ قديم أوضاع المجتمع الغالى — قبل الرومان — يظهر رويداً رويداً فى صورة جديدة ؛ وهى أوضاع مؤسسة على العلاقة بين النبيل صاحب السيادة وأتباعه الموالى . ومن الدليل على ذلك أن النبيل السناتورى عاش على أرض تحيط به قرى أتباعه . وكان عبيد قصره يقومون على خدمة جزء من هذه الأرض التى تحت يده ، فضلا عن الخدمة الواجبة له على المزارعين الأحرار . أما سائر أجزاء هذه الأرض فكانت حصصاً يستغلها الفلاحون والمزارعون ، مقابل مدفوعات إجبارية من الغلة أو العين ومقابل خدمات معينة .

ودرج هذا الاقتصاد الزراعى على نظام اكتفائى ونما فى مختلف الأبعاديات الإمبراطورية الكبيرة التى قام على إدارتها وكلاء إمبراطوريون بوصفها وحدات مستقلة بشئونها ، وحرصت السلطات الإمبراطورية على حمايتها من أى تدخل من ناحية البلديات أو السلطات الإقليمية . وفى إفريقية خاصة نرى هذا النظام مكتملا نموه منذ القرن الثانى الميلادى ، ومن ثم امتد فى أواخر عصر الإمبراطورية إلى الأبعاديات الكبيرة التى بيد الأرستقراطية السناتوريه ، وأشبهت هذه الأبعاديات مختلف الضياع الإقطاعية التى عرفتها أوربا العصور الوسطى . واستمدت معظم القرى فى فرنسا على الأقل أصولها لا من المحلات الرومانية أو من المستعمرات الجرمانية بل من الأبعاديات الخاصة والأبعاديات

الإمبراطورية أواخر العصر الإمبراطورى ، كما يتضح من أسمائها . والواقع أن طبقة النبلاء أصحاب الأراضى ، وما يتعلق بها من تنظيمات زراعية ، ظلت قائمة فى جزء كبير من غاليا بعد الغزو الجرمانى ، وكان هذا وذاك معا إحدى حلقات الاتصال الرئيسية بين الدولة الرومانية والعصور الوسطى .

والخلاصة أن هذا النظام الاجتماعى لم يذهب بذهاب الإمبراطورية الغربية ، بل على العكس ، إذ جنحت الغزوات البربرية عموماً نحو رعاية تطوره بإزالة البيروقراطية الإمبراطورية وجهازها المعقد ، فزادت بذلك حركة الاتجاهات اللامركزية فى المجتمع .

وينبغى أن نذكر أن حلول الجرمان فى الأراضى الإمبراطورية كان عملية تدريجية من التسرب لا كارثة فجائية ، فيما عدا بضع أزمات استثنائية . وتفصيل ذلك أن الحكومة الرومانية عمدت منذ القرن الثانى الميلادى إلى توطين الأسرى من البرابرة فى مختلف الأقاليم ، وأسكنت فى القرن الرابع أعداداً هائلة من الجرمان والسارماتيين فى الجهات التى خربتها الحروب ، ولا سيما جهات البلقان الشمالية وغاليا ، وجعلت منهم مستعمرين زراعيين وحربيين ، بحيث وجد الغزاة البرابرة مناطق الأطراف الرومانية مأهولة عادة بأناس من جنسهم ، ألفوا الحضارة الرومانية ، واصطبغوا إلى درجة ما بصبغة رومانية ظاهرية .

وكان معظم الجيش نفسه مجنداً من أولئك المستوطنين من الجرمان وغيرهم ، فضلا عن المرتزقة والأحلاف من بلاد ما وراء الأطراف ، وهؤلاء وأولئك أضحوا فى القرن الرابع صفوة الجيوش الرومانية . ولذا كانت الإمبراطورية

الرومانية فى نظر كثير من البرابرة ليست عدواً بل ميداناً لحياة حافلة بالمغامرات ، على قول المؤرخ فوستل دى كولانج . وصدق ذلك بوجه خاص على الجرمان المعاهدين ، وهم الشعوب الجرمانية الحليفة التى كانت علاقتها بالإمبراطورية الرومانية شبيهة بعلاقة قبائل الأطراف الهندية الشمالية الغربية بحكومة الهند زمن السيطرة البريطانية ، فكانت هذه الشعوب تمد الجيش الإمبراطورى بفئات قبلية مقابل إعانات مالية منتظمة . وأهم هذه الشعوب فى الغرب الفرنجة ، لاسيما الفرع البحرى ( السالى ) منهم ، إذ سمح لهم الإمبراطور يوليان بعد انتصاره عليهم سنة ٣٥٨ بالاستقرار فى إقليم توكساندريا — وهو الجزء الشمالى من بلجيكا الحالية — على قاعدة المعاهدين أو الأحلاف . ودخل الفرنجة فى أعداد كبيرة — حتى قبل هذا التاريخ — فى الجيش الإمبراطورى ، ويقال إن الإمبراطور قسطنطين أفردهم بعنايته ، وإن القائد العسكرى سلفانوس الذى خرج على قسطنطين سنة ٣٥٥ كان ابنا لضابط فرنجى . وفى النصف الثانى من القرن لرابع أضحى كثير من الشخصيات الرئيسية فى تاريخ الإمبراطورية الغربية من الفرنجة، مثل ميروبوديس وزير الإمبراطور جراتيان ، وأربوجاست صانع الأباطرة، وهو أشد المنافسين للإمبراطور تاوداسيوس ، ومثل بوتو وهو حمو الإمبراطور أركاديوس .

وأكثر من ذلك أهمية كان مركز القوط فى الشرق ، إذ لاجدال فى أنهم كانوا صناع التاريخ طوال المدة التى نحن بصددها . ذلك أن القوط الغربيين الذين سمحت لهم الإمبراطورية بالاستقرار فى حوض الدانوب الأدنى — أى فى داشيا والأقاليم المجاورة — غدوا معاهدين للإمبراطورية سنة ٣٣٢، ثم ظلوا منذئذ فى سلام مع الرومان قرابة جيل . وهؤلاء القوط الغربيون هم أول الشعوب

الجرمانية اعتناقاً للمسيحية بفضل تبشير أولفيلاس ، وهو مواطن رومانى من سلالة قوطية يعد لا مؤسساً للمسيحية الجرمانية فحسب ، بل مؤسساً كذلك للأدب التيوتونى عن طريق ترجمته القوطية للإنجيل . ولما كان المذهب الأريوسى هو المذهب السائد فى الإمبراطورية الشرقية وقتذاك ، فإن القوط الغربيين اعتنقوا المسيحية فى صيغة أريوسية . وعن طريقهم صارت الأريوسية هى المذهب القومى لجميع الشعوب الجرمانية الشرقية .

وفى تلك الأثناء ، أسس الفرع الشرقى من الشعب القوطى — وهم القوط الشرقيون الذين تخلفوا فى جنوب روسيا — مملكة مستقلة قوية ، اعترفت بسيادتها جميع شعوب أوربا الشرقية من مصب نهر الفستولا حتى جبال القوقاز . ولم تكن حضارة هذه الدولة — كما رأيناها — جرمانية خالصة ، بل دانت بطوابعها الخاصة إلى رعاياها أو حلفائها من السرماتيين الذين تأثروا بدورهم قبلا بحضارة إيران وآسيا الوسطى (١) . وعن هذا الطريق تعلمت الشعوب القوطية الأسلوب الجديد فى الفن والنظام الجديد فى الحرب ، وهو ما نقلوه فيما بعد إلى الشعوب الجرمانية الأخرى . وجعلت البيئة الجغرافية من السرماتيين شعوبا من من الخيالة ، ونحن ندين لهم باختراع الركاب والمهماز ( أو على الأقل بإدخال استعمالها فى أوربا ) . وأحدث هذا الاختراع انقلابا تاما فى التكنيك الحربى بتيسير استخدام الخيالة الثقيلة ، وهى التى سيطرت على أساليب الحروب الأوربية لألف من السنين . والواقع أن المحارب السارماتى المدرع ، ومن بعده الفارس

---

(١) تحتوى المقابر السارماتية كذلك على أدوات من أصل صينى مثل مقابض سيوف من اليشم . وعثر أحد الباحثين ذات مرة على مرآة صينية من البرونز .

القوطى المسلح بالمزارق والسيف كان كل منها سلفا ونموذجا أولياً للفارس فى العصور الوسطى .

على أن مملكة القوط الشرقيين لم تقتصر على تأثيرها القوى فى حضارة الشعوب البربرية فحسب ، بل إنها كذلك هى المنبع المباشر للحركة الهائلة التى دمرت وحدة الإمبراطورية ، وأنشأت الممالك البربرية الجديدة فى الغرب .

ذلك أن أقاليم جنوب روسيا وأطراف الدانوب — لا أقاليم ألمانيا وحوض الراين — كانت طول مدة الغزوات البربرية مراكز الإعصار الأوربى . وفى تلك الأقاليم كان التقاء هجرة الشعوب الجرمانية من البحر البلطى بحركة الشعوب الآسيوية المنثالة غربا من السهوب ( الإستبس ) الآسيوية . وكانت قواتها المجتمعة التى دفعها من الوراء ضغط جحافل جديدة من المغول الشرقيين هى التى طغت موجتها القاضية على خطوط الدفاع فى الإمبراطورية .

أما المنبع الأول لهـذه الحركة فهو الشرق الأقصى على طول أطراف الإمبراطورية الصينية حيث وقف الهون ألد أعداء الصين المتحضرة ، وهم الذين دفعهم عن الأراضى الصينية أباطرة الأسرة الهانية وخطوط الدفاع الممتدة من أطراف شمال الصين إلى التركستان الشرقية . ذلك أن السيل البشرى الذى انسدت الطريق فى وجهه هكذا من الشرق لم يلبث أن تحول غرباً ، حتى غدا أمواجاً بشرية هادرة ضد أطراف الغرب الرومانى .

وبدأت هذه الأمواج البشرية سنة ٤٩ قبل الميلاد ، حين رحل الهون الغربيون عن مواطنهم القديمة وتحركوا غرباً ، ثم تبعتهم بقايا الهون الشماليين.

بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان . ولم يحل القرن الثالث الميلادى حتى طرد أولئك الهون شعوب السارماتيين عن أقاليم نهر الفولجا ، وغزوا أوربا فى القرن التالى ، فاستولوا على مملكة القوط الشرقيين سنة ٣٧٥ م ، وأتبعوا ذلك بالزحف ضد القوط الغربيين . واستغاث القوط الغربيون بالدولة الرومانية، فأغاثتهم بأن سمحت لهم بعبور الدانوب والإقامة فى إقليم موئيسيا. غير أن عسف الموظفين الرومان أدى بهم إلى الثورة على الدولة الرومانية ، وانضم إليهم القوط الشرقيون واللان السارماتيون سكان ما وراء الدانوب ، فغزوا معهم الأقاليم البلقانية . وفى سنة ٣٧٨ التقت هذه الجموع بالإمبراطور فالنز وجيشه عند أدرنه ، وكان انتصارها عليه بفضل الهجوم الكاسح الذى قام به الخيالة السارماتيون والقوط الشرقيون بقيادة العاهلين اللانيين ألاثيوس وسافراقس. ولذا تعد هذه المعركة إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ ، إذ برهنت برهاناً واضحاً على تفوق الخيالة البربرية على المشاة الرومانية (١) . ومع أن الإمبراطورين جراتيان وتاوداسيوس استطاعا أن يعيدا قوة الإمبراطورية ، فإنهما لم يستطيعا إعادة ما كان للفيالق الرومانية من هيبة . وظل القوط مقيمين فى أراضى الإمبراطورية ، فأقام القوط الغربيون فى موئيسيا والقوط الشرقيون فى بانونيا ، على حين صارت فرق كبيرة من القوط واللان بقيادة رؤسائها المتبربرين أهم فرق الجيوش الرومانية . غير أن الدعاية الخاصة التى أظهرها كل من الإمبراطورين جراتيان وثاوداسيوس نحو الفرق المرتزقة من اللان والقوط لم تلق استحساناً فى الغرب ، وهى من أكبر أسباب محاولات الجيوش الغالية وبعض العناصر

---

(١) عرف الرومان أهمية الخيالة الثقيلة فى الحروب قبل ذلك بمدة طويلة ، ويرجع انتصار قسطانز الثانى فى واقعة مورسا سنة ٣٥١ إلى خيالته المدرعة .

الوثنية.الحافظة لإعلان استقلال الإمبراطورية الغربية عن القسطنطينية . وكان للحرب الداخلية التى نجمت عن ذلك أسوأ الأثر فى أحوال الإمبراطورية فى الغرب، فلم يقتصر الأمر على إضعاف الجيوش الغربية وذهاب روحها المعنوية بسبب هزائمها المتكررة ، بل اضطر ثاوداسيوس إلى نقل عاصمة الإمبراطورية من غاليا إلى شمال إبطاليا . ومن ميلان ورافنا غدا فى استطاعة الأباطرة أن يكونوا على صلة بزملائهم فى الشرق، ولكنه لم يعد فى استطاعتهم بعد ذلك أن يتعهدوا شئون الأطراف الغربية ، كما كانوا يفعلون من عاصمتهم فى تريف . والخلاصة أن غاليا كانت المركز الحيوى لتنظيم الدفاع الرومانى وكان انسحاب الحكومة الإمبراطورية منها إلى إيطاليا ممهداً للطريق إلى تفكك الإمبراطورية الغربية (١) .

وبموت ثاوداسيوس انطلق سيل القوى المدمرة فى الإمبراطورية، وهب القوط الغربيون المقيمون فى موئيسيا وعاشوا فى البلقان ، ثم اتجهوا غرباً إلى إيطاليا، ووراءهم جموع أخرى من الجرمان سكان الأراضى الواقعة عبر الدانوب الأدنى . ونجح القائد الجرمانى ، للجيوش الرومانية الغربية — وهو ستليخو الوندالى — نجاحاً مؤقتاً فى دفع المغيرين ، ولكنه اضطر فى سبيل ذلك أن يترك أطراف الراين خالية من جندها . وفى آخر يوم من سنة ٤٠٦ م اندفع جحفل من قبائل الوندال والسويفى نحو غاليا ، وعلى رأس هذا الجحفل جماعات من اللان ، المنتشرين فى مختلف الأقاليم ، وعاشت فيها من أقصاها إلى أقصاها ثم انتقلت عنها إلى إسبانيا . وهكذا أمسى الغرب كله فوضى ، حارب خلالها

---

(١) اطلر C. Jullian; Histoire de Gaule. vol. 7. chap. 7.

القادة الرومان والزعماء البرابرة والفلاحون الثائرون بعضهم بعضاً ودون تفريق أو تعيين . وفى ذلك كتب القديس جيروم — وهو بعيد وقتذاك فى بيت لحم بفلسطين — «لم يبق منا على الحياة سوى بقية قليلة ، لا عن جدارة فينا بل بفضل رحمة الله . فها هى غاليا كلها أجناس متوحشة لا تحصى ، وجميع البلاد الممتدة من جبال الألب إلى جبال البرانس ومن نهر الراين إلى المحيط دمرها البرابرة تدميراً . . . وحديثاً ذهبت عنا أملاكنا فى جميع البلاد الممتدة من جبال الألب البوليانية إلى البحر الأسود، فلم تعد فى أيدينا . ولثلاثين سنة مضت هدم الأعداء أطراف الدولة عند نهر الدانوب وباتوا يحاربون بعضهم بعضاً من أجل أراضى الإمبراطورية . وجففت الأيام الدموع فى مآقينا ، وفيما عدا فئة من الشيوخ الذين اشتعل الشيب فى رؤوسهم، لم يعد فى سائر الناس آسف على الحرية التى غدت ذكراها نسياً منسياً ، لأنهم ولدوا أيام الأسر أو أيام الحصار . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يصدق أن روما تحارب فوق أراضيها لا فى سبيل المجد بل من أجل البقاء ، بل إنها لم تعد تحارب ، لكنها تشترى حياتها بالذهب والأحجار الثمينة [١] » .

ومن المؤكد أنه فى العقدين الثانى والثالث من القرن الخامس بدت أواخر أيام الإمبرطورية معدودة ، إذ خرب ألارك القوطى روما نفسها، وأقام خليفته مملكة للقوط الغربيين فى جنوب فرنسا ، واستولى الوندال على إفريقيـة ، واحتل الفرنجة والبرجنديون والألليمانى الضفة الغربية لنهر الراين ، على حين عاش الهون فى الأقاليم الشرقية والغربية . غير أن الغزاة لم يلبثوا أن أدركوا

(١) انظر (Ep. 123. 15-16)

— وضوضاء الغزو آخذة فى الخمود — أن ليس من مصلحتهم تحطيم الإمبراطورية. وكان القوط أحلافا للإمبراطورية زهاء قرن من الزمان ، وأقاموا لثلاثين سنة مضت فى أقاليم رومانية ، ولذا لم يجدوا صعوبة فى الاستقرار على مبادئ التعايش السلمى مع سكانها الرومان ، والاعتراف بالسيادة الإمبراطورية الاسمية. وأعلن آتولف ملك القوط الغربيين بنفسه أنه تمنى فى وقت من الأوقات أن يمحو اسم روما وأن يكون مؤسساً لإمبراطورية قوطية جديدة . لكنه عاد فأدرك أن همجية البربرية القوطية عاجزة عن إنشاء دولة دون الاعتماد على قوانين روما ، ولذا فهو يفضل أن يفخر باستخدام القوة القوطية فى إعادة اسم روما إلى مجده القديم(١) .

وتحقق هذا البرنامج تماماً فى مملكة القوط الشرقيين التى أنشأها ثيودريك فى إيطاليا سنة ٤٩٣ ؛ ولم تستطع دولة أخرى من دول البرابرة أن تصل إلى مستوى علو مستواها الحضارى أو أن تتمثل التقاليد الرومانية فى شئون الحكم على نحو ما تمثلتها هذه المملكة . ثم إنه باستثناء الوندال فى إفريقية — وهم الذين ظلوا على عدائهم لروما — صالحت الإمبراطورية الرومانية سائر الشعوب الجرمانية الشرقية — أى القوط الغربيين فى إسبانيا وجنوب غاليا ، والسويفى فى إسبانيا ، والبرجنديين فى غاليا الشرقية — وقبلت هذه الشعوب جميعاً وضعها الاسمى على أنها من المعاهدين أو المحالفين .

وأقام أولئك الجرمان بين الرومان الإقليميين كأنهم نوع من الحاميات

(١) انظر (Orosius. VII. 48)

الدائمة ، على نفس الطريقة التى أقاموا بموجبها مؤقتاً فى أقاليم الدانوب فى القرن السابق. وهكذا عاش الرومان والجرمان جنباً إلى جنب وكل منهما محتفظ بقوانينه ونظمه ومذهبه الدينى ، وهو المذهب الكاثوليكى عند الرومان والمذهب الأريوسى عند الجرمان . وبعبارة أخرى عاش الجرمان طفيليين على التنظيم الاجتماعى الرومانى ، ومع أنهم أضعفوا حيويته فإنهم لم يقضوا عليه . ولذا استمرت حياة الأرستقراطية الرومانية القديمة صاحبة الأراضى الزراعية الواسعة على حالها دون تغيير كبير ؛ كما تشهد بذلك خطابات سيدونيوس أبولينارس فى غاليا وكاسيدورس فى إيطاليا ، وبعضهم شغل مناصب كبيرة فى ظل الحكام الجدد كما حدث لكاسيدورس .

غير أن الممالك الجرمانية الشرقية الموطن كانت كلها قصيرة العمر ، لأنها لم تمد لنفسها جذوراً فى البلاد التى حلت بها ؛ ولذا ذبلت فى سرعة . ففى غاليا اندمجت فى الفرنجة ، وفى إيطاليا وإفريقية اكتسحتها النهضة البيزنطية زمن جستنيان ، وفى إسبانيا قضى عليها الفتح الإسلامى فى أوائل القرن الثامن . أما فى الشمال فاختلف الحال ، لأن الشعوب الجرمانية الغربية الموطن — وهم الفرنجة فى بلجيكا وحوض الراين الأدنى والألمانى حول حوض الراين الأعلى وفى سويسرا ، والروجيون والبافاريون حول حوض أعالى الدانوب -- انثالوا عبر الأطراف الرومانية ، واستولوا على الأراضى التى نزلوا بها ، تمام الاستيلاء . ثم إن هذه الشعوب كانت وثنية وتعيش عيشتها القبلية ، دون أن تحتك إلا قليلا بالحضارة الرومانية الأرقى . ولم تعش هذه الشعوب عيشة أرستقراطية حربية طفيلية على أهل البلاد المفتوحة مثل القوط ؛ ولم يطلبوا إعانات مالية أو نوعية ، بل أرضاً ليستقروا فيها ، فاستأصلوا طبقة ملاك الأراضى من الرومان ، ودمروا

المدن فى كثير من الأحيان، وأقاموا مجتمعاً زراعياً قبلياً جديداً . أما من بقى من السكان الأصليين فصاروا أقناناً أو بستانيين أو مهاجرين لائذين بالجبال والغابات .

واختلفت الحال بعض الاختلاف فى بريطانيا الرومانية، حيث كانت حركة الغزو ذات مرحلتين . فمنذ أواسط القرن الرابع كان الخطر الرئيسى على بريطانيا الرومانية آتيا لامن ناحية الجرمان بل من ناحية الكلت الرابضين وراء الأطراف ، أى فى أيرلندا وفى أسكتلندا . وفى سنة ٣٦٧ اكتسحت قوات هذين الإقليمين بريطانيا الرومانية كلها ، وكان هذا هو الوقت الذى تخربت فيه معظم المدن والقرى والأبعاديات الرومانية فى بريطانيا . وحوالى هذا الوقت كذلك كان القراصنة السكسون الجرمان يغيرون على شواطئ بريطانيا الشرقية والجنوبية وشواطئ فرنسا الغربية .

هكذا وقعت الحضارة البريطانية الرومانية بين نارين ، وما زالت حتى احترقت وبادت . وكان آخر دليل على بقية من حيوتها تحويل أعدائها من الكلت إلى الديانة المسيحية على أيدى رجال من شاكلة القديس ننيان والقديس باتريك ، وكان باتريك ابناً لأحد ضباط العشرات البريطانيين الذين حملتهم إحدى الغزوات الكلتية عبيداً أسرى . أما القول بأن البريطانيين أنفسهم هم الذين استدعوا السكسونيين إلى بريطانيا لحمايتها من البكتيين والأسكتلنديين فقول فى ذاته قريب الاحتمال ، لأنه لم يعد بعد أن يكون مثالا من أمثلة السماح للبرابرة المعاهدين بالإقامة فى أقاليم الإمبراطورية مقابل مايتعهدون به من خدمات حربية ، ولا سيما حين يؤدى رحيل الفرق الرومانية عن بريطانيا إلى خلو

مساحات كثيرة من الأراضى الصالحة للاستيطان . وفى ذلك الوقت خيم الفناء على الحضارة البريطانية الرومانية ، واتسمت المرحلة التالية من تاريخ الفتح السكسونى بأنها نضال بين مجتمعين قبليين متنافسين ، ليس بأحدهما مسحة من الحضارة الرومانية ، وهما المجتمع الكلتى فى بلاد الغال وستراثكلايد والمجتمع الجرمانى فى بريطانيا الشرقية . ومن المعلوم أن المجتمع الكلتى كان وقتذاك على المسيحية ، لكنها لم تكن مسيحية الكنيسة الإمبراطورية ومدنها الأسقفية ونظامها الأكليروسى الدقيق كما كان الحال فى بريطانيا الرومانية ، بل كانت خلقاً جديداً ناشئاً من تطعيم الحضارة القبلية الكلتيةبالمسيحية . وقام تنظيم هذه الكنيسة على أساس الدير المحلى لا على أساس الأسقفية المحلية . وبلغت أقصى تطورها لا فى بريطانيا بل فى أيرلندا التى كانت وقتذاك مصدراً لحضارة أصلية غنية . وكان للجهود التى قامت بها المدارس الديرية الأيرلندية والقديسون الديريون الأيرلنديون أهمية عظيمة فى تطور المجتمع الأوربى فى العصر الذى أعقب الغزوات البربرية . غير أنه إذا نحن أردنا بحث العامل الرئيسى فى استمرار حضارة العالم القديم ، فليس مجال ذلك أيرلندا والأديرة الأيرلندية وقديسيها، إذ كانت غاليا هى القنطرة الواصلة بين العالم الرومانى وعالم العصور الوسطى . ذلك أن أقاليم البحر المتوسط ظلت الحضارة الرومانية فى أرجائها غالبة غلبة مطلقة ، على حين كانت القبلية البربرية هى كل شىء فى ألمانيا الرومانية . أما غاليا فهى التى التقى المجتمعان والتقت الحضارتان فيهما على قدم المساواة تقريباً ، وهى التى كانت الأحوال فيها ملائمة لعملية مزج وتوحيد كفيلين بتخريج أساس لنظام جديد .

غير أنه قبل أن يصبح ذلك ممكنا كان لا بد من الاتفاق على مبدأ يصلح

أساساً للاتحاد ، ولم يكف أن يسكت البرابرة عن الحضارة الرومانية وأن يتخذوا بعض الأشكال الظاهرية للحكم الروماني، لأن الممثل الحقيقي لسكان البلاد التي استولى عليها الجرمان لم يكن الموظف الروماني أو رجل القانون الروماني ، بل الأسقف المسيحي . وتفسير ذلك أنه عند ما حل الانهيار بالحكومة الإمبراطورية في الغرب غدا الأسقف الزعيم الطبيعي للسكان الرومان ، فهو الذي رتب وسائل الدفاع عن مدينته كما فعل سيدونيوس أبوليناريس في كليرمونت ، وهو الذي فاوض زعماء البرابرة ، وكما فعل القديس لوبس مع أتيلا والقديس جرمانوس مع ملك اللان . وهو فوق ذلك كله ممثل المجتمع الروحي الجديد والحضارة المدنية القديمة في آن واحد .

وفي خلال الكارثة التي طفح بها عصر الغزو ظل زعماء المجتمع المسيحي، أمثال سيدونيوس أبوليناريس والقديس أفيتوس محتفظين بإيمانهم — لا بدينهم فحسب — بل بمصير روما الإمبراطورية وبغلبة الحضارة القديمة. والواقع أن المسيحيين عموماً أحسوا بأنه مادامت الكنيسة باقية فلن يتهدم ماقامت به الإمبراطورية في مضمار الحضارة، وبأن تحول الجرمان إلى المسيحية — أو بعبارة أدق إلى الكاثوليكية — سوف يجعل منهم رومانيين ، كما سوف يؤدي بالطوفان الجرماني أن يتحطم على صخرة المسيح . وكذا كتب القديس بولينوس أسقف نولا بشأن أحد المبشرين المسيحيين وهو نا كيتا الرمسياني : « وعلى يديك يتعلم البرابرة كيف ينشدون اسم المسيح في نغمة رومانية » . وكانت العقبة الكبرى الوحيدة في سبيل اتحاد الرومان والبرابرة في مجتمع واحد هي الاختلاف في الدين . فالممالك الجرمانية الأولى ، وهي ممالك البرجنديين، والقوط الغربيين في غاليا ، والقوط الشرقيين في إيطاليا، والقوط الغربيين والسويفي في إسبانيا ، وفوق أولئك جميعاً الوندال في إفريقية،

كانت كلها على المذهب الأريوسى ، أى فى حال المعارضة الدائمة لكنيسة الإمبراطورية ولعامة السكان الخاضعين . ومن هنا كانت الحقيقة المتناقضة وهى أن توحيد غاليا جاء لا من ناحية المملكة القوطية الرومانية المتحضرة نسبياً فى الجنوب الغربى ، بل من ناحية مملكة الفرنجة المتبربرة فى الشمال الشرقى . ذلك أن الفرنجة على الرغم من وثنيتهم كانوا أطول اتصالا بالتقاليد الإمبراطورية من أى شعب آخر من الشعوب الجرمانية الغربية . واستقر الفرنجة البحريون فى أراضى الإمبراطورية فى بلجيكا وفى حوض الراين الأدنى منذ منتصف القرن الرابع ، وحاربوا فى القرن الخامس فى جانب حلفائهم ولاة غاليا الرومانية ضد السكسون والقوط الغربيين والهون . وفى سنة ٤٨٦ استولى ملكهم كلودوفج أو كلوفس على الأراضى الواقعة بين نهرى اللوار والسوم . وهى الأراضى التى كانت آخر ما تبقى من غاليا الرومانية المستقلة . وبذا أضحى ملكاً فى مملكة رومانية جرمانية . على أن اعتناق كلوفس للمسيحية الكاثوليكية سنة ٤٩٣ هو نقطة التحول فى تاريخ ذلك العصر ، لأنه آذن بالتحالف بين مملكة الفرنجة والكنيسة ، وهو التحالف الذى غدا أساساً لتاريخ العصور الوسطى ، وأدى فى النهاية إلى إحياء الإمبراطورية الغربية فى شخص شارلمان . أما التأثير المباشر لذلك فهو تسهيل توحيد غاليا بإدماج الممالك الأريوسية فى مملكة الفرنجة ، واعتراف الحكومة الإمبراطورية فى القسطنطينية بالملك كلوفس ممثلا للسلطة الرومانية . ثم كان أن قام كلوفس بحربه العظيمة ضد القوط سنة ٥٠٧ بصفته حامياً للكاثوليكية ضد الأريوسية . ويروى أنه قال غداة هذه الحرب « إنه ليحز فى نفسى أن يظل أولئك الأريوسيون مسيطرين على جزء من غاليا ، فلنذهب مستعينين بالله لنستولى على أراضيهم » (١) وفى صفحات أخرى من تاريخ جريجورى التورى

---

(١) انظر (Greg. de Tours. II. 37)

تبدو هذه الحرب على أنها حرب مقدسة ، إذ جاءت كل خطوة من خطوات زحف كلوفس مصحوبة بمعجزات دالة على الرضى الإلهى . ومن الواضح أن انتصار كلوفس عند فوييه واستيلاءه على أكوتين ، كان كل منهما مؤذناً بظهور دولة كاثوليكية جديدة فى الغرب ، حتى أدرك الإمبراطور أنسطاس أهمية ذلك الانتصار فأنعم على كلوفس — فور سماعه به — بشعار الحاكم الرومانى. وفى خلال السنوات الثلاثين التالية تقدمت الملكية الفرنجية فى سرعة غريبة ، فلم يقتصر الأمر على توحيد غاليا مرة أخرى فحسب، بل امتد سلطانها شرقاً إلى ما وراء الأطراف الرومانية القديمة ، وذلك بالاستيلاء على ممالك الألليمانى والثورنجيين والبافاريين على التوالى ، وبذا نهضت دولة عظيمة كانت لا أصلا لفرنسا فحسب بل كذلك لألمانيا العصور الوسطى . ودل الفرنجة فى وضوح ليس بعده وضوح على مدى إدراكهم للتقاليد الرومانية، بما قاموا به من فتح وتنظيم شرقى نهر الراين . ولا تزال ألمانيا الجنوبية وأهلها يحملون علامات الحكم الفرنجى فى تسمية بلادهم باسم فرانكونيا .

وسلكت الدولة الجديدة منذ بدايتها مسلك وريث التقاليد الإمبراطورية، فأنقذت ما تبقى من حطام الإدارة الرومانية وجعلته صالحاً للعمل من جديد . وجرياً على أسلوب الأباطرة اتخذ الملك الجرمانى لنفسه « قصراً مقدساً » له هيئة من الموظفين ، وفى ديوانه كتبة من الغاليين الرومانيين، حفظوا نظم الإدارة الإمبراطورية وروتينها . أما الدخل الملكى فكان من الضياع التابعة للخزانة الإمبراطورية ومن ضريبة الأرض المفروضة ، حسب نظام السجلات العقارية القديم. ولم تكن الوحدة الإدارية هى ( المائة ) الجرمانية ، كالحال فى الأراضى الفرنجية القديمة فى الشمال ، بل المدينة وما حولها من الأراضى تحت سلطة

الكونت . ثم إن موظفى الإدارة كانوا خليطاً متساوياً من الرومان والفرنجة، فتولى بروتاديوس وكلوديوس الرومانيان رآسة البلاط زمن الملكة برونيهلد، كما كان أعظم قائد للجيوش الفرنجية فى القرن السادس هو البطريق الرومانى مُمولس . وفى بعض النواحى كانت سلطة الملكية الفرنجية أكثر استبداداً من الحكومة الإمبراطورية القديمة ، ولا سيما فيما يتعلق بالكنيسة التى أخذ خضوعها لسيطرة الدولة يزداد رويداً رويداً ، حتى صار الأسقف إلى جانب الكونت الممثل الرئيسى للسلطة الملكية فى أسقفيته ، دون أن يفقد شيئاً من أهميته الاجتماعية .

غير أن العنصر البربرى فى الدولة الجديدة لم يكن من جهة أخرى أقل وضوحاً، إذ اختفت الوحدة الرومانية ومعها المثالية الرومانية الحريصة على حكم القانون ، وحل محلها فى الواقع خليط من القبائل والشعوب ، وكل منها يعيش عيشته حسب قوانينه الخاصة به . وحوكم الفرنجى والرومانى الغالى والبرجندى لا وفقاً لقانون عام فى الدولة ، بل حوكم كل منهم حسب قانون عشيرته . ولم تعد روح النظم هى الروح القديمة ، حتى فى النظم التى اقتبستها الفرنجة برمتها من الإمبراطورية الرومانية ، لأن القوة المحركة وراء بناء الدولة الفرنجية لم تزل هى القبيلة البربرية المحاربة . ثم إن السلطة التى تحفظ تماسك المجتمع لم تكن السلطة المدنية فى الدولة ومحاكمها ، بل الولاء الشخصى الذى يكنه الفرد لرئيس قبيلته ولعشيرته ، والذى يكنه المحارب لقائده وزعيمه . وهكذا حلت فكرة الولاء — أى الرابطة التى تربط الفرد بسيد قوى بعد أن يقسم له يمين الولاء نظير قيام السيد بحمايته — محل العلاقة القانونية بين الحاكم والمواطن الحر .

وغدت الجريمة أولا جريمة ضد الفرد وعشيرته ، وجرى الحكم فيها بدفع دية تختلف باختلاف درجة الرجل الاجتماعية ومرتبة قومه .

وجرى هذا المزج بين العناصر الجرمانية والرومانية المتأخرة زمنياً — وهو الذى شهدناه فى بناء الدولة — فى كل نواحى الحضارة فى ذلك العصر . ففى بداية الغزوات الجرمانية وقف العنصران كل منهما ضد الآخر فى تضاد حاد، ثم أخذ كل منهما بمرور الزمن يفقد ذاتيته ويفسح فى النهاية لوحدة جديدة . ومن المستطاع أن ندرس هذه العملية فى موضوع فوق المعتاد فى ميدان الفن، بفضل البحوث الحديثة التى قام بها علماء الآثار، ولا سيما علماء اسكندناوة . فمن هذه البحوث ، نستطيع أن نتتبع تيارين مختلفين من الفن جاءا إلى أوربا منذ القرن الرابع فصاعدا ، وهما التيار القوطى الإيرانى والتيار البيزنطى السورى . ونشأ هذان التياران فى غرب آسيا مثلما نشأ كثير من المؤثرات الحضارية العظيمة فى عصور ماقبل التاريخ ، وهما طريق البحر المتوسط من جهة وطريق السهوب ( ستبس ) الروسية شمالى البحر الأسود ووديان الدانوب والفستولا من جهة أخرى . وفى أثناء إقامتها فى روسيا الجنوبية تعلمت الشعوب الجرمانية من السارماتيين فن صناعة الجوهرات المتعددة الألوان، وكذلك أسلوب الزخرفة بالأشكال الحيوانية التى اختص بها الفن السيثى من قبل . ثم غدت هذه الزخرفة بالأشكال الحيوانية أسلوباً مميزاً للعالم الجرمانى كله من القرن السادس فصاعدا ، بما فى ذلك الأقاليم السكندناوية الشمالية البعيدة ، على حين اقتصر انتشار فن صناعة الجوهرات المتعددة الألوان على الشعوب التى هاجرت من روسيا الجنوبية مثل القوط الجرمان ، واللان

غير الجرمان ، فضلا عن الشعوب الأخرى التى تأثرت بهما . وعثر الباحثون على نماذج جميلة من هذا الفن الرفيع فى بلاد بعيدة مثل إسبانيا ، وهربيز فى جنوبى غرب فرنسا ، وفى مقاطعة كنت وجزيرة وايت بإنجلترا ؛ وفى ذلك مايدل على الصلة الوثيقة بين الحضارة الجوتية فى جنوب إنجلترا وحضارة الفرنجة عبر المانش، لاحضارة الدانمرك . ومن جهة أخرى يدل إقليم الإنجاز وما عثر عليه الباحثون به من دبابيس ذات أشكال صليبية ورءوس مربعة،على علاقته باسكندناوة ، على حين اختلف الفن السكسونى الأول فى بريطانيا الجنوبية اختلافا تامًا عن كل من إنجلترا وعن القارة الأوربية فى استخدام الزخارف الهندسية لا الحيوانية ، وفى الاحتفاظ ببعض الرسومات الرومانية مثل رسوم البيضة واللسان ، ورسوم الضفائر الهندسية فى أذيال الملابس والأقمشة(١) . ونستطيع بدراسة المدة الزمنية التى عاشتها كل من هاتين المدرستين للفن الجرمانى أن نقيس مبلغ احتفاظ الشعوب الفاتحة بحضارتها المستقلة أو خضوعها لمؤثرات بيئتها الجديدة . ففى إنجلترا عاشت التقاليد التيوتونية حتى أواخر القرن السابع ، على حين ظهر تأثير حضارة البحر المتوسط ممثلا فى الفن السورى والبيزنطى فى فرنسا منذ منتصف القرن السادس . ودلت غلبة هذا الفن على ماوصفه عالم اسكندناوى بأنه ، عملية تطهير الحضارة الفرنجية من الصبغة الجرمانية .

وتكررت هذه المسألة فى ميادين الدين والأدب والفكر ، مع العلم بأن

---

(١) انظر (Thurlow Leeds : Archaeology of Anglo-Saxon Settlements. p.p. 58. etc.)

وكذلك (R. Smith : Guide to Anglo Saxon Antiquities p.p. 25. 34)

الشواهد هنا أقل كفاية للباحث . ففيما عدا إنجلترا لم تستطع الديانة الجرمانية بقاء بعد استيلاء الجرمان على الإمبراطورية ، بل غلبت المسيحية فى بعض الأحوال ، كما حدث للقوط فى القرن الرابع . وكانت الترجمة القوطية للإنجيل على يد الأسقف الأريوسى أولفيلاس أول فاتحة للأدب التيوتونى . وانتشرت المسيحية انتشاراً سريعاً من القوط إلى الشعوب الجرمانية الشرقية الأخرى، على حين بقى الجرمان الغربيون على ديانتهم الوثنية إلى ما بعد ذلك بكثير . ولم يؤد اعتناق البيت المالك الفرنجى للمسيحية — كما لم يؤد اعتناقها بين الطبقات الحاكمة فى الشعوب الجرمانية التى استولى عليها الفرنجة — إلى تغيير سريع فى ديانة عامة السكان . ثم إن أحوال الجرمان وأفكارهم ظلت أحوالا وأفكاراً لمجتمع وثنى محارب، حتى بعد أن تقبلت شعوبهم المسيحية اسمياً . ومن الدليل على ذلك دفن الملك ألارك فى قاع نهر بوزنتو بين خزائنه وعبيده ، وهو ما يذكرنا بجنازة باتروكلوس — أحد أبطال طروادة — لا جنازة ملك مسيحى . ذلك أن هذا العصر كان عصر البطولة فى تاريخ الشعوب الجرمانية ، وفيه موازاة اجتماعية واضحة للعصر الهومرى فى التاريخ اليونانى القديم ، كما قال الأستاذ شادويك . ففى كلا العصرين ترتب على الاتصال بين حضارة قديمة مستقرة ومجتمع بدائى محارب أن بدأت عملية تغيير ، ثم لم تلبث هذه العملية أن هدمت نظم الدولة المغلوبة والقبلية الغالبة سواء بسواء ، وجعلت من زعيم القبيلة الغالبة عاملا اجتماعياً مسيطراً على الحال الجديدة، وبقيت أخبار أولئك الزعماء القبليين المحاربين — وهم « مخربو المدن » — كما بقيت قصص مغامراتهم العاتية ، ذكريات ومثاليات للعصور البربرية التالية: فصار ثيودريك بطل فيرونا، وجينتر بطل فورمز، واتزل ملك الهون ، وبيوولف، وهلدبراند ، وغيرهم، شخصيات فى

سجل الملاحم التى غدت تراثاً مشتركاً بين الشعوب التيوتونية . ومع أنهم لم ينجبوا شاعراً من طراز هومر لتخليد ملاحمهم ، ففى بطولة قصة النيبلنج وقصة تدمير المملكة البرجندية على أيدى الهون ، ما لا يقل مأساة عن قصة سقوط طروادة ومصير أبناء بيت آتريوس . وبدا أدب المجتمع المغلوب ضعيفاً بالقياس إلى قصص البطولة الجرمانية، إذ لا شك فى أن أشعار سيدونيوس أبو ليناريوس وفينانتيوس فورتناتوس لا تعدو أن تكون زفيراً ختامياً من تقاليد حضارية مشرفة على الزوال . ومع ذلك كانت التقاليد اللاتينية هى التى تغلبت فى البلاد المفتوحة ، وكان بقاء التقاليد الكلاسيكية عاملا حيوياً هاماً لمستقبل أوربا ومولد حضارة العصور الوسطى . والواقع أنه على الرغم من ضآلة المستوى الأدبى فى مؤلفات المؤلفين أمثال هيروثيوس، وإيسيدور والأشبيلى ، وكاسيدورس، وجريجورى العظيم، فلا شك أن أولئك المؤلفين كانوا أعظم تأثيرا فى تشكيل عقول الأجيال التالية من كثير من عباقرة الطراز الأول .

وعاشت تقاليد الحضارة اللاتينية فى الكنيسة والأديرة . وإذ استجاب الجرمان أنفسهم للمسيحية فلم تظل هذه الحضارة بعد ذلك حضارة السكان المغلوبين ، بل صارت القوة المسيطرة فى النظام الجديد . وهكذا ابتدأت عملية مزج تمهيدية بين العناصر الأربعة المختلفة التى تكونت منها الحضارة الأوربية الجديدة، وهى الإمبراطورية الرومانية، والكنيسة الكاثوليكية، والتراث الكلاسيكى والبرابرة . أما الغزوات الجرمانية فكان من آثارها أنها بدأت عملية مزج حضارى بشرى بين الجرمان أنفسهم من جهة والمجتمع الإمبراطورى الرومانى من جهة أخرى. وكانت غاليا المركز الحيوى لهذه العملية، حيث التقى المجتمعان على أسس أقرب إلى المساواة عن أى إقليم آخر . على أن تأثير هذه العملية امتد

إلى غرب أوربا كله، بحيث أضحت جميع الشعوب الغربية رومانية — جرمانية في درجات متفاوتة من الحضارة . وحيثما كان العنصر الجرماني ضعيفاً — كالحال في إيطاليا — جرى تدعيمه في القرن السادس بغزوات جرمانية جديدة . وحيثما بدت تقاليد الحضارة الرومانية كأنما أمست ميتة ـ كالحال في بريطانيا وألمانيا ـ نهضت أعمال الكنيسة والأديرة في القرنين السابع والثامن لإحيائها . والخلاصة أنه على الرغم مما تراءى للمعاصرين من غلبة البربرية، فإن الكنيسة بقيت ممثلة للتقاليد الحضارية القديمة ، وسبيلا للوحدة الروحية بين سلالات الرومان المغلوبين والجرمان الغالبين . غير أن قروناً مضت قبل أن تكون العناصر البنائية في غرب أوربا على درجة من القوة الكافية للتغلب على قوى الأغلال البربرية ، ولذا انتقل محور الزعامة الحضارية إلى الشرق ، ووافقت « العصور المظلمة » في تاريخ الحضارة الغربية العصور الذهبية في تاريخ الحضارتين البيزنطية والإسلامية .

# القسم الثاني

# سيادة الشرق

# الفصل السادس

## الإمبراطورية المسيحية ونشأة الحضارة البيزنطية

بينما أخذ الغرب اللاتيني يغوص تدريجاً فى محيط الفوضى والبربرية ، إذا بالإمبراطورية فى الشرق تظل لا على قيد الحياة فحسب ، بل تصبح مركزاً لحركة حيوية جديدة فى مضمار الحضارة . وتعرض تاريخ هذه الحركة الحضارية لدرجة من بخس التقدير والإهمال لم يتعرض لها تاريخ أى طور آخر من أطوار الحضارة الأوربية ، وذلك لأن الدراسة الحديثة للتاريخ الأوربى جرت على أن تبدأ من نقطتين ، هما تاريخ العصور الكلاسيكية وتاريخ القوميات الأوربية الحديثة . أما ما عدا ذلك مما لا يستقيم وهذا الاتجاه فكان نصيبه الإهمال وسوء الفهم. وجرى المؤرخون على ذلك،حتى إن أعظم مؤرخى الإمبراطورية الرومانية الشرقية من الإنجليز — وهو إدوارد جيبون — لم يدل فى تأليفه الشهير على شىء سوى قلة التقدير لحضارتها ، إذ اعتبرها ذيلا وملحقاً للتاريخ الرومانى القديم ، على حين اعتبرها خليفته فنلاى تمهيداً لتاريخ بلاد اليونان الحديثة . أما الحقيقة فهى أن الحضارة البيزنطية ليست بقية متحجرة من الماضى الكلاسيكى ، بل حضارة جديدة ، هى أساس عملية التطور فى حضارة العصور الوسطى ، والحضارة الإسلامية إلى حد ما . على أنه من المعروف أن عظمة الحضارة البيزنطية تتراءى فى ميادين الدين والفن أكثر مما تتراءى فى الأعمال

السياسية والاجتماعية . ويرجع معظم الاهتمام الكبير بالتاريخ البيزنطى فى السنوات الأخيرة إلى التقدير الجديد للفن البيزنطى، لأننا إذا أعجبنا بفن قوم فلا نستطيع أن نقلل من شأن حضارة هؤلاء القوم . هذا فضلا عن أن استمرار الإمبراطورية الشرقية يدل فى ذاته على أن هذه الإمبراطورية انطوت ولابد على عناصر من القوة السياسية والاجتماعية .

غير أنه إذا أردنا أن نفهم الحضارة البيزنطية وأن ندرك أعمالها الحقيقية ، فمن العبث أن نحكم عليها بمقاييس أوربا الحديثة ، أو حتى بمقاييس اليونان والرومان القدماء ، بل يجب أن ننظر إليها على أنها جزء من العالم الشرقى، وأن نضعها فى مكانها اللائق بها جنباً إلى جنب مع الحضارات العظمى المعاصرة فى الشرق ، وهى حضارات الفرس الساسانيين، وحضارة الخلافة الإسلامية فى دمشق أو بغداد .

أما تفصيل ذلك تاريخياً فهو أن الحضارات الشرقية القديمة بدت فى القرنين الثالث والرابع للميلاد كأنما تجدد شبابها ، وتكشف بطلائعها مرة أخرى عن نشاط حضارى مكين . ففى الهند كان هذا هو عصر سامودرا جوبتا ، وشاندرا جوبتا الثانى ، وهو العصر الكلاسيكى للفن الهندوسى والأدب . وعلى الرغم من التفكك السياسى للإمبراطورية فى الصين كان هذا بداية عصر جديد فى الفن والدين، بفضل ظهور البوذية التى أثرت تأثيراً عميقاً فى الحضارة الصينية. وفى فارس بوجه خاص كان هذا العصر نهضة سياسية ودينية ، وهو عصر الملوك الساسانيين العظماء الذين أعادوا التقاليد القومية بشأن الملكية الإيرانية، وجعلوا الزرادشتية ديانة رسمية للدولة الجديدة ، وذلك لأن الملكية الفارسية

الجديدة كانت ملكية مقدسة مستندة إلى قواعد دينية ، مثل الملكيات القديمة فى مصر وبابل . وتتجلى روح هذه الملكية الجديدة واضحة فى النحوت الصخرية العظيمة فى مدينة شاه‌بور وفى نقش روستام ، فنرى فى هذه النحوت صورة الإله أورا مازدا يضفى شعائر العظمة على ملك الملوك، وكل منهما على ظهر فرس كبير من خيل الحروب وهو لابس ملابس وزينات ملكية ، على حين يصور نحت آخر الإمبرطور فالريان جاثياً على ركبتيه أمام قاهره شابور، إشارة إلى مذلة كبرياء روما فى حضرة الشرق الظافر .

على أن هذه الموجة المظفرة من النفوذ الشرقى لم تدمر الإمبراطورية الرومانية ، ولكنها غيرت وجهها تمام التغيير . ومن علامات ذلك منذ القرن الثالث أن الإمبراطور أورليان —منقذ الإمبرطورية— عاد إلى روما من حملته السورية بفكرة الملكية المقدسة ، وهى المثالية الشرقية فى الحكم ، وجعل نوعاً من الوحدانية الشمسية — أى عبادة الشمس التى لا تقهر — ديانة رسمية للإمبراطورية بعد إنقاذها على يده . وكانت هذه الألوهية الشمسية هى ديانة بيت قسطنطين ، وهى التى مهدت الطريق لاعتناق قسطنطين نفسه ديانة المسيحية . ولذا تعد الإمبراطورية المسيحية الجديدة فى العالم البيزنطى مظهراً موازياً للمملكة الزرادشتية الجديدة فى فارس الساسانية (١) ، لأنها كانت كذلك، ما خلا أنها مستندة إلى المسيحية العالمية الجديدة . والواقع أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة (Sancta respublica romana) لم تكن من إنشاء شارلمان، بل

---

(١) شرح (E. Kornemann) هذا التوازى شرحا مزودا بحواش ببليوجرافية وافية فى:
Gercke and Norden. vol. III. in Die romische Kaiserzeit. Appendix- 4. New Rome and New Persia .

قسطنطين وثيودسيوس؛ بدليل أنه لم يأت القرن الخامس حتى صارت الإمبراطورية دولة كنسية بمعنى الكلمة ، وصار الإمبراطور ملكاً وقسيساً وحكمه جزءاً دنيوياً وممثلا لسلطان الكلمة الإلهية . وعلى هذا لم تعد ثمة حاجة إلى إخفاء سلطان الإمبراطور أمام الأشكال الدستورية للولاية العامة ـ كما كان الحال فى أوائل عصر الإمبراطورية ــ بل أحيط ذلك السلطان بكل مظاهر الهيبة والفخامة الاحتفالية التى لزمت الاستبداديات الشرقية . وغدا الإمبراطور أورثوذكسيا رسوليا ؛ وبلاطه اسمه البلاط المقدس ، وأملاكه اسمها الأملاك الإلهية ، ومراسيمه أوامر شريفة ، وتقديره السنوى للضرائب اسمه «التفويض الإلهى» .

وتحول كل الجهاز الحكومى والإدارى فى الإمبراطورية تحولا مطاوعاً لهذا التطور ؛ فلم يعد ثمة مجال للسناتو وسلطته الدستورية المستقلة الموازية لسلطة الإمبراطور ، كما كان الحال أيام أوغسطس ؛ كذلك لم يعد ثمة محل للمدينة الدولة مركزاً للإدارة المحلية ذات الاستقلال الداخلى . وغدا السلطان كله مجتمعاً فى شخص الإمبراطور ، ومن شخص الإمبراطور مصدره ؛ أى أن الإمبراطور أضحى قمة شكل هرمى هائل من الموظفين الرسميين الذين امتدت أصابعهم إلى جميع أطراف الإمبراطورية ، بحيث باتت كل ناحية من نواحى النشاط الاجتماعى والاقتصادى خاضعة لأدق أنواع الفحص والتنظيم ، كما بات كل مواطن ، وكل عبد ، وكل رأس من الماشية ، وكل قطعة من الأرض ، كل ذلك مسجل مرتين أو ثلاث مرات فى دفاتر السجلات الرسمية .

وكانت هيئة الموظفين المدنيين — بصرف النظر عما للجيش والكنيسة

من مقام — هى الطريق الوحيد للوصــول إلى أرقى مراقى المجتمع ، فـكبار الموظفين هم الأرستقراطية الجديدة ، وليس السناتو نفسه سوى مجلس مؤلف من الموظفين السابقين . وتركز الجهاز الحـكومى كله فى دواوين النظارات المركزية الخاصة بخمسة النظار الـكبار ، وهم الناظر الإمبراطورى (البريتورى) ، ورئيس الإدارات الحـكومية ، وكونت ( رئيس ) المنح والهبات المقدسة ، وكونت الممتلـكات الخاصة ، وناظر القصر الشريف . وسيطرت دواوينهم ومئات موظفيهم ومسجليهم تمام السيطرة على كل صغيرة وكبيرة فى الإدارة فى أقصى الأقاليم . وكان هــذا النظام البيروقراطى هو الظاهرة التى اتسمت بها الإمبراطورية فى عصرها الأخير منذ القرن الرابع حتى القرن السابع ، وهى الظاهرة التى تجعلها مختلفة عن كل من الإمبراطورية الأولى ورجالها العاملين فى وظائفها بالمجان ، والمجتمع شبه الإقطاعى فى الدولة الساسانية . ولم يأت هذ النظام ـ كالمثالية الثيوقراطية فى الملـكية والطقوس البلاطية ـ نتيجة مؤثرات شرقية جديدة، بل ميراثا من الإدارة المدنية الإمبراطورية منذ عصر الأنطونيين والتنظيم البيروقراطى الذى سارت عليه الملـكيات الهلينسية . وكما أوضح الأستاذ روستوفتزف ، ذبلت جذور هــذا النظام ولا ريب فى تربة التقاليد الحـكومية فى الملـكيات الشرقية العظمى فى مصر وفارس . غير أنه إذا كان هذا النظام فى أصله شرقيا ، فإن العقل الغربى تناوله بشىء غير قليل من التعقيل والترتيب. والخلاصة أن هذا النظام على الرغم من عيوبه —وهى عديدة — تضمن شيئا من الروح السياسية فى الحضارة الغربية ، وهى الروح التى أضاعتها كل من البربرية الإقطاعية فى الممالك الجرمانية والاستبدادية الثيوقراطية فى الشرق . وتعرضت الإمبراطورية البيزنطية لهــذين التأثرين ، إذ جنح كبار أصحاب الأراضى الإقطاعية من جهة إلى تأكيد استقلالهم وربط الوظائف السياسية

والامتيازات بتملك الأراضى ، على حين غدا السلطان الإمبراطورى من جهة أخرى معرضاً لخطر التطور نحو جامح طغيان الملوك المؤلهين . غير أن أحداً من هذين الاتجاهين لم يتحقق تمام التحقق بفضل قيام الإدارة المدنية ، ولذا بقيت الفكرة الغربية بشأن الدولة وسيطرة حكم القانون قائمة حية . والحق يقال إننا ندين للإدارة المدنية البيزنطية لا بحفظ القانون الرومانى فحسب ، بل كذلك بإكمال تطوره ؛ إذ بقيت دراسة القانون الرومانى هى الوسيلة التعليمية التقليدية ، وكان من أجل تأليف كتاب تعليمى أن أمر الإمبراطور جستنيان بتأليف كتاب «الموجز فى القانون». ثم إننا ندين للبيروقراطية زمن ثيودسيوس الثانى وجستنيان بالمجموعات القانونية العظيمة التى انتقل بفضلها تراث الفقه الرومانى للعصور الوسطى والحديثة .

وكذلك كان الحال بشأن الحياة الاجتماعية فى الإمبراطورية الشرقية التى ظلت محتفظة بشىء من التقاليد على الرغم مما اصطبغت به من مؤثرات شرقية . ذلك أنه مع التسليم بأن نظم المدينة الدولة ذهبت حيويتها ، وأنه لم يبق منها سوى قشرة خاوية ، فإن المدينة نفسها لم تذهب كما حدث لها فى أوربا الغربية ، بل بقيت مركزاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية وأضفت طابعاً مدنياً على الحضارة البيزنطية . على أن المدينة البيزنطية لم تكن كالبلدية الرومانية مجمعاً من أصحاب الأطيان وأرباب الدخل من الأرباح المالية، بل استمدت معظم أهميتها من التجارة والصناعة . ولذا احتفظت الأقاليم الشرقية بقسط كبير من الرخاء الاقتصادى طول عصر الدمار والتدهور الاقتصادى الذى أعقب سقوط الإمبراطورية فى الغرب،فظلت مصانع الإسكندرية وسورية الشمالية مزدهرة ، ومصنوعاتها تصدر إلى جميع الجهات ، كما تأسست جاليات من التجار

البيزنطيين — ومعظمهم من السوريين — في كل مركز من المراكز الهامة بالغرب، ليس فقط في إيطاليا وإسبانيا بل في أنحاء غاليا حتى باريس شمالا ، حيث تم انتخاب تاجر سوري أسقفاً سنة ٥٩١ . وفي الشرق تكونت تجارة نشطة مع الحبشة والهند عن طريق البحر الأحمر ، ومع الصين وآسيا الوسطى عن طريق فارس ، ثم فيما بعد عن طريق البحر الأسود وبحر قزوين . وحفظت ميناء خرسون أهميتها مخزناً للتجارة مع روسيا في الفراء والرقيق[١] . وأبحرت سفن الغلال من الإسكندرية شمالا نحو البوسفور ، وغرباً نحو إسبانيا[٢] .

وكان مركز هذه الشبكة من الطرق التجارية في القسطنطينية ، التي كانت — بخلاف روما — العاصمة الاقتصادية والسياسية للإمبراطورية، وكان هذا سبباً من الأسباب الرئيسية في رفاهية الدولة البيزنطية واستقرار شئون الحكم بها . والواقع أنه بينما انعدمت الحياة في المدن — أو كادت — في أوربا الغربية أوائل العصور الوسطى ، ولم تملك دولها القوية — مثل إمبراطورية شارلمان — شيئاً من رأس المال الثابت ، ظلت عاصمة الإمبراطورية الشرقية مركزاً زاهراً عامراً بالسكان . وأحدثت عظمة أسوارها وعمائرها ونفخامة بلاطها وثروة وجهائها ، من الأثر العظيم في نفوس الشعوب المجاورة ما لم تحدثه قوة الإمبراطورية الحربية .

---

(١) عثر الباحثون على أوان فضية — بيزنطية — من القرن السادس في بلدة بيرم في روسيا الشرقية .

(٢) جاء في سيرة القديس حنا متولى الصدقات ، وهي السيرة التي كتبها ليونتيوس نيابولس ، أن إحدى سفن الغلال دفعتها الرياح غرباً حتى شواطىء بريطانيا ، وأنها عادت بحمولة من الصفيح، وذلك في أوائل القرن السابع الميلادي .

غير أنه ليس فى الإمكان أن نفهم الحضارة البيزنطية إذا نحن نظرنا إليها من الزاوية السياسية أو الاقتصادية فحسب، لأن حضارتها هذه كانت أكثر من حضارة أى مجتمع أوربى آخر حضارة دينية، ووجدت التعبير عن نفسها فى طقوس دينية لا تزال باقية إلى حد كبير حتى العصر الحاضر فى تقاليد الكنيسة الشرقية. ومن المعروف أن الرجل الأوربى الحديث ينظر إلى المجتمع على أنه مجال الحياة التى يعيش فيها والحاجات المادية المحيطة به، كما أنه ينظر إلى الدين على أنه قوة تأثيرية فى الحياة الخلقية للفرد. غير أن الرجل البيزنطى — بل رجل العصور الوسطى عموما — اعتبر أن المجتمع الأول هو المجتمع الدينى، وإن ظلت المسائل الاقتصادية والدنيوية تأتى فى المقام الثانى، إذ عاش الرجل معظم حياته — ولاسيما الرجل الفقير — فى عالم من الآمال والمخاوف. وكان كل ماوراء الطبيعة فى هذا العالم الدينى من الملائكة والشياطين متجسداً كأشخاص السلطات الإمبراطورية. وبديهى أن هذه الروح « الأخروية » ترجع إلى القرون المسيحية الأولى، ثم مالبثت أن اتخذت طرقا جديدة بعد أن صارت الديانة الجديدة هى الديانة الرسمية فى الإمبراطورية، وهذه الطرق هى التى اتسمت بها الحضارة البيزنطية. وأول هذه الطرق نظام الديرية الذى نشأ فى مصر أوائل القرن الرابع، وانتشر فى سرعة عجيبة فى الشرق والغرب معاً. ودل رهبان الصحراء على أقصى ما استطاعته الروح الدينية الشرقية من انتصار على حضارة العالم الكلاسيكى، إذ قطعوا كل صلة لهم بحياة المدينة وجميع نواحى حضارتها المادية، ولم يعترفوا بأى واجب سياسى، فلم يدفعوا ضرائب ولم يدخلوا الجندية ولم يتزوجوا، بل تركز كل نشاطهم فى فى العالم الروحى وغدت حياتهم جهداً خارقا للتغلب على قيود الحياة الدنيوية،

وصار أولئك الزهاد العراة الصوامون — على الرغم من مغالاتهم — أبطالا فى نظر الخاص والعام ونماذج عليا للعالم البيزنطى كله . وإذا شبههم روتليوس ناماثيان بالرجال الذين حولتهم الساحرة ليركى إلى خنازير « ماعدا أن كيركى حولت الرجال جسمانياً فقط على حين حول هؤلاء الروح نفسها » ، فإن ناماثيان كان بقية من أواخر بقايا جماعة المحافظين الرومانيين . أما فى الشرق فتنافست جميع طبقات المجتمع فيما بينها — من الإمبراطور فنازلا — فى تكريم الرهبان ، حتى إن بعض عظماء البلاط مثل أرسنيوس — معلم الإمبراطور أركاديوس — نبذوا مناصبهم وثرواتهم لينقطعوا للحياة الرهبانية فى الصحراء . والخلاصة أن المثالية الرهبانية صارت ذروة الحياة الدينية فى الإمبراطوريه حتى بعد أن تبين عملياً أنها عسيرة التحقيق ، فكان الراهب هو الإنسان الكامل ( السوبرمان ) الذى يحتذى حذوه من بعيد رجل الدين أو رجل الدنيا . ورضى الناس جميعاً بأن تكون نواحى النشاط الدنيوى فى المقام الثانى للحياة الدينية البحتة ، لأن القوى التى تتحكم فى العالم حقاً ليست المال والحرب والسياسة ، بل قوى العالم الروحى ، وهى مجموعة القوى السماوية من الفضائل والمدارك الملائكية. وهذه المجموعة الخافية عن الأبصار تقابلها وتبرهن عليها مجموعة واضحة للعيان ، هى الهيئة الكنسية ( رجال الدين ) والترتيب القدسى للأسرار الإلهية . ولم يكن عسيراً على الرجل البيزنطى أن يعتقد فى تدخل المعجزات الإلهية فى حياته اليومية ، لأنه كان يرى أمام عينيه فى خدمة القداس بالكنيسة استمرار معجزة ظهور الله للإنسان .

وكانت هذه الفطرة الصادرة عن الحقيقة الروحية والسر القدسى ملكية شائعة فى العالم البيزنطى، فبلغها المتعلم عن طريق اليونانيين وفلسفتهم الصوفية، ولا سيما ديونيسوس الإريوباغى وماكسيموس التقى، على حين بلغها غير المتعلم عن طريق التصوير المتعدد الألوان فى الفن والقصص. غير أنه لم يكن ثمة خلاف بين النظرتين، لأن الرمزية فى الفن والتجريد الفكرى وجدا مجالا مشتركا فى خدمة القداس والعقائد الكنسية.

هكذا تتبع الناس فى شغف حار شئون الكنيسة والخلافات الدينية فى ذلك العصر، على حين انصرفوا عن سياسة الإمبراطورية وشئون الحكم السياسى الدنيوى تمام الانصراف. غير أنه من الصعب علينا أن نفهم عصراً كانت فيه مواد المذهب الأثناسيوسى موضوعا لمناقشات حارة فى قم الحارات والشوارع، وصارت المصطلحات اللاهوتية العويصة - مثل الاتحاد المادى وعدم الاتحاد المادى - عبارات هتافية فى مظاهرات التناقش بين طوائف الرهبان. ومن أمثلة ذلك — نقلا عن مصدر ثقة - قول القديس جريجورى نازيانزين إنك إذا ذهبت إلى دكان بالقسطنطينية لشراء رغيف من العيش «فإن الخباز بدلا من أن يخبرك بثمنه يجادلك فى أن الإله الأب أعظم من الإله الابن. وسوف يتحدث إليك الصراف حول المخلوق وغير المخلوق بدلا من أن يصرف إليك نقودك. فإذا ذهبت إلى الحمام فإن الحمامى سوف يؤكد لك أن المسيح الابن نشأ من لاشىء».

ومن الواضح فى مجتمع هذا حاله أن من أعظم الأشياء أهمية أن تكون العلاقات وثيقة بين الدولة والكنيسة، لأنه إذا فقدت الإمبراطورية ولاء

الكنيسة ضاع عليها نصف سلطانها، وتعرضت لا لعداء هيئة كنسية فحسب، بل أصبحت قوة الشعور العام كلها ضدها. ولهذا كانت وحدة الكنيسة إحدى الأركان الرئيسية فى السياسة الإمبراطورية. ومنذ عقد قسطنطين مجمع نيقية عكف الأباطرة على بذل أقصى جهودهم لحفظ الوحدة الدينية ، وتطبيق الاتفاق الدينى العام على الأقليات الدينية المعارضة . أما المؤسس الحقيقى لنظام تبعية الكنيسة للدولة فى الإمبراطورية الشرقية فهو الإمبراطور قسطنطيوس الثانى الذى كان بيزنطيا لحما ودما ، سواء فى ميله الشديد للجدل الدينى أو فى اعتقاده فى حقه الإمبراطورى فى الدفاع عن الدين والحكم فى الخلافات الدينية . واستطاع هذا الإمبراطور أن ينفذ سياسته الدينية عن طريق أساقفة البلاط ، وعلى رأسهم أورزاكيوس وفالنس، اللذان جعلا من شخصيهما مجمعاً مقدساً وثيق الصلة بالإمبراطور، فضلا عن طريق المجامع الكنسية العامة التى عكفت السلطة الإمبراطورية على دعوتها وتوجيهها(١) . غير أن هذه السياسة لقيت معارضة عنيفة من ناحيتين ، أى من ناحية أثناسيوس أسقف الإسكندرية العظيم ،ومن ناحية الغرب حيث ظل مبدأ استقلال الكنيسة مصونا تمام الصيانة ، ولاسيما بفضل القديس هيلارى وهوسيوس أسقف قرطبة الشهير .

ومن هنا بدأ الانشقاق الطويل بين الغرب والكنيسة الإمبراطورية فى الشرق؛ وهو الانشقاق الذى لم ينته إلا بعد إعادة عقيدة نيقية على يد إمبراطور من الغرب هو ثيودسيوس. ذلك أن ثيودسيوس حاول فى بداية حكمه تحقيق الوحدة الدينية بأساليب المستوى الغربى فى السلطان، فكتب «نريد أن يتبع جميع رعايانا المذهب

---

(١) كانت هذه المجامع الدينية من الكثرة بحيث جعلت أميانوس مارسلينوس يشكو من خلل إدارة المواصلات الإمبراطورية بسبب جماعات الأساقفة المسافرين هنا وهناك مستخدمين وسائل النقل الإمبراطورى (Am. Marcell. XXI. 16. 18)

الذى جاء به الرسول المقدس بطرس إلى الرومان . . . وهو المذهب الذى اتبعه البابا داما سوس والأسقف بطرس — أسقف الإسكندرية — وهو رجل ذو قداسة رسولية[١]. غير أن هذا المرسوم لم يكن كافياً فى ذاته للوصول إلى حل عام ، فلجأ ثيودسيوس إلى الطريقة الشرقية التقليدية وهى عقد مجمع عام . ومع أن المجمع العام الذى انعقد فى القسطنطينية سنة ٣٨١ دل على انتصار الأرثوذكسية النيقية ، فإنه دل كذلك على شعور شرقى مكين ، كما عمل على تحقيق استقلال الكنائس الشرقية ضد أى تدخل خارجى . وبرهان ذلك تقرير هذا المجمع أن يتبع التنظيم الكنسى منذئذ مختلف التقسيمات الإدارية[٢] المدنية ، وأن تكون لأسقف القسطنطينية أولوية الشرف بعد أسقف روما «لأن القسطنطينية هى روما الجديدة» .

وهكذا استندت أولوية البطريركية الجديدة استناداً جلياً إلى أساس كون القسطنطينية مقر الحكومة الإمبراطورية ، لا إلى قاعدة التقاليد الرسولية التى استندت إليها أولويات الكراسى الثلاثة العظيمة فى روما وأنطاكية والإسكندرية. واستند تطور بطريركية القسطنطينية إلى هذا الأساس السياسى، إذ عاشت على أنها مركز للكنيسة الإمبراطورية وأداة للسياسة الدينية الإمبراطورية . وبينما اختص كل

---

(١) انظر (Codex Theodosianus XVI. 1. 2)

(٢) اشتمل القسم الإدارى المدنى الواحد على مجموعة من أقاليم ؛ ويتولى نائب إمبراطورى شئون كل قسم من هذه الأقسام الإدارية الكبرى . وكانت مصر إحدى الأقسام التى اشتملت عليها الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وعدد أقاليمها خمسة أقاليم ، وهى فى مجموعها تعادل بطريركية الإسكندرية ؛ كما كان القسم المعروف باسم أورينت أى الشرق وأقاليمه الخمسة عشر تعادل فى مجموعها بطريركية أنطاكية ؛ وذلك على حين كانت الأقسام الإدارية آسيا وبنطس وإترقيا — وعدد أقاليمها ثمانية وعشرون إقليماً — تعادل فى مجموعها الكلى بطريركية القسطنطينية .

من روما والإسكندرية بتقاليد لاهوتية معينة متصلة ، كانت تعاليم القسطنطينية تتغير بتغير السياسة الإمبراطورية . وكانت تقاليـــد القسطنطينية فى الواقع دبلوماسية أكثر منها لاهوتية ، لأن المصلحة الأولى للحكومة فى كل أزمة تتعلق بالعقيدة كان محورها حفظ الوحـــدة الدينية فى الإمبراطورية ، بحيث صارت البطريرقية أداة لصوغ مختلف العقائد التوفيقية . وكان يوزيبيوس النيقوميدى مثال ما كانت عليه التقاليد البطريرقية البيزنطية ، فهو القسيس البلاطى العظيم زمن بيت قسطنطين ، وهو نفسه الذى شغل كرسى القسطنطينية بعد سنتين من وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ . وكما صارت الكنيسة الإمبراطورية شبه أريوسية زمن قسطنطيوس ويوزيبيوس، وصارت كذلك شبه مونوفيزيتية زمن زينون وأكاكيوس ثم صارت توحيدية زمن هرقل وسرجيوس .

ومن المعروف أن هذه السياسة القائمة على سعة الشمول عن طريق الحلول التوفيقية عجزت عن أن تحقق غايتها ، وأدت إلى ابتعاد كل من الشرق والغرب. على أن الكنيسة الإمبراطورية صارت تدريجياً هى الكنيسة القومية ، كما صار بطريرك القسطنطينية الرئيس الدينى لليونانيين ، مع العلم بأن هذا التطور حدث فيما بعد، لأن الإمبرطورية المسيحية ـ من القرن الرابع حتى القرن السادس ـ ظلت رومانية عالمية ، كما ظلت اللاتينية لغتها الرسمية . وكان جميع الأباطرة ما خلا ثيودسيوس الإسبانى وزينون الأيسورى — من أهل الأقاليم البلقانية بانونيا وتراقيا والليريا ، وهى أقاليم ظلت حتى وقتذاك فى معظم حضارتها لاتينية . وكان الإمبراطور جستنيان نفسه ألليريا لاتينى اللسان ، وهو الذى أقام نفسه رمزاً ونصيراً للتقاليد الرومانية، وكرس حياته لعمليـــة استرداد ماضى الوحدة الإمبراطورية . وهو كذلك الإمبراطور العظيم الذى تتراءى لنا فى شخصيته

دون غيره من الشخصيات تقاليد المثالية الثيوقراطية البيزنطية ، أى الـكنيسة الإمبراطورية ، أو الإمبراطورية الـكنسية .

والخلاصة أنه فى أثناء القرن الخامس فشت عوامل الانحلال فى كل مكان ، وبدت الإمبراطورية وشيكة التفـكك إلى عدد من وحدات منفصلة. ففى الغرب كان القوطيون ينشئون ممالك مستقلة فى الولايات الرومانية ، وكان الونداليون يسيطرون على البحر المتوسط . وفى الشرق بدأت العناصر الشرقية الخاضعة تنادى بقوميتها فى حركات دينية، على حين أخذت الإمبراطورية نفسها تصطبغ سريعاً بصبغة شرقية ، ولا سيما بعد أن عمد زينون الأيسورى إلى إعادة المونوفيزيتيين إلى حظيرة الـكنيسة الإمبراطورية، على الرغم مما نجم عن ذلك من قطيعة روما . وهكذا بدا كأن الإمبراطورية الشرقية سوف تفقد كل صلاتها بالغرب وتصبح دولة شرقية خالصة ، حضارتها يونانية سريانية ، وعقيدتها مونوفيزيتية.

غير أن هذا التطور أوقفه حكم أسرة جستنيان، عندما شهد القرن السادس إحياء عاماً للمؤثرات الغربية . وكان أول أعمال الأسرة الجديدة إعادة الوحدة الدينية مع روما بعد تعطيلها مدة خمسة وثلاثين سنة ، ثم إزالة المؤثرات السريانية التى سيطرت فى البلاط زمن أنسطاسى . وكان ذلك تمهيداً للتنظيمات الإمبراطورية والأعمال التوسعية العظيمة التى تمت على عهد جستنيان ، حين استردت الجيوش الإمبراطورية إفريقية وإيطاليا والجزء الجنوبى الشرقى من إسبانيا، وسيطرت الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى على حوض البحر المتوسط. على أن هذه الانتصارات تـكلفت فى الواقع من الأرواح والأموال ما كانت الإمبراطورية فى أشد الحاجة إليه ، كما أجهدت موارد الدولة البيزنطيـة أشد

إجهاد ، حتى إننا نستطيع القول بأن انتصارات جستنيان كانت خطراً على حياة الإمبراطورية،لأن مغامراته الحربية فىالغرب ترتب عليها إهمال الخطوط الدفاعية التى توقفت عليها سلامة الدولة ، وهى أطراف الدانوب والفرات . غير أن الإمبراطورية المسيحية على الأقل تمتعت بساعة أخيرة من الظفر قبل أن يخيم عليها ظلام القرون التالية ، ولا سيما أن توسعها المظفر صحبه إحياء باهر فى النشاط الحضارى ، وهو ما جعل القرن السادس عصر الكلاسيكيةفى الحضارة البيزنطية .

ومن المعروف أن العبقرية الابتكارية اقتصرت فى ذلك العصر على العمارة والفن فحسب ، لأنه لم يكن عصر بدايات جديدة فى الأدب والفكر ، بل عصر ازدهار ختامى فى التقاليد الأدبية الكلاسيكية القديمة. على أن هذهالمحافظة الفكرية هى فى ذاتها عنصر أساسى فى الحضارة البيزنطية . وكما كانت النهضة السياسية فى القرن السادس عودة لتقاليد الدولة الرومانية ، وكان النشاط التشريعى فى ذلك القرن فصل الختام فى تطور فقه القانون الرومانى ، كان أدب ذلك العصر تطوراً ختامياً لاثنى عشر قرناً من الثقافة الهلينية . والحقيقة التى تدعو إلى الالتفات — مع أن أحداً من المؤرخين لم يدركها تمام الإدراك — هى أنه على الرغم مما يبدو من سيطرة الروح الدينية والثيوقراطية على الحضارة البيزنطية ، دل التطور الأدبى فى القرن السادس على جنوح نحو مستويات دنيوية ، بل وثنية . ومن أمثلة ذلك أن بروكبيوس القيصرى كتب عن الخلافات اللاهوتية فى عصره متهكماً تهكم المرتاب — المتشكك اللا أدرى المثقف — وأن مدرسة

كبيرة من الشعراء فى مصر كانت تنظم ملاحم تفصيلية على نسق موضوعات الأساطير الوثنية القديمة [1]. والواقع أن عصر الأدب المسيحى اليونانى العظيم يختتم فى القرن الخامس بالشاعرين كيرلس وثيودوريت ، وأن الأدب اللاهوتى يشغل فى العصر التالى مرتبة ثانوية ، وأن قادة الثقافة غدوا رجال البلاغه أمثال بروكبيوس الغزاوى وخروكبوس، اللذين افتخرا بالنقاوة الأتيكية فى أسلوبهما ، وأجاثياس وبروكبيوس القيصرى المؤرخين اللذين تشبعت عقولهما بالتقاليد الهلينية ، ودما سكيوس وسمبليوكوس وهما من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة والعلوم . ومن المعروف أن الإمبراطور جستنيان أغلق مدارس أثينا ، وحمل الفلاسفة على الالتجاء مدة إلى فارس ، غير أن سياسته التعسفية لم تخل من فائدة ، إذ أغرت الفلاسفة بتوجيه جهودهم نحو النقد العلمى بدلا من الفلسفة الإلهية والشعوذة السحرية اللتين تأثرت بهما الأفلاطونية الحديثة منذ أيام أيامبليخوس . ثم إن الحكومة لم تقم بأية محاولة لمنع العلوم الدنيوية أو الأدب الوثنى أو التقاليد العلمية ، بل بينما كان المتعصبون الغاصبون يطاردون البطريرق فى شوارع الإسكندرية ، ظل الأساتذة الجامعيون يحاضرون فى أروقة دار الفنون فى الطبيعة والرياضيات ، وعلى قول بطرس دوهيم [2] لم تكن معارفهم عقيمة أو سطحية كما يظن فى العادة ، ولهذه المعارف أهمية ثابتة فى تاريخ الفكر البشرى ، لأنها لم تكن فصل الختام فى التطور العلمى فى العالم

---

(١) مثال ذلك ملحمةديونيسيا كا تاليف نوفوس البانوبلى (القرن الخامس)، وملحمة اغتصاب هيلانة تأليف كولوتوس اللوكوبولى أى الأسيوطى (القرن السادس) ، وملحمة البطل وليانذر تأليف موزايوس ، وعدة الملاحم المفقودة تأليف تريفيودوراس .

(٢) انظر :

Le Systéme du Monde, vol. 1. Chs. vandvi; vol. II Ch. x, etc.

القديم فحسب ، بل كانت كذلك أساس التقدم العلمى فى العالم الجديد ، كما كانت المنبع الذى استقى منه الشرق الإسلامى علومه ، وعن هذا الطريق أخذ الغرب المسيحى أصوله العلمية .

على أن استمرار الثقافة العلمانية الذى امتازت به حضارة الإمبراطورية الشرقية عن حضارة الغرب ، مرجعه إلى درجة كبيرة إلى نفوذ طبقة الموظفين المدنيين . ذلك أن الإمبراطورية الشرقية — وعلى الأقل فى القرن السادس — لم تكن حكومتها بأيدى رجال الدين أوغير المتعامين من العسكريين ، كما كان الحال فى الغرب ، بل بأيدى طبقة حاكمة من المتعامين الذين اعتزوا بعلمهم وسعة اطلاعهم على نسق حكام الصين . واتصفت تقاليد هذه الطبقة بعض الأحيان — كما اتصفت تقاليد حكام الصين — بشىء من ادعاء المعرفة بكل قديم ، على مثال ما نرى من حنا الأوزنتيوس الليدى الذى تبدو مؤلفاته مزيجاً عجيباً من المعرفة المهوشة والتقاليد البيروقراطية . على أن تقاليد هذه الطبقة الحاكمة فى الإمبراطورية الشرقية هى التى يرجع إليها الفضل كذلك فى المؤلفات التاريخية القيمة ، فضلا عن الازدهار الختامى فى الشعر الهلينى . ومصداق ذلك أن آخر مجموعة هامة من الشعر الهلينى ترجع إلى فئة من المحامين والموظفين الذين تولوا مناصب كبيرة زمن جستنيان وجستين الثانى ، وهم أجاثياس المؤرخ ، وبولس الصامت الكتوم ، ويوليان الوالى السابق ، ومقدونيوس القنصل وروفينوس الدمستق ، وسبعة أو ثمانية غيرهم . ولا جدال فى أن هذا الشعر كان ازدهاراً مصطنعاً ، لكن القصائد الغزلية الرشيقة التى نظمها أجاثياس وبولس جديرة بكونها وريثة تقاليد أشعار ملياجر ، بل إن قصائدهما فى وصف الآلهة البائدة مثل

هيلاسى وبان وبوسيدون وبريابوس — لم تخل من لطافة وجمال [1] .

غير أن هذه الأشعار كلها لا تحتوى على شىء يستطيع أن يذكرنا بالتغيير الذى طرأ على العالم القديم ، إذ تنتمى كلها إلى الماضى البعيد وإلى أنقى تقاليد العصر الهلنستى . فإذا نحن رغبنا فى أدب يعبر عن عقلية العصر الجديد ، فعلينا أن نجده فى أشعار الصلوات التى نظمها رومانوس الحمصى ، أوفى حولية مالالاس الأنطاكى، الذى عاش وحده فى عالم من المعجزات والأساطير،وفقد كل صلة بالحضارة القديمة،حتى قال إن شيشيرون شاعر رومانى وإن هيرودوت حليفة بولبيوس . ومع هذا كان مالالاس لابروكبيوس — هو المنبع الذى استمدت منه التقاليد التاريخية البيزنطية فى العصور الوسطى ، وهو الذى صار نموذجاً لأوائل المؤرخين السلافيين والأرمن .

على أن الهبوط إلى هذه التقاليد العامة لم يؤد يوما من الأيام إلى أدب بيزنطى رفيع المستوى ، بل ظلت التقاليد الكلاسيكية مسيطرة على المستويات الثقافية العايا ، وصحب كل حركة إحياء فى الحضارة البيزنطية نهضة فى الدراسات الكلاسيكية وعودة إلى النماذج القديمة ، وكل ذلك لأن ولاء البيزنطيين للتراث الهلينى لم يتسع لاحتمال أى نشاط ابتكارى جديد .

أما فى ميدان الفن فلم يكن كذلك ، لأن عصر الإمبراطورية المسيحية شهد ثورة فنية بعيدة المدى . وتفصيل ذلك أن اضمحلال المدينة الدولة وديانتها

---

(١) مثال دلك أشعار أجاثياس وتيابيتوس الإسكولائى فى الإله بريابوس الميناائى. انظر ( Anth. Pal., x, 14 I6 ) وكذلك قصيدة القربان الى الإله بان تأليف أجاثياس انظر ( Anth. Pal., VI, 79 )

صحبه اضمحلال فى فنها ، وهو الفن الهلينى العظيم الذى تبدو تقاليده فى تصوير جسم الإنسان والتزام تمثيل الطبيعة فى النحت والتصوير . وحلت محل الفن الهلنستى نماذج من الفن الشرقى الدينى الزخرفى غير التمثيلى ، وهى نماذج مولعة بما هو معروف باسم الأرابسك ، وباستخدام الأشكال النباتية والحيوانية فى الوحدات الزخرفية . وهكذا حلت محـــــل المعبد اليونانى والمعمار المدنى القديم وأفاريزه وأعمدته وأروقته الخارجية عمائر شرقية ذوات عقود وقباب ، وهــذه ترجع فى أصولها إلى منشآت العراق وفارس المبنية بالآجر ، وهى تهتم كل الاهتمام بفخامة الزخارف الداخلية وعلو المبنى واتساعه من الداخل . وتدل العمائر العظيمة المبنية بالآجر فى روما فى أواخر العصر الرومانى ، وهى الحمامات العامة وكنيسة قسطنطين– بل ربما البانثيون كذلك — دلالة واضحة على مدى تأثير تلك الروح الجديدة فى البناء . ثم اتضحت هذه الروح اتضاحا تاما فى فن فارس الساسانية ، وهى التى أثرت أعظم تأثير فى الحضارة البيزنطية، بنماذجها الفنية ومفاهيمها المتعلقة بالملـكية والحـكومة . والواقع أن بعض الـكتاب المحدثين يعدون الفن الجديد وليدا ناشئا من امتزاج التقاليد الرومانية الإمبراطورية بالتقاليد الفارسية الساسانية . على أنه ينبغى ألا ننسى أن سوريا الشمالية وآسيا الصغرى نفسها كانت لها تقاليد فنية وحضارة وطنية عميقة ، وأن هذه الأقاليم كانت أعظم أجزاء الإمبراطورية الشرقية الجديدة نشاطا وأكثرها حيوية .

ذلك أن سوريا كانت ملتقى تيارى التأثير الفنى ، وهما تيار الغـــرب الهلنستى وتيار الشرق الفارسى ، فضـــلا عن أنها أسهمت بعنصر من عندها ، وهو استخدام الفن فى تعليم الدين عن طريق الصور والمناظر المتسمة بواقعية عاطفية ساذجة، المختلفة تماما عن الطبيعة الـكلاسيكية فى الفن الهلينى . ثم انتشر

هذا الفن الدينى الجـديد الذى نشأ فى سوريا فى القرن الرابع انتشارا تدريجيا فى أنحاء الإمبراطورية عن طريق الأديرة ، وكذلك — بدون شك — عن طريق جالبات التجار السوريين فى المراكز الرئيسية . على أن تقاليد الهلنستية بقيت حية فى المراكز الحضارية العظمى ، أى أنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية ، فظلت هذه التقاليد هى السائدة حتى فى الفن الدينى فى روما والقسطنطينية فى أثناء القرن الرابع ، وظلت لمدة طويلة بعد إدخال الأسلوب السورى عنصراً تكوينيا جوهريا فى الفن الدينى الناضج فى الإمبراطورية المسيحية .

هكذا جاء الفن البيزنطى خلقا مركبا ناتجا عن نماذج عدة تأثيرات مختلفة ، فهو شرقى فى استخدامه الزخرفية والرمزية وفى اعتماده على اللون والضوء بدلا من الشكل المجسم ، وفى استخدامه العقود والقباب ، وفى التزامه التجرد والبساطة فى وجهات كنائسه . ومن ناحية أخرى احتفظ الفن البيزنطى بالنموذج البازيليكى الرومانى الهلنستى ، من أعمدة مصفوفة ومداخل واسعة وأعمدة متوازية ، كما احتفظ إلى حد بالتصميمات الزخرفية الهلنستية ، دون أن تطرد عناصر الإنسانية والطبيعة التمثيلية التى هى روح التقاليد الكلاسيكية . والواقع أن استخدام الصور المنحوتة نحتا بارزا أو غائرا ، والصور الزيتية ، والصور المصنوعة من الفسيفساء ، صارت ظاهرة من أخص خصائص الفن البيزنطى والديانة البيزنطية .

ثم لم يحن القرن السادس حتى صارت للإمبراطورية الشرقية تقاليدها الفنية الخاصة بها ، وهى التقاليد التى اتحدت فيها عناصر شرقية وغربية بعضها ببعض . وكان أبهى نتاج لهـذا الفن كنيسة الحكمة المقدسة آيا صوفيا فى القسطنطينية ، وهى التى بناها مهندسون من أيونيا - مهبط الحضارة الهلينية ،

— واكتمل بناؤها كذلك بإلهام جستنيان نفسه وإشرافه . وهذه الكنيسة أعظم الكنائس ذات القباب فى العالم كله ، وهى مثال الاتحاد تام التصميم والزخرفة الشرقية والتركيب المعمارى اليونانى . ومع أنها فقدت بعضا من فن كنائس رافنا المعاصرة لها ، فإنها تكون فكرة تامة عن الفن البيزنطى فى عصره الذهبى.
ونجد فى كنيسة سان فيتالى ذات القبة المثمنة الأضلاع فى رافنا مثالا عظيما للفن البيزنطى فى الزخرفة بالسيفساء . ففى صينية القبة صورة للمسيح القادر المقتدر ، لا فى هيئة القاضى الرهيب فى الفن البيزنطى المتأخر ، بل فى هيئة هلينية تفضى شبابا وجمالا . وفى الصورة تحيط برأس المسيح هالة من النور ، وهو جالس على عرش الكرة الأرضية ، وتجرى تحت قدميه أنهار الجنة الأربعة ، ويقف بين يديه قديسون وملائكة ، وهو ممسك بتاج ملكوت السماوات ، على غرار صورة الإله أورا مازودا فى النحوت الصخرية الساسانية .
وفى أسفل التصوير على الجانبين صفان من صور مهيبة أحدهما للإمبراطور جستنيان ورجال الدين وموظفى البلاط الإمبراطورى ، وثانيهما الإمبراطورة ثيودورا ، وحولها وصيفات الحاشية الإمبراطورية . وهذا التصوير هو موكب العالمية الآثينية فى الحضارة الجديدة ، وإذ أعوزته الطبيعة والإنسانية الواضحة الظهور فى إفريز البارثينون القديم ، فليس يفوقه شىء فيما يخلقه فى النفس من الجلالة المهيبة . ثم إذا نحن نظرنا إلى ما بالكنيسة البيزنطية عموماً من زخرفة متعددة الألوان من الفسيفساء والرخام الملون والأعمدة العتيقة الأسلوب والتيجان المنحوته بنقوش شرقية فاخرة متنوعة — وهى كذلك هلينية جميلة متناسقة — ثم نظرنا كذلك إلى قبة أياصوفيا ، وهى المعجزة الكبرى التى سمت العمارة فيها عن حدودها الوضيعة وصارت فوق الإدراك الحسى وفوق المادة — كالقبة السماوية نفسها — ، فلابد لنا أن نعترف أنه لم يسبق لليد البشرية أن نجحت

مثل هذا النجاح فى جعل مادة الأحجار والمعمار أن تصبح وسيلة للتعبير عن الروح .

وينبغى أن نذكر هنا أن هذا الاهتمام بالفخامة الداخلية فى الكنيسة البيزنطية ارتبط ارتباطاً وثيقاً بوظيفة الكنيسة فى حياة الناس . ذلك أن المعبد اليونانى القديم كان — كالمعبد الهندى فى العصر الحاضر — بيت الإله ، فلا يدخل هيكله شبه المعتم سوى كهنته وسدنته ، على حين غدت الكنيسة البيزنطية المسيحية بيتاً للناس وميداناً يشهدون فيه عظمة الطقوس والصلوات القداسية على مر السنين . وفى هذه الطقوس والصلوات اجتمعت فنون البيزنطيين وموسيقاهم وآدابهم . وهنا تلاقت الروح الشرقية والروح الغربية فى ميدان مشترك — كما كان الحال فى العمارة — فأنجبت سوريا المسيحية أناشيد الصلوات ، ومنها نقل رومانوس الحمصى — وهو أعظم مؤلفى الأناشيد من البيزنطيين — إلى اللغة اليونانية الأوزان الشعرية والتوقيعية للنشيدين السريانيين مدراسا وسوجيثا . على أن هذا الشعر الدينى كان فى نفس الوقت سراً عجيباً دلت كل حركة ظاهرية فيه على معنوية رمزية ، كما أن فخامة طقوسه كانت تعبيراً فنياً عن فكرة لاهوتية . وهنا أيضاً — كالحال فى التصوير والعمارة — وجدت القابلية الهللينية نحو الظاهرية — وهى كسوة الفكرة فى ثوب من المادة — تعبيراً دينياً جديداً .

غير أن هذا التمازج التام الذى اكتمل فى فن القرن السادس بين مختلف عناصر الحضارة البيزنطية ، لم يتحقق فى ناحية حضارية أخرى . ففى الناحية الدينية — على الأخص — ظل الخلاف بين الشرق والغرب يهدد وحدة الإمبراطورية وحضارتها . ومع أن جستنيان بذل أقصى جهده أوائل عهده لاسترضاء البابوية وتقوية الاتحاد بين القسطنطينية والغرب ، فإن النزعة الشرقية هى التى تغلبت

تدريجياً . ووضحت هذه النزعة فى القصر الإمبراطورى، وفى حياة الإمبراطور نفسه عن طريق زوجته ثيودورا ، وهى المرأة الغامضة الماكرة التى فتنت وأخضعت لسلطانها زوجها الإلليرى وعقله الأكثر بساطة وتردداً . وكانت ثيودورا مونوفيزيتية المذهب — عن عقيدة وسياسة معاً — وبفضل حمايتها صار القصر الإمبراطورى نفسه مأوى زعماء المونوفيزيتية ومركزاً لمؤمراتهم ؛ وبتأثيرها عاد جستنيان إلى السياسة البيزنطية القديمة الهادفة إلى الاتحاد عن طريق الحل التوفيقى، وهى سياسة سار عليها حتى وفاة الإمبراطورة. غير أنه على الرغم من المعارضة الفجائية التى أعلنها البابا فيجليوس — محسوب ثيودورا — لهذه السياسة ، استطاع جستنيان أن يحصل على مصادقة مجمع دينى عام على حله التوفيقى سنة ٥٥٣ ، وأن يفرض بذلك إرادته على البابوية . غير أن حلا توفيقياً تفرضه القوة — كما حدث فى جميع المناسبات السابقة — لم يكن حلا حقيقياً للموقف الدينى ، إذ ترتب عليه انقسام دينى جديد ظل طويلا بعد وفاة جستنيان ، كما فشل ذلك الحل فى ترضية المونوفيزيتيين الذين أخذوا منذئذ يتحولون إلى طائفة ذات وجود مستقل خارج الكنيسة الإمبراطورية . وبعبارة أخرى تحقق الميل نحو الانفصال الدينى الذى كان آخذاً فى النمو منذ القرن الخامس ، وذلك بانشقاق الأقاليم الشرقية نهائياً عن كنيسة الدولة وديانة الإمبراطورية. وكان هذا الانشقاق الدينى دليلا على عظيم التغييرات الاجتماعية والروحية التى أخذت تجرى فى العالم الشرق ، والتى لم تلبث أن نبتت منها حضارة جديدة ذات أهمية عالمية واسعة .

# الفصل السابع

## اليقظة الشرقية وثورة الشعوب الخاضعة

لاريب أن ظهور الإسلام هو الحقيقة العظمى التى ملأت تاريخ القرنين السابع والثامن، وأثرت فى كل ما أعقب ذلك من تطور الحضارة فى العصور الوسطى فى الغرب والشرق سواء. وسوف يظل ظهور الإسلام دائماً مسألة كبيرة على العقل الضيق الذى ينظر إلى التاريخ من زاوية علمانية غربية خالصة؛ لأن الإسلام يبدو لأصحاب ذلك العقل الضيق كأنه طفرة تامة فى التطور التاريخى وكأنه لا صلة له بأية حركة من الحركات التى سبقته. أما السبيل الوحيد إلى تصحيح ذلك، فهو عندما ننظر تحت سطح التاريخ السياسى، وندرس النشاط الجوفى فى العالم الشرقى، لأننا لانلبث عندئذ أن نلمس وجود القوى الجديدة التى وجهت مستقبل الحضارة الشرقية.

ذلك أن الاختلافات الكنسية واللاهوتية فى القرن الخامس — وهى التى تبدو قليلة الأهمية للمؤرخ العلمانى العام — انطوت على أزمة لاتقل فى عمق نتائجها فى حياة الإمبراطورية الشرقية عن نتائج الغزوات البربرية فى الغرب، إذ دلت هذه الاختلافات على نشاط القوميات الخاضعة وزوال الحضارة الهلنستية التى سيطرت على الشرق منذ عصر الإسكندر المقدونى. ومع أنه من المعروف أن هذه الحضارة اقتصرت عملياً على المدن، وأن كتلة السكان الفلاحين ظلت

بعيدة عن أن تتأثر بها ، فإن طبقة أهل المدن استمرت طول مدة العصرين الهلنستى والإمبراطورى هى العنصر المسيطر فى الحضارة، على حين قبلت كتلة السكان الوطنيين سيطرة هذه الطبقة عليهم قبولا سلبياً . غير أن ظهور المسيحية—الذى صادف زمنياًهبوط أهمية المدينة وأهل المدن عامة (البورجوازية) اقترن بحركة عظيمة من النشاط الحضارى بين الشعوب الخاضعة ، إذ شهد ظهور أدب فى اللغات الوطنية، ويقظة شعور قومى بين الشعوب الشرقية . وبينما انتشرت المسيحية فى الغرب فى مختلف المدن ، وظل مفروضا أن يكون الفلاح وثنيا بالضرورة ، اختلف الحال عن ذلك فى الشرق حيث بدا أن المسيحية انتشرت بين الفلاحين فى سرعة انتشارها بين أهل المدن .

وكان هذا هو الحال — على وجه خاص — بين السريانيين الذين كونوا كتلة قوية من شعوب تتكلم الأرامية وتمتد من البحر المتوسط حتى كروستان والجبال الإيرانية ، ومن جبال طوروس حتى الخليج الفارسى. ففى الجزء الغربى من هذه الأقاليم سيطرت المؤثرات الهلنستية وظلت المدن الساحلية الغنية — مثل أنطاكية وبيروت وقيسارية وغزة—معاقل للحضارة اليونانية . أما شرقى الفرات فكانت مدينة الرها — الواقعة عند ملتقى أطراف الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية— مركزا لدولة سريانية وطنية، صارت فيما بعد نقطة البداية للمسيحية الشرقية ومعقلا للأدب السريانى . ذلك أن منطقة أوسرهين المحيطة بمدينة الرها صارت دولة مسيحية فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، أى زمنا طويلا قبل أن تتحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية ، ومن أوسرهين انتشرت المسيحية شرقا فى الإمبراطورية الفارسية ، وشمالا إلى أرمينية التى صارت كذلك مملكة مسيحية فى مطلع القرن الرابع . وهكذا صارت

المسيحية لدى السريانيين الذين مزقتهم إمبرطوريتان متنافستان وسيطرت عليهم حضارة أجنبية ، وسيلة للتعبير عن تقاليدهم ومثالياتهم القومية ، فنرى فى شعر يعقوب السروجى مثلا مبلغ فخـر السريانيين فى أدبهم بأقدمية كنيستهم القومية ونقاوتها . ومن ذلك قولهم إنه على حين دل اليهود — وهم فى نظـر أنفسهم — على قلة الإيمان ، وعلى حين اضطهدت الإمبراطوريات الوثنية اسم المسيح ، دلت مدينة الرها دائما على وفرة الإيمان ، وهى « ابنة البارثيين التى اعتنقت الصليب » . « ومدينة الرها هى التى أرسلت إلى المسيح رسالة تطلب إليه الحضور اليها ليضىء لها سواء السبيل ، وهى التى توسلت إليه باسم جميع الشعوب ليترك صهيون التى كرهته ويأتى إلى الشعوب التى أحبته »(١) « وهى التى تعلمت الدين — لا من كتبة المعبد — بل علمها ملكها أديوس وعلمها شهداؤها وهى راسخة الإيمان بهم» .

« وتمسكت الرها بهذا الإيمان الحق منذ شبابها ، ولن تفرط فيه وهى فى شيخوختها ، وشأنها فى ذلك شأن بنات الفقـراء اللائى لا يغرهن متاع الحياة الدنيا . وصار ملـكها المتدين خادما وكاتبا لها ، ومنه تعلمت كل ما احتاجت أن تتعلم عن السيد المسيح، أى أنه ابن الرب، بل هو الرب . . وكان الملك أديوس هو الذى أحضر لها خاتم عرسها وجعله فى إصبعها وبذلك خطبها لابن الرب وهو المولود الوحيد « من الربوبية »(٢)

والخلاصة أن المسيحية السريانيـــة اتسمت بكونها دين قوم خاضعين

---

(١) انظر : Syriac Docs. in Ante - Niccene Chr. Lib., vol. xx, p. 129.

(٢) انظر Syriac Docs., p. 114.

لسيطرة أجنبية ، وأن السريانيين أنفسهم وجدوا فى دينهم خلاصا من كبرياء الحضارة المسيطرة عليهم . وتغنى الأدب السريانى بهذا الخلاص فجاء فيه :

شامونا ، ياثروتنا ، أنت أغنى من الأغنياء .

انظر ! إن الأغنياء يقفون أمام أبوابك آملين أن تفرج عنهم . إن قريتك صغيرة ، وبلادك فقيرة ، أين الذى جعل سادة القرى والمدن يلتمسون عطفك ؟

انظر ! إن القضاة وطيالسهم وملابسهم يأخذون التراب من عتباتهم كما لو أنه أكسير الحياة .

إن الصليب غنى ، يزيد عابديه ثروة ، ويحتقر فقره جميع ثروات العالم .

إيه شامونا وجوريا ، يا أبناء الفقراء فى هذه الدنيا الفانية هاكم الأغنياء يطأطئون رءوسهم عند أبوابكما لأنهم سوف يحصلون منكما على ما يحتاجون إليه . إن ابن الرب فى فقر دنيوى وعوز ليثبت أن جميع ما فى العالم من ثروة لا يساوى شيئا .

إن مريديه ، ويشملون جميع السماكين والفقراء والضعفاء وقليلى الذكر ، أصبحوا ذائعى الشهرة عن طريق عقيدته . فهذا أحد السماكين كان يعيش فى قرية السماكين فجعله ابن الرب رئيسا على اثنى عشر ، بل رئيسا للدار .

وهذا فرد من صانعى الخيام كان فى يوم ما ظالما جائرا ، فقبض عليه وجعله تابعا مختارا للدين [١] » .

---

(١) انظر Op. cit., p. 121.

وكانت هذه المسيحية السريانية التى أنبتت جذورها الصغيرة بمدينة الرها فى القرن الثالث نقطة البداية لحركة توسع شرقى عظيم ، شاءت له المقادير أن يمتد خلال العصور الوسطى إلى الهند والصين والقبائل التركية فى جوف آسيا. غير أن هذه المسيحية السريانية لم تصطدم مباشرة بالكنيسة الإمبراطورية بسبب موقعها الجغرافى، فيما يبدو . أما الأزمة الكبرى فى القرن الخامس فيرجع أصلها إلى قلب العالم الهلنستى وقتذاك ، أى الإسكندرية ذاتها .

ذلك أن تقاليد الحضارة الشرقية القديمة اتخذت لنفسها أشكالا مسيحية فى مصر كما هو الحال فى سوريا ، فاحتفظ أهل مصر بديانتهم وحضارتهم القديمة خلال العصرين البطلمى والرومانى . وبينما أضحت الإسكندرية أزهى مراكز الحضارة الهلنستية ، ظل نظام الحياة المصرية القديمة فى وادى النيل على حاله دون تغيير . وهكذا جرى التياران الحضاريان جنبا إلى جنب دون أن يمتزج أحدهما بالآخر ، لأن الحضارة المصرية ظلت لا تتعدى الأشكال الكهنوتية التى اختصت بها التقاليد الريفية المصرية . ثم تغير ذلك كله بتحول مصر إلى المسيحية ، إذ تهدمت الحواجز التى أبقت أهل البلاد فى عزلة غير طبيعية فى عالم خاص بهم ، وجعلتهم على صلة بسائر سكان الإمبراطورية . على أن ذلك لم يضعف قوى القومية ، ولم يؤد إلى هضم مصر فى الحضارة اليونانية البيزنطية، بل حدث عكس ذلك ، إذ أخذت أهمية العنصر اليونانى تضمحل منذئذ فى مصر اضمحلالا مضطردا ، كما أخذت اللغة القبطية — وهى اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية — تحل تدريجيا محل اللغة اليونانية فى الاستعمال . وكان من الطبيعى أن تحل الكنيسة محل الدين القديم للتعبير عن القومية المصرية، لأنه على حين كان رؤساء الهيئة الكهنوتية القديمة هم الحكام الأجانب

الذين اغتصبوا الحكم من الفراعنة ، كان رئيس الكنيسة الجديدة هو البطريرق المصرى . وكما صار كبير كهنة آمون رع فى طيبة زعيم المصريين أيام الانحلال فى مصر القديمة ، صارت جميع قوى القومية المصرية متجمعة حول البطريرق الذى غدا « السيد المقدس الإلهى الكبير ، بابا وبطرق مدينة الإسكندرية العظيمة ، وليبيا وبرقة وأثيوبيا وجميع أراضى مصر . أب الآباء ، وأسقف الأساقفة ، والرسول الثالث عشر ، والقاضى فى العالم . » وكان سلطانه على الكنيسة المصرية سلطانا مطلقاً ، وأعظم كثيراً فى الواقع من سلطان البابا على كنائس الغرب ، نظراً لأنه هو الذى قام بترسيم جميع أساقفة مصر ، ولأن الأساقفة أنفسهم استمدوا سلطانهم مباشرة من إرادته . أما القوة الوحيدة التى يمكن مقارنتها بقوته فكانت قوة الرهبان، الذين كانت لهم الزعامة الطبيعية بين الناس أكثر مما كان للأساقفة .

وكانت الديرية المصرية نخر ما أنجبت المسيحية الشرقية ، وهى تعبر عن جميع الحسن والقبيح فى الصفات القومية ، من الحكمة الروحانية التى اتصف بها مكاريوس أو باخوميوس إلى تعصب الغوغاء الذين قتلوا هيباشيا ، وملأوا شوارع الإسكندرية بالصخب والدماء . على أن هذا التعصب كان بذاته مصدر قوة إضافية للبطركيه التى وجدت من الرهبان جيشاً من مؤيدين جسورين متحمسين لخدمتها ، فإذا حضر بطرق الأسكندرية مجمعاً من المجامع الدينية صحبه حرس من الرهبان والمغامرين(١) ، الذين أشاعوا الإرهاب أحياناً فى أرجاء المجمع بصخبهم وعنفهم . وبلغ

(١) سميت هذه الفئة من العلمانيين فى أول الأمر باسم الممرضين، إذ كانت نوعا من هيئات الإسعاف مهمتها العناية بالمرضى وضحايا الطواعين. ثم أطلق عليهم اسم « المغامرين أو المجازفين » عندما جعلوا أنفسهم زعماء على غوغاء الإسكندرية فى جميع الاضطرابات الدينية ، حتى أصبحوا مصدر قلق دائم للسلطات المدنية . انظر : ( Codex Theodosianus, XVI, 2.

سلطان البطرك المصرى من العظمة ما جعله يتطلع لأن يصبح الدكتاتور الدينى فى أنحاء الإمبراطورية الشرقية . ومن الدليل على ذلك أن أنناسيوس وقف وحده ضد الإمبراطور قسطنطيوس الثانى وجميع الأسقفيات الشرقية (١) ، وأن خلفاءه لم يرضوا أن يقبلوا رآسة بطركية القسطنطينية المحدثة . وفى أثناء النصف الأول من القرن الخامس، انتصرت الإسكندرية انتصاراً مستمراً بزعامة بطركيها العظيمين ثيوفيليس وكيرلس ، ونجحت فى ثلاث مناسبات فى إذلال منافسيها فى القسطنطينية وأنطاكية . غير أن المناسبة الثالثة — وهى إدانة فلافيان فى إفسوس سنة ٤٤٩ — كانت القاضية عليها، لأنها أدت إلى القطيعة بينها وبين كنيسة روما والغرب ، وهما اللتان اعتمدت كنيسة الإسكندرية على تعاونهما حتى وقتذاك . ولذا أفلحت قوى روما والقسطنطينية مجتمعة — أى قوى البابا ليو والإمبراطور مرقيان — أن تهزم فى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ البطرقية العظيمة التى سيطرت مدة طويلة على كنائس الشرق .

ويعد مجمع خلقدونية أعظم المجامع الدينية كلها ، لأهميته الفجائية ونتائجه التاريخية ، إذا اجتمعت فى كنيسة القديسة يوفميا فى خلقدونية جميع القوى التى قسمت العالم المسيحى منذئذ فصاعداً إلى قسمين ، وتراشقت القوى المصرية

(١) يبالغ بعض المؤرخين المحدثين — ومنهم شفانز — فى أهميــة الباعث السياسى فى اتجاهات أثناسيوس ، ويصفونه بأنه فى حقيقة أمره زعيم دينى طموح . غير أنه ليس ثمة شك فى أنه وجــد أقوى حليف له فى الشعور القوى بين أهل مصر . وفى ذلك كتب دوشين فقال « إن كل فرد أمين اشتملت عليه مصر كان منضما إلى جانبه . ذلك أنه كان حامى العقيدة الدينية والبابا الشرعى والأب العام ، فضلا عن أنه كان عــدو الحكومة وضحيتها ، وذلك هو الشرف العظيم . وفيما عــدا بعض المنشقين عليه الذين لم يجرأوا على الظهور إلا فى لبــاس الجندية الإمبراطورية ، كان الناس جميعاً طوع إشارته وإرشاده . »

انظر «Histoire Ancienne de l'Eglise, 11, p. 268»

والقوى الشرقية المنافسة لها بصيحات التحدى والشتم من جانبى صحن الكنيسة . على حين أطل كبار موظفى الإمبراطورية وهم جلوس عند حاجز الهيكل وبجوارهم مندوبو كنيسة روما ، فسيطروا على المجمع المائج بالصخب، وأخذوا يوجهونه بإصرار عنيد نحو قرار نهائى من وحى رغبات الإمبراطور والبابا . على أن ذلك القرار لم يصل إليه المجمع دون نضال ، إذ الواقع أن الأغلبية لم توافق على قبول التعريف الغربى لطبيعتى المسيح فى شخص واحد، إلا بعد أن طلب مندوبو كنيسة روما أن يؤذن لهم بمغادرة خلقدونية وأن تعد الدعوة لعقد مجمع جديد فى الغرب ، ولا سيما بعد أن أيدهم الإمبراطور فى هذا الإنذار المزدوج . ولهذا القرار الذى وصل إليه المجمع بهذه الطريقة أهمية بعيدة النتائج فى تاريخ المسيحية الشرقية والغربية سواء . فلو جاء مجمع خلقدونية بغير ما جاء به من قرار، لوقعت الانقسامات الدينية المشهورة بين الشرق والغرب فى القرن الخامس ، لا فى القرن الحادى عشر ، ولاستحال قيام التحالف بين الإمبراطورية والكنيسة الغربية، وهو التحالف الذى كان عنصراً أساسياً فى تكوين المسيحية الغربية .

لكن هذا التقارب مع الغرب أدى من ناحية أخرى إلى المباعدة وتوسيع الخلاف بين الإمبراطورية ورعاياها الشرقيين . والواقع أن الحل الذى فرضته فرضاً إرادة بابا مستبد عظيم وإمبراطور قوى ، لم يكن من شأنه أن يزيل الأسباب الباطنة للتفرقة القومية ، بل أعلن الأساقفة المصريون فى جلسة من جلسات المجمع بأنهم لا يجرءون على العودة إلى بلادهم بخبر عزل البطرك ، لئلا يقتلهم أهلهم الذين سوف يبلغ بهم الغضب مبلغاً خطيراً . ولم تكن مخاوفهم وهمية، إذ قام الناس بثورة، وذبحوا رجال الحامية الإمبراطورية غداة

وصول هذا الخبر إلى الإسكندرية . ومع أن التدابير الشديدة التى اتخذتها الحكومة نجحت مؤقتاً فى فرض بطرك خلقدونى على الإسكندرية ، فإنه لم تكد تذهب يد الإمبراطور مارقيان القوية — بوفاته سنة ٤٥٦ — حتى وقع هذا البطرك فريسة الغضب الشعبى،وتمزق جسمه إرباً فى عقر كنيسته يوم الجمعة الحزينة من تلك السنة . ومنذئذ صار مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتية) هو المذهب القومى فى مصر ، على حين جرى اسم « الملكانيين » أو رجال الملك — من باب التحقير — على الأقلية التى ظلت على ولائها للأرثوذكسية والكنيسة الإمبراطورية . وغدت القوة الحقيقية فى مصر لا فى يد الحاكم الإمبراطورى بل فى يد البطرك المنشق على الكنيسة الإمبراطورية . ويبدو أن الإمبراطور جستنيان أدرك هذه الحقيقة بعروضه الشهيرة لتوحيد وظيفتى الولاية والبطركية فى وظيفة واحدة ، على شرط أن يعود المنشقون إلى الأرثوذكسية .

ومن هذا يتضح أنه من المستحيل أن ننكر أهمية العنصر السياسى فى ظهور الهرطقات الشرقية العظمى فى القرن الخامس . ولو أن كنيسة الإمبراطورية الشرقية لم تصبح متمشية مع الحكومة الإمبراطورية ، لاختلف كل تاريخ المونوفيزيتية وغيرها من الفرق الدينية الشرقية تمام الاختلاف عما هو معروف . على أن أسباباً أعمق من أية انفصالية قومية محلية كانت تعمل وقتذاك ، فمثلا كان التعارض الأساسى بين العنصرين الروحيين فى العالم البيزنطى متحكماً فى كل شىء ، لأنه كما شغلت جغرافية الإمبراطورية أطراف آسيا وأوربا ، كذلك احتوت حضارتها على تقاليد شرقية وغربية . وإذا بدا العنصر الشرقى لنا هو المسيطر الأعلى ، فإن الإمبراطورية ظلت تبدو للرجل

الشرقى يونانية غربية ، كما ظلت تمثل التراث الهلنستى القديم، لأن هذه المرحلة كانت فى الواقع آخر مراحل التداخل الحضارى الذى بدأ أيام الإسكندر . وتم هذا التوسع الهلينى الختامى فى العصر البيزنطى ، لأنه بفضل تأثير الكنيسة الأرثوذكسية حدث وقتذاك لأول مرة أن اندمجت شعوب آسيا الصغرى ولغاتها فى وحدة اللسان الهلينى. وعلى الرغم من أن المسيحية نفسها من أصل شرقى، فإنها ضمت إليها باستمرار عناصر كثيرة من الحضارة اليونانية، كما كانت الديانة اليونانية والفلسفة تعملان كذلك وقتذاك على قبول عناصر شرقية . وهكذا لم يأت القرن الرابع حتى غدا النضال بين المسيحية والوثنية لا نضالا بين الشرق والغرب بل بين مزيجين متنافسين من الهلينية والشرقية . ولم تكن الروح الشرقية الخالصة — كما مثلتها الغنوصية — أقل معارضة للاهوت عند أوريجين ( ١٨٥ — ٢٥٤ ) منها لفلسفة أفلاطون ، كما أن آباء الكنيسة الأولين قاموا من جهة أخرى بحرب مزدوجة ضد الوثنية الرومانية والمونتانية الفريجية والمانوية الشرقية. والواقع أن ديانة الإمبراطور جوليان ومعاميه أرباب الأفلاطونية الجديدة ـ على الرغم من إخلاصهم للماضى الهلنستى ـ كانت أكثر تشبعاً بعناصر شرقية من ديانة القبادوقيين العظماء ـ أى باسل وزميليه المعروف كل منهما باسم جريجورى ـ وهم آباء الكنيسة البيزنطية . أضف إلى ذلك أن اليونانيين حملوا معهم حبهم التقليدى للمنطق والجدل إلى الدين الجديد، فأثاروا بذلك نوعاً من التحدى العقلى فى نفوس الشرقيين . ويشهد بذلك شعر «أفريم النصيبى » ـ أحد أئمة الكنيسة السريانية ـ الذى يعتبر رداً طويلا على أصحاب الجدل الذين يقول فيهم « إنهم قوم طبعوا على النضال ، فحاولوا أن يتذوقوا النار بألسنتهم ، ويروا الهواء بأعينهم ، ويلمسوا الضوء بأيديهم » . ثم يقول « وأما الصورة

البغيضة ذات الأوجه الأربعة (فى مذهب الغنوصية أو المانوية) فأخذوها عن الحثيين . وأما الجدل اللعين — أو هذه الذبابة المختفية — فأخذوها عن اليونانيين » . وفى رأيه أن الإيمان شيء لا يقبل البحث ولا يخضع لأساليب الجدل والتعاليل ، بل هو سر خفى يطلق عليه اسم « اللؤلؤة » لأنه متلألئ ومحتجب عن الأفهام ؛ تلك اللؤلؤة « التى يتجلى جمالها فى ظاهر قشرتها » . وهو يقول على لسان هذه اللؤلؤة « أنا وليدة البحر المحيط، والبحر الذى لا حد له ؛ وجئت من هذا البحر أحمل فى صدرى كنزاً عظيما من الأسرار ، فابحث فى البحر، ولكن إياك أن تبحث فى رب البحر » (١)

ويبدو هذا المعنى واضحاً كذلك فى كتابات كاهن سريانى عاش فى القرن الخامس الميلادى ، وكان أكبر صوفى بيزنطى ، نسبت كتاباته إلى اسم منحول هو ديونيسيوس الأريوباغى ، وهو مصدر تأثير بالغ فى تاريخ الفكر فى العصور الوسطى . ولكن على الرغم من تأثره بالأفلاطونية الحديثة وبمذهب بروقلس بوجه خاص — كانت الفكرة الغالبة على مذهبه فكرة شرقية، هى أنه لا مجال للعقل الإنسانى فى فهم الألوهية على الإطلاق ولا فى الجدل فيها . ذلك أنها الظلام الذى يتجاوز النور ، والشيء الذى لا يوصف بأنه جوهر أو عقل ، أو تنسب إليه صفة أو شخصية أو وجود ، أو يقال فيها إنها الموجود الأعلى أو الخير أو الواحد ، لأنها متعالية على الوجود وعلى القدم ، بل على كل مقولة من مقولات العقل الإنسانى .

وكان هذان الكاتبان أرثوذكسيين ، ومع ذلك ترى أنهما فقدا مزاجهما

---

(١) انظر The Rhythms of Ephrem the Syrian, trans. J. Morris in the Oxford Library of the Fathers, p.p. 102, 95,87

العقلي في ديانة روحية خالصة ، وأنكرا حقيقة الأجسام والعالم المادي برمته . وهذا يفسر نجاح المذهب المانوي والمذهب الغنوصي ، وإن كانت الفكرة ظهرت في صورة أقل أصالة في مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة ، وهو المذهب الذي يفسر الحلول بأنه ظهور اللاهوت في الناسوت في صورة متجسمة في هذه الدنيا وينكر العقيدة الأرثوذكسية القائلة ببشرية المسيح .

وهكذا نرى أن العاطفة القومية وحدها لم تكن العامل الذي دفع بالأقاليم الشرقية إلى الثورة ضد الإمبراطورية في هذه المسألة ، على حين أخذت الأقاليم الغربية بمذهب الطبيعتين الموجودتين معاً ، وبالاعتراف بالبشرية الكاملة للمسيح .

وبتأثير هذه القوى نقضت جميع الشعوب الشرقية خلال القرنين الخامس والسادس اتحادها مع كنيسة الإمبراطورية ، فصارت مصر وبلاد السريان الغربية وأرمينية مونوفيزيتية ، على حين اعتنق النسطورية طوائف السوريان الشرقيين في بلاد ما بين النهرين والإمبراطورية الفارسية ، وبذا ظلوا على ولائهم للتقاليد اللاهوتية التي أخذوها عن أنطاكية . واتفق كلا الفريقين في رفض قرارات مجمع خلقدونية ومخالفة السياسة الدينية التي سارت عليها الحكومة الإمبراطورية . ثم شهد القرن السادس تحول المونوفيزيتيين من طائفة إلى كنيسة منظمة ، كما شهد تطور الرهبانية والآداب المونوفيزيتية . وهذا القرن هو في الواقع عصر كلاسيكية الثقافة المونوفيزيتية ، عصر آباء الكنيسة المونوفيزتية وأساتذتها . ومن أعظم هؤلاء اثنان من يونان آسيا الصغرى — هما ساويرس الأنطاكي وجوليان الهاليكارناسي . أما أغلبيتهم — أي فيلوكسينوس المابوجي

ويعقوب السروجى وحنا الأسيوى المؤرخ — فكتبوا بالسريانية ، على حين استخدم سرجيوس الرسايني — الطبيب الأديب العظيم — مهارته فى اللغتين اليونانية والسريانية لترجمة أرسطو وجالينوس إلى اللغة القومية . وهكذا تم وضع حجر الأساس فى العمل العظيم الذى يجمعه قولنا نقل العلوم اليونانية إلى العالم الشرقى ، وهو العمل الذى أثر أبعد التأثير فى تاريخ الحياة الفكرية فى العصور الوسطى .

وبذل كل من النساطرة والمونوفيزيتيين أقصى ما فى وسعهم لنشر تعاليمهم بين الشعوب الأجنبية ، فيرجع معظم الفضل فى انتشار المسيحية فى آسيا وإفريقية منذ القرن الخامس فصاعدا إلى نشاطهم . ذلك أن البعثات النسطورية التبشيرية بلغت سيلان وبلاد الأتراك فى آسيا الوسطى فى القرن السادس، على حين أوغلت بعض هذه البعثات فى القرن التالى حتى بلاد الصين . أما الحبشة التى ترجع أصول المسيحية فيها إلى القرن الربع ، فاعتنقت المونوفيزيتية بتأثير الإسكندرية ، كما تحول النوبيون وأهل القبائل الصحراوية المجاورة إلى المسيحية فى القرن السادس عن طريق البعثات المونوفيزيتية . وفى نفس الوقت كانت المسيحية تأخذ طريقها إلى بلاد العرب من عدة جهات . ففى بلاد الحميريين بأقصى جنوب شبه الجزيرة العربية القديمة قامت كنيسة ذات علاقات مع كنيسة الحبشة، وهذه الكنيسة الحميرية تأسست فى القرن الرابع ، وتعرضت لاضطهاد شديد فى القرن السادس. ومن ناحية بلاد ما بين النهرين أسس النساطرة عددا من الكنائس بين عرب الخليج العربى الفارسى وفى دولة الحيرة المستقلة. على حين اتصل المونوفيزيتيون ورجال الكنيسة الإمبراطورية بقبائل بادية الشام وشمال بلاد العرب، حيث وجدوا من الأمراء الغساسنة ـ أمثال الحارث بن جبلة والمنذر ـ

حماة أقوياء . وكان للاتصال بين الدين الجديد والمجتمع الوثنى القديم تأثير عميق فى الثقافة العربية القديمة ، ويتضح ذلك التأثير فى نهضة الأدب العربى الجاهلى ، إذ سرت فيه حيوية دافقة فى القرن السادس . وكان بعض أوائل شعراء العرب مسيحيين ، أمثال النابغة الذبيانى وعدى بن زيد شاعر الحيرة ، وامرئ القيس بن حجر الكندى وهو أعظم شعراء العرب فى الجاهلية ، وكان أبوه حجر أمير نجد فى خدمة الدولة البيزنطية على عهد جستنيان .

على أن هذا كله لم يكن سوى مظهر سطحى من عميق حركة الاختمار الروحى والتغير الاجتماعى التى اجتازت العالم العربى ، حيث بدت تجربة روحية قاب قوسين أو أدنى من ذلك بكثير ، وهى التجربة التى جعلت من القبائل المتحاربة المتناثرة فى شبة جزيرة العرب قوة متحدة ، استطاعت فى القرن السابع أن تكتسح الشرق فى موجة لاراد لها من الحماسة الدينية .

# الفصل الثامن

## ظهور الإسلام

تشبه الفتوح العربية للشرق فى القرن السابع من بعض النواحى العامة سلسلة الغزوات الجرمانية التى حدثت للغرب قبل ذلك بقرنين من الزمان . والفتح العربى — مثل الغزو الجرمانى — آذن بنهاية سيطرة الحضارة اليونانية والرومانية ، وبداية تكوين حضارة جديدة مختلطة ، وهى الحضارة التى اختصت بها العصور الوسطى . والواقع أن ظهور الإسلام كان فصل الختام فى قصة الأخذ والعطاء الذى استمر ألف سنة بين الشرق والغرب ، كما كان نصراً مبيناً للروح الشرقية التى مابرحت تغير على العالم الهلنستى تدريجياً منذ سقوط الدولة السلوقية ، أى أن قيام الرسول محمد عليه الصلاة والسلام كان إجابة الشرق على تحدى الإسكندر .

غير أن الفتح العربى يختلف اختلافاً جوهرياً عن الغزو الجرمانى فى الغرب من ناحية أنه يرجع بأصوله إلى ظهور الدين الإسلامى وعبقرية شخصية تاريخية عظمى . وإذا كان من المعروف — كما رأينا فى معرض الكلام عن الحضارة البيزنطية ـ أن الشرق كان على أهبة للثورة على القديم ، وأن حدثاً عظيما كان لا محيض منه ، فمن المعروف كذلك أن قبائل العرب كانت فى حركة مستمرة — مثل قبائل أوربا الشمالية — بسبب ضغط الأحوال الجوية وازدياد الجفاف

العام فى بلاد العرب . ومع هذا فمن الواضح أنه بدون الإسلام وعبقرية الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، لم يكن باستطاعة العرب ألبتة أن يبلغوا ما بلغوا من الوحدة السياسية والحماسة الدينية التى جعلتهم قوماً لا يغلبون . غير أن العرب كانوا فى نظر الحكومة البيزنطية مسألة من مسائل الأطراف فحسب ، لا مصدراً كبيراً من مصادر التهديد ، كالدولة الفارسية التى كانت عندهم الخطر الشرقى الحقيقى . والواقع أن الإمبراطورية البيزنطية ظلت لعدة قرون على علاقات طيبة مع الدول العربية المتعاقبة على أطرافها الجنوبية قبل الإسلام ، وهى مملكة الأنباط ، ثم مملكة تدمر ، ثم مملكة الغساسنة التى كانت من أحلاف الإمبراطورية البيزنطية . ولذا لم تكن أية حركة من داخل شبه الجزيرة العربية مما يدعو إلى القلق ، فلم تزل القبائل البدوية المتنقلة فى الصحراء على حالها من التنقل والحروب الداخلية، كما لم تزل القبائل المتحضرة المستقرة فى غرب شبه الجزيرة وجنوبها تدين برخائها لتجارتها مع العالم البيزنطى . وعلى الرغم من هذا وذلك كانت عملية من الاختمار والتغيير الحضارى تدب فى بلاد العرب فى القرن السادس ، بحيث غدا المسرح على أهبة الاستعداد لظهور دولة جديدة .

ولعدة قرون كان مركز الحضارة العربية منحصراً فى أقصى الجنوب ، أى فى أرض سبأ وهى اليمن الحديثة . فهناك نشأت فى عصور ما قبل التاريخ حضارة مستقرة من الحضارات القديمة ، وهى حضارة مستمدة من بلاد ما بين النهرين فيما يبدو منذ الأزمنة السومرية ، بل تنبئ الصور النحتية لأهل هذه الحضارة عن ملامح بشرية سومرية لا سامية . وعبد أهل هذه الحضار آلهة بابلية ، أى عشترته وسين وشمش ( بعد تغيير صفاتها من ذكر إلى أنثى ) وأقاموا لأنفسهم دولة معبدية على الطراز السومرى ، فحمل ملوك سبأ الأولون لقباً كهنوتياً وهو

لقب مقرب أى صاحب البركة ، كما كان ملك معين على صلة وثيقة بهيئة رجال الدين . وفى هذه الحضارة تصور الناس إلههم على أنه حاكم البلاد ، وأنه يسيطر على إيرادات مالية واسعة وعدد كبير من الكهنة والأتباع . وتشير النقوش السبأية الباقية فى كثير من الأحيان إلى تخصيص أفراد أو عاملات ليكونوا عبيداً للآلهة أو سدنة لخدمة المعابد ، على حين اندمج الملوك والكهنة فى أسرة الإله بصفتهم أبناءه أو أقاربه . وعلى عكس القبائل البدوية فى شمال شبه الجزيرة ، عاش أهل الجنوب عيشة زراعية خالية من الحروب ، فبنوا مبانى ضخمة لتنظيم الرى ، وأهمها سد مأرب العظيم . ولم يعيشوا فى الخيام بل كانوا على العكس من عظماء البنائين ، ولا تزال بلاد اليمن عامرة ببقايا معاقلهم ومعابدهم . ثم إنهم خلفوا نقوشاً عديدة منحوتة نحتاً جميلا فى أحرف أبجدية متناسقة ترجع ترجيحاً إلى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد[١] .

واعتمد رخاء أرض سبأ كل الاعتماد على التجارة، إذ كانت بلادهم وقتذاك بلاد الذهب والقوافل الغالية — أى البخور والمر اللذين احتاجت إليهما معابد مصر وآسيا أشد الاحتياج — كما كانت منذ أقدم العصور محطة التبادل التجارى بين الهند والغرب ، وبداية طريق القوافل العظيم الذى يمر بمكة والمدينة شمالا ثم إلى شبه جزيرة سيناء وفلسطين . وامتد نفوذ سبأ على طول هذا الطريق ، حيث يبدو أن دولة معان فى بلاد العرب الشمالية وأرض مَدين كانت فرعاً من مملكة معين فى الجنوب .

ومنذ قيام الإمبراطورية الرومانية أخذت رفاهية سبأ فى الغروب بسبب

---

(١) لدراسة أصول هذه الحضارات العربية الجنوبية ، انظر :
(Dawson : Age of the Gods, 1928, pp. 78-89,115-116,410)

استخدام طرق تجارية جديدة إلى الهند ، وتأسيس صلات مباشرة بين مصر والحبشة عن طريق البحر . غير أن الرواية العربية تنسب زوال مملكة سبأ إلى انهيار سد مأرب العظيم ، وهو ما حدث سنة ٤٥٠م ، عندما تطلب ترميمه عشرين ألف عامل ، وكذلك سنة ٤٥٢ م . على أن انهيار سد مأرب كان لا ريب نتيجة لا سبباً لاضمحلال مملكة سبأ . ومن الدليل على ذلك أنه منذ القرن الثالث الميلادى فصاعدا ، خضعت بلاد العرب الجنوبية لسيطرة مملكة الحبشة ، وأنه بعد هزيمة ملكها اليهودى ذى نواس حكمها لمدة خمسين سنة فى القرن السادس نائب حبشى ، هو الذى جعل المسيحية ديانة البلاد . ثم استولى عليها الفرس أخيراً سنة ٥٧٠ وظلت تحت الحكم الفارسى حتى زمن الفتوح العربية الإسلامية .

وليس أشد اختلافاً عن هذه الحضارة المستقرة فى الجنوب من حياة القبائل البدوية المتنقلة فى الشمال ، وهى القبائل التى اعتدنا اعتبارها أنها هى العربية . وانصرفت حياة هذه القبائل إلى الحروب والإغارة على قطعان جيرانها من الأغنام والإبل ، وفرض الأموال على قوافل التجار .

وإذ سرت قاعدة الأمومة سريانا قويا فى النظام الاجتماعى بين القبائل المستقرة — كما يتضح من قصة بلقيس ملكة سبأ وقصة زنوبيا ملكة تدمر — فإن النظام الاجتماعى بين القبائل البدوية اعتمد على عنصر الأبوة الخالص ، وهو فى الواقع أخلص أنواع الأبوية المعروفة فى التاريخ وأبقاها دون تغيير منذ أيام سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى العصر الحاضر . وشغل الدين فى حياتهم مقاماً أقل بكثير مما كان فى حياة القبائل المستقرة ، غير أن أديانهم كانت

من نوع واحد ، وفى هذا وغيره من نواحى الحياة كان للحضارة السبأية القديمة تأثير كبير فى القبائل البدوية .

ثم إن هذه القبائل تعرضت من نواحى الشمال لتأثير الحضارات الأرقى فى سوريا وما بين النهرين ، فنشأت فى هذه النواحى أولا دولة النبطيين التجارية ومركزها مدينة البتراء ، ثم دولة تدمر التى سيطرت فى القرن الثالث على الطريق التجارى العظيم بين الإمبراطورية الرومانية والخليج الفارسى ، ثم أخيرا دولتا الأطراف — وهما غسان والحيرة — اللتان ارتبطت إحداهما بالإمبراطورية البيزنطية وارتبطت ثانيتهما بالدولة الفارسية . وكانت هاتان الدولتان الأخيرتان فى العصر الذى سبق ظهور الإســلام أعظم مراكز الحضارة العربية ، وفى بلاطهما ازدهر شعراء العرب الأولون ، وبلغ اللسان العربى مستوياته القديمة العالية .

وصفوة القول إن محمداً عليه الصلاة والسلام ولد فى عصر الانتقال فى التاريخ العربى ، حين كانت الحضارة العربية الجنوبية فى أقصى مرحلة الاضمحلال ، وحين كانت بلاد العرب تغزوها من الشمال أو الجنوب حضارات وديانات أجنبية . وكانت مكة — مسقط رأسه عليه الصلاة والسلام — إحدى المعاقل الأخيرة للوثنية العربية ، وهى تقع على الطريق التجارى العظيم الواصـل منذ عصر ما قبل التاريخ بين اليمن والشمال . وربما يرجع تأسيسها — كتأسيس العلا وتيماء شماليها — إلى الحركة السبأية التوسعية ، مع العلم بأننا لا ندرى شيئاً عن تاريخها الأول قبل أن تسيطر عليها قريش فى القرن الرابع الميلادى ، وهى إحدى قبائل الشمال العربى .

وكانت مكة مدينة ذات طابع بدائى يسيطر عليها نظام دينى ، وتدين بأهميتها لحرم الكعبة العظيم — وهو وقتذاك مقام الإله هبل وكهنته — كما تدين للحج السنوى الشهير عند جبل عرفات على بضعة أميال من مكة . وكما كان الحال فى المعابد السبأية ، غدا إله الكعبة سيد مكة القديمة وما حولها . وكان المكيون مواليه ورعاياه ، يقدمون له زكاة محاصيلهم وبواكير أغنامهم وإبلهم،واستمد القرشيون سلطانهم من كونهم كهنة الكعبة وسدنتها . على أن الحج شعيرة من أصل مستقل ، ولعله من خواص الشعوب البدوية ، وكانت تصحبه هدنة بين القبائل تجعله سوقا دينية ، كالمألوف بين الشعوب ذوات الحضارة القبلية .

وهكذا كانت الحضارة المكية ذات صفة مزدوجة ، وهى كذلك بوصفها الجغرافى فى موقع متوسط بين نوعين مختلفين من المجتمع ، أحدهما مدنية قديمة مقدسة فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، وثانيهما مجموعة القبائل البدوية العاتية الضاربة فى الصحراء . وعلى هذا النحو كان العصر نفسه انتقاليا متوسطا بين قديم الوثنية العربية ومطلع الديانات الجديدة . وكان لهذه المؤثرات نصيب كبير فى تطور حياة النبى عليه الصلاة والسلام وفى تعاليمه كذلك . وهنا ينبغى أن نذكر أن النبى — عليه والصلاة والسلام — كان مدنيا تحدوه تقاليد مدنية يسيطر عليها نظام دينى ومجتمع تجارى ، واحتقار شديد لأعراب الصحراء(١) ، مع العلم بأنه استمد ولا ريب من أجداده السالفين أهل الصحراء

---

(١) جاء فى القرآن الكريم فى سورة التوبة (آيات ٩٧—٩٩) :

« الأعراب أشد كفراً ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم. »

روح الجهاد والجرأة التى ازدادت وضوحا فى الدور الثانى من حياته . وتأثر تفكيره عليه الصلاة والسلام تأثرا عميقا من هول الفوضى والهمجية بين القبائل الوثنية المتحاربة كما تأثر بما بقى من آثار العظمة التى ذهبت مع الحضارة الغابرة. وأحس عليه الصلاة والسلام بالحاجة إلى إصلاح خلقى فى المجتمع العربى ، أى بالحاجة إلى قاعدة جديدة لتحل محل القانون القبلى البدائى القائم على العصبية والقرابة والثأر للدم ، كما أحس فى الوقت نفسه بعجز الإنسان أن يعمل شيئا بقوته الذاتية ، لأنه عليه الصلاة والسلام آمن إيمان جميع الأنبياء والمرسلين قبله بتفاهة الإنسان أمام القوة الإلهية المطلقة التى لاتسأل عما تفعل ، وهو الإيمان الملائم لأحوال البيئة الصحراوية. ولكن الله القادر على كل شىء — وهو الذى دعا عليه الصلاة والسلام إلى عبادته — لم يكن مجموعة من القوى الطبيعية المؤلهة فى الديانة العربية الوثنية القديمة ، بل هو الله الذى عبده أهل الكتاب — من اليهود والنصارى — وهم الذين انتشرت دياناتهم فى بلاد العرب . ومما لاريب فيه أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى هذه الديانات الكتابية فى أثناء الرحلات التجارية التى قام بها لتجارة السيدة خديجة ، وهى زوجته فيما بعد . وكانت الجماعات اليهودية — فى جنوب بلاد العرب وحول المدينة المنورة — كثيرة العدد ناشطة فى الدعوى لديانتها ، وكذلك كانت الجماعات المسيحية . ومع أننا لانعرف سوى القليل عن الكنيسة المسيحية المزدهرة وقتذاك فى بلاد العرب الجنوبية ، فلدينا مجموعة القوانين الخاصة بأحد رسل المسيحية إلى الحميريين — وهو القديس جرجنتيوس — وفيها كثير مما يشبه الروح البيوريتانية التى اتسمت بها أيام صدر الإسلام. ثم إنه كان بمكة جماعة من النساك — وهم الحنفاء الذين قاموا يدعون للتوحيد والتمسك بمكارم الأخلاق وكان أحد مشهوريهم

— واسمه زيد بن عمرو — من أهل مكة ، وتوفى والنبى عليه الصلاة والسلام فى سن الشباب . ومع هذا فمن الخطأ الفاحش أن ننظر إلى النبى عليه الصلاة والسلام على أنه ناقل لأقوال الآخرين ، لأنه فى الحقيقة قوة ذاتية أصلية . ذلك أنه عليه الصلاة والسلام آمن إيماناً عميقاً بوحى رسالته، واعتاد أن يسمع صوت الوحى ينزل عليه آيات بينات بين آونة وأخرى ، بلسان عربى مبين ، بعيد عن الشعر والشعراء .

وبعد أن أضحى عليه الصلاة والسلام مرشداً وهاديا للمسلمين الأولين ، أعقبت الآيات القصيرة آيات طويلة لإرشاد المجتمع الدينى الجديد ، ولمجادلة المعارضين، مع قصص تاريخية مختلفة، ومنها قصة الإسكندر ذى القرنين وغزواته التى بلغت أقصى الأرض. ومع بلاغة القرآن الكريم وتنوع موضوعاته ، فالمعروف أنه كتاب فاق فى تأثيره أى كتاب آخر فى تاريخ البشرية ، وهو فى العصر الحاضر المصدر الأعلى فى الحياة الاجتماعية والفكرية لمائتى مليون من الجنس البشرى ، وهو إلهام إلهى فى كل سطر من سطوره .

وترجع قوة الدين الإسلامى إلى بساطته المطلقة ، إذ هو اللون الجديد للدين العالمى فى أبسط عناصره ، وهو يقوم على مبدأ وحدانية الله وقدرته سبحانه على كل شىء ، كما يقوم على الإيمان بالجنة والنار فى الحياة الآخرة .

ويصور الدين الإسلامى الحياة الآخرة تصويراً حياً ، فالنار أعدت فى جهنم للكافرين خالدين فيها أبدا ، يأكلون فيها من شجر من زقوم . وجنات الفردوس ذات الظلال الدانية أعدت للمؤمنين متكئين فيها على فرش

من إستبرق ويسقون فيها من عين تسمى سلسبيلا ، ومعهم أزواجهم من حور العين « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون[١] » .

واتصفت التعاليم الأخلاقية والاجتماعية التى دعا إليها الرسول عليه الصلاة والسلام بمثل البساطة والاستقامة الإسلامية التى اتصفت بها تعاليمه الدينية ، فتناسبت وحدانية الله مع الأخوة التى تمحو مابين المؤمنين من الفوارق العنصرية والقبلية والاجتماعية . ثم إن أول ما يجب على المسلم هو الزكاة، للمساهمة فى « فك رقبة، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة »[٢] . وأباح الإسلام تعدد الزوجات والرق بشروط ، واتصفت قوانينه الأخلاقية بالبيوريتانية فى صرامتها ، واستخدمت العقوبات البدنية فى تنفيذها .

ومن ناحية أخرى توازنت البساطة الأخلاقية والعقائدية فى الإسلام بمجموعة من واجبات دقيقة التفاصيل . والواقع أن الصلوات الخمس وعدد ركعاتها وسجداتها ، وتلاوة القرآن ، وصوم رمضان من كل عام ، وقواعد الطهارة والوضوء ، ومناسك الحج إلى مكة ، كل ذلك جعل من المسلمين أمة عظيمة بين الأمم . ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام ظل وفيا لمدينة مكة وقداستها على الرغم من نبذه الوثنية العربية القديمة، فظلت الكعبة بيت الله الحرام، بل ظلت الشعائر التقليدية الخاصة بالحجر الأسود والطواف حول الكعبة سبع مرات، فضلا عن الوقوف على جبل عرفات، والتضحية بالضأن أو غيره، وقص الشعر والأظافر

(١) سورة الصافات ( ٤٨ ـ ٤٩ )
(٢) سورة البلد ( ١٣ .. ١٥ )

فى منى . وأقيمت هذه الشعائر كلها على أنها جزء من « ملة إبراهيم حنيفا » [١]، وهو جد الأمة العربية الذى رفع القواعد من البيت الحرام [٢] .

وبديهى أن استكمال تطور التعاليم الإسلامية وتنظيم المجتمع الإسلامى كان عملية تدريجية . وكانت نقطة تحول فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام حين اضطرته قريش الوثنية إلى الهجرة من مكة، واللجوء مع أتباعه إلى يثرب المجاورة وهى المدينة المنورة ، وهذه هى الهجرة التى وقعت سنة ٦٢٢ ميلادية ، والتى يبدأ بها التقويم الهجرى الإسلامى . وفى المدينة النبوية أخذت الفئة الإسلامية الجديدة تتطور إلى مجتمع سياسى، شاءت المقادير أن يحل محل الوحدة القبلية القديمة . ومن المدينة بعث النبى عليه الصلاة والسلام سراياه وغزواته ضد قوافل أهل مكة، ومن هذه الغزوات كانت بدايات القوة الإسلامية السياسية وعمليات الجهاد . وفى الغزوات التى وقعت فى بضع السنوات التالية — أى من غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة إلى غزوة حنين واستيلاء المسلمين على مكة فى السنة الثامنة للهجرة — تقرر مستقبل غرب آسيا وشمال إفريقية .

ومنذئذ غدا الإسلام قوة فاتحة، اجتذبت إليها جميع القبائل فى بلاد العرب وجعلت منهم أمة واحدة . وإذا كان من القواعد الأساسية فى التعاليم الإسلامية أن يعيش المؤمنون فى سلام بعضهم مع بعض، فإن انعدام الحروب القبلية أطلق موجة هائلة من الطاقة الحربية التى تدفقت صوب البلاد المجاورة ، فلم تمض سنتان على وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى بدأ الهجوم على بلاد الشام

---

(١) سورة النساء (١٢٥)
(٢) سورة البقرة (١٢٧)

وفارس .على أن عجيب النجاح والسرعة اللتين اتصفت بهما الفتوح الإسلامية لا يرجع إلى الروح الحربية فى قلوب العرب ، بقدر ما يرجع إلى الحماسة الدينية التى جعلت من الجهاد أقصى غاية التفانى وبذل النفس ، بحيث غدا الموت« فى سبيل الله » هو المثل الأعلى لكل مسلم .

ووضحت هذه البيوريتاينة الحربية أجلى وضوح فى الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الأولين ، وهذا العصر —وليس عصر عظمة الثقافة والفلسفة زمن العباسيين — هو الذى يعده المسلمون أنفسهم دائما العصر الذهبى للإسلام . ويصف مؤلف كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » هذا العصر الإسلامى الأول فى عبارة شهيرة نصها (١) :

« أما الدولة الإسلامية الأولى ، وهى دولة الخلفاء الأربعة فإن ابتداءها كان منذ قبض رسول الله صلوات الله علية وسلامه وبويع أبو بكر . . . . . . وأعلم أنها دولة لم تكن من طرز دول الدنيا، وهى بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . والحق فى هذا أن زيها قد كان زى الأنبياء ، وهديها هدى الأولياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار . فأما زيها فهو الخشونة فى العيش

---

(١) استمد المؤلف هذا النص المشهور من Browne: Lit. Hist. of Persia, (I. p.p. 188-189) حيث هو مترجم الى الإنجليزية ترجمة معروفة بدقتها وسلامتها ، ولذا لم يكن المؤلف بحاجة الى الرجوع الى الأصل العربى لهذا النص . غير أنه من الطبيعى على أية حال أن يقوم المترجمان هنا بنقل هذا النص مباشرة من منبعه العربى ، وهو كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية تأليف محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، وأن يقوما كذلك بكتابة الحواشى الأربع التالية،وكلها من قاموس محيط المحيط ، لتوضيح الألفاظاللغوية الغريبة على الأسماع الحديثة . (حاشية للمترجمين)

والتقالل فى المطعم والملبس . كان أحدهم ( وهو الخليفة عمر ) يمشى فى الأسواق راجلا ، وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، وفى رجله تاسومة[١] ، وفى يده درة [٢] ، فمن وجب عليه حق استوفاه منه . وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم . . . وأعلم أنهم لم يتقالوا فى أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عجزاً عن أفضل لباس وأشهى مطعم ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة لفقراء رعيتهم ، وكسرا للنفس عن شهواتها ، ورياضة لها لتعتاد أفضل حالتها ، وإلا فكل واحد منهم صاحب ثروة ضخمة ،ونخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب، ولكن أكثر خرجهم كان فى وجوه البر والثواب . وكان لأمير المؤمنين على — عليه السلام — ارتفاع [٣] طائل من أملاكه يخرجه جميعه على الفقراء والضعفاء ، ويقتنع هو وعياله بالثوب الغليظ من الكرباس [٤]، وبالقرص من خبز الشعير . وأما فتوحها وحروبها فإن خيلها بلغت إفريقية [٥] وأقاصى خراسان ، وعبرت النهر» .

ومن السهل أن ندرك كيف عجزت الجيوش البيزنطية المحترفة والكتائب الإقطاعية الفارسية عن أن تقف فى وجه رجال تحدوهم مثل هذه الروح ، ولا سيما أن القوة الحربية فى كل من الإمبراطوريتين أنهكها النضال العظيم الذى لم

---

(١) التاسومة هى الخف أو النعل .

(٢) الدرة هى السوط أو الكرباج .

(٣) الارتفاع هو الدخل السنوى .

(٤) الكرباس هو الثوب الخشن من القطن الأبيض .

(٥) يطلق هذا اللفظ بهذه الصيغة على شمال أفريقيا من ليبيا إلى المغرب الأقصى . أما لفظ أفريقيا نفسه فيطلق على القارة الإفريقية كلها ، وهو لفظ حديث الاستعمال فى الجغرافية الطبيعية ( انظر : ياقوت ، معجم البلدان ح ١ ص ٣٢٤ — ٣٣٠ — طبعة فستنفلد) المترجمان .

ينته إلا قبيل الفتوح العربية . وفى كل من الشام والعراق كره أهل البلاد حكامهم من اليونان والفرس بسبب الإرهاقات المالية والاضطهادات الدينية ، وتراءى للفلاحين الأراميين أن الإسلام بديموقراطيته وبساطته أقرب إلى إلى حياتهم من أرثوذكسية الإمبراطورية البيزنطية المسيحية أو من ديانة الدولة الزرادشتية الفارسية، وأنهم إذا ظلوا فى حال من التبعية فإن المسيحيين النساطرة والمونوفيزيتيين غدوا على الأقل على قدم المساواة مع حكامهم الظالمين الكريهين . على أن الفتح العربى جاء لطمة شديدة للأوضاع الفارسية القومية وللمدن اليونانية الكبيرة فى شمال الشام والجهات الساحلية .

وهكذا حولت السنوات القصيرة التى شغلتها خلافة عمر ( ٦٣٤—٦٤٣ ) الدولة الإسلامية إلى إمبراطورية واسعة شملت سوريا والعراق ومصر ، فصلا عن شبه الجزيرة العربية . وبذا صار العرب سادة على شعوب خاضعة مترامية الأطراف ، واحتفظت هذه الشعوب بدياناتها القديمة مع التزامها بدفع الجزية وحرمانها من حمل السلاح . وهكذا انقسم المجتمع إلى طبقتين ، أى المحاربين المسلمين من ناحية والفلاحين وأهل المدن المسيحيين والزرادشتيين دافعى الجزية من ناحية أخرى . ثم لم يلبث أن انضاف إلى هؤلاء وأولئك طبقة ثالثة من غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام ، وهم الموالى .

وعمل الخليفة عمر على حفظ البساطة والمساواة التى نادت بها مثالية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك بمنع المحاربين المسلمين من تملك شىء من الأرض المفتوحة ، وتعيين مرتبات منتظمة لهم من بيت المال . وأنشأ الخليفة عمر الحاميات الرئيسية فى المدن العسكرية التى أسسها ، وهى الكوفة

قرب طيسفون (المدائن)، والفسطاط قرب حصن بابليــون، لحراسة الأقاليم المفتوحة . غير أنه كان من الصعب الإشراف من المدينة المنورة — عاصمة الدولة الإسلامية وقتذاك — على هذه الجيوش العربية المضــطرمة بالحماسة الدينية والعصبية القبلية . ولم تلبث أن أخذت المنافسات القبلية القديمة تظهر من جديد ، فمن ناحية كان حزب الأرستقراطية القبلية القديمة وعلى رأسها بيت بنى أميــة ، ومن ناحيــة أخرى كان حزب المهاجرين والأنصار الموالين للمثالية الإسلامية الأولى ، وهم أنصار الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته المهاجرين . وانقسم هؤلاء بدورهم إلى حزب يؤيد حقوق قريب الرسول عليه الصلاة والسلام وابن عمه وزوج ابنته وهو على بن أبى طالب ، وحزب المتطرفين الذين اتصفت مبادؤهم بالديمقراطية والثيوقراطيه فى آن واحد ، ولم يعترفوا لأى فرد بأحقية شخصية فى الخلافة . وأولئك هم الخوارج الذين أسموا أنفسهم الشراة ، أى الذين باعوا أنفسهم فى سبيل الله طبقاً لما ورد فى القرآن « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليــه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعــكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم[١] » ويمثل هذا الموقف فى العصر الحاضر ، لا ســلالة الخوارج فحسب — وهم الأباضية ببلاد العرب الجنوبية — بل أهل الحركة الوهابية الحديثة، وهى الحركة التى ترمى إلى إعادة الإسلام إلى سلطته الأولى ، التى استطاعت للمرة الثانية فى التاريخ توحيد شبه الجزيرة العربية تقريباً، بعد أن طردت ملك الحجاز من الحرمين الشريفين مكة والمدينة .

---

(١) سورة التوبة — آية ١١١ .

ومن هذه الأحزاب الثلاثة نبعت جميع الفتن الداخلية فضلا عن الخلافات المذهبية التى مزقت وحدة الإسلام الأولى، وتركت أثراً عميقاً فى مستقبل التاريخ . ومن أول الدلائل على ذلك مقتل عثمان — خليفة عمر — ، وهو زعيم البيت الأموى والأرستقراطية المكية ، على أيدى جماعة من الناقمين عليه . ثم انتقل على بن أبى طالب — خليفة عثمان — عن المدينة المنورة إلى الكوفة ، على حين سيطر معاوية — زعيم البيت الأموى بعد عثمان — على دمشق والشام . وفى رمضان سنة ٤٠ ﻫ ( يناير ٦٦١ م ) كان مقتل الخليفة على بيد أحد الخوارج ، فانتقلت الخلافة إلى الأمويين الذين هزموا الحسين بن على — وهو سبط الرسول عليه الصلاة والسلام — وقتلوه فى كربلاء فى عاشر المحرم سنة ٦١ ﻫ ( أكتوبر ٦٨٠ م ) . ولا يزال جميع العالم الشيعى يحتفل حتى العصر الحاضر بذكرى تلك المأساة فى يوم عاشوراء من كل سنة هجرية ، بإظهار الحزن واحتمال أقصى أنواع الآلام البدنية . وهكذا تغلب المبدأ السياسى فى الإسلام ، وصارت دمشق عاصمة دولة شرقية عظيمة ، يحكمها البيت الأموى حكماً وراثياً . وامتدت هذه الدولة شرقاً حتى أطراف الإمبراطورية الصينية القديمة ، وغرباً حتى شواطئ المحيط الأطلسى . وفى عام واحد ( سنة ٧١١ م ) استطاعت هذه الدولة الإسلامية الفاتحة أن تضيف السند وإسبانيا إلى ولايات الخليفة .

وصحب هذا التوسع تطور سريع فى الحضارة الإسلامية، إذ استخدم الخلفاء نظم الحكومة البيزنطية والفارسية فى ولاياتهم ، وجعلوا معظم صغار الموظفين من أهل هذه الولايات ، كما احتفظوا باليونانية والفارسية فى أول الأمر فى شئون الإدارة إلى جانب اللغة العربية . وأضحى بلاط الخلفاء الأمويين فى دمشق

مركزاً لحضارة زاهرة ، على حين برهنت العمائر الفخمة — مثل مسجد قبة الصخرة فى بيت المقدس والجامع الأموى العظيم فى دمشق — على نمو العمارة والفنون الإسلامية وفق أسس التقاليد السريانية البيزنطية .

وهكذا كان العصر الأموى ( ٦٦١ — ٧٥٠ ) برهان النصر النهائى لنهضة الشرقية التى نتبعنا تطورها فى هذه الدراسة ، إذ خرجت الشام ومصر والعراق من أيدى حكامها البيزنطيين والإيرانيين، وصارت مركزاً لإمبراطورية عربية متجانسة ، لها دينها الجديد وحضارتها الخاصة ، وسلطانها ممتد من المحيط الأطلسى حتى نهر جيحون . وصارت الإمبراطورية البيزنطية على شفا هاوية الانهيار ، بحيث بدا كأن العالم القديم يوشك أن يصبح كله إسلامياً . وغدت التأثيرات الشرقية فى ازدياد ، حتى فى كل أرجاء العالم المسيحى . وشهد عصر خلفاء دمشق كذلك قيام أسرة أيسورية فى الإمبراطورية البيزنطية (١)، وقيام بابوات سوريين فى الكنيسة الرومانية الغربية فى روما (٢) ، على حين كان حنا منصور الدمشقى قائد الفكر المسيحى وخاتم الآباء اليونانيين ، وهو الذى تولى بيت المال زمن الخليفة الوليد الأول وخلفائه . والخلاصة أن القرن السابع — لا الخامس — هو الذى تختتم به آخر مراحل الحضارة القديمة فى البحر المتوسط ، وهى مرحلة السيادة المسيحية المطلقة ، ومن هنا تبدأ العصور الوسطى .

---

(١) يرجع أصل الأيسوريين الى مدينة جرمانيقا (مرعش الحالية) فى إقليم كوماجين البيزنطى، وهى غربى مدينة الرها الحالية .

(٢) اعتلى كرسى البابوية بين سنتى ٦٨٥ ، ٧٤١ خمسة بابوات سوريين ، وهم حنا الخامس وسرجيوس الأول ، وسيسينيوس ، وقسطنطين ، وجريجورى الثالث .

# الفصل التاسع

## انتشار الحضارة الإسلامية

فى خلال القرنين التاسع والعاشر بلغت الحضارة الإسلامية أوجها ، وشهد العالم الإسلامى كله من الأندلس إلى تركستان أعظم ازدهار حضارى عرفه فى تاريخه . على أن هذه الحضارة لم تكن إسلامية فحسب أو عربية خالصة ، بل هى نتاج عالمى أسهمت بسهم فى بنائه جميع الشعوب والحضارات التى خضعت للعرب ، من سريانية وفارسية وإسبانية وإفريقية وتركية . ووضع الحجر الأساسى فى هذا البناء كله فتوح الخلفاء الأربعة الأولين ، والتنظيم السياسى الذى شيده الأمويون فى دمشق ، مع العلم بأن العصر الذهبى لهذه الحضارة الإسلامية العالمية لم يبدأ إلا بعد انتهاء البيت الأموى وقيام البيت العباسى سنة ٧٤٧ .

وترجع الحركة التى أحلت العباسيين محل الأمويين إلى سخط الولايات الشرقية من انفراد العرب بالسيطرة فى ظل خلافة دمشق . وبهذه الولايات الشرقية من الإمبراطورية الإسلامية — أى خراسان — بدأت الثورة ضد الأمويين ، وكان نجاحها نهاية العصر العربى المحض من عصور الحضارة الإسلامية . وانتقلت الخلافة من الشام إلى العراق ، وهو الذى كان منذ سالف

الآماد مركز الحضارة الشرقية وإمبراطوريتها . وفى العراق بنى الخليفة المنصور العباسى سنة ٧٥٢ العاصمة الجديدة للخلافة فى بغداد ، فورثت هذه العاصمة الجديدة هيبة الملكية الساسانية القديمة وكذلك تقاليدها إلى حد معين [١] .

ومصداق ذلك أن شئون الحكم كانت غالباً فى أيدى وزراء من أسرات فارسية، مثل أسرة البرامكة العظيمة زمن هارون الرشيد، والفضل بن سهل زمن المأمون ، فضلا عن أن الحياة الاجتماعية فى البلاط والعاصمة ظلت طيلة العصر كله متأثرة جداً بمؤثرات فارسية . وتولى رجال الأدب من الفرس أو أنصاف الفرس زعامة الحضارة الإسلامية ، مثل أبى نواس شاعر بلاط هارون الرشيد ، والكسائى مؤدب الخليفة المأمون [١] ، وكانت أم الخليفة المأمون نفسه فارسية الأصل . وفى عهد هذا الخليفة ( ٨١٣ — ٨٣٣) بلغت السيطرة الفارسية أوجها فى البلاط الخليفى . على أن هذا لم يكن سوى عنصر واحد فى الحضارة العالمية

---

(١) يقول ابن حزم الأندلسى فى ذلك المعنى ما نصه : «وكانت دولة بنى أمية عربية ، لم يتخذوا قاعدة ، وإنما كان سكنى كل امرئ منهم فى داره وضيعته التى كانت له قبل الخلافة ، ولا أكثروا احتجان الأموال ، ولا بناء القصور ، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا التسويد ، ويكاتبوهم بالعبودية والملك ، ولا تقبيل الأرض ، ولا رجل ولا يد. أما بنو العباس فكانت دولتهم أعجمية سقطت فيها دواوين العرب ، وغلب عجم خراسان على الأمر ، وعاد الأمر ملكا عضوضاً محققاً كسرويا » .

( انظر ابن حزم: أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم ؛ وهى رسالة واردة ضمن رسائل أخرى فى كتاب جوامع السيرة؛ دار المعارف ، ص ٣٦٥ ــ ٣٦٦) .

ونقل المؤلف هذا النص العربى من المقالة التى كتبها المستشرق الهولندى الكبير دى خويه فى موضوع الخلافة للطبعة الحادية عشرة من دائرة المعارف البريطانية . غير أن دى خويه لم يعن من بين عديد مؤلفات ابن حزم اسم المصدر الذى استمد منه هذا النص ، ولذا تطلب العثور عليه كثيراً من سؤال الزملاء المختصين دون جدوى ، وكان للبحث الفردى الذى أجريناه حظ الاهتداء إلى هذا النص ، فى غير قليل من العناء . (المترجمان)

الجديدة لأن العراق كان بالضرورة ملتقى حضارات مختلفة ، سريانية وفارسية وعربية وبيزنطية ، فضلا عن ديانات متعددة . ذلك أن العراق لم يكن مركزاً لليهودية والمسيحية والنسطورية فحسب ، بل عاش به كل لون من ألوان الفرق الدينية والهرطقية — من المونوفيزيتية والمانوية إلى البقايا الغريبة من التقاليد الغنوصية والوثنية — مثل صابئة بابل وعبدة النجوم فى حران .

والواقع أن العراق كان من حيث التاريخ كالوثيقة التى كتبت الحضارات أخبارها على صفحتها حضارة بعد حضارة منذ السومريين . وفى مثل هذه الحال غدا من العسير على العنصر الحاكم أن يحتفظ بالأصولية المطلقة والأخلاق البيوريتانية التى جاء بها دين الإسلام ، فانغمس بلاط عاصمة العباسيين لا فى الخمر والموسيقى فحسب ، بل فى ملاذ الانطلاق الفكرى والبحث الدينى الحر . وذات يوم أطلق بعض الندماء على الخليفة المأمون — من باب المزاح — « أمير الكافرين » ، ونقلا عن الأبيات الفكاهية التى أوردها فون كريمر لم يكن باستطاعة المرء أن يصبح ظريفاً إلا إذا وصف نفسه بالزندقة ، ونصها :

يا ابن زياد ، أبا جعفر     أظهرت ديناً غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى     باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما     أردت أن توسم بالظرف

وهذه الأحوال تشرح الطابع الخاص الذى انطبعت به الحضارة الجديدة فى العصر العباسى . فعلى حين هى حضارة لسانها العربية ودياناتها الإسلام ، إذا هى تستمد مؤونتها الفكرية من مختلف الحضارات القديمة التى اندمجت

فى الإمبراطورية العالمية التى أقامها الخلفاء المسلمون . وينطبق هذا تمام الانطباق على الفلسفة والعلوم العربية الجديدة التى نشأت فى ذلك العصر ، والتى شاءت لها المقادير أن تؤثر أعظم تأثير فى كافة أركان العصور الوسطى. ولمدة أربعة قرون وزيادة، انتقلت الزعامة الفكرية فى العالم إلى الشعوب الإسلامية، ومن المسلمين استمدت التقاليد العلمية أصولها فى غرب أوربا . ثم إن هذه الحضارة لم تكن خلقاً مبتكراً بقدر ما كانت تطوراً للتقاليد الهللينستية التى اندمجت فى الحضارة الإسلامية ، بفضل جهود رجال مسلمين من أصول آرامية وفارسية ، باستثناء فردى هام — هو الكندى «فيلسوف العرب »—؛ إذ أسهمت بلاد الأطراف الإسلامية فى هذه الحركة التى أثمرت أحسن الثمر ، فأنجبت الفارابى وابن سينا والبيرونى فى آسيا الوسطى ، وابن رشد وابن طفيل فى إسبانيا والمغرب .

وترجع هذه الحركة فى بدايتها إلى فئات المسيحيين المتكلمين بالسريانية فى بابل والصابئة الوثنيين فى حران ، وهم الذين قاموا وسطاء بين الحضارتين اليونانية والإسلامية . وتفصيل ذلك أن المدرسة النسطورية فى جنديسابور قرب المدائن القديمة ( طيسفون ) — وهى متفرعة عن مدرسة نصيبين — ورثت تقاليد العلماء والمترجمين السريانيين الذين عاشوا فى القرن السادس ، وغدت مركزاً لدراسات علمية ولاهوتية .ومن هنا استمد النحويون البصريون شيئاً من المعرفة بالمنطق الأرسطى، هذا فضلا عما اشتهرت به من مدرستها الطبية. ومنذ بناء بغداد شغل منصب طبيب الخليفة نساطرة مسيحيون، وأولئك هم طليعة مترجمى المؤلفات اليونانية إلى العربية . وشمل الخليفة المأمون جهود أولئك العلماء برعايته الرسمية بتأسيس المدرسة والمرصد فى مبنى «بيت الحكمة»

فى بغداد سنة ٨٣٢ ، بإشراف الطبيب النسطورى يحيى بن ماسويه . وبلغت هذه المدرسة أوج عظمتها زمن أحد تلاميذ ابن ماسويه ، وهو حنين بن إسحاق ( ٨٠٩ — ٨٧٧ ) الذى لم يكن أعظم المترجمين السريانيين فحسب ، بل ألف كذلك عدة مؤلفات مبتكرة . [١] وبفضل جهوده الشخصية وجهود مدرسته ، غدا جزء كبير من الإنتاج العلمى اليونانى — بما فى ذلك جالينوس وإقليدس وكثير من أفلاطون وأرسطو وشراح الأفلاطونية الحديثة — فى متناول العالم الإسلامى. وفى أثناء تلك السنوات، تأسست قواعد الرياضيات العربية والفلك، بفضل مؤلفات الخوارزمى والإخوة الثلاثة من أسرة بنى موسى [٢] . وهنا كان الاعتماد على التراث الهلينى أقل درجة ، بسبب المعرفة بالعلوم الهندية التى وصلت إلى بغداد فى الجزء الأخير من القرن الثامن . وشمل الخليفة المأمون برعايته بحوث الخوارزمى الذى استخدم هذه المعرفة الجديدة فى مؤلفاته ، ولا سيما الطريقة العشرية ذات الأهمية العظمى فى الأرقام العددية ، فضلا عن استعمال الصفر . ومن لفظ الخوارزمى اشتق الأوربيون فى العصور الوسطى تسميتهم للنظام العددى الجديد Algorismus أى اللوغاريتم ، كما أخذوا عنه

---

(١) عرفت أوربا حنين بن إسحاق باسم يوآنتيوس ،وكانت مقدمته المشهورة لجالينوس من أوائل الكتب العربية التى ترجمت إلى اللاتينية .

(٢) أولئك هم مؤلفو كتاب « Liber Trium Fratrum » الذى ترجمه جيرارد كريمونا إلى اللاتينية .

والمقصود بالإخوة الثلاثة أبناء موسى بن شاكر ،وكانوا ثلاثة إخوة ألفوا فى الرياضيات ومن أشهر كتبهم كتاب الحيل ( المترجمان )

معرفتهم الأولى بعلم الجبر[١]. غير أن الفلك والرياضيات العربية استندت إلى التراث اليونانى. وهنا كذلك يرجع الفضل فى نقل ذلك التراث إلى العربية إلى جهود المترجمين المسيحيين السريانيين، ولا سيما حنين بن إسحاق وقسطا بن لوقا (الذى اعتنق المسيحية سنة ٨٣٥)، فضلا عن الصابئة أمثال ثابت بن قرة الحرانى (٨٣٥ — ٩٠٠) والبتانى (٨٥٠ — ٩٢٨) وهو الذى عرفه الأوربيون باسم الباتيجنيوس، وكان أعظم الفلكيين فى العالم الإسلامى[٢].

ومن الطبيعى أن يجىء هـذا الاستخدام والإحياء الجديد للتراث الهلينى مقصوراً على ناحية واحدة، لأنه لم يتناول شيئا من الشعر والدراما اليونانية، بل اقتصر التأثير الأدبى اليونانى على النثر. وحتى هذا النثر لم يكن من الطراز الأول فى الأهمية، مع العلم بأنه من السهل أن نرى آثار الخطابة اليونانية فى الأدب العربى فى إنتاج الجاحظ مثلا، الذى يعد أعظم رجال البيان والأدب فى القرن التاسع[٣]. أما من ناحية العلوم والفلسفة فجاء إحياء تراث الحضارة

---

(١) ترجم روبرت تشستر الإنجليزى كتاب الخوارزمى فى علم الجبر إلى اللاتينية سنة ١١٤٥ على حين يحتمل أن يكون زميله اديلارد باث هو الذى ترجم كتاب الخوارزمى فى علم الحساب، وجعل عنوانه Algorismi de numeris Indorum. وكانت الجداول الفلكية المعروفة باسم الجداول الخوارزمية — والمترجمة سنة ١١٢٦ — على جانب كبير من الأهمية فى تاريخ العلم فى العصور الوسطى.

(٢) ترجم أفلاطون التيفولى سنة ١١١٦ كتاب المقدمة الذى ألفه البتانى فى علم الفلك. ومن البتانى كذلك استمد الغرب الأوربى معرفته الأولى بعلم حساب المثلثات.

(٣) أشبهت رسائل الجاحظ مقالات مدارس الخطابة اليونانية القديمة فى استخدام المناظرات والمناقشات الخيالية حول موضوعات مختلفة، مثل موضوع رسالة فخر السودان على البيضان، ورسالة تساجل الخريف والربيع، وذلك لأن كلا من كتاب الخطابة وكتاب الشعر كانا معروفين للعرب.

اليونانية على يد المسلمين تاماً تقريباً ، إذ تعهد المسلمون التراث اليونانى من النقطة التى تركته عندها مدارس أثينا والإسكندرية فى القرن السادس ، كما أخذوا يحاولون تحقيق الهدف الذى عمل من أجله أواخر المفكرين اليونانيين ، وهو التوفيق والمقابلة بين الأرسطوطالية والأفلاطونية الحديثة. ومع أن العناصر الرئيسية فى هـــذه العملية كانت ميسورة بفضل أولئك المفكرين اليونانيين المتأخرين ، فإن العرب عكفوا على هذه العملية بعدهم فى حيوية فكرية ومهارة عقلية جعلت، جهودهم من أكمل البنايات الفاسفية المتناسقة التى شهدها العالم حتى العصر الحاضر . ذلك أن العقل الأوربى الحديث اعتاد أن ينظر إلى الدين والميتافيزيقا والعلوم الطبيعية المتنوعة على أنها حقول من المعرفة لكل منها ذاتية مستقلة بعضها عن بعض . ومن العسير علينا أن نتصور نظاماً يجمع بين الطبيعيات والميتافيزيقا وعلم الكون ونظرية المعرفة كلها فى جهاز واحد ، مع العلم بأن هـذا هو المثال الذى استهدفه الفيلسوف المسلم ، وأن الفيلسوف المسلم نجح نجاحا جعل إحياء التراث اليونانى ينتج عنه لا شذرات مختلفة من العلم ، بل نظام تام من المعرفة دون سبيل إلى فصل جزء منه عن الكل .

على أنه لم يكن ثمة مناص من أن تتعارض هذه الأفكار بما لها من صفة التعميم والاطراد مع عقيدة الإسلام السنية ، لأن البساطة العظيمة التى جاء بها القرآن، والتى تنص على أن واجب الإنسان ليس الجدل فى طبيعة الله بل إطاعة قوانينه وأوامره ، لم تتفق فى شىء مع التزام الاتجاه العقلى الذى حرص عليه الفلاسفة . ثم إن الرأى الهلينى القائل بوجود قانون عالمى كونى مفهوم العقل البشرى لم يترك مجالا لعقيدة الشرقيين فى الذات الإلهية التى تسيطر على العالم

والناس. ذلك أن العقيدة الشرقية أدت نهائيا إلى إنكار مبدأ السببية ، فضلا عن إنكار أى نظام ضرورى لقيام العالم ، على حين أدى الرأى الهلليني إلى مذهب الحتمية العلمية ، الذى ظهر فى صورته الكلاسيكية فى نظرية أرسطو فى العالم . وفى ذلك كتب دوهيم ما نصه « ذهب أرسطو وشراحه المخلصون أمثال الإسكندر الأفروديسى وابن رشد إلى القول بأن الإله عقل قديم غير متحرك، لكنه هو المحرك الأول للمادة الأولى (الهيولى) التى تساوقه فى القدم . وهو كذلك العلة الأولى والعلة الغائية للحركة الصروريه الدائمة التى هى حركة الأفلاك . وذهبوا كذلك إلى القول بأن حركة الأفلاك — بما لها من دورات لا نهائية تتحكم فى مصائر الأحداث التى تقع فى فلك ما تحت القمر — وأن الإنسان فى خضوعه لهذه الحتمية الصارمة المطلقة ، ليس له على الحقيقة حظ من الاختيار ، وليست له نفس باقية ، أو بعبارة أخرى هو كائن يستمد حياته المؤقتة من العقول التى لا يعتريها الفناء ، ولكنه عقل غير متشخص ولا متعين ، بل شائع فى الجنس البشرى كله (١)» .

غير أنه على الرغم من مخالفة هذه النظرية للمسيحية والإسلام معاً، فإنها لم تعدم أنصارا لها فى العالم الإسلامى. ذلك أن عبادة الكواكب التى اشتهرت بها بلاد غرب آسيا ظلت حية التقاليد حتى القرن التاسع الميلادى ، وما برح أتباعها يفاخرون بحضارتهم القديمة ، كما يتضح من جرأة عبارات الطبيب المشهور ثابت بن سنان بن قره الحرانى ، وهى نقلا عن المستشرق الفرنسى كارا

---

(١) انظر Duhem : Le Système du Monde, IV, p. 314 والفضل فى ترجمة هذه الفقرة يرجع إلى الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى .

دى فوه « نحن ورثة الوثنية وسلالتها منذ كانت الوثنية سائدة فى أرجاء العالم . ما أسعد الإنسان الذى يحمل مسئوليته دون ملالة من أجل خاطر الوثنية . من ذا الذى نشر الحضارة فى العالم ، ومدّن المدن فيها ، سوى زعماء الوثنية وملوكها ؟ من ذا الذى أنشأ الموانى وشق القنوات ؟ أولئك هم الوثنيون الأمجاد الذين أقاموا جميع هذه الأشياء ، أو أولئك هم الذين عرفوا فن شفاء الأرواح ، وهم الذين أرشدوا الناس إلى فن علاج الأجسام المريضة ، وملأوا العالم بنظم مدنية وحكمة هى أعظم بستان للخير . ولولا الوثنية لأصبح العالم خاوياً على عروشه منغمساً فى البؤس والفاقة »[١] .

والواقع أن الوثنيين الأقدمين هم الذين وضعوا أسس العلوم التى وصلت إلى العرب ، وكان ورثة أولئك الأقدمين فى الوثنية هم الذين نقلوا تقاليد الحكمة القديمة من غربتها الطويلة بين اليونانيين إلى المدن المقدسة فى أرض بابل ، حيث كانت ينابيع الحكمة الأولى . ويشرح ذلك أن ثابت بن قره كان من أهل مدينة حران ، وهى سليلة مدينة آور القديمة عاصمة الكلدانيين ، وهى كذلك التى ظلت معابدها حافظة واعية للتقاليد المتصلة تمام الاتصال بالماضى السومرى البعيد . ولهذا يستحيل علينا أن نفهم حضارة العصر العباسى دون أن ندرك أنها لم تكن خلقاً إسلامياً فحسب ، بل هى كذلك أقصى مرحلة من عملية التطور الحضارى التى استغرقت أكثر من ثلاثة آلاف من السنين . وفى تلك المدة المديدة قامت إمبراطورية بعد إمبراطورية ، لكن حضارة ما بين النهرين القديمة أكدت سلطانها مرة بعد مرة ، بل فرضت تقاليدها على عقول غزاتها جميعاً .

(١) انظر :

Carra de Vaux: Les Penseurs de l'Islam. II. p.p. 145-146.

ومن المعروف أن تعاليم الإسلام والسنة الخالصة ، واجهت ذلك كله وبذلت أقصى الطاقة للحد من تأثير نقاليد الحكمة القديمة الدخيلة عليه ، لأن خطر الفلسفة الجديدة كان أشد على الإسلام فى العصور الوسطى من الرشدية الأفيروسية — أى مذهب ابن رشد عند الأوربيين — على المسيحيين فى تلك العصور ، ولا سيما أنه لم يوجد بالشرق نظير للقديس توما الأكوينى ليعمل على التوفيق بين التعاليم الأرسطية والأصول اللاهوتية الدينية . ومن المعروف كذلك أن المفكرين المسلمين الأحرار — وهم فئة المعتزلة — حاولوا محاولة جديدة لعدة سنين أن يربطوا بين الأصول التقليدية والتفكير الفلسفى . غير أن هذه الحركة تدين بأصولها إلى تأثير الدراسات اللاهوتية المسيحية لا إلى العلوم اليونانية الوثنية . وكانت محاولة المفكرين — من أمثال النظام — للتوفيق بين آراء المعتزلة والفكر اليونانى القديم هى التى أساءت إلى سمعة الاعتزال فى المجتمع الإسلامى . ثم أدت حركة الرجوع إلى أصول الإسلام سنة ٨٨٣ — زمن الخليفة المتوكل — إلى سقوط المعتزلة الذين تمتعوا سابقاً برعاية الخليفة المأمون وخلفائه المباشرين ، كما أدت إلى اضطهاد الفلاسفة مثل الكندى . ومنذئذ التزم الإسلام طابع المحافظة على القديم ، ورفض أن يلائم بين الإيمان والفلسفة ، وتصدى لجميع اعتراضات العقليين بالقول « بلا كيف » أى التصديق والإيمان بلا سؤال عن كيف كان هذا أو ذاك من المسائل الدينية .

على أن انتصار الفقهاء المسلمين لم يمنع الاتجاه العالمى فى الحضارة الإسلامية ، وهو الاتجاه الذى هدم السيادة العنصرية وحرر القوى الأجنبية ذوات الحركة المركزية الطاردة فى العالم الشرقى . وفى القرن التاسع أخذت جميع هذه القوى الثقافية القديمة تظهر للعيان مرة أخرى — وهى الهلينية والوثنية التى جنح إليها

الفلاسفة ، والعرفانية التى ادعاها الغنوصيون لأنفسهم ، والاشتراكية الثورية التى نادى بها أتباع المزدكية الفارسية القديمة — كما أخذت تهدد الأسس الفكرية الإسلامية التى زعزعتها الانقسامات السياسية الداخلية فى المجتمع الإسلامى .

ذلك أن مسألة الأحقية القانونية بولاية الخلافة ما برحت مصدراً للفتنة والانقسام فى الإسلام منذ القرن السابع ، وما برحت أعداد كبيرة من المسلمين تتشيع لمبدأ أحقية الإمام على رضى الله عنه، لأنه ابن عم النبى عليه الصلاة والسلام وزوج ابنته فاطمة . واعتقد الشيعة أن النبى عليه الصلاة والسلام عين علياً عند غدير خم فى آخر سنة من حياته ليكون وصيه وخليفته من بعده ، وأن جميع الخلفاء الذين لا ينتسبون إلى بيت الرسول أدعياء عندهم ، وليس لهم حق شرعى فى ولاء المسلمين . وهذا هو أصل شيعة على ، وهم الذين يبلغ عددهم سبعين مليوناً فى إيران والهند والعراق ، ولا يعترفون بالخلافة الحقيقية إلا لسلالة على ، أى الأئمة الاثنى عشر . ولقى هذا المذهب الشيعى تأييداً كبيراً بين أبناء البلاد التى فتحها المسلمون الأولون من العرب، وهى البلاد التى جاءت إلى الإسلام بقديم العقيدة الشرقية القائلة بقدسية الملكية وحقوقها الثابتة على وجه الأرض ، أى نظرية الحق الإلهى للملوك ، مقابل نظرية استمداد السلطان من الجماعة ، وهى نظرية الإسلام والسنة . ثم إن هذه الفكرة امتزجت قديما بتقاليد و نظريات و معتقدات ذوات صفات استشراقية ، مثل نظرية الغنوصية أو المانوية القائلة بحلول الأيونات أو الغنوصيات الإلهية فى صورة بشرية ، و نظرية الإيرانيين فى ظهور ملاك مخاص ، أى ساوشيانت . وبتأثير هذه

النظريات غدت شخصية الإمام على رضى الله عنه محوطة بهالة من الانفعالات الوجدانية، وتحولت إلى شخصية بطل تحدوه جميع صفات البطولة ، بحيث صار عند الشيعة أعظم البشرية قدسة وحكمة، ونوراً من نور الله. وهكذا غدا بيت الإمام على موضع ولاء مطلق ، جمع بين ولاء الملكيين المشهورين باسم اليعاقبة فى التاريخ الإنجليزى الحديث وعميق إيمان المتوغل فى الدين .

ومع هـذا كان تاريخ الشيعة سلسلة متصلة من الحظ العاثر ، إذ كانت كل محاولة للمناداة بحقوقهم أملا ضائعاً ختامه كارثة ، بل إنهم وقعوا فريسة السم والاغتيال حين كانوا يعيشون بعيدين عن الحياة العامة . وجعل العباسيون منهم مخالب القط لهدم الدولة الأموية ، ثم لم يلبثوا أن ألقوا بهم جانباً فى ساعة النصر . ثم حدث سنة ٨٧٣ م أن اختفى الإمام الثانى عشر من سلالة على بن أبى طالب عن الأنظار — وهو محمد بن الحسن العسكرى — وكان غلاما فى العاشرة من عمره ، والخليفة المعتمد العباسى يريد قتله .

على أن ذلك الحادث لم يخمد آمال الشيعة ، إذ رفضوا الاعتقاد بأن الإمام الاثنى عشر مات فعلا، لأن الدنيا بلا إمام لا تستطيع عندهم البقاء طرفة عين.(١) ولذا قالوا بأن الإمام لم يمت ، بل اختفى ولا يزال يهيمن على شئون الدنيا ويدير أمور المؤمنين، حتى يحل اليوم الذى يرجع فيه مظفرا ليعيد دولة الإسلام ويملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا . وهكذا صار الإمام الذى اختفى منذ أكثر

---

(١) يقول الشيعة فى هذا الصدد « إن الأرض لن تخلو قط من إمام حى قاهر ، إما ظاهر مكشوف ، وإما باطن مستور » .

انظر كتاب فرق الشيعة لأبى حسن على النوبختى وكذلك خطط المقريزى ، ج١ ، ص ٣٩١ طبعة بولاق
( المترجان )

من ألف سنة على تلك الصورة من أشهر الشخصيات فى تاريخ العالم ، إذ هو المهدى فى نظر أكثر من سبعين مليونا من البشر فى العصر الحاضر ، وهو صاحب الزمان ، الإمام الشرعى ، الحجة ، المنتظر ، وهو كذلك رحمة الله . ومنذ القرن السادس عشر تولى ملوك فارس شئون الحكم على أساس أنهم نواب الإمام المنتظر وأتباعه ، واعتادوا من باب الرمز لتبعيتهم له أن يجعلوا لديهم فرسا مسرجا ملجما ، على استعداد لعودته المنتظرة .

ومع أن هذه هى عقيدة الغالبية العظمى من الشيعة فإنها على أية حال لم تكن العقيدة الوحيدة فى محيط الحركات الشيعية ، بل ظهر مطالبون عديدون يطالبون بالأحقية فى الخلافة بعد على . وترجع أصول كثير من الأسر الحاكمة فى التاريخ الإسلامى إلى هذه الحركات ، ومنها أسرة الأدارسة فى المغرب ، وأسرة الأئمة الزيدية فى اليمن قبل قيام الجمهورية بها . على أن أعظم هذه الحركات جميعا وأعمقها أثرا فى العالم الإسلامى هى حركة الإسماعيلية أو الإمامية السبعية ، التى ارتكزت عقيدتها إلى أحقية سلالة الإمام السابع من سلالة على بن أبى طالب فى الخلافة ، وهو جعفر الصادق .

ويبدو أن مؤسس هذه الفرقة – وهو عبد الله بن ميمون – فكر فى مشروع لحشد كل القوى الفكرية والاجتماعية الساخطة فى حركة سرية ضخمة ضد الخلافة العباسية وأهل السنة . ونستدل على مبادئ هذه الفرقة وأساليب دعايتها من أقوال خصومها . غير أنه من الواضح أن هذه الحركة كانت فى جوهرها توفيقية ، وأنها وحدت بين أفكار فلاسفة الأفلاطونية الحديثة وتقاليد الغنوصية التى حفظها أتباع المانوية ومن دونهم من الفرق ، أمثال المنداويين

والديصنية . وقال الإسماعيلية قول الغنوصية إن تطور السكون من الألوهية المجهولة البعيدة عن الإدراك . عن طريق فيوضات متعاقبة ، وهذه يبلغ عددها سبعا ، وهى تقابل سبعة الدهور فى العملية الزمنية التى يتجلى العقل العالمى فى كل منها مرة جديدة فى صورة بشرية . وهذه المجالى السبعة هى سبعة الناطقين ، وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ثم محمد بن اسماعيل صاحب الزمان. ويقابل هؤلاء سبعة مجالى من النفس الكلية — وهم الأوصياء — ووظيفتهم أن يكشفوا للمختارين من البشر عن الأسرار الباطنية فى تعاليم الأنبياء أو الناطقين . وعلى هذا جاء هارون وصيا لموسى ، وبطرس وصيا لعيسى وعلى وصيا لمحمد ، على قولهم .

وهذه الكشوف الإلهية التى تعاقبتها الديانات العالمية المختلفة اجتمعت كلها وتحققت فى التعليم الإسماعيلى الذى ارتفعت عنه جميع الحجب . غير أن هذا « التعليم » الإسماعيلى فى جوهره باطنى ، ولم ينتقل كلياً إلا لأولئك الذين اجتازوا سبعة المقامات التدريجية التى تكونت منها مراتب الدعاة الإسماعيليين. ولم يصل هذا « التعليم » للمريد أو الصاحب إلا بعد أن يهب نفسه وروحه للإمام ونائبه — وهو الداعى — وعندئذ يتحرر المريد من جميع المذاهب الوضعية ومن جميع القوانين الدينية والخلقية ، لأنه أضحى عليما بالمعنى الباطن المستتر وراء حجب العقائد والطقوس فى جميع الديانات الوضعية . ذلك أن الديانات عامة تتساوى فى كونها حقا وكونها باطلا عند « الغنوصى » ؛ ويشبهه فى ذلك إلى حد ما الإسماعيلى المعلم الذى يدرك دون سواه السر الأعلى فى الوحدانية الإلهية . وهو أن الله واحد أحد لأن الله هو الكل ، وأن أى شكل من أشكال الحقيقة ليس إلا مظهراً للذات الإلهية .

على أن هذه الثيوزوفية الباطنية ليست سوى ناحية واحدة من نواحى الحركة الإسماعيلية ، لأن هذه الحركة تضمنت كذلك جنوحاً اجتماعياً ثورياً ، يشبه شيئاً من الجنوح الذى أثار قبلا حركة مزدك فى القرن السابع وحركة بابك الخرمى الشهير زعيم طائفة المحمرة فى القرن التاسع . غير أن الحركة الإسماعيلية لم يتزعمها جهلاء متعصبون من أمثال بابك والمقنع « نبى خراسان » بل تزعمتها عقول حاذقة بعيدة النظر ، وأدار أصحاب هذه العقول الماهرة — وهم رؤساء الدعوة الإسماعيلية — من مركزهم السرى ببلدة سلمية الصغيرة فى سوريا (١) جهازاً تنظيمياً ضخما ، كما أنفذوا مبعوثيهم إلى جميع الجهات .

وفى أثناء الحقبة الأخيرة من القرن التاسع ، انتشرت هذه الحركة انتشاراً واسعاً بعيداً فى أرجاء العالم الإسلامى ، وأسس فرع من فروعها — وهم القرامطة — دولة شبه شيوعية فى البحرين على الشاطئ العربى للخليج الفارسى. وأشاعت هذه الدولة الإرهابية حكماً إرهابياً فى أنحاء بلاد العرب كلها خلال القرن العاشر ، ونهب رجالها مدينة البصرة سنة ٩٢٤ ، ومدينة الكوفة سنة ٩٣٠ . وأخيراً أفزعوا العالم الإسلامى بالاستيلاء على مكة نفسها ، فضلا عن ذبح أهلها ، ثم الجلاء عنها محملين بغنائم هائلة ومنها الحجر الأسود ذاته .

وفى تلك الأثناء اكتشفت السلطات الحاكمة المركز السرى للدعوة الإسماعيلية فى سلمية، فنقل داعى الدعاة نشاطه سنه ٩٠٧ إلى تونس حيث أعلن نفسه أنه المهدى المنتظر ، وأسس الخلافة الفاطمية التى شملت تدريجياً شمال إفريقية كلها. وبعد استيلاء الفاطميين على مصر سنة ٩٦٧ وانتقالهم إلى عاصمتهم

---

(١) هى بلدة سلمية قرب حمص الحالية .

الجديدة وهى القــاهرة ، غدت الدولة الفاطمية أغنى وأقوى دولة فى العـــالم الإسلامى ، فامتد سلطانها إلى الشام وصقلية ، وصار لها أتباع ووكلاء يعملون خفية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . واتصف الخليفة الأول والثانى من الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر . وهما المعز ( ٩٥٣ — ٩٧٥ ) والعـــزيز ( ٩٧٦ — ٩٩٦ ) بسداد الرأى وبعد النظر ، وفى عهدهما صارت مصر أعظم بلاد الشرق رخاءا . على أن أوسع خلفاء هذه الأسرة شهرة هو الحـاكم بأمر الله ، وهو الخليفة الغريب الأطوار ( ٩٩٠ — ١٠٢١ ) الذى جمع فى شخصه صفتى الفظ القاسى والمستنير المحب للعلم والعلماء. وعلى الرغم من أعماله الوحشية أيد الحاكم تعاليم غلاة الإسماعيلية تأييدا تاما ، بالقياس إلى غيره من أعضاء أسرته ، ولم يلبث أن أعلن ألوهيته ، فقدم له أتباعه فروض الطاعة . وما زال الدروز بجبل لبنان يقدسونه حتى العصر الحاضر ، على أنه هو الحلول الأعظم للعقل الإلهى والخاتمة النهائية للوحى .

وبعد عهــد الحاكم بأمر الله، غلب سوء الحــكم والاضمحلال على الدولة الفاطمية، ومع هذا لم تبلغ الهيبة الخارجية لهذه الدولة من العلو مناما بلغت زمن الخليفة المستنصر الضعيف ( ١٠٣٠ — ١٠٩٤ ) ، وهو الخليفة الذى اعترفت بخلافته مكة والمدينة ثم بغداد عاصمة الخلافة العباسية نفسها لعدة سنين . ويتضح مدى ما أثارته الدولة الفاطمية من محبة فى قلوب كثير من الشيعة فى قصيدة للشاعر الفارسى الــكبير ناصرى خسرو ، وهو الذى عاش متجشما المتاعب والمشاق فى خدمة الفاطميين ، ومنها ما ترجمته بالعربية :

« لقــد أعفانى الله من كل ما تمــس إليه الحــاجة والضرورة

وجعلنى فى غنى عن كل شىء فى أثناء اجتيازى لهذه الحياة القصيرة ..!

وشكراً لله . . . . إنه هداني إلى طريق العلم والدين
وفتح لي على مصاريعها . . . أبواب الرحمة واليقين . . . ! !
وجعلني أشهر من الشمس في أوج السماء
لأنني عرفت بحبي لآل الرسول والأئمة الأصفياء . . . ! ! » (١)

ولم يكن الحسن الصباح الشهير أقل من ذلك محبة للفاطميين، وهو الذي استولى على قلعة ألموت الجبلية في إيران سنة ١٠٩٠، ونظم الدعوة الجديدة للاغتيال المدبر باسم نزار أكبر أبناء الخليفة المستنصر. وبلغ هذا الفرع من الإسماعيلية من قبح السمعة مبلغاً كبيراً، بسبب ما نشره شيخ الجبل ورجاله الفدائيون بالشام من إرهاب زمن الحروب الصليبية . وبقي هذا الفرع حياً حتى بعد ذهاب الفرع الفاطمي الأساسي ، وما زال حياً حتى العصر الحاضر في طائفة الخوجة التي يتزعمها سليل من أبناء آخر شيوخ ألموت والدولة الفاطمية نفسها .

وفي أثناء تلك الحوادث الكبيرة سرت عوامل الانحلال السياسي في جسم الخلافة العباسية ، إذ ازداد اعتماد الخلفاء منذ منتصف القرن التاسع فصاعداً على حرسهم التركي الخاص من الرقيق والجند المرتزقة ، على حين

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة من كتاب تاريخ الأدب في إيران ، ص ٢٨٩ ، وهو الكتاب الذي قام بترجمته إلى اللغة العربية زميلنا المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم الشواربي . وهذه كلمة اعتراف بالجميل للزميل الراحل .

انظر كذلك الأصل الإنجليزي : Browne . Lit. Hist. of Persia. II, p.235.

( حاشية للمترجمين )

أخذت ولايات الأطراف الإسلامية تعلن استقلالها تحت حكم دول محلية ، فاستقل الأندلس تحت راية سليل من بنى أمية منذ سنة ٧٥٥ ، وسرت هذه العملية رويداً رويدا فى كل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية ، حتى فقدت الخلافة كل السلطان الفعلى ، ولم يبق لها سوى نوع من السيطرة الدينية على اعتبار أنها تمثل الوحدة الإسلامية السنية . ثم إن هذه السيطرة الاسمية تعرضت هى الأخرى للخطر فى القرن العاشر بسبب نمو الشيعة الذين غدت منهم أعظم الدول الشرقية أهمية ، أى السامانيين الذين حكموا خراسان — وكذلك تركستان الحالية — من عاصمتهم بخارى ، ثم الزيديين والزياريين بأقاليم بحر الخزر ( بحر قزوين ) ، ثم البويهيين بفارس الغربية والموصل . وفى سنة ٩٤٥ أقام البويهيون أنفسهم سادة فى بغداد ، وغدا الخلفاء العباسيون بذلك ألعوبة فى أيدى أسرة شيعية فارسية لأكثر من قرن من الزمان . وشهد ذلك القرن لا تأسيس الخلافة الفاطمية فى شمال إفريقية فحسب ، بل قيام خلافة ثالثة فى إسبانيا ، وهى الخلافة التى أسسها عبد الرحمن الثالث أعظم الأمويين فى الأندلس سنة ٩٢٩ فى قرطبة .

غير أن ذهاب الوحدة السياسية فى العالم لم يؤثر فى سير الحضارة الإسلامية، بل وافق عصر اضمحلال الخلافة العباسية العصر الذهبى فى الآداب والعلوم. ذلك لأن قيام الدول الجديدة شجع على تنشئة مراكز حضارية محلية ، فشهد القرن العاشر بداية النهضة الفارسية فى بلاط السامانيين بمدينة بخارى ، كما شهد نشأة الحضارة العربية الإسبانية الجديدة فى الغرب ؛ وذلك على حين غدا بلاط الحمدانيين فى حلب مركزا لحضارة عربية أكثر روعة وبهاءا بالشام .

وبعبارة أخرى فإن الفلسفة والعلوم التى عطلتها الحركة الرجعية فى الخلافة

العباسية منذ خلافة المتوكل فصاعداً ، ازدهرت بفضل التشجيع السخى من ناحية الملوك الشيعة . وهذا العصر هو عصر الفارابى « ت ٩٥٠ » وابن سينا (٩٨٠—١٠٣٧) أعظم الفلاسفة الشرقيين، والرازى الطبيب (٨٦٥—٩٢٥) ، والبيرونى الفلكى المؤرخ (٩٧٣ — ١٠٤٨) ، وهو الذى تعد مؤلفاته فى الحضارة الهندية وأخبار الأمم القديمة أعظم الأعمال العلمية فى ذلك العصر . ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن هذا الإحياء الإسلامى للفكر الهللينستى فى العصور الوسطى كان مركزه مملكة بختريا اليونانية القديمة ، وكان جميع العلماء الذين تقدمت الإشارة اليهم — باستثناء الرازى — من أبناء الإقليم الواقع حول نهر جيحون،وهو الإقليم الذى توجد به بخارى وخوى وسمرقند . وفى هذا الإقليم كذلك أنتج الاتصال بين تعاليم الأفلاطونية الحديثة وتعاليم الدين الإسلامى الحنيف ثمراته فى أشخاص عظماء الشعراء الإيرانيين أواخر العصور الوسطى ، وهما جلال الدين الرومى وأصله من بلخ ، وجامى وأصله من هرات .

والواقع أن القرنين العاشر والحادى عشر كانا قبل كل شىء عصر العالمية فى الإسلام ، حين أدى التنافس بين الدول المحلية فى رعاية الأدب والعلم، فضلا عن الإكثار من المدارس والمكتبات ونشاط التجارة ونشأة الطرق الصوفية ، كل ذلك أدى إلى التبادل الفكرى والتنوع مع الوحدة فى الحضارة الإسلامية . وهكذا تنقل العلماء ورجال الأدب فى جميع أرجاء العالم الشرقى ، مثل البيرونى الذى كان أول ناهض بدراسة ديانة الهند وحضارتها ، والمسعودى الذى حمله ظمؤه إلى المعرفة إلى السفر من بحر الخزر ( قزوين ) إلى زنزبار ، ومن جزيرة سيلان إلى البحر المتوسط .

ونستطيع إدراك الطابع الموسوعى فى حضارة ذلك العصر ، لا من عظيم

كتب تاريخ العالم التى ألفها الطبرى (٨٣٨ — ٩٢٣) والمسعودى (ت ٩٥٦) فحسب ، بل مما هو أعظم من كل ذلك ، أى كتاب الفهرست لابن النديم (ت ٩٥٥) ، وهو الكتاب الذى وصفه مؤلفه بأنه « فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ، ومبلغ أعمارهم وتواريخ وفاتهم ، وأماكن بلدانهم ومنافبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وسبعمائة للهجرة» . وهذا دليل واقع ، لا على الثروة التى ذخرت بها الحضارة العربية فى أوج عزها فحسب ، بل على الجدب والتدهور الذى أصابها بعد ذلك لعدة قرون .

وأعظم من ذلك كله أهمية من الناحية التاريخية ، مجموعة موسوعية تتألف من نحو خمسين رسالة فى الفلسفة والعلوم ، وهى المعروفة باسم رسائل إخوان الصفا ، وكان تأليفها فى البصرة أواخر القرن العاشر . ومنبع أهميتها العظمى فيما يبدو أنها تشرح التعاليم الباطنية بين المراتب العليا فى هيئة الدعاة الإسماعيلية، وهى التعاليم المعروفة لنا من أقوال خصومهم لا من هذه الرسائل نفسها .

ومع أن هذه الرسائل تقل كثيراً من الوجهة العلمية عن مستوى مؤلفات ابن سينا وغيره من كبار الفلاسفة المسلمين، فإنها تكشف عن امتزاج أكمل بين الفكر الهلاينستى ومختلف الديانات الشرقية . ومثال ذلك قول إخوان الصفا نقلا عن تعاليمهم « إن جميع الأشياء مردها إلى فعل النفس الكلية التى تؤثر تأثيرها فى كل المخلوقات الأرضية عن طريق الأفلاك السماوية. وهذا التأثير يسميه الفلاسفة والأطباء طبيعة الكون والفساد ، ويسميه الناموس

ملاكاً من الملائكة ، وهى نفس واحدة ، ولها قوى كثيرة منبثة فى جميع أقسام الحيوان والنبات والمعادن والأركان الأربعة من لدن فلك القمر إلى منتهى مركز الأرض[١] » . ومن أقوال إخوان الصفا كذلك مانصه : « وأن ما نسيمه النفس الفردية ليس فى الواقع إلا قوة النفس الكلية التى تشيع فى الفرد وتوجهه . وعلى هذا فالبعث الفردى الذى يتحدث عنه الفقهاء ليس إلا انقطاع الصلة المؤقتة بين النفس الكلية وجسد مادى ، وبعبارة أخرى موت هذا الجسد . وعلى هذه الوتيرة يكون البعث العام فى الدار الآخرة انقطاع الصلة بين النفس الكلية والعالم المادى كله ؛ أى انتهاء العالم » وأضافت رسائل إخوان الصفا إلى هذه المعتقدات اعتقاداً فى حركة دورية للعالم المادى، بحيث يدور العالم المادى سابحاً فى دورة تبعاً لدورة السماوات ، ثم يعود العالم المادى بعد ست وثلاثين ألف سنة إلى النقطة التى بدأ منها . وليس لأهل الحكمة على وجه التعميم فى ذلك عودة ، ما عدا إخوان الصفا الذين تقع على كواهلهم هداية الناس وإرشادهم إلى حسن المنتهى ، أى إلى « سفينة النجاة». ويوضح ذلك بعض التوضيح ماجاء فيها ونصه «اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنا نحن جماعة إخوان الصفا ، أصفياء وأصدقاء كرام، كنا نياماً فى كهف أبينا آدم مدة من الزمان ، تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان ، حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرق فى البلاد فى مملكة صاحب الناموس الأكبر ، وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة فى الهواء التى ذكرناها

---

(١) هذا النص منقول مباشرة كما ينبغى من مصدره الأصلى وهو : رسائل إخوان الصفا ، الرسالة الأولى من النفسانيات والعقليات (ج٣ ص١٩٣ ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٤٨هـ) وهذه القاعدة العلمية السليمة هى الواجبة الاتباع دائماً فى جميع النصوص السابقة واللاحقة فى هذا الكتاب وغيره من الكتب المترجمة إلى اللغة العربية ، ما دام من الميسور أو المستطاع (تطبيقها المترجمان) .

فى الرسالة الثانية ، وهى التى أخرج منها أبونا آدم وزوجته حواء وذريتهما لما خدعهما عدوهما اللعين وهو إبليس . . . »[1] وتستشهد هذه الرسالة بعد ذلك بعبارة فيثاغورس فى بقاء النفوس وصلاح حالها بعد مفارقة الجسد ، وهى العبارة التى ذكرها فى وصيته للفيلسوف ديوجينيس والتى جاء فيها « فإنك عند ذلك إذا فارقت هذا البدن حتى تصير بخلى فى الجو تكون حينئذ سائحاً سالماً ساكناً ، غير عائد إلى الأنسية ولا قابلا للموت »[2] .

وانتشرت هذه الآراء انتشاراً واسعاً فى العالم الإسلامى فى القرنين العاشر والحادى عشر ، حتى شكلت الأسس الباطنية أو الدينية فى الدوائر الثقافية العليا فى الفلسفة والعلوم . وتتضح هذه الآراء فى « رسالة فى معرفة النفس » لابن سينا ، وفى ديوان ناصرى خسرو ، بل توجد آثار من هذه الآراء فى مؤلفات الشاعر أبى العلاء المعرى ( ٩٧٣ — ١٠٥٧ ) الذى جمع بين الآراء الفيثاغورسية والجبرية العلمية التى قال بها إخوان الصفا ، وبين عميق التشاؤم والتشكك مما لا يوجد له نظير فى الآداب العربية .

وفى إسبانيا الإسلامية دلت مدرسة المتصوف القرطبى ابن مسرة ( ٨٨٣ — ٩٣١ ) على اتجاه فكرى مشابه ، وذلك على حين وصلت رسائل إخوان الصفا نفسها مبكرة إلى إسبانيا على يد الرحالة الفلكى الإسبانى مسلمة المجريطى ( ت ١٠٠٤ ) ، والكرمانى السرقسطى ، وبفضلهما كان لرسائل إخوان الصفا تأثير كبير فى الفكر الإسبانى فى العصور الوسطى .

---

(١) رسائل إخوان الصفا : الرسالة الثالثة من العلوم الناموسية والشرعية ، الجزء الرابع ، ص ٨٥ . ( المترجمان )

(٢) نفس المرجع والجزء ، ص ١٠٠ — ١٠١ . ( المترجمان )

على أن هذه الحضارة اللامعة المعقدة اشتملت — فيما اشتملت ـ على بذور اضمحلالها ، لأن مظاهر الترف والتشكك فيها لم تتفق مع روح الصرامة البيوريتانية المجاهدة التى كانت مصدر قوة المسلمين الأولين ، ولأن اتجاهاتها المركزية الطاردة ( الانفصالية ) أضعفت كتلة الوحدة السياسية فى الإسلام . ثم إن زعماء الحضارة الإسلامية ، وهم العرب والفرس ، نزلوا عن سلطانهم لأجناس أقل حضارة وأكثر قوة عضلية ، ومنهم الأتراك الذين أسسوا الدولة الغزنوية فى أفغانستان أواخر القرن العاشر ، والدولة السلجوقية العظمى فى فارس وآسيا الصغرى فى القرن التالى . على أن ذلك لم يكن كله كارثة ، لأن الأجناس البشرية الجديدة خلقت نشاطاً جديداً فى قوى الإسلام ، وحركت موجة جديدة من الفتوح التى امتدت شرقاً إلى شمال الهند ، وغرباً إلى جوف آسيا الصغرى . ولكن هذا التوسع الخارجى صحبه انحطاط وضيق فى أفق الحضارة الإسلامية ، لأن الاستبداد الشديد الذى اتصف به الحكام حديثو العهد بالحضارة الإسلامية — مثل محمود الغزنوى عدو الأوثان والأصنام — لم تتفق مع الحرية الفكرية والعالمية الثقافية التى اتصف بها العلماء الفرس السالفون ، أمثال ابن سينا والبيرونى . وهكذا أعقبت سيطرة الأجناس التركية فى الإسلام غلبة السنية الإسلامية الأولى على الآراء الشيعية . ومع أن الحضارة الفارسية ظلت مزدهرة لعدة سنين زمن سلاطين السلاجقة ، بفضل السياسة المستنيرة التى سار عليها وزراؤهم الفرس أمثال الوزير الشهير نظام الملك ( ١٠١٧ — ١٠٩٢ ) مؤسس المدرسة النظامية ببغداد وصديق الشاعر الفلكى عمر الخيام ، فإن مرحلة الابتكار والتجديد فى الحياة الفكرية الشرقية باتت فى حكم المنتهية . وشذ عن ذلك أقصى الغرب الإسلامى — أى إسبانيا والمغرب — حيث نعمت الفلسفة والعلوم الإسلامية بسنوات معدودة من الازدهار والانتشار .

على أن الحضارة الإسلامية احتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطى فصاعداً ـ لا فى الشرق فحسب ـ بل كذلك فى غرب أوربا . ففى السنوات التى بدت المسيحية فيها موشكة على السقوط أمام غزوات المسلمين والفيكنج والمجريين فى وقت واحد ، كانت الحضارة الإسلامية فى غرب البحر المتوسط تدخل أسطع مرحلة من مراحل نموها ، وذلك لأن الجزء الجنوبى من إسبانيا أضحى تحت حكم الخلفاء الأمويين فى قرطبة فى القرن العاشر،وهى أغنى أقاليم غرب أوربا وأكثرها سكاناً ، وشابهت مدنها الكثيرة ـ بما فيها من قصور ومدارس وحمامات عامة — مدن الإمبراطورية الرومانية ، لا المجموعات الخشبية التعيسة التى خالت نفسها مدناً، فى فرنسا وألمانيا،ونمت فى حماية دير من الأديرة أو معقل من المعاقل الإقطاعية . وكانت مدينة قرطبة نفسها أكبر مدينة فى أوربا بعد القسطنطينية ، ويقال إنها احتوت على مائتى ألف منزل وسبعمائة حمام عام ، ومصانع بلغ عدد الصناع فيها ثلاثة عشر ألف نساج ، فضلا عن صناع الأسلحة والجلود الذين ذاعت شهرتهم فى جميع أنحاء العالم المتحضر . ولم تكن الحياة الثقافية فى إسبانيا أقل تقدماً ، إذ نافس الخلفاء المسلمون وولاتهم بعضهم بعضاً فى رعاية العلماء والشعراء والموسيقيين . ويقال إن مكتبة الخليفة الأموى فى قرطبة احتوت على أربعمائة ألف مخطوط .

ودرج الأوربيون عامة على اعتبار الحضارة الأوربية فى جوهرها غربية الأصول ، وغدا من العسير عليهم أن يدركوا أن عصراً من العصور الماضية كان فيه أعظم أقاليم غرب أوربا تحضراً ، إقليم حضارته إسلامية عربية ، وكان البحر المتوسط — وهو مهد الحضارة الأوربية — بحراً عربياً أو يكاد . والواقع أنه ليس من الدقة التاريخية أن نربط المسيحية بالغرب والإسلام بالشرق فى عصر

ظلت آسيا الصغرى أرضاً مسيحية ، على حين كانت إسبانيا والبرتغال وصقلية في مجموعها الكلي مراكز لحضارة إسلامية زاهرة . وهذا هو ما كان عليه الحال في القرن العاشر ، وهو ما أثر أبعد تأثير في تطور العالم في العصور الوسطى . إذ نمت الحضارة الغربية في ظلال الحضارة الإسلامية العربية التي هي أكثر منها رقياً وقتذاك ؛ وكانت الحضارة الإسلامية العربية — لا البيزنطية — هي التي ساعدت العالم المسيحي في العصور الوسطى على استرداد نصيبه من التراث اليوناني العلمي والفلسفي . وظل الحال على ذلك المنوال حتى القرن الثالث عشر ، أي بعد عصر الحروب الصليبية وكوارث الغزوات المغولية ، حين بدأت حضارة العالم المسيحي الغربي تصل إلى مكانة مساوية نسبياً لحضارة الإسلام . ومع هذا بقيت حضارة الغرب المسيحي حتى وقتذاك مشربة بتأثيرات شرقية ، ولم تبلغ مرتبة الزعامة في المضمار الحضاري إلا خلال القرن الخامس عشر والنهضة الأوربية الكبرى وعظيم التوسع البحري الذي أحرزته الدول الغربية ، وهي الزعامة التي تتراءى للأوربيين في العصر الحاضر كأنها من قوانين الطبيعة .

# الفصل العاشر

## النهضة البيزنطية وإحياء الإمبراطورية الرومانية الشرقية

لم تكن الحضارة البيزنطية راكدة أو متدهورة حين كان العالم الإسلامى ينشئ الحضارة الباهرة التى انبثقت فى ربوع الشرق خلال القرنين التاسع والعاشر . ومع أن احتمالا حقيقياً منبئا بأن الإمبراطورية البيزنطية ربما تنهار أمام القوى الظافرة فى النهضة الشرقية الإسلامية، فإن تقاليد هذه الإمبراطورية فى التنظيم السياسى والتنسيق الحضارى فضلا عن متانة أسسها الدينية الأرثوذكسية ، كل ذلك ساعدها على التغلب على هذه الأزمة فى تاريخها الطويل. واستطاعت الإمبراطورية البيزنطية تدريجا - وعلى مر السنين - أن تستعيد المكانة التى فقدتها فى القرن السابع ، وبذا صارت مرة أخرى القوة الحربية والاقتصادية الأولى فى شرق البحر المتوسط .

غير أن الإمبراطورية البيزنطية فى القرنين التاسع والعاشر بدت من عدة وجوه إمبراطورية جديدة ، لأن حضارتها وتنظيمها السياسى والاجتماعى صهرته الأزمات التى مرت بها ، فزالت مثلا هيئة البيروقراطية التى أسسها دقلديانوس وقسطنطين ، وزال معها — فى القرن الذى أعقب عهد جستنيان — كثير من سالف التقاليد الحضارية القديمة. وفى خلال القرنين التاسع والعاشر

بالذات — لا فى عصر الغزوات الجرمانية الأولى أو فى عصر الفتوح التركية العثمانية — ضاع كثير من التراث الثقافى الذى خلفه العالم القديم ، بدليل أنه على حين ظل أهل عصر جستنيان حافظين لكثير من التقاليد الفكرية السكندرية اليونانية، لم يعرف أهل القرنين التاسع والعاشر من الأدب اليونانى الكلاسيكى أكثر مما نعرف نحن فى العصر الحاضر ، باستثناء بعض المؤرخين ومؤلفى الموسوعات من البيزنطيين . ويرجع بعض السبب فى ذلك إلى ذهاب الإسكندرية والمدن الساحلية الهامة –مثل غزة– إلى المسلمين، وهى المدن التى كانت المراكز الرئيسية للدراسات الكلاسيكية . لكن السبب الأساسى لهذا التغيير هو انطباع الحضارة البيزنطية بطابع شرقى ، وهو ما سبق شرحه هنا . وبلغت هذه العملية ذروتها فى القرن السابع ، حين اجتاح العرب الأقاليم الشرقية والجنوبية من الإمبراطورية البيزنطية، واجتاح البلغار والسلاف أقاليم البلقان ، وغدت الإمبراطورية بعد إعادة تنظيمها فى القرن الثامن دولة أسيوية معتمدة كل الاعتماد على جنود كل من الأناضول والأقاليم الأرمينية وفلاحيها. واختفى التنظيم الإقليمى الإدارى القديم ، وحلت محله وحدات عسكرية جديدة — هى البنود أو الألوية — التى جمع حكامها العسكريون بين السلطتين المدنية والحربية . وفى زمن الأباطرة العسكريين الأيسوريين والأرمن — لاسيما ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤٠ م) وقسطنطين الخامس ( ٧٤٠ — ٧٧٥ م ) وليو الأرمنى ( ٨١٣ — ٨٢٠ م ) — سيطرت السلطات العسكرية والعناصر الشرقية على الحضارة البيزنطية سيطرة تامة ، وتلاشت تقاليد العلم والهللينية التى تعلقت بها الهيئات المدنية القديمة ، وصارت الكنيسة — كما صارت فى الغرب — الموئل الرئيسى للثقافة الأدبية .

وتراءت هـذه الاتجاهـات نفسها واضحة كذلك فى الحياة الدينيـة فى الإمبراطورية ، إذ ترتب على ذهاب الأقاليم الشرقيـة للمسلمين أن تخلصت الإمبراطورية من نضالها الطويل ضد المنوفيزيتيين ، وأضحت منذئذ ـ أكثر من أى وقت مضى — دولة كنسية موحدة ، لا فرق فيها تقريباً بين النواحى المدنية والدينية . غير أن تعارضا كامنا مستمراً بين العناصر الشرقية والهللينية فى الحياة الدينية ظل باقيا فى الإمبراطورية ، ولذا ترتب على قيام الأسرة الأيسورية الشرقية الجديدة فى الإمبراطورية بفرض سياستها اللاأيقونية على الكنيسة البيزنطية ، صراع مرير بعيد المدى . ويبدو هذا الصراع فى نظر المؤرخـين الغربيين ـ وهو المعروف باسم المسألة اللاأيقونية ـ صراعاً لا معنى له حول توافه كنسية أقل أهمية من الهرطقات التى سبقتها حول ذات المسيح وطبيعته ، كما يبدو من السخف أن يكون لهذه المسألة من القوة مايستطيع أن يزعزع أعماق المجتمع البيزنطى . غير أن ظاهر هذه المسألة أخفى تحته نفس التعارض العميق بين الحضارتين والتقليدين الروحيين اللذين سبق لنا شرحهما عند الكلام عن الحركة المونوفيزيتية ، بل الواقع أن الخلاف حول عبادة الصور — وهو ما سميت به المسألة اللاأيقونية ـ اختلطت به قواعد أكثر جوهرية مما اختلطت به المسائل السابقة من قواعد ، لأن هذا الخلاف انطوى ، لا على مذاهب صريحة لمدرسة لاهوتية ، بل على روح غامضة غير واضحة من طائفية شرقية نبذت جميع مقومات القواعد الدينية الهللينية .

ويشرح ذلك أنه منذ أيام المسيحية الأولى ، نشأت فى أطراف البلاد الشرقية أنواع من الطائفية المسيحية التى لا تتفق فى شىء مع العقيدة الغربية ، واعتقد أرباب هذه الطائفية أن المسيح عندهم مخلوق نزلت عليه الأبوة الربانية

عن طريق الروح القدس ، وذلك بدلا من العقيدة النيقية فى التجسد . ورفض أرباب هذه الطائفية الوظيفة القداسية فى التعاليم الكنسية ، كما رفضوا استخدام الطقوس والرسوم الخارجية ، تفضيلا منهم لمثالية دينية ذات صفة روحية داخلية بحتة. وعلى هذا تكون المادة شرا ، وكل احترام للأشياء المادية يغدو بالضرورة مذهبية وثنية . وبناء على ذلك فليس ماء التعميد «سوى ماء عادى للاستحمام » ، والصليب المادى ليس سوى أداة ضالة ، والكنسية الحق روحية غير منظورة بالعين . ولم يكن كل هذا التيار من الآراء مستمداً من المانوية ، بل الذى لا ريب فيه أن أهل المانوية أنفسهم تأثروا به ، وأن هذه الآراء نفسها جاءت من تقاليد أقدم — وهى آراء ابن ديصان وبعض الغنوصيين وطوائف الصوامين والمستغفرين بالأسحار . وظهرت هذه الآراء بعد ذلك فى غرب أوربا العصور الوسطى فى الحركة الكاتارية ، وهى آراء ظلت باقية حتى أوائل القرن العشرين فى التعاليم الغربية التى نادت بها طوائف مجهولة فى روسيا القيصرية ، مثل الملوخانيين والدخبوريين الذين انتقلوا حديثاً إلى كندا ، ومثل الخلستيين أو السياطيين الذين يتبادلون التعذيب بالسياط تكفيراً عن سيئاتهم وتطهيراً لأنفسهم .

وتتبين حلقة الاتصال بين المراحل المبكرة والمتأخرة فى هذه الحركة الدينية العظمى فى الهرطقة البولصية التى ظهرت — أول ما ظهرت — فى أرمينية البيزنطية حوالى منتصف القرن السابع ، وظلت أكثر من قرنين من الزمان قوة ناشطة مجاهدة فى الأطراف الشرقية من الإمبراطورية . وفى تلك الأطراف نشأت الأسرة الأيسورية الإمبراطورية الجديدة ، ويحتمل أن الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى نفسه تأثر فى شبابه بآراء البولصيين . ثم إن نضال هذا

الإمبراطور ضد المسلمين، ومحاولته إتمام الوحدة الدينية المسيحية فى الإمبراطورية بحمل اليهود والمونتانيين — أتباع منتانوس — على اعتناق المسيحية قسرا ، كل ذلك جعله يدرك مدى كراهية الشرقيين لعبادة الصور التى شغلت مقاماً كبيراً فى الطقوس الأرثوذكسية .

لذلك افتتح الإمبراطور ليو الثالث سنة ٧٢٥ سياسته اللا أيقونية ابتغاء الإصلاح الكنسى ، وبدأ النزاع الذى استمر أكثر من قرن من الزمان ( ٧٢٥ — ٨٤٣ ) بين الأباطرة الأيسوريين والكنيسة. وفى هذا النزاع وقف الإمبراطور والجيش والأقاليم الشرقية فى جانب اللا أيقونية ، ووقفت هيئات الرهبان والبابوية والأقاليم الغربية فى الجانب الآخر ، بل بلغ عداء الأقاليم الغربية للسياسة الإمبراطورية من القوة مبلغاً أدى إلى التمرد والثورة فى كل من إيطاليا واليونان . وهكذا ترتب على هذه المسألة الدينية نضال بين العناصر الشرقية والغربية فى الحضارة البيزنطية من ناحية ، ونضال من ناحية أخرى بين السلطات المدنية والكنسية ، وهو ما شبهه الأستاذ ديل بمشكلة التقليد العلمانى فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر . وتراءت المعارضة الدينية فى المسألة اللا أيقونية نفس الروح التى كمنت وراء المونوفيزيقية ، وهى رفض الكنائس الشرقية أن تعترف بسمو الخلق المادى واستطاعته أن يكون أداة للروح ، ولا سيما فى التجسد ، وهى عقيدة حاول الكلمة الإلهية فى صورة بشرية . وقال زعماء هذه المعارضة الدينية : أليس المسيح صورة الله الذى لا تدركه الأبصار ، فى عبارة القديس بولص؟ ثم أليس حلول الكلمة الالهية فى صورة بشرية تدركها الأبصار مؤدياً إلى تقديس الأشياء المادية وإلى تمثيل الحقائق الروحية فى صور أشكال يمكن رؤيتها؟ وفى هذه الأقوال معارضة واضحة للمبدأ الذى تستند إليه المسيحية الهللينية ،

ولذا نهضت بقايا القوى الحضارية الهللينية للدفاع عن الصور المقدسة ، وكان زعماء هذه القوى رهباناً وديريين؛ وكان منهم كذلك فنانون وشعراء وأدباء ، إذ الواقع أن دعاة الأيقونيين الناهضين للحزب اللا أيقونى أمثال حنا الدمشقى، وثيوفانس المؤرخ ، وجورجيوس سنكاوس ، ونقفور البطريرق ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً ثيودور ستوديوم — كانوا الممثلين الوحيدين تقريباً للأدب البيزنطى فى ذلك العصر المظلم[1] .

والحاصل أنه لم يكن من محض الصدفة أن يتلو الانتصار النهائى الذى أحرزه الأيقونيون أصحاب عبادة الصور على اللا أيقونيين إحياء فى الفنون والعلوم ، لأن انتصارهم لم يكن سوى الجانب الدينى من نهضة عامة فى الحضارة اليونانية ، وهو كذلك الدليل على هبوط المؤثرات الشرقية التى ظلت فى صعود قريباً من ثلاثة قرون . ونتج عن ذلك أن الاشتغال بالعلوم لم يعد قاصراً على الأديرة ، لأن الهيئات المدنية العلمانية عادت إلى مقامها القديم بأنها مصدر التقاليد الكلاسيكية والدراسات المدنية ، فأعاد بارداس تأسيس جامعة القسطنطينية سنة ٨٦٣ ، وصارت هذه الجامعة مركز الاحياء الهلليني . ومنذ القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر انصرفت مجموعة من عظماء العلماء انصرافاً كلياً إلى الآداب الكلاسيكية والعلوم القديمة ، وهم فوتيوس وأريتاس فى القرن التاسع، وسويداس الموسوعى ( الانسكاوبيدى )، وقنسطنطين كيفالاس ناشر مجموعة المختارات

---

(١) ينبغى أن نستثنى هنا آخر الأباطرة اللاأيقونيين وهو ثيوفيلوس ، إذ أظهر هذا الإمبراطور ميلا حقيقياً للعلم والثقافة ، وشمل برعايته اثنين من العلماء اللاأيقونيين وهما ليو السالونيكى وأخوه البطريرق حنا .

الشعرية اليونانية فى القرن العاشر ، وميخائيل بسلوس ، وحنا ماوروبوس ، وحنا ايتالوس ، وكريستوف الميتليني ، وكثير غيرهم فى القرن الحادى عشر . وكان ذلك أوج عصر النهضة البيزنطية التى اتصف رمزها الأعظم — وهو بسلوس — بجميع صفات الإنسانيين الإيطاليين، وهى تمجيدهم العاطفى لكل قديم، ولاسيما آثينا القديمة ، وتعصبهم لكل من هومر وأفلاطون ، ودأبهم على محاكاة الطرق الكلاسيكية فى الأسلوب ، وأخيراً — وليس آخراً — غرورهم الأدبى وميلهم للنزاع والتخاصم . غير أن هذا العصر لم يكن عصر عبقرية ابتكارية ، بل كان أخص إنتاجه فى المعاجم ودوائر المعارف الكبرى ، أمثال « مكتبة » فوتيوس، ومعجم سويداس، وتصانيف قسطنطين الأرجوانى (بورفيزوجنيتوس)؛ وكلها أكثر شبهاً بالموسوعات الأدبية الصينية منها بأى إنتاج فى الأدب الأوربى الحديث. على أنه برغم خلو هذا العصر من أصالة، فهو عصر حضارة أنيقة مهذبة . ومن السهل لذلك أن نفهم احتقار عالم مثل فوتيوس فى القرن التاسع، أو أميرة مثقفة مثل أنا كومنينا فى القرن الثانى عشر ، لما اتصفت به الحضارة الأوربية الغربية المعاصرة من خشونة وبربرية .

ولم يكن الاتجاه الذى حرك النهضة العلمية البيزنطية نحو العودة إلى التقاليد الهللينية أقل وضوحاً فى ميدان الفنون . ومن ذلك انصراف الفنانين عن الرمزية التجريدية فى الفن الشرقى إلى المثالية الطبيعية التصويرية فى التقاليد الهللينستية . وتدل نماذج التصوير والمنحوتات العاجية دلالات قوية على مؤثرات كلاسيكية، كما يدل أسلوب الصور التوضيحية فى مخطوطة مزامير باريس الشهيرة على هللينية خالصة . وأكثر من هذا غرابة ما يبدو فى بعض مخطوطات القرنين الحادى عشر والثانى عشر من اتجاه إلى توضيح مؤلفات آباء الكنيسة الأولين بمناظر

من القصص الأسطورى الوثنى ، مثل قصة أرتميس وأ كتايون،أو قصةزيوس وسميلية ، أو منظر رقصة الكورتيين . وفضلا عن هذه الأمثلةالدالة علىمحاكاة مباشرة للموضوعات والنماذج القديمة ، لم تكن فنون هذا العصر الجديد ناقصة فى الإلهام الكلاسيكى ، حتى أن الفن الدينى الكنسى الذى تغلبت عليه المثاليات الإلهية منذ هزيمة اللا أيقونيين ، والذى غدا خاضعاً لمنهج صارم من الطقوس والعقائد ، لم يخل من هذا التأثير ، بدليل أن أبدع زخارف الفسيفساء فى ذلك العصر — وهى فسيفساء كنيسه دافنى قرب مدينة إليسوس(١) — تنبىء عن هللينية تامة فى تقابلها الزخرفى ووقارها فى سكونها وحركتها .

وفى العمارة من جهة أخرىظل تأثير الشرقمسيطراً،وغدا الطراز المعمارى الجديد فى الكنيسة بناء صليبى الشكل ذا خمس قباب ، وهو الطراز الذى ظل نموذجا للتطور المعمارى البيزنطى المتأخر ، وأصله يرجع فيما يبدو إلى أرمينيا . ومع هذا نستطيع أن نتتبع — حتى فى هذه الأبنية — تأثيرالروح الهللينيةواضحاً فى عدم اقتصار الزخارف على داخل البناء وفقاً للذوق الشرقى ، وامتدادها إلى الباب والدهليز والواجهة ، كما نرىفى كتدرائيةسانماركو بمدينة البندقية،وهى أروع مثال باق من الأبنية المعمارية البيزنطية فى ذلك العصر. والواقع أن وجود بناء بهذه الروعة من الفن البيزنطىفى الغرب الأوربىدلالة على الحيوية المتجددة فىالحضارة البيزنطية الإمبراطورية. والحقيقة التى لاريب فيها أنه لا يوجد عصر آخر — بما فى ذلك عصر جستنيان نفسه — بلغ فيه تأثير الفن البيزنطى هذه الدرجة من سعة الانتشار ، إذ وصل هذا الفن إلى أوربا فى أشكال عديدة مختلفة ، وخلال عدة طرق متنوعة ممتدة من البحر الأسود إلى كييف ووسط

---

(١) تقع هذه المدينه فى إقليم أتيكا بالشمال الغربى من أثينا الحالية . (حاشية للمترجمين)

روسيا ، ومن ساحـــل الأدرياتى إلى إيطاليا الشمالية والشرقية، ومن الأديرة اليونانية فى قلورية ( كالابريا ) إلى مونت كاسينو وروما .

وصحب هذه النهضة فى الحضارة البيزنطية نهضة سياسية موازية، إذ حولت الإمبراطورية وجهها مرة أخرى نحو الغرب الأوربى ، وصارت من جديد قوة أوربية عظمى . وقبل ذلك تصدى الأباطرة الأيسوريون للزحف الإسلامى نحو بلادهم،وأعادوا بذلك هيبةالقوة الحربية البيزنطية.لـكن استرجاع الإمبراطورية البيزنطية أقاليمها الأوربية حال دونه قيام الامبراطوريةالـكارولنجية فى الغرب، فضلا عن قيام قوة بلغاربة بربرية ضخمة فى البلقان . وكان البلغاريون — كالمجريين — خليطاً من أصول فينيةوهونية ، كما كانو جزءا من حلف القبائل الهونية فى روسيا الجنوبية خلال القرنين الخامس والسادس . وفى أثناء انحلال الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس، استطاع أولئك البلغاريون أن يجعلوا أنفسهم سادة على السكان السلافيين جنوبى نهر الدانوب فى إقليم مؤيسيا القديم. ثم أوقف الأباطرة الأيسوريون تقدمهم ، وأقاموا جاليات حربية من المراطقة البولصيين— من أرمينيا —لحراسة الأطراف الإمبراطورية . وفى أوائل القرن التاسع انتهز كروم — خان البلغاريين — فرصـة تدمير دولة الآفار على يد شارلمان ليؤسس لنفسه محلها إمبراطورية جديدة امتدت من البحر الأسود إلى بلغراد ومن نهر الدانوب إلى مقدونيا . ومنذئذ — ولمدة قرنين من الزمان — كان البلغاريون هم الخطر الأعظم الذى واجهته الإمبراطوربة البيزنطية،إذ هزموا جيوشها مرة بعد أخرى ، واستولوا على أقاليمها ، وهددوا القسطنطينية نفسها . غير أنهم لم يستطيعوا اجتناب تأثير الحضارة الراقية التى احتكوا بها فى الأقاليم البيزنطية التى استولوا عليهـا ، وفى سنة ٨٦٤ اعتنق ملـكهم بوريس الديانة المسيحية ، وصار يلقب بلقب قيصر .

ويرجع الفصل فى تأسيس المسيحية السلافية إلى القديسين كيرلس، وميثوديوس « رسولا السلاف » ؛ إذ كرسا حياتهما لنشر المسيحية فى إقليم مورافيا ، ولكنهما لم يستطيعاً التغلب على معارضة الدولة الكارولنجية وكنيستها ، برغم تأييد البابوية لجهودهما . ولذا كانت بلاد البلقان — ولاسيما بلغاريا — هى الميدان الذى أثمرت فية هذه الجهود ثمراً حقيقياً . وفى بلغاريا — ولا سيما زمن أعظم ملوكها سيمون (٨٩٣—٩٢٧م) — كانت نشأة أدب سلافى عن طريق الترجمة من اليونانية، كما كانت نشأة حضارة مسيحية سلافية جديدة، وهى الحضارة التى انتقلت بعد ذلك إلى روسيا ، فضلا عن غير البلغاريين من أهل البلقان[1] . غير أن الدولة البلغارية المسيحية الجديدة لم تملك من القوة ما تستطيع به الاحتفاظ بكيانها ضد الأباطرة البيزنطيين المقدونيين، فتم الاستيلاء على بلغاريا الشرقية بين سنتى ٩٦٣ ، ٩٧٢م على أيدى الإمبراطور نقفورفوقاس وحنا زيمسيس بعده. وأتم عملهما خلفهما العظيم الإمبراطور باسل «قاتل البلغار » ، وهو الذى قضى على بقايا الاستقلال البلغارى سنة ١٠١٨م ، بضم بلغاريا الغربية أو المقدونية إلى إمبراطوريته .

وهكذا استعادت الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى أطرافها الأوربية القديمة التى فقدتها منذ عصر جستنيان . غير أن هذا الامتداد فى رقعتها جرها من جديد إلى الاحتكاك بالشعوب المحاربة من المجريين وغيرهم عبر نهر الدانوب،

---

(١) فى هذه السنة نفسها وصلت الهرطقة البولصية إلى البلغاريين عن طريق الجاليات الأرمينية المقيمة قرب مدينة فيلبوبولس ، وهذه الهرطقة هى التى تولدت منها عقيدة البوجوميل السلافة . وانتشرت هذه العقيدة انتشارا سريعاً فى أرجاء البلقان — ولاسيما البوسنة — حيث صارت الديانة القومية لعدة سنين ، كما امتدت إلى روسيا حوالى سنة ١٠٠٤ م ثم بعد ذلك إلى غرب أوربا .

وهى الشعوب التى أخذت تغير على أقاليم البلقان ، كما كان شأنها فى القرنين الخامس والسادس . لكن المجريين الذين حلوا محل الآفاريين فى الأقاليم الدانوبية، لم يلبثوا أن صاروا دولة مسيحية مستقرة فى تلك الأقاليم التى صارت تعرف منذئذ باسم بلاد المجر ، على حين ظل البنشنيج المتنقلون — الذين احتلوا إقليم السهوب الروسية — خطرا دائما على الأقاليم البلقانية ، كما كان الهون من قبلهم . على أن خطر أولئك الباتزناكيين المتنقلين تضاءل نتيجة لقيام دولة جديدة فيما وراءهم فى غرب روسيا . وترجع أصول هذه الدولة الجديدة إلى جماعات المغامرين السكندناويين ( واسمهم الروس ) الذين حلوا بين القبائل السلافية ، وسيطروا على الطريق التجارى بين البحر البلطى والبحر الأسود . وكانت سفن أولئك المغامرين الروسيين تسير كل صيف من مدينة كييف جنوبا، فى نهر دنيبر محملة بالرقيق والفراء وشمع عسل النحل إلى أسواق الإمبراطورية البيزنطية، أو أسواق مملكة الخزر التى تحكمت فى الطريق التجارى الشرقى بين نهر فولجا وبحر آزوف . وجمع أولئك المغامرون الروسيون — مثلما جمع الفيكنج الغربيون قبلهم — بين القرصنة والتجارة ، فقاموا خلال القرن العاشر باغارات متكررة على شوطئ البحر الأسود والقسطنطينية نفسها . وكان أشد هذه الإغارات ما قام به إيجور أمير كييف سنتى ٩٤١، ٩٤٤ ، وهى الإغارات التى أعقبها عقد اتفاقية جديدة فى بابها واستئناف العلاقات الودية بين الروسيين والإمبراطورية البيزنطية . وفى خلال النصف الثانى من القرن العاشر ، وهو عصر الأميرة المسيحية أولجا روجة إيجور ، وابنها سفيا توسلاف ، وابنه فلاديمير العظيم (٩٨٠—١٠١٥)، أخذت الدولة الروسية تنمو على حساب جيرانها ، حتى إنها حلت محل إمبراطورية الخزر على نهر فولجا ، وصارت أعظم قوة سياسية وتجارية فى الشمال الأوربى . وقبل ذلك نجحت الدولة البيزنطية فى إحباط

المحاولة التى قام بها سفيا توسلاف(٩٦٧ — ٩٧١) للاستيلاء على بلغاريا وإقامة عاصمة جنوبى نهر الدانوب ، ومنذئذ غدت العلاقات بين الدولتين الروسية والبلغارية مستمرة فى التقارب والمصادقة . وأخيراً عقد فلاديمير — ابن سفياتوسلاف — اتفاقية مع الإمبراطور باسل الثانى سنة ٩٨٨ ، وبمقتضاها تعهد فلاديمير باعتناق المسيحية ، وامداد الإمبراطورية البيزنطية بستة آلاف من الجند الإضافية — وهم أصل الحرس الفارانجى الشهير — على شروط أن يتزوج فلاديمير من الأميرة أنا أخت الإمبراطور باسل الثانى. غير أن باسل لم يف بما التزم به فى هذه الاتفاقية الا بعد أن ضغط الروس على أطراف الإمبراطورية البيزنطية بالاستيلاء على ميناء خرزون ، وهى آخر بقية من بقايا الجاليات اليونانية القديمة شمالى البحر الأسود . وهكذا صار الطريق مفتوحاً لدخول السلاف الشماليين فى المسيحية ، وصارت روسيا جزءا من العالم المسيحى الأرثوذكسى .

وفى خلال القرن التالى أثر النفوذ البيزنطى تأثيراً عميقاً فى المجتمع الروسى، إذ غدا جميع أساقفة الكنيسة الروسية الجديدة ومعلميها من اليونانيين (ومعظمهم من أهل خرزون) ، وهؤلاء حملوا معهم إلى شمال أوربا كثيراً من التقاليد الدينية والفنية فى الكنيسة البيزنطية ، فضلا عن الكتابة السلافية والأدب السلافى المسيحى ، وكل ذلك هو الذى نبتت منه عناصر الحضارة الروسية . وتشهد كنائس مدينة كييف وأديرتها ، وما ازدانت به من نقوش زخرفية وفسيسفاء ، على قوة هذه الحركة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وهى حركة امتد تأثيرها لا إلى المراكز الروسية القديمة فى الشمال أمثال نوفجرود وبسكوف فحسب ، بل تعداه أثناء القرن الثانى عشر إلى الأقاليم الروسية

الجديدة فى الشمال الشرق ، أى إقليم سوزدال وموسكو ، وهو الأقليم الذى غدا فيما بعد مركز الحياة القومية الروسية .

ويعد هذا الامتداد الخارجى للنفوذ البيزنطى أعظم ما تحقق من جهود فى العصر البيزنطى الأوسط . غير أنه مما يؤسف له أن فتح العالم السلافى روحياً توازى معه تدهور النفوذ البيزنطى فى الغرب ، وازدياد التباعد بين الكنيستين الشرقية والغربية . ثم شهدت أواخر أيام الأباطرة المقدونيين تكملة الانقسام الدينى بين الإمبراطورية البيزنطية والبابوية ، مع العلم بعمق بذور هذه العماية فى التاريخ البيزنطى ، وبأن السبب الحقيقى لهذا الانقسام الدينى لم يكن ثمة خصومة بين الإمبراطور ميخائيل كربولاريوس والبابا ليو التاسع ، أو جدل لاهوتى حول انبثاق الروح المقدس ، وهو الجدل الذى ثار أيام البطريرق فوتيوس ، بل كان مصدره ازدياد شقة الخلاف بين الحضارتين الشرقية والغربية . ويشرح ذلك أن الوطنية الهللينية الجديدة التى أشعلتها النهضة البيزنطية السابقة جعلت الطبقات الحاكمة فى الإمبراطورية البيزنطية تنظر إلى أهل روما والفرنجة على أنهم برابرة همجيين . وأضاف تحرر روما والأرخونية فى إيطاليا من تبعيتهما السياسية للإمبراطورية البيزنطية سبباً جديداً لهذه النفارة . ومن الدليل على قدم ذلك الخلاف ما حدث فى القرن الثامن من تجريد الإمبراطور ليو الثالث للبابوية من سلطانها عل أسقفيتى إيلليركوم وجنوب إيطاليا ، ومصادرته أملاك الكنيسة البابوية فى الشرق . وهكذا ، ولهذه العوامل القديمة والجديدة ، صارت البطريرقية البيزنطية هى الكنيسة الإمبراطورية ، وغدا التنافس بين البطريرق المسكونى فى القسطنطينية والبابا فى روما القديمة أشد مما كان فى أى وقت مضى .

والواقع أن هذا التنافس لم يكن شيئاً جديداً ، إذ يرجع إلى صميم أصول البطريرقية البيزنطية نفسها . وقديماً سخر القديس جريجورى النازيانزينى من الحماسة الوطنية التى برر بها الأساقفة الشرقيون قولهم بسمو الشرق على الغرب دينياً فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١[١] . وفى كل من هذا المجمع ومجمع خلقدونية سنة ٤٥١ بذلت محاولات للتوفيق بين المقام الكنسى لمدينة روما الجديدة، (أى القسطنطينية ) ومقام روما القديمة . غير أن كلا من روما والقسطنطينية ظل خلال القرون التالية لهذين المجمعين الكبيرين فى خلاف دائم حول مسائل عقائدية ، بل الواقع إنه منذ القرن الرابع إلى القرن التاسع فصاعدا لم تكن السنوات التى اختلفت فيها الكنيستان إحداهما عن الأخرى ، أقل من السنوات التى اتفقت فيها آراؤهما المذهبية[٢] .

ومع هذا ساعدت هذه الانقسامات المذهبية على بقاء هيبة روما فى الشرق، لأن جميع حماة العقيدة المسيحية الأصيلة ـ منذ أيام أثناسيوس حتى أيام ثيودور

(١) مثال ذلك قول الأساقفة الشرقيين إنه ينبغى فى الكنيسة أن تسير الأشياء كلها مسير الشمس، أى من الشرق إلى الغرب، وأن يكون مصدر جميع الأشياء من نفس الجزء من الأرض حيث شاء الرب أن يظهر ذاته للعالم فى صورة بشر ، وهو المسيح الابن ، على قولهم . انظر ( Greg. Naz.: Carmen de vita sua., pp.1690-1693)

(٢) الأدلة على ذلك واضحة من الحوادث التاريخة التالية وسنواتها، وهى مجموعة الانقسامات الأريوسية ( ٣٤٣ — ٣٩٨ م ) ثم الانقسام الدينى المتعلق بالقديس حنا فم الذهب ( ٤٠٤ — ٤١٥م) ، والانقسام الأكاسى ( ٤٨٤ -- ٥١٩ م)، والانقسام الخاص بمسألة الإرادة الواحدة فى المسيح ( ٦٤٠ — ٦٨١ م )، وحركة اللاأيقونيين ( ٧٢٦ — ٧٨٧ ، ٨١٥ — ٨٤٣ ) ومن ذلك يتضح أن بذور النزاع ترجع لا إلى القرن الحادى عشر أو القرن التاسع للميلاد، بل ترجع بعيدا إلى عصر الخلاف الاريوسى الذى وصفه دوشين بأنه « الفتنة الكنسية التى شطرت العالم المسيحى شطرين من أسبانيا إلى بلاد العرب، وانتهت بعد ستين عاما من الخزى والعار ، وتركت للاجيال التالية بذور الانقسامات التى ما زالت الكنيسة تئن من آثارها انظر (Duchesne: Histoire ancienne de l'Eglise, II, 157)

ستوديوم — جعلوا البابوية حصنهم الحصين ضد محاولات الحكومة الإمبراطورية فى سبيل تطبيق مبادئها اللاهوتية على الكنيسة . ولم تتغير هذه الرابطة المتينة بين البابوية وأولئك الحماة إلا بعد نهاية عصر الجدل اللاهوتى ، وتثبيت دعائم العقيدة المسيحية الأصيلة، وصار الاختلاف فى الحضارة والعرف الكنسى واضحاً كل الوضوح للعيان . وفى ذلك العصر كذلك اختتمت روما علاقاتها السياسيةبالإمبراطورية البيزنطية ، وغدت علاقاتها وثيقة بدولة الفرنجة المنافسة للإمبراطورية . وكان البيزنطيون على استعداد لأن تكون البابوية بالذات هى الفصل الأعلى فىالمسائل العقائدية والممثل للسلطان الرسولى المسيحى داخل الكنيسة البيزنطية ، ولكنهم لم يكونوا مستعدين للاعتراف بسمو الكنيسة الرومانية على الكنيسة البيزنطية ، لأن الكنيسة الرومانية عندهم أجنبية متبربرة . ولذا بدا واضحا فى نظر البيزنطيين أن قبول الحكم الفرنجى فى إيطاليا وتتويج شارلمان ملك الفرنجة،إمبراطورا رومانيا فى روما، انقسام سياسى مدنى وجد تحقيقه الطبيعى فى انقسام دينى . وبينما كانت روما فى القرن الثامن لاتزال بيزنطية فى حضارتها وتفكيرها ، اتخذت الكنيسة الفرنجية طابعا مخالفا . ثم إن الطقوس الكنسية الغربيةالجديدة التى أثارت العداوة البيزنطية والبغضاء، ومنها إضافة مادة انبثاق الروح القدس من الإله الأب والأله الابن إلى مواد العقيدة المسيحية ، واستخدام الخبز اللاخميرى فى العشاء الربانى ، كانت كلها فرنجية الأصل ، وظهرت أول ماظهرت فى أقصى الغرب الأوربى ، أى فى أسبانيا وبريطانيا .

وفيما عدا موضوع انبثاق الروح القدس ، وهو الموضوع الذى ...اع ما بلغ على التدريج من أهمية فى الخلافات المذهبية النائية ، كانت

جميع مواضع الخلاف مسائل طقوسية تبدو للعقل الحديث عديمة الأهمية[1] .

غير أن العقيدة البيزنطية امتزجت بكثير من تقوى الصلوات وصوفية الشعائر ، مما جعل توحيد الشعائر فى المرتبة الأولى . ذلك أنه على حين كانت الكنيسة الأوربية الغربية ذات شعائر كثيرة وسلطة كنسية بابوية واحدة، كانت وحدة الكنيسة البيزنطية أولا وقبل كل شىء وحدة شعائرية . وحاول المجمع الدينى الذى انعقد فى قصر ترولو بمدينة القسطنطينية سنة ( ٦٩١ م ) أن يطبق قراراته على الكنيسة الغربية . ولم يتزل ذلك المجمع عن هذا الحق أبداً ، ولذا قال ميخائيل كريولاريوس سنه ١٠٥٤ ، وهو يطوى القرون القهقرى ، بأن مجمع ترولو سنه ٦٩١ ، هو الذى آذن ببداية الانقسام بين الكنيستين البيزنطية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية .

ولم يكن الفرنجة من جانبهم أقل تصلباً ، بل اتخذ شارلمان وأساقفته موقفاً عدائياً من الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية . ومن ناحية أخرى اتخذت روما موقفاً نصفه بين الحضارة البيزنطية القديمة والحضارة الأوربية الغربية الجديدة ،

(١) من الأمثلة الأكثر دلالة على هذا التمسك بالطقوس يوجد مثل واضح فى العبارة الهامشية الواردة فى النسخ القديمة من كتاب الطقوس اليونانية ، بشأن يوم الأحد الواقع قبل الصيام الكبير ، ونصها « فى هذا اليوم يصوم الأرمن الملعونون لعنة مثلثة صيامهم القبيح الذى يسمونه آرتريبوريون . ، ولكننا نأكل ما اعتدنا علية يومياً من جبن وبيض ، رداً على هرطقتهم . »

أنظر(N. Nilles. Kalendarium Utriusque Ecclesiae. 11, p. 8)،
واصطبغت ميول الكنيسة الروسية القيصرية فى العصور الحديثة ؛ بهذا الصبغة من التمسك بالطقوس، ولذا نشأت أكبر أزمة من سلسلة الإصلاحات الطقوسية التى أدخلها عليها البطريق الروسى نيقون .

وحاولت البابوية أول الأمر أن تقف وسيطا بين الطرفين . غير أنه لما كانت روما تقترب يوماً بعديوم من فلك الإمبراطورية الكارولنجية وحضارتها ، غدا هذا الموقف مستحيلا بعيداً عن الإمكان .

ووقع أول اختلاف خطير بين البابوية والعالم البيزنطى فى النصف الثانى من القرن التاسع ، حين اختلف البابا نيقولا الأول — وهو أول سلسة عظماء البابوات فى العصور الوسطى — مع فوتيوس ، وهو رمز النهضة البيزنطية فى عصره . ومع أن الانقسام الذى نجم عن ذلك الاختلاف كان قصيراً نسبياً ، فإن إعادة الوحدة الدينية بعد ذلك الانقسام كان سطحياً قلقا غير ثابت الأركان ، لا يعتمد على قاعدة المثالية الهادفة إلى الوحدة الدينية الروحية ، بل قاعدة غير ثابتة من السياسة الإمبراطورية . ثم إن جماعة الديريين فى الكنيسة البيزنطية — وهم الذين اعتمدوا على روما لتأييدهم فى نضالهم فى القرن الثامن من أجل حرية الكنيسة ضد القيصريه البابوية التى سار عليها الأباطرة اللا أيقونيين — لم يعودوا يأملون فى القرن العاشر فى أية مساعدة من بابوية صارت ألعوبة فى أيدى أحزاب رومانية محليه أو أباطرة ألمانيين[1] . على أن الأديرة غدت قادرة حين ذاك على الاعتماد على نفسها ، وازدهرت الديرية البيزنطية من جديد لا فى القسطنطينية وجبل أوليمبوس فى إقليم بيثنيا ، وجبل آتوس فى شبه جزيرة المورة فحسب ، بل كذلك فى إيطاليا نفسها ، حيث أسس القديس نيلوس ديرا باسيلياً فى جروتا فراتا،على مسافة بضعة أميال فقط من روما . وإذا كان العنصر

---

(١) كانت البابوية وقتذاك أبعد ما تكون صلاحية لمساعدة الحركة الإصلاحية فى الكنيسة البيزنطية ، بل إنها تعد مسئولة جزئيا عن تعيين البطريرالصبى ثيوفيلاكت ، وهو البطريرق الذى كان تعيينه وصمة من أكبر الوصمات فى تاريخ الكنيسة البيزنطية فى القرن العاشر .

الديرى لم يعد يحفظ شيئاً من ولائه القديم للبابوية ، فإن العنصر البيروقراطى المدنى الذى استمدت منه الكنيسة البيزنطية كثيراً من زعمائها[1] ، غدا كذلك يعادى البابوية عداءاً شديداً . ولذا لم يبق من رغبات الصداقة مع البابوية سوى رغبة الأباطرة البيزنطيين فى الإبقاء على علاقات ودية مع روما تحقيقاً لأغراض سياسية ، وهذه الرغبة التى حفظت وحدة الكنيسة. ويوضح ذلك أن اضمحلال الإمبراطورية الكارولنجية أخلى الجو للأطماع البيزنطية فى إيطاليا ، وأنه منذ أيام البابا حنا الثامن ( ٨٧٢ — ٨٨٢ ) صار للبابوية أهمية كبرى فى الدبلوماسية البيزنطية . ونتج عن ذلك أن تنوعت العلاقات بين الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية والكنيسة الغربية الكاثولوكية وفقاً لتنوع الموقف السياسى بين الصداقة والعداوة، فمنع الإمبراطور باسل الثانى مثلا حدوث انقسام دينى تام بين الكنيستين ، وهو الانقسام الذى هدد بالوقوع سنة ١٠٠٩ ،لأن الإمبراطور كان وقتذاك فى حاجة إلى تأييد البابوية لمشروعاته من أجل إعادة السيطرة البيزنطية إلى إيطاليا .

غير أنه لم يكن ثمة محيص — عاجلا أو آجلا — فى هذه الأحوال من وقوع انقسام دينى . ثم لم يلبث أن عجلت بوقوع هذا الانقسام المحتوم تصرفات البطريرق ميخائيل كرولاريوس ١٠٥٤ ، إذ بلغت مكانة هذا البطريرق وأطماعه الشخصية مبلغاً كافياً للتغلب على الإمبراطور . ومع هذا كان من المحتمل ألا يصير هذا الانقسام الدينى نهائياً ، لولا أنه صادف نشأة الدولة النورمانية وضياع

---

(١) أولئك هم البطارقة فوتيوس وطرسيوس (٧٨٤–٨٠٦) وسيسينيوس (٩٩٦–٩٩٨) وميخائيل كرولاريوس نفسه .

الممتلكات البيزنطية فى جنوب إيطاليا ، إذ تعين على الشرق منذئذ أن يواجه خطر الاعتداء الأوربى الغربى على أملاك الإمبراطورية ، بحيث صارت المسألة الدينية بين الكنيستين البيزنطية واللاتينية مرادفا لقضية الوطنية والبقاء السياسى .

غير أنه لم يكن فى استطاعة أحد فى بداية القرن الحادى عشر أن يتنبأ بالمصير الذى شاءته المقادير للعالم البيزنطى ، إذ تراءت الإمبراطورية البيزنطية فى السنوات الأخيرة من عهد الإمبراطور باسل الثانى على أعظم ما تكون قوة ورخاء . وتفوقت الإمبراطورية وقتذاك تفوقاً عظيما فى ثروتها وحضارتها على غرب أوربا ، وأتاح لها فتح بلغاريا واعتناق روسيا الديانة المسيحية ميادين جديدة للتوسع الحضارى . وبذا تمهدت الأسس لبناء حضارة بيزنطية سلافية جديدة فى شرق أوربا ، وهو بناء بدا محتويا على ما احتوى عليه البناء الرومانى الجرمانى فى الغرب الأوربى من حسن المستقبل . غير أن الواقع أن البناء البيزنطى السلافى اعترضته قبل الأوان عقبات أوقفته عن النمو وأعجزته عن التوسع ، على حين شاءت المقادير للبناء الرومانى الجرمانى أن تتمخض عنه الحضارة الأوربية الغربية الحديثة وحركتها العالمية الجامعة .

ويرجع بعض هذا التناقض إلى أسباب خارجية ، وتفصيلها أن حضارة أوربا الغربية بعد نهاية القرن العاشر غدت برغم تأخرها حرة فى اتباع طريقها الخاص فى التطور ، على حين تعرضت حضارة أوربا الشرقية تعرضاً متواصلا لحوادث خارجية عنيفة . ومن هذه الحوادث أنه قبل انقضاء خمسين سنة على وفاة باسل الثانى الإمبراطور سنة ١٠٢٥ ، فقدت الإمبراطورية البيزنطية أقاليمها الشرقية

للأتراك السلاجقة ، كما باتت مواصلاتها ببلاد روسيا محوطة بالخطر بسبب الغزوات المتجددة على أيدى التتار البتشنيج والكومانيين من السهوب (الاستبس) الشمالية . وفى القرن التالى ، كادت هذه الغزوات تدمر الحضارة الروسية المسيحية الناشئة فى كييف ، وبذا تحول محور الارتكاز فى روسيا السلافية إلى إقليمها الشمالى ، أى إقليم فلاديمير وموسكو فى الشمال الشرقى ، مع العلم بأن هذا الإقليم تعرض كذلك لغزو المغول فى القرن التالى . وأخيراً دخل الأتراك العثمانيون أوربا فى القرن الرابع عشر فقضوا أولا على دولة الصرب الأولى وهى فى عز شبابها ، ثم قضوا قضاء تاماً على كل ما تبقى من البقايا البيزنطية التى أفلتت من هجمات أمراء جنوب إيطاليا من النورمانيين والانجويين ومن فتوح الصليبيين الفرنسيين والمغامرين من التجار الإيطاليين .

غير أن هذه الأسباب الخارجية على أهميتها لا تكفى لتفسير ما اعترى حضارة أوربا الشرقية من توقف واضمحلال قبل الأوان . ولذا ينبغى أن يضاف إلى هذه الأسباب الخارجية أنه برغم ما هو معروف من استطاعة الحضارة البيزنطية أن تحفظ تقاليد الحضارة الكلاسيكية حفظاً تاماً ، بالقياس إلى استطاعة الغرب اللاتينى ، فإن البيزنطيين عجزوا عن نشر هذه التقاليد أو إيصالها إلى الشعوب السلافية الجديدة ، إذ ظلت الثقافة العليا قاصرة على طبقة صغيرة من المتعلمين الموظفين بالبلاط والعاصمة ، على حين لم تأخذ الشعوب السلافية من الحضارة البيزنطية سوى العناصر الدينية والفنية . وترتب على ذلك عندما حلت نهاية الدولة البيزنطية أن التراث العقلى للفكر اليونانى والأدب انتقل ، لا إلى الحضارات السلافية الوليدة فى أوربا الشرقية ، بل إلى أعدائها ومنافسيها القدماء فى الغرب اللاتينى .

والخلاصة أن الحضارة البيزنطية حفظت تقاليدها الأصلية حفظاً تاماً ، لكنها عجزت عن أن تخلق أوضاعا اجتماعيه ومثاليات حضارية جديدة ، لأن أركان حياتها الروحية والاجتماعية تشكلت وفق القالب الثابت الذى رسمته الدولة البيزنطية الكنسيه ، حتى إذا انتهت هذه الدولة لم تبق هناك قاعدة لقيام أى مجهود اجتماعى جديد. أما فى الغرب الأوربى فلم يوجد خلال أوائل العصور الوسطى قالب سياسى ثابت لتشكيل الحضارة ، بل تحلل المجتمع إلى عناصره الأولى، وبلغت الدولة على وجه التعميم من الفقر والبربرية ما جعلها عاجزة عن الاحتفاظ بالأوضاع العليا فى الحياة المتحضرة . وتطلع الناس إلى الكنيسة — لا إلى الدولة — من أجل الزعامة الحضارية والثقافية ، وبفضل الاستقلال الروحى صار للكنيسة سلطة اجتماعية وخلقيه لم توحد فى الشرق . ولذا كانت الحضارة فى غرب أوربا — برغم انخفاض مستواها عن مستوى حضارة الإمبراطورية البيزنطية — قوة متحركة لا جامدة ، وكان لها تأثير انقلابى فى الحياة الاجتماعية للشعوب الجديدة . وفى شرق أوربا لم يوجد سوى جهاز واحد جامع للحضارة هو الإمبراطورية ، أما فى الغرب فكان لكل دولة — بل لكل أقليم تقريباً — مراكزه المحلية لحياته الحضارية، وهى الكنائس والأديرة — التى لم تنصرف كل الانصراف إلى الزهد والتأمل كما كان الحال فى شرق أوربا — ، بل كانت كذلك أجهزة للنشاط الاجتماعى . وتتضح المثالية البيزنطية تمام الوضوح فى العزلة العالية فى دير جبل آثوس ، حيث يحيا مجتمع دينى رهبانى حياة مفضلة عن عامة حياة الناس ، كما تتضح مثالية أوربا الغربية فى الأديرة البندكتية العظمى — التى كانت مثل دير سانت جال — مراكز رئيسية للحضارة الأوربية الغربية ، أو مثل دير كلونى الذى كان منبعاً للحركات الجديدة التى أثرت أعمق تأثير فى مجتمع العصور الوسطى الأوربية .

# القسم الثالث

## تكوين الدولة المسيحية في غرب أوربا

# الفصل الحادي عشر

## الكنيسة الغربية ودخول المسيحية إلى غرب أوربا

لم ينشأ عن سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية أواخر القرن الخامس — أى سنة ٤٧٦ — قيام وحدة حضارية مستقلة فى غرب أوربا ؛ إذ تطلب ذلك عملية تاريخية أخرى من نوع آخر . ولذا ظل غرب أوربا المسيحى فى القرن السادس معتمدا على الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، كما ظلت الحضارة الأوروبية الغربية خليطا من عناصر بربرية ورومانية متنافرة ، وليس بينها حتى وقتذاك وحدة روحية أو نظام اجتماعى منبثق من عوامل داخلية ذاتية . ثم أعقب الإحياء الحضارى الأوربى العابر فى القرن السادس دور ثان من أدوار الاضمحلال والغزو الجرمانى ، وبذا هبطت الحضارة الاوربية إلى مستوى أدنى كثيراً مما هبطت إليه سابقا فى القرن الخامس . وفى تلك المرة هبت عاصفة الغزو الجرمانى من ناحية الدانوب ، حيث شهدت سنوات النصف الثانى من عهد الإمبراطور جستنيان — أى أواسط القرن السادس — إهمالا مطردا فى وسائل الدفاع عن الأطراف الإمبراطورية ، وتعرضت الولايات البلقانية لسلسلة من الغزوات التخريبية .

وتفصيل ذلك أن الجيبداى — وهم إحدى القبائل الجرمانية الشرقية المحالفة للقوط الشرقيين — حلوا محل القوط الشرقيين فى ولاية بانونيا ، على حين استولى الكوتريجور من الهون على حوض الدانوب الأدنى ، وامتدت غزواتهم إلى أبواب السلاف الذين أخذوا بمجيئهم هذا يخرجون لأول مرة مما أحاط بأصولهم من ظلمات ما قبل التاريخ. وفى وسط هذه الاخطار المتعددة ، أحست الحكومة الإمبراطورية البيزنطية بعجزها عن الدفاع عن أطرافها بالوسائل الحربية ، فعمدت إلى الديبلوماسية بأن حرضت الاوتيجور أهل السهوب القوبانية على مهاجمة الكوتريجور من الهون ، ثم حرضت الهيروليين واللمبارديين ضد الجيبداى ، كما حرضت الآفار ضد الجيبداى والسلاف . وهكذا تحالف الآفار مع اللمبارديين سنة ٥٦٧ — أى بعد وفاة الإمبراطور جستنيان بعامين اثنين — لتحطيم مملكة الجيبداى ، الذين تركتهم حكومة الإمبراطور جستين الثانى يلقون مصيرهم المحتوم ، أملا فى أن يؤدى ذلك إلى إعادة مدينة سرميوم القديمة للامبراطورية البيزنطية . لكن يبدو أن هذين الإمبراطورين البيزنطيين خدعوا أنفسهم بهذا الأمل ، لأن بايان الكبير — خان الآفار — لم يكن زعيما تافها يستطيعون أن يجعلوا منه مخلب القط فى الديبلوماسية البيزنطية ، بل كان فاتحا آسيويا جبارا من طراز أتيلا قبله وجنكزخان بعده . ولذا غدت الإمبراطوية البيزنطية تواجه جنسا من المحاربين المتنقلين ( البدو ) الذين امتد سلطانهم من البحر الادرياتى إلى البحر البلطى ، وذلك بدلا من دولة جرمانية — مستقرة نسبيا — وهى دوله الجيبداى . ثم لم تلبث الأطراف الدانوبية أن انهارت تحت ضغط أولئك الآفار ، واحتلت القبائل السلافية التابعة لهم مجموعة الولايات الإلليرية ، وهى الولايات التى

ظلت أربعمائة سنة أساس القوة العسكرية للامبراطورية الرومانية القديمة ومصدر قادتها وأباطرتها العسكريين .

على أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن الدولة الوحيدة التى قاست من هذا البلاء المستطير ، بل غدت أوربا الوسطى كلها فريسة فى أيدى الغزاة الآسيويين الذين امتدت غزواتهم بعيدا إلى أطراف مملكة الفرنجة فى الغرب ، فاضطر السويفيون الشماليون إلى الجلاء عن الأراضى الواقعة بين نهرى إلب وأودر ، واحتلت القبائل السلافية التابعة للآفار أقاليم جرمانيا الشرقية ، ولم يبق من القبائل الجرمانية الشرقية التى سيطرت على شرق أوربا من البحر البلطى إلى البحر الأسود سوى اللمبارديون ، وأولئك كانوا من الفطنة بحيث لم يفطروا فى الانقلاب إلى معاداة حلفائهم الآسيويين ، بل عمدوا إلى الجلاء عن الأراضى الدانوبية وغزوا إيطاليا ، وذلك بعد أن سقطت دولة الجيبداى . وفى إيطاليا كذلك بدت الإمبراطورية البيزنطية عاجزة كل العجز عن حماية رعاياها ، إذ احتل الغزاة اللمبارديون أجزاء شمال إيطاليا وجميع الأجزاء الداخلية من شبه الجزيرة الايطالية ، وصارت تلك الأجزاء كلها تسمى لمبارديا ، على حين اقتصر سلطان البيزنطيين على الاجزاء الساحلية ، وهى البندقية ورافنا وبنتا بوليس ودوقية روما وجنوا وأمالفى ونابلى .

وكانت هذه هى اللطمة الختامية التى أصابت الحضارة البيزنطية المتداعية فى إيطاليا . ولذا لا نعجب أن تراءى لأهل ذلك العصر كأن الدنيا مشرفة على النهاية ، بل تكشف رسائل البابا جريجورى العظيم عن الآلام المروعة والتشاؤم العميق ، حين يرحب هذا البابا بالطاعون الوبأى الذى اجتاح الغرب

الأوربى وقتذاك ، واعتبره وسيلة للخلاص من الفظائع التى أحاطت به ، فقال «إذا نحن تأملنا الكيفية التى مات بها غيرنا من الناس فإننا نجد شيئاً فى السلوى عن التفكير فى نوع الهلاك الذى ينتظرنا . والقلم يعجز عن وصف العاهات وألوان القسوة التى رأيناها نحن تحل بالناس ، ولا شفاء منها إلا بالموت ، لأن الحياة فيها عذاب أليم[1]». ورأى البابا جريجورى نبوءة حزقيال الخاصة بالقدر الشديدة الغليان تتحقق فيما رأى هو من مصير لمدينة روما ، فيقول «صح القول عن هذه المدينة أن اللحوم وكومة العظام فى وسطها غليت حتى ذابت من الغليان . فأين السناتو ؟ وأين الناس ؟ لقد انتشرت العظام كلها ، وذهبت اللحوم ، وفنى كل ما فى هذه الدنيا من محاسن ، وانتهى كل شىء واختفى . ومع هذا فنحن القلة الذين بقينا على قيد الحياة لا نزال نطعن بالسيوف كل يوم ، ولا نزال نكتوى كل يوم بأرزاء لا تحصى. ولهذا فلندع القائل يقول : وضع القدر كذلك فارغاً فوق النار لأن السناتو لم يبق له وجود ، والناس تعرضوا للفناء،والحزن والحسرة يتضاعفان يوماً بعد يوم بين الفئة القليلة الباقية على قيد الحياة. إن روما أمست خالية تحترق ، لكن ما الفائدة من الكلام عن الناس، ونحن نرى أركان العمران تنهار انهياراً،وأيدى الخراب تنتشر انتشارا. إنه ليحق لنا أن نضيف بصدد مدينة روما التى باتت خاوية على عروشها قول الرب لحزقيال : دع القدر فارغة على الجمر ، ليحمى نحاسها ويحرق ، فإن القدر نفسها ذابت بعد أن ذابت فيها اللحوم والعظام[2]» .

---

(١) انظر (Ep. X, 20, tr. Dudden, Gregory the Great, II, 38)

(٢) انظر كتاب العهد القديم : سفر حزقيال ، الاصحاح الرابع والعشرين ص — ٧ .

على أن ما أخفى المستقبل كان أدهى وأعظم من ذلك كله على البيزنطيين ، ففى القرن السابع فتح العرب إفريقية — وهى أكثر الولايات البيزنطية العربية حضارة وتقدماً — واختفت الكنيسة الإفريقية من مسارح التاريخ ، وهى أكبر الكنائس المسيحية اللاتينية القديمة فى إفريقية . وفى أوائل القرن الثامن اكتسحت موجة الفتوح الإسلامية أسبانيا ، وامتدت هذه الفتوح إلى غاليا نفسها . وهكذا أمست البلاد المسيحية كأنها جزيرة محصورة بين المسلمين من الجنوب والجرمان من الشمال .

ومع هذا ، كان ذلك العصر الطافح بالهزائم الحربية الكبرى هو العصر الذى شهد معالم الأسس الأوربية الجديدة ، يشيدها رجال من أمثال البابا جريجورى العظيم الذى لم يكن يفكر البته فى أنه يسهم فعلا فى بناء نظام اجتماعى جديد ، بل كان يعمل جاهداً فى عالم أشفى على الهلاك ، من أجل خلاص الناس قبل فوات الأوان . وكان هذا الانصراف عن النتائج الدنيوية هو الذى أمد البابوية بقوة جعلها موئل تيارات الحياة ، وسط الاحتضار العام الذى أصاب الحضارة الأوربية . ومصداق ذلك ما جاء فى العبارة التى أمر البابا حنا الثالث بنقشها على جدار كنيسة الرسل القديسين فى روما ، فى وصف البابا جريجورى العظيم ، ونصها « فى عصر من عصور الشدة برهن البابا على أنه متسامح كريم ، ورفض أن يستسلم لما حوله أو يتهدم أمام المصائب ، برغم ما نزل بالعالم من أهوال » .

وقبل عدة سنوات من سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ م ، وضع القديس أوغسطين فى كتابه العظيم « مدينة الله » أركان

المنهج الذى صار مصدر الإلهام لأعلى متاليات العصر الجديد . ذلك أن القديس أوغسطين نظر إلى التاريخ كله على أنه عملية تطور لمبدأين متضادين ، منطويين على عالمين متعادبين ، هما مدينة السماء ومدينة الأرض ، أو مدينة الدين ومدينة بابل ، أو الكنيسة والحياة الدنيا . وقال القديس أوغسطين أن المدينة الأولى — وهى مدينة السماء — لا نتحقق فى الأرض ، وإنما هى تسير دائماً فى سبيلها ، وأن موطنها سماوى خالد ، على حين تتحقق المدينة الثانية — وهى مدينة الأرض—فى السعادة الدنيوية وفى حكمة الإنسان ومجده، وأنها غاية فى ذاتها ومبررة لنفسها . ولم يصم القديس أوغسطين الدولة السياسية بوصمة الاقتصار على هذه الصفات ، لأنها ما دامت هى مسيحية فهى أداة لتحقيق غايات مدينة السماء ، ولكنها مدينة تابعة ، وهى فى الواقع خادمة لا سيدة ، وأن المدينة الروحية هى مجتمع السيادة والسمو والعلو . فإذا اصطدمت الدولة بالمجتمع الأعلى — أى الكنيسة — واعتبرت نفسها غاية فى ذاتها ، أضاعت حقها فى أى دعوى بأنها أعلى مقاماً من قانون القوة والمصلحة الذاتية ، لأنه إذا انعدم العدل ، فما الفرق وقتئذ بين دولة كبرى وعصابة لصوصية كبرى . ثم إن كلا من النصر والهزيمة عبث ولهو ، لا خير فيهما لأحد هنا أو هناك، بل هما مضيعة للجهد وملهاة للحمقى والمغفلين ، للحصول على مكاسب جوفاء . والعالم الأرضى ضئيل القيمة ومصيره الزوال ، والحقيقة الوحيدة التى تستحق أن يجرى الإنسان وراءها هى الحقيقة الأزلية ، أى المدينة السماوية ، وهى كذلك « وحى السلام » .

ووجدت هذه المثالية القائلة بسمو السلطة الروحية واستقلالها أعظم أداة

للتعبير عن نفسها فى البابوية[١] . وذلك أن أسقف روما — أى البابا فيما بعد — كان منذ أجيال سابقة على سقوط العاصمة الروحانية متمتعا بمكانة فريدة ، بوصفه خليفة القديس بطرس ، ونائبه بعده فى روما كذلك، ولأن روما لذلك هى المقر الرسولى الجديرة بهذه التسمية الرسولية دون غيرها من المدن المسيحية الكبرى ، وهى التى استطاعت بفضل ما لها من هذا المركز الدينى أن تقف موقفاً حاسما ضد القسطنطينية والاسكندرية أثناء الخلافات المذهبية فى القرنين الرابع والخامس . ثم كان من الطبيعى أن يؤدى اضمحلال الإمبراطورية الرومانية فى الغرب إلى ازدياد مكانة روما نفسها ، لأن العملية التى صار بمقتضاها أسقف روما ممثلا للتراث الرومانى فى الولايات التى استولى عليها الجرمان، كانت أكثر وضوحا فى العاصمة القديمة للإمبراطورية — أى روما — حيث انتقلت التقاليد الرومانية واستقرت فى دائرة الدين . ومصداق ذلك قول البابا ليو العظيم فى القرن الخامس ، مخاطبا أهل روما يوم عيد القديسين بطرس وبولص ، ما نصه : « إن هذين القديسين هما اللذان حققا لكم المجد الذى جعل منكم أمة مقدسة وشعباً مختاراً ، وجعل من مدينتكم مدينة إمبراطورية ومركزاً كهنوتياً ، حتى تجعلوا أنتم من أنفسكم رأس العالم بفضل قداسة كرسى القديس

(١) كانت نظرية القديس أوغسطين بشأن مدينة الله فى صميمها هى نظرية السمو الإمبراطورى فى العصور الوسطى، دون ذكر اسم روما والإمبراطورية الرومانية القديمة . وفى روما نفسها حيث قامت البابوية ، كان من السهل استدراك هذا الحذف ، وتصوير سلطة مستمرة الصدور من هذه المدينة القديمة ، وهى سلطة عالمية مرادفة فى سلطانها للامبراطورية الرومانية السالفة فى عز أيامها . ومعنى ذلك أن التقاليد الإمبراطورية القديمة وتراثها السالف كلها جاءت تجرر أذيالها إلى أسقف روما — أى البابا — بعد أن ظل التراث زمنا وهو ينادى هل من وريث ، وذلك منذ زوال السلطان الإمبراطورى القديم من روما الخالدة
انظر (C.H. Turner in : Cam .Med. Hist. vol. I,p. 173)

بطرس،وحتى تصير فى أيديكم شئون الحكم فى أنحاء العالم ، بفضل ديانة سماوية ، لا سيطرة أرضية دنيوية »[١] .

غير أن البابا ظل تابعا مخلصا للإمبراطور البيزنطى ، ونظر إلى مصلحة الإمبراطورية البيزنطية على أنها مرتبطة تمام الارتباط بمصلحة الديانة المسيحية عامة ، ولذا بحث جمع كتاب الصلوات بين « أعداء المجد الرومانى وأعداء العقيدة الكاثوليكية فى جملة واحدة » . ولا يزال كتاب القداس الرومانى يشتمل على دعاء للإمبراطورية الرومانية «أن يهدى الله جميع الشعوب البربرية إلى طاعة الإمبراطور ليتحقق السلام الدائم لنا جميعاً » . ثم حدث بعد عصر الغزو اللمباردى لإيطاليا — وبعد انقضاء عصر البابا جريجورى العظيم — أن استحالت السلطة الفعلية للإمبراطورية البيزنطية فى إيطاليا إلى خيال ، وغدت مسئوليات حماية روما وإطعام سكانها واقعة على كاهل البابا ، ومنذئذ صارت روما — مثل البندقية أو خرسون — مدينة شبه مستقلة داخل الدولة البيزنطية ، وبقيت بابا مفتوحا بين الشرق البيزنطى المتحضر والغرب الجرمانى المتبربر حتى وقتذاك ، كما بقيت ميدانا مشتركا لالتقاء الطرفين دون أن تكون تابعة لهذا أو ذاك .

---

(١) انظر (S.Leon. Mag. Sermones, 82) ، وكذلك (Prosper, de Ingratis. p. 51 et Seg.) . ويقارن القديس كولمبانوس كذلك بين نفوذ الإمبراطورية الرومانية الوثنية القديمة ونفوذ روما المسيحية الأوسع مدى ، فيقول ، « نرتبط نحن الإيرلنديين بصفة خاصة بكرسى القديس بطرس فى روما . ومهما تبلغ روما نفسها من عظمة وأبهة ، فإن هذا الكرسى هو مصدر العظمة والأبهة والشهرة بيننا . ومن المعروف أن شهرة هذه المدينة العظمى بلغت آفاق العالم كله ، غير أن هذه الشهرة لم تصل إلينا إلا عندما وصلت إلى سواحلنا سفينة الكنيسة عبر البحار الغربية ، يقودها المسيح ويسير امامها القديسان بطرس وبولس » . انظر (Epistle to Pope Boniface, ep. V.)

وكان هذا الوضع المتناقض العريب ملائماً أعظم الملاءمة لانتشار سلطان البابوية فى ممالك الغرب الجرمانية المتبربرة، لأن البابوية تمتعت بالمكانة الناجمة عن علاقتها بالإمبراطورية البيزنطية دون أى خطر من أن تكون أداة فى خدمة السياسة الإمبراطورية . ولذا لم يعترض ملوك الفرنجة أى اعتراض على تعيين أسقف مدينة آرل رسوليا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى غاليا الفرنجية كلها . ومع هذا ظل سلطان البابوية — كما ظل سلطان الكنيسة الكاثوليكية العالمية — محدوداً بسبب الضغط الباطنى الذى ران على الكنائس المحلية ، ولا سيما كنائس مملكة الفرنجة التى نالها من شدة المؤثرات البربرية واستمرار التدهور الحضارى مثلما نال المجتمع الأوربى كله وقتذاك .

ثم صار الأسقف المسيحى سيداً إقطاعيا مثل الكونت الاقطاعى ، وبقدر ما ازدادت ثروته المالية وسلطانه ازداد الخطر من جنوح الوظيفة الأسقفية نحو النواحى السياسية . ولم يكن للملوك أى أغراض متعمدة للتدخل فى اختصاصات الكنيسة ، لكنه كان من الطبيعى أن يتمسك الملك من الملوك بحقه فى التعيين لهذه الوظيفة التى يشترك صاحبها بنصيب هام فى إدارة شئون المملكة . وكثيراً ما كان المرشحون لهذه الوظيفة من لدن الملوك من أصحاب الأخلاق المريبة ، مثل الأسقفان اللصان سالونيوس وساجيتاريوس ، اللذان وصف جريجورى التورى أعمالها اللصوصية فى كتابه المعروف[1] . ثم أن تطور الدولة وقتذاك إلى مجتمع زراعى ، فضلا عن استمرار اضمحلال المدن ، كان له أوخم تأثير على أحوال الكنيسة ، نظراً لغلبة تأثير الريف المتبربر القريب من الوثنية على تأثير المدن ،

---

(١) انظر (Lib. IV. Cap. 42, V Cap. 20).

وذلك لأنه على حين تغلغلت المسيحية منذ بدايتها فى أقاليم الدولة البيزنطية بين أراضى الريف حتى أصبح الفلاحون وأهل الأرياف أكثر تأثراً بالمسيحية من أهل المدن ، نمت الكنيسة المسيحية فى غرب أوربا وشبت فى المدن ، ولم تؤثر تأثيراً عميقاً بين الفلاحين وأهل الأرياف المجاورة . ولذا سمى الفلاحون فى غرب أوربا باسم الباجانى ، أى الوثنيين ، وذلك لأنهم ظلوا متمسكين بعاداتهم وعقائدهم القديمة ، وطقوسهم فى أيام البذرة والحصاد ، ومظاهر احترامهم لأشجارهم وآبارهم ومياهها المقدسة ، شأنهم فى ذلك شأن جميع أهل الزراعة والفلاحة .

على أن الأساس الخلقى والاجتماعى للديانة المسيحية الجديدة فى غرب أوربا لم يكن بأية حال أجنبياً بعيداً عن الحياة الريفية، إذ بدأت المسيحية بدايتها الأولى بين صيادى الأسماك والفلاحين من أهل إقليم الجليل فى فلسطين ، وامتلأت تعاليم الانجيل بتصوير الحقول وحظائر الأغنام ومزارع الكروم ، ولم ينقص المسيحية التى نشأت بالمدن سوى جهاز جديد إلى جانب الأسقفية المدنية — لتستطيع أن تتغلغل فى الريف . ومما زاد فى أهمية استكمال هذا النقص أنه فى الوقت الذى كان انتقال الإمبراطورية إلى المسيحية يربط بين الكنيسة والمدينة وأهلها وحكومتها ، كانت حركة جديدة تصرف الناس عن الحياة فى المدن . وخلاصة هذه الحركة أن أبطال العصر الثانى من عصور المسيحية — وهم خلفاء عصر الشهداء — كانوا جماعات المتنسكين والزهاد من الرهبان والديرين، الذين تعمدوا أن يبتعدوا بأنفسهم عن أية صلة أو ناحية من تراث الحياة فى المدن ، ليحيوا حياة عمل وعبادة فى أبسط الأحوال المستطاعة .

ولذا عمرت صحارى مصر والشام فى القرن الرابع بمستعمرات من الرهبان والنساك ، وهى المستعمرات التى غـدت مدارس للحياة الدينية لجميع ولايات الإمبراطورية البيزنطية، ولجميع الشعوب المجاورة لها فى الشرق الأوسط . غير أن اختلاف الأحوال الاجتماعية فى الغرب الأوربى اضطرت الأديرة التى تمخضت عنها تلك الحركة فى غرب أوربا أن تتخذ موقفاً مختلفاً نحو المجتمع المحيط بها ، مع اتفاقها والأديرة الشرقية من حيث المثل العليا الأساسية فى الشرق والغرب على السواء .

ونتيجة لذلك صار الدير فى المناطق الريفية فى غرب أوربا هو المركز الوحيد للحياة المسيحية وتعاليمها ، كما صار الرهبان — لا الأساقفة وقساوستهم — هم الذين تقع على كواهلهم مهمة تحويل الوثنيين وأشباه الوثنيين من السكان الفلاحين إلى الدين المسيحى . ويتضح ذلك كله وضوحاً مبكراً فى حياة مؤسس الديرية فى غاليا الرومانية فى القرن الرابع ، وهو القديس مارتن التورى العظيم ، مع العلم بأن التطور الديرى الكبير فى تلك البلاد الغربية يرجع إلى حنا كاسيان، لأنه هو الذى جعل غاليا متصلة اتصالا مباشراً بالتقاليد الرهبانية فى الصحراء المصرية ، كما يرجع إلى القديس هونوراتوس مؤسس دير ليران فى غاليا ، وهو الدير الذى أصبح أعظم مركز للديرية فى غرب أوربا فى القرن الخـامس ، والمنبع الديرى الذى نبعت منه مؤثرات بعيدة المدى والأهمية .

غير أن أيرلندا الكلتية القريبة العهد باعتناق المسيحية وقتذاك ، والواقعة فى أقصى غرب أوربا ، هى التى انتشر فيهـا تأثير الديرية انتشاراً تاماً . وترجع بداية الحركة الديرية فى البلاد الأيرلندية إلى القرن الخامس ، ومن المحتمل أن

تدين بأصولها إلى دير مدينة ليران فى غاليا الفرنجية ، حيث تتلمذ القديس باتريك فى السنوات السابقة لرسوليته ، وحيث تولى راهب بريطانى اسمه فوستوس منصب المقدم فى ذلك الدير سنة ٤٣٣ . لكنه مع العلم بأن القديس باتريك هو الذى أدخل الحياة الديرية فى أيرلندا ، فإن تنظيمه للكنيسة الأيرلندية سار وفق الخطوط التقليدية فى التنظيم الأسقفى الذى سارت عليه الكنيسة البريطانية فى إقليم ويلز غربى بريطانيا . ولما كان من المعروف أن الأسقف الكاثوليكى الرومانى ارتبط بإحدى المدن دائماً ، فإن ذلك التنظيم الكنسى لم يستند إلى أساس اجتماعى طبيعى فى البلاد الكلتية ، حيث لم تكن المدينة — بل القبيلة — هى الوحدة الاجتماعية . ولذا أدى الانتشار العظيم للتأثير الديرى والثقافة الديرية فى القرن السادس إلى حلول الدير محل الأسقفية بصيرورته ، كذلك غدا مركزاً للحياة الكنسية والتنظيم الكنسى . وبدأت هذه الظاهرة فى جنوب إقليم ويلز ، حيث صار دير القديس إيلتيد بجزيرة كالدى مدرسة عظيمة للحياة الديرية ، على نمط دير مدينة ليران أوائل القرن السادس . ومن ذلك المركز انتشرت حركة الأحياء الديرى فى غرب بريطانيا ، وفى إقليم بريتانى ، بفضل جهود القديس سامسون ، والقديس كادوك الخلانكرفانى ، والقديس جلداس ، والقديس داود ، مع ملاحظة أن التطور العظيم فى الديرية الأيرلندية فى القرن السادس على يد الطبقة الثانية من القديسين ارتبطت بتلك الحركة ارتباطاً وثيقاً [1] . وكان القديس فنيان الكلونادرى ( ت ٥٤٩ ) — وهو المؤسس

(١) يضاف إلى ذلك تيار من التأثير الأجنبى مصدره دير القديس نتيان فى جالاواى باسكتلندا ، وهذا التأثير واضح فى ايرلندا فى دير القديسة إندا فى أران ، غير أنه يعد من الدرجة الثانية فى الأهمية ، بالقياس إلى تأثير ديرى خلانكرفان وكلونارد .

الأكبر للنظام الديرى الجديد — وثيق العلاقات بكل من القديس كادوك خلانكرفان والقديس جلداس ، وعن طريق هذا القديس فنيان وتلاميذه — وبخاصة القديس كياران الكلونما كنوازى ( ت ٥٤٩ ) والقديس برنارد الكلونفرتى والقديس كولمبا الأيونى — انتشرت التقاليد الديرية المنسوبة للقديس إيلتيد ومدرسته فى أيرلندا . وكان لهذه الحركة أهمية ثقافية أدبية ، بالإضافة إلى أهميتها التنسكية ، لأن مدرسة القديس إيلتيد والقديس كادوك غرست فى بيئتها تقاليد مدارس الخطابة القديمة ، كما غرست تقاليد الدراسات الكنسية ، وذلك بتشجيعها دراسة الأدب الكلاسيكى ( أى اليونانى الرومانى القديم ) .

وهذا هو أصل الحركة الثقافية التى تولدت عنها المدارس الديرية العظمى فى كلونارد وكلونما كنواز وبانجور ، والتى جعلت أيرلندا زعيمة الثقافة الغربية منذ أواخر القرن السادس . غير أنه من المحتمل أن يرجع تطور هذه الحركة إلى شىء من التقاليد الوطنية ، لأن الأيرلنديين — على خلاف غيرهم من الشعوب المتبربرة — اختصوا بتقاليد وطنية تدل عليها مدارس الشعراء أو النظاميين ، وهى المدارس التى حظيت بكثير من الثروة المالية والمكانة الاجتماعية . وورثت المدارس الديرية الجديدة هذه التقاليد الوطنية، واستطاعت أن تحل محل المدارس الدرويدية الوثنية والمدارس الشعرية القديمة ، وأن تغدو الأداة الثقافية للمجتمع الأيرلندى . ثم لم تلبث الثقافة الكلاسيكية المستوردة عن طريق الأديرة المسيحية أن امتزجت تدريجياً بالتراث الأدبى الوطنى، وأنجبت أدباً وطنياً جديداً مستلهماً من مؤثرات مسيحية إلى حد ما ، لكنه مؤسس على تقاليد وثنية قديمة . ومع أن معظم هذا الأدب وصل إلينا فى روايات بلغة أيرلندية متوسطة

ترجع إلى القرون الوسطى ، فليس ثمة شك فى أن أصول هذا الأدب ترجع إلى القرنين السابع والثامن – أى إلى العصر الذهبى للثقافة الأيرلندية المسيحية – وأن التقاليد الأدبية الخاصة بأيرلندا فى القرون الوسطى تمتد جذورها بعيداً إلى عصر ماقبل التاريخ . وأوضح الأمثلة دلالة على ذلك كله الملحمة النثرية أو الساجا العظيمة، والتى عنوانها تاين بو كا ولجنى ، وهى الملحمة التى ترجع بنا إلى ما قبل القرون الوسطى ، وإلى ما قبل التراث الكلاسيكى ، أى إلى أقدم عصور الحضارة الكلتية ، وتحفظ لنا ذكرى مرحلة من المجتمع الأيرلندى تشبه مرحلة الملاحم الهومرية . وعلى هذا يبدو أن فاصلا فجائياً بين التقاليد البربرية الوثنية القديمة والتقاليد الكنسية المسيحية لم يحدث فى أيرلندا مثلما حدث فى غيرها من البلاد، كما يبدو أن تمازجاً فريداً حدث بين الكنيسة المسيحية والمجتمع الكلتى القبلى على مقياس لا شبيه له إطلاقاً فى أى بلد آخر بغرب أوربا . ومن الدليل على ذلك أن النظام الكهنوتى الأسقفى للكنيسة ، وهو ما سار عليه سائر العالم المسيحى ، كان فى أيرلندا تابعاً تمام التبعية للنظام الديرى . ومع أن الأساقفة الأيرلنديين ظلوا يتولون مناصبهم ويقومون بواجباتهم الأسقفية ، فإنهم لم يكونوا حكام الكنيسة ، لأن الأديرة لم تكن مراكز للحياة الدينية والثقافية فحسب ، بل مراكز للسلطات الكنسية كذلك ، بحيث كان مقدم الدير هو الحاكم فى الإقليم الدينى أو الأسقفية ، وفى معيته واحد أو أكثر من الأساقفة للقيام على الأعمال الأسقفية الضرورية، إلا أن يكون مقدم الدير نفسه أسقفاً من الأساقفة . ومما هو أكثر غرابة فى ذلك الصدد أن هذا النوع الأيرلندى من السلطات الأسقفية مارسته فى بعض الأحيان نساء ، لأن أسقفية كيلدير — على سبيل المثال — كانت تابعة للدير العظيم الخاص بالقديسة بردجت . وكان

يدير شئون تلك الأسقفية أسقف بالاشتراك مع مقـدمة الدير ، ولذا كانت تلك الأسقفية — على قول مؤلف تاريخ حياة القديسة بردجت — « كرسياً أسقفياً وعذراويا فى آن واحد » [١].

وكانت الأديرة الأيرلندية مرتبطة أشد الارتباط بالتقاليد القبلية ، لأن العادة الجارية — بل السائدة — أن يكون اختيار مقدم الدير من العشيرة القبلية التى ينتمى إليها مؤسس ذلك الدير . ومن الدليل على ذلك ما جاء فى « كتاب تاريخ أرماخ » ـ فى حوادث القرن التاسع ـ من أن أسقفية أقليم تريم ظلت لمدة تسعة أجيال يتولاها أفراد من سلالة الرئيس الذى بنى الكنيسة فى ذلك الأقليم زمن القديس باتريك . وعلى هذا النمط كان المقدمون الأولون لدير أيونا من سلالة أسرة القديس كولمبا ، وهى الأسرة الملكية فى آوى نيال الشمالية [٢] .

ومن ناحيتى التنظيم والحياة اليومية أشبه الرهبان الأيرلنديون أسلافهم المصريين شبهاً كبيراً ، ونافسوا رهبان الصحراء فى صرامة نظمهم اليومية

---

(١) انظر (Raynan, Irish Monasticism, p.p. 179 - 184) ، حيث ورد أن مكانة القديسة بردجت بلغت من الغرابة درجة جعلت بعض القصص يذهب إلى التأكيد بأن تعينت هذه القديسة فى منصب الأسقفية تعييناً كنسياً رسمياً .

(٢) توجد كذلك أدلة على قيام أساقفة قبليين من غير الديريين ، لأنه يبدو أن القوانين حتمت أن يكون لكل مقاطعة أو إقليم أو قبيلة أسقف ، وهذا الأسقف يشغل فى إقليمه مركزاً يلى الملك . انظر (Rayon : op, cit. p. 300, n. 2) وهذه الأسقفيات الإقليمية هى أصل الأبرشيات الأيرلندية فى العصور الوسطى ، ولكنها كانت فى أول أمرها أقل أهمية من الأديرة وسلطاتها الديرية العظيمة . وكان مما أضعف كذلك من نفوذ هذه الأسقفيات وجود الأساقفة الجوالة العديدين ، أمثال أولئك الذين شكا القديس بونيفيس من وجودهم فى أوربا فى القرن الثامن .

وتقشف حياتهم . ولم تكن أديرتهم مباني ضخمة مثل الأديرة البندكتية التالية لعصرهم ، بل تألفت أديرتهم من مجموعات من الأكواخ والخلوات الصغيرة — مثل القلايات المصرية — وأحاط بالمجموعة الواحدة منها سور من الطمى . واحتفظ الرهبان الأيرلنديون بالفكرة الشرقية بأن الحياة الانعزالية هى أقصى ما تسمو إليه الحياة الديرية . واتخذت هذه المثالية فى أيرلندا طريقاً لا مثيل له فى أى بلد من البلاد الأخرى،وهو أنه صار من المألوف للرهبان أن يكرسوا أنفسهم مختارين لحياة الاغتراب عن الوطن والحجيج إلى مختلف البلاد . ومن الأمثلة الدالة على تلك الظاهرة ما أورده كتاب الحوليات الأنجلوسكسون ( سنة ٨٩١ ) من قصة الرهبان الثلاثة « الذين تسللوا خفية من أيرلندا فى سفينة صغيرة خالية من المجاديف رغبة منهم فى أن يحيوا حياة الحج فى سبيل الله ، دون أن يعرفوا أين يكون ذلك السبيل » . ثم أدت هذه الظاهرة إلى حركة ارتحال واستكشاف انعكست صورها فى قصص خيالية ، مثل قصة مغامرات القديس برندان الملاح. وعندما اكتشف الفيكنج جزيرة أيسلاند ، وجدوا أن « الآباء » الأيرلنديين سبقوهم إلى هناك ، وأن كل جزيرة من جزر البحار الشمالية اشتملت على مستعمرة من النساك ، بل إن القصاصين الذين استقى منهم الجغرافى السكارولنجى ديكويل معلوماته تدل على أن أولئك القصاصين أبحروا إلى ما وراء جزيرة أيسلاند وأنهم وصلوا إلى المحيط المتجمد الشمالى .

على أن الأهمية الحقيقية لهذه الحركة كلها تنحصر فيما تولد عنها من حماسة النشاط التبشيرى . وكانت الجهود التبشيرية أعظم ما أسهم به الرهبان الكلتيون فى ميدان الثقافة الأوربية ، إذ كان كل من المستعمرات الديرية التى أسسها

القديس كولمبا فى جزيرة أيونا فى غرب اسكتلندا ، والتى أسسها سميه كولمبانوس بمدينة لوكسويل فى غاليا ، نقطة بداية لانتشار واسع للدين المسيحى ، إذ يرجع الفضل إلى المستعمرة الأولى فى تحويل اسكتلندا ومملكة نورثمبريا إلى المسيحية، كما يرجع الفضل إلى المستعمرة الثانية فى إحياء الديرية فى مملكة الفرنجة، وتحويل البقايا الوثنية فيها إلى المسيحية. ثم لم يلبث دير لوكسويل — بفضل رهبانه الستمائة — أن غدا عاصمة ديرية لغرب أوربا ، ومركزاً لحركة عظيمة للتعبير والتبشير . وإلى جهود هذا الدير كذلك يرجع الفضل فى تأسيس عدد كبير من الأديرة العظيمة فى العصور الوسطى، لا فى فرنسا فحسب، بل فى فلاندرز وألمانيا وسويسرا وإيطاليا. ومن هذه أديرة جوميج وسانت فانديرى وسولينياك وكوربى فى فرنسا، وستافيلو ومالميدى فى بلجيكا، وسانت جال وديسنتيس فى سويسرا، وبوبيو فى إيطاليا، وهو آخر ما أسسه القديس كولمبانوس بنفسه من أديرة. وفى أنحاء أوربا الوسطى ترك أولئك الرهبان الأيرلنديون الجوالون آثاراً تدل عليهم . ولا تزال الكنيسة الألمانية تحفظ أسماء القديس كليان ، والقديس جال ، والقديس فريدولين ، والقديس كوربنيان فى سجل مؤسسيها الأولين .

ومن اليسير أن ندرك ما بلغته هذه الحركة من تأثير فى أوساط الفلاحين ، إذ كانت فى صميمها حركة ريفية عازفة عن المدن ، متجهة نحو أوعر الأقاليم الغابية والجبلية . ولذا كان وجود هذه المستعمرات المكونة من جماعات الرهبان المتنسكين ، ذوى الأردية السوداء ، أبعد تأثيراً فى عقول الفلاحين من وعظ الأساقفة والقساوسة أهل المدن البعيدة . وغدا أولئك فى عقول الفلاحين يشعرون شعوراً جديداً بروح أقوى من مجموعة الأرواح والأشباح التى صورتها لهم دياناتهم الوثنية الريفية القديمة . يضاف إلى ذلك أن الرهبان الأيرلنديين أنفسهم كانوا من أهل الريف ، وفى قلوبهم حب عميق للطبيعة وأشجارها

وحيواناتها البرية . ومثال ذلك ما يرويه مؤلف تاريخ حياة القديس كولمبان ، إذ يروى كيف كانت السناجب والطيور تقترب من هذا القديس وهو سائر فى الغابات ليلاطفها بيده ، وأنها « كانت تلهو حوله وتقفز فى سرور عظيم ؛ مثلما تلعب الكلاب الصغيرة حول سيدها » (١) .

والواقع أن روايات القديسين الديريين تمتلىء بحب يشبه حب القديس فرنسيس للطبيعة ومخلوقاتها . ومن المعروف أن مصدر المثل الأعلى لرهبان الديرية الكلتية هو الصحراء ، ولذا أحب أولئك الرهبان أنواع الغابات الخالية من الناس ، وكان أحسن منها عندهم الجزر النائية غير المأهولة ، مثل جزيرة سكلج ميخائيل ، وهى من أروع الأمكنة والمواضع الديرية . وكان شأن الرهبان الكلتيين فى ذلك شأن الرهبان الشرقيين فى أختيار جبل آثوس ، وهو الدير المعروف باسم دير متيورا . غير أن المستعمرات الديرية كانت مضطرة بحكم الضرورة إلى القيام بأعمال الفلاحة ، مثل إزالة الغابات وحراثة الأرض للزراعة . وتفيض أخبار القديسين الديريين فى العصر الميروفنجى — سواء كانوا غاليين أو كلتيين — بإشارات إلى أعمالهم الزراعية ، وجهودهم فى إزالة الغابات وإعادة الزراعة إلى الأراضى التى هجرها أصحابها خلال عصر الغزوات الجرمانية . وكان كثير من أولئك الديريين أنفسهم من نسل الفلاحين ، مثل القديس والاريك — مؤسس دير سانت فاليرى على نهر السوم . وإذ كان غيرهم من الديريين نبلاء بحكم مولدهم ، فإنهم قضوا حياتهم كلها يعملون فى الفلاحة ، مثل القديس ثيودلف مقدم دير سانت تييرى قرب مدينة ريمس ، وهو الذى لم ينقطع عن العمل

(١) انظر (Jonas. Vita Columbani. 1, 17)

فى الأرض يوماً من الأيام ، حتى أن الفلاحين علقوا محرائه فى الكنيسة على أنه أثر من آثاره الدينية .

وأولئك هم الرجال الذين لاريب يرجع إليهم تحويل الفلاحين إلى المسيحية، لأن شدة قربهم من عادات الفلاحين وتقاليدهم أمكنتهم من تمزيج تلك العادات والتقاليد بروح الديانة الجديدة ، وعن طريقهم انتقلت عادة أحترام الفلاحين لأرواح الطبيعة إلى تقديس القديسين ، وترتب على ذلك أن قديم الآبار والأشجار والأحجار الوثنية المقدسة ظلت كذلك موضع القداسة بين الفلاحين المسيحيين ، لكن قداستها غدت عندهم صادرة عن قوى مسيحية جديدة ، متعلقة بحوادث روحية جديدة . ومثال ذلك أن الفلاحين الساكنين قرب مدينة ريتس تبركوا فى العصور الوسطى بشجرة مقدسة ، قيل إن معجزة أنبتتها فى موضع العصى التى طعن بها القديس ثيودلف مقدم ديرسان تييرى .

وفى غرب أوربا حلت الصلبان الحجرية المنشوبة للقديسين المسيحيين محل النصب الوثنية القديمة ، كما توجت أطلال كوم كارنك فى بريتانى ببناء كنيسة للقديس ميخائيل ، وكما تحولت مسطبة جنائزية فى بلوكرت فى بريتانى إلى كنيسة للقديسين السبعة[1] . ولم تنجح الكنيسة فى إبطال العادات الوثنية القديمة إلا بصعوبة ، وذلك فى الغالب بإحلال طقوس مسيحية محل طقوس وثنية . وإذا كان من المشكوك فيه برغم وروده فى الكتاب البابوى بأن البابا ليو أبتدع احتفالات الشموع لتحل محل احتفالات اللوبرقان — أى أعياد

(١) حدث فى بريتانى بعض الأحيان أن صار الصنم الوثنى القديم نصبا مسيحيا وذلك بإضافة صليب صغير إليه .

الإله لوبرقوس ـ فإنه يبدو أن الصلوات العظمى والمواكب الدينية التى صارت تقام فى الخامس والعشرين من أبريل من كل عام حلت محل الروبجاليا، كما حل عيد الأوبلاتيو أو عيد القربان محل عيد أبولينارس الضاحك . وثمة ناحية أدعى للالتفات هى التشابه الواضح بين حفلات أيام البرمون المسيحية والحفلات الوثنية الموسمية التى تحتفل بأيام الحصاد وجمع الكروم وبذر البذور ، إذ تمتلأ الصلوات الخاصة بموعد أيام البرمون بإشارات إلى أيام بذر البذور التى تربط هذه الصلوات بينها وبين مولد المسيح. ومن ذلك ما نصه فى صلوات البرمون، حسبما جاء فى الكتاب البابوى نقلا عن جريزار « فنزلت البذرة المقدسة من الأعالى ، وكما نعتمد فى حياتنا الدنيوية على ما تخرجه الأرض من ثمار ، فإن هذه البذرة الصادرة من الأعالى تمد أرواحنا بغذاء الخلود ، أى أنه بعد أن تخرج الأرض غلتها ونبيذها وزيتها، يأتى ميلاد المسيح الذى لا تمحى ذكراه ، والذى عن طريق رحمته يفيض قوت الحياة بين أتباع الرب[1] » .

غير أن ذلك التجلى المسيحى لروح العقائد المرتبطة أسرارها بأسرار الزراعة بلغ من الروحية مايتعذر على عقلية الفلاحين أن تدركه ، ولذا ظلت الطقوس الوثنية القديمة باقية ، برغم جميع الجهود الكنسية لإلغائها ، وظل الفلاحون فى أنحاء أوربا يشعلون النيران فى منتصف الصيف من كل عام إحياء لعيد ميلاد

---

(١) هذا النص مأخوذ من الترجمة الإنجليزية للكتاب البابوى المنسوب للبابالبو ، نقلا عن (Grisar: Rome and the Popes in the Middle Ages, III, p. 285) وينبه جريزار إلى التوافق العجيب بين النص الخاص بصلاة القديس فى يوم الأربعاء الأول من أيام البرمون فى سفر إشعيا ، وبين ما جاء فى أشعار أوفيد ، وهو الشاعر الرومانى الوثنى القديم ، فى وصف آلهة الحصاد والقمح فى أعياد الحصاد . انظر (Fasti: I, V, 597)

القديس حنا ، ويحتفلون فى الربيع بالطقوس السحرية الخاصة بالخصوبة[1] ، بل لاتزال توجد فى الريف الأوربى حتى العصر الحاضر — على قول الكاتب موريس بيريس فى كتابه الذى عنوانه «الرابية الملهمة» — بعض القوى الشريرة المتعلقة بقديم ديانات الطبيعة ، ولاتزال هذه القوى تنزع إلى الظهور والانتشار كلما بدا أن هيمنة الحياة المسيحية الجديدة تجنح إلى التساهل . وبرغم ذلك فإنه مما يوجب الالتفات أن الأقاليم التى ظلت فيها هذه البقايا الوثنية النزاعة إلى الظهور واضحة تمام الوضوح هى الأقاليم التى تأثرت فيها حياة الفلاحين أعمق تأثير بالأخلاق والمعنويات المسيحية ، مثل بريتانى والتيرول . ذلك لأن المسيحية نجحت نجاحاً تاماً فى صوغ التقاليد والصلوات الريفية فى قالب جديد ، فاختفت الآلهة الوثنية القديمة ، وصارت مزاراتها المقدسة مزارات للقديسين فى الديانة المسيحية ، مع التسليم بأن عادة التبرك بالمزرات المحلية والحجيج إليها أفسحت مجالا لأنواع من البقايا الوثنية الغربية ، مثلما نرى فى موسم الكفارات البريتونية فى إقليم بريتانى حتى اليوم . لكن هذا الاستمرار فى التقاليد

---

(١) حفظت الوثائق مثالا من أعجب الأمثلة الدالة على بقاء السحر القديم لتخصيب الأرض واستمرار ذلك فى ثوب مسيحى، فى التعويذة الأنجلوسكسونية المعقدة الخاصة بالأرض المجدبة . وخلاصة هذه التعويذة المسيحية أن يقام قداس للصلاة على أربع حفنات مأخوذة من تربة الأركان الأربعة فى حقل من الحقول ، ثم يوضع بخور وملح مبارك فى قلب المحراث ، وعندما يخط الحارث أول خط فى الأرض بالمحراث ، فعلية أن يكرر التعويذة التالية للالهة الأم ، أى الأرض ، وهى :

لبيك أيتها الأرض ! ياأم البشر
كونى خصيبة فى أحضان الرب
وامتلئى بالطعام من أجل الناس .

انظر (Anglo - Saxon Poetry trans. R. K. Gordon, pp. 98 - 100 (Everymans Library)

والعادات الريفية ، أو بعبارة أخرى هذا الجمع بين القديم والجديد ، هو الذى فتح عقول الفلاحين للمؤثرات المسيحية بطريقة لم يكن فى استطاعة تلك العقول أن تقبلها بأية طريقة أخرى ، بدليل أن اختفاء عادات الفلاحين القديمة فيما بعد كان يصحبه فى الغالب رجوع إلى وثنية من نوع أعمق بكثير من بقايا الوثنية القديمة .

على أن نشر المسيحية فى الريف الأوربى خلال العصر الميروفنجى كان خدمة من عديد الخدمات التى أدتها الديرية للحضارة الأوربية ، إذ شاءت المقادير أن تكون الديرية كذلك هى الأداة الرئيسية للبابوية فى أعمالها فى سبيل الإصلاح الكنسى ، وأن تؤثر الأديرة تأثيراً حيوياً فى إعادة التنظيم السياسى والثقافى فى المجتمع الأوربى . ذلك أن المرحلة الزمنية التى شهدت ظهور الديرية الكلتية فى أيرلندا شهدت كذلك تطوراً ديرياً جديداً فى إيطاليا ، وهو تطور كانت له أهمية تاريخية أعظم من أهمية الديرية الكلتية .ويرجع الفضل فى هذا التطور إلى القديس بندكت « شيخ الرهبان فى الغرب الأوربى»، وهو مؤسس دير مونت كاسينو ، حوالى سنة ٥٢٠ م . وهذا القديس هو الذى طبق عناصر العبقرية اللاتينية نحو النظام والقانون على الحركة الديرية ، وهو الذى أكمل النواحى الاجتماعية التى بدأها القديس باخوم والقديس باسل فى الحياة الديرية . ذلك أن المثل العليا عند رهبان الصحراء كانت هى التنسك الإنفرادى ، ولذا ظلت أديرتهم مجموعات من النساك، على حين قامت الطريقة الديرية البندكتية فى صميمها على أساس تعاونى اجتماعى ، ولم تكن غايتها إظهار مستويات بطولية فى التنسك ، بل تعليم مبادىء الحياة المشتركة فى «مدرسة واحدة لخدمة الرب». وبالقياس إلى القديس باخوم ، أو طريقة القديس كولمبان، تبدو طريقة القديس

بندكت معتدلة سهلة على اتباعها ، لكنها تطلبت من التنظيم والاستقرار درجة أعلى كثيراً من الطريقتين السالفتين، إذ كان الدير البندكتي دولة مصغرة له هيئته ودستوره وحياته الاقتصادية المنظمة . ومنذ البداية كان الدير البندكتى مؤسسة مالكة زراعية لها ضياع وأفنان وكروم ، كما يشغل الاقتصاد الديرى فى دستور القديس بندكت مكاناً أوسع من مكانه فى أى دستور من الدساتير الديرية السابقة. ومن هنا كانت أهمية العمل التعاونى الذى ملأ جزءاً كبيراً من حياة الراهب البندكتى ، لأن القديس بندكت تأثر بالمثل العليا التى أشار إليها القديس أوغسطين فى كتابه الذى عنوانه « وظيفة الرهبانيين » ، ولأنه شارك القديس أوغسطين فى كراهيته للرهبان المتبطلين العاطلين من أى عمل ، المتشردين فى مناكب الحياة ، الجالبين سوء السمعة للديرية فى الغرب الأوربى وقتذاك .

على أن الواجب الأول فى حياة الراهب لم يكن العمل اليدوى بل الصلاة، ولا سيما صلاة التراتيل الجامعة التى وصفها القديس بندكت بأنها « الصلاة الخالصة لوجه الله». ثم كان للدراسة الكلاسيكية نصيبها من العناية ، والديرية هى التى حفظت التراث الثقافى الكلاسيكى حياً بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة فى الغرب . ومن الدليل على ذلك أن آخر شخصية من شخصيات الموظفين المدنيين الرومانيين العارفين بتقاليد الثقافة الكلاسيكية فى الغرب — وهو كاسيودورس — كان كذلك مؤسساً من مؤسسى الأديرة، ومؤلفاً لأول منهج للدراسات الديرية . ومما لا شك فيه أن الثقافة الأدبية المبهرجة فى أسلوب هذا الخطيب الكاتب البليغ أيام إنشائه مدرسة الفيفاريوم ، اختلفت كل الاختلاف عن البساطة الروحية الصارمة التى استمدت منها طريقة القديس بندكت موادها التنظيمية. على أن الديرية الغربية ورثت تقاليد هذين التراثين الكلاسيكى

والمسيحى فى شخص كاسيدور ، ولا سيما حين صارت طريقة القديس بندكت هى الطراز للحياة الديرية فى إيطاليا بفضل تأثير البابوية، كما صارت النموذج العام للديرية الأوربية فيما بعد . وهكذا أعقبت مرحلة التوسع الديرى الكلتى مرحلة أخرى هى التنظيم اللاتينى البندكتى للحياة الديرية فى أنحاء غرب أوربا[1] .

ويرجع الفضل فى بداية هذه الحركة الداعية إلى الديرية البندكتية فى أنحاء العالم المسيحى إلى جهود البابا جريجورى الأول ، وأصله راهب بندكتى . وبناء على دعوته خرج القديس أوغسطين الصغير ورهبانه من الدير البندكتى المؤسس على تل كايليان، فى بعثة للتبشير العام بالمسيحية فى إنجلترا . ولعل الدير البندكتى فى كانتربورى كان أول مؤسسة بندكتية خارج إيطاليا .وصار هذا الدير نقطة البداية فى حركة داعية إلى التنظيم الدينى والوحدة ، وهى الحركة التى خلقت مركزاً جديداً للحضارة المسيحية فى أقصى الغرب الأوربى .

ولهذا نستطيع القول بأن ظهور الثقافة الأنجلوسكسونية الجديدة فى القرن السابع كان أهم حادث فى التاريخ الأوربى بين عصر جستنيان وعصر شارلمان ، نظراً لما كان لهذا الحادث من تأثير عميق فى جميع نواحى التطور الأوربى .

---

(١) يرى الأب تشابمان أن القديس بندكت أعد طريقته لتكون دستوراً رسمياً للديرية الأوربية الغربية ، وذلك بناء على إقتراح البابا هورمسيداس ، فضلا عن اقتراح اللاهوتى ديونسيوس القصير . ويرى الأب تشابمان كذلك تأثير الطريقة البندكتية فى التشريعات الديرية التى أصدرها الإمبراطور جستنيان فى مجموعة المتجددات المشهوره ، وكذلك مؤلفات كاسيودورس، غير أن كلا من هذين الرأيين يثير مشكلات صعبة فى موضوع الديرية . انظر :
(Chapman: St. Benedict and the Sixth Century 1959)
وكذلك نقد الأب كابرول لهذا الكتاب فى مجلة (Dublin Review, July, 1930).

وهذا الحادث يدين فى أصله ديناً متساوياً إلى كل من القوتين اللتين تقدم وصفهما ، وهما الحركة الديرية الكلتية ، والتبشير البندكتى المنبعث من روما ، إذ كان شمال إنجلترا ( نورثمبريا ) ميداناً مشتركاً لهاتين القوتين . وهنا كانت نشأة الثقافة المسيحية الجديدة فى السنوات الواقعة بين ٦٥٠ ، ٦٨٠ نتيجة لتجاوب هذين العنصرين المختلفين وامتزاجهما بعضهما فى بعض . ذلك أن المسيحية وصلت إلى نورثمبريا الإنجلية على يد باولينوس الرومانى، وهو الذى عمد الملك أدوين سنة ٦٢٧ ، وأنشأ كرسياً أسقفياً إنجلياً فى مدينة يورك الرومانية القديمة . غير أن هزيمة الملك أدوين على يد الزعيم بندا الوثنى وكادوالون ملك الغال ( ويلز ) أدت إلى زوال الكنيسة الإنجلية الرومانية مؤقتاً ، حتى أعادها الملك أوزوالد سنة ٦٣٤ بمساعدة القديس آيدان والمبشرين الكلتيين الذين اصطحبهم معه من جزيرة أيونا إلى مدينة لندسفارن ، وهو ما جعل للتأثير الكلتى سيطرة عظمى طوال عهد هذا الملك . ولم يستطع العنصر الرومانى أن يتغلب على ذلك التأثير الكلتى إلا أيام مجمع هوثبى سنة ٦٦٤ ، نتيجة لتدخل القديس ولفريد الذى كرس حياته الطويلة العاصفة لخدمة الوحدة المسيحية الرومانية ، وإليه وإلى صديقه وزميلة القديس بندكت البسكوبى يرجع تأسيس الديرية البندكتية فى شمال إنجلترا . وكان لنشاط أولئك القديسين الرهبان أهمية، لا كنسية فحسب، بل لأنهما كانوا رسل حضارة بالإضافة إلى الدين، وإليهما ترجع نشأة الفن الإنجلى الجديد. ذلك أنهما عادوا من رحلاتهم العديدة إلى روما وغاليا ومعهم كثير من الصناع المهرة والمهندسين المعماريين والموسيقيين الكنسيين ، فضلا عن الكتب والصور والملابس الكنسية ، ولذا غدت أديرتهم فى ريبون وهكسهام وويرموث وجارو أعظم مراكز للثقافة الجديدة.

وفى الوقت نفسه كانت عملية مشابهة تجرى فى مدينة كانتربورى بالجنوب، على يد مبعوثين اثنين بعثهما روما إلى إنجلترا سنة ٦٦٨، وهما ثيودور الطرسوسى رئيس الأساقفة اليونانى السورى الأصل، وهادريان المقدم الديرى . وإلى هذين الرجلين نستطيع أن نرجع ظهور موجة جديدة من ثقافة أعلى، مصدرها الشرق. وهذه الثقافة الأعلى تفسر إلى حد كبير نهضة الدراسات الأنجلوسكسونية وسمو الأسلوب اللاتينى فى مؤلفات العالم بيده وألكوين على الأسلوب اللاتينى الساذج الذى كتب به جريجورى التورى أو المؤلف الكلتى المجهول صاحب الكتاب الذى عنوانه هسبريكا فامينا . ذلك أن الثقافة الأعلى بقيت فى الولايات البيزنطية فى شمال إفريقية والشرق أكثر مما بقيت فى غيرها من البلاد، وان الفتوح العربية الإسلامية دفعت سيلا من اللاجئين إلى الغرب الأوربى، وأولئك قاموا فى القرن السابع بدور مشابه — إلى حد ما — للدور الذى قام به اللاجئون اليونانيون الذين فروا من وجه الفتح العثمانى للقسطنطينية فى القرن الخامس عشر. ولذا امتلأ الكرسى البابوى فيما بين ٦٨٥، ٧٥٢ بسلسلة من البابوات اليونانيين والسوريين، وكان كثير من أولئك البابوات على جانب كبير من كريم الأخلاق. وحوالى ذلك الوقت بلغ التأثير الشرقى أعظم درجاته لا فى روما فحسب، بل فى أنحاء الغرب الأوربى، ووضح ذلك التأثير الشرقى وضوحاً تاماً فى الفن الأنجلى. ولذا نرى منذ حوالى سنة ٦٧٠ — وربما نتيجة لنشاط بندكت البسكوبى — مدرسة جديدة للنحت والزخرفة بدلا من مدرسة الفن الجرمانى القديم . وهذه المدرسة الجديدة شرقية خالصة فى إلهامها، معتمدة فى زخارفها على الوحدة الفنية السورية المكونة من أوراق كروم متعانقة مع أشكال طيور وحيوانات، على نسق ما نرى فى المجموعة العظيمة

من الصلبان الإنجلية ، لاسيا الصليبان المشهوزان المحفوظان فى مدينتى روثول وبيوكاسل بإنجلترا ، وهما الصليبان اللذان يحتمل أن يرجع تاريخهما إلى بداية القرن الثامن . ومما يدل على قيام مدرسة أيرلندية كذلك للفن فى نورثمبريا ، كتاب أناجيل لندسفارن العظيم ، غير أنه لا يوجد أى دليل على تأثير هذه المدرسة الإيرلندية ، فى العمارة أو النحت[1] . على حين كان الفن فى إنجلترا السكسونية محتويا على عدة عناصر تكشف ، لا عن تأثير الطراز الشرقى فى صورتيةالنورثمبريةوالميروفنجية فحسب ، بل عن تأثير الفن الأيرلندى كذلك .

غير أنه كان وراء هذه التأثيرات الأجنبية كلها أساس من الثقافة الوطنية، بدليل أن الزمان والمكان اللذين انتجا الصلبان الآنجلية ، شهدا كذلك نهضة الأدب الأنجلوسكسونى . وفى ذلك العصر اتخذت قصة بيوولف الوثنية القديمة شكلها الأدبى النهائى . وكان مما دل أكثر دلالة على ذلك العصر ظهور الشعراء المسيحيين ، وهم الشاعر كيدمون راعى الأغنام فى دير هويتبى — وهو الذى حفظ لناالعالم بيده قصة حياته،والشاعر كينيوولف مؤلف كثير من القصائد التى لاتزال باقية ومنها قصائد اندرياس ، وألين ، وجوليانا . وربما كذلك القصيدة التى عنوانها « رؤيا الصليب القائم » ؛ وهى القصيدة التى نقشت منها فقرة على صليب روثول الذى تقدمت الإشارة إليه .

على أن ظهور هذا الأدب الوطنى يدين ولا ريب ــ بعض الدين ــ إلى تأثير

---

(١) هذه وجهة نظر المؤلف برونشتد :
(Brondsted : Early English Ornament p. 92)
ومن ناحية أخرى ينسب الأستاذ بالدوين براون كتاب أناجيل لندسفارن إلى العبقرية الآنجلية طنية .

أيرلندا، حيث كانت نهضة فى الثقافة المسيحية الوطنية تأخذ طريقها فى سنوات ذلك العصر . لكنه ينبغى أن يكون واضحا أن الأدب الأنجلوسكسونى مطبوع خاص، فلا هو كلتى ولا هو تيتونى، بل هو أنجلوسكسونى. واتصف هذا الأدب بروح كآبة خاصة، لا علاقة لها بروح « الكآبة الكلتية » المعروفة فى التقاليد الأدبية القديمة، بل هى كآبة أناس يعيشون بين أطلال حضارة بائدة ، وتعيش أفكارهم على أمجاد الماضى وغرور التقدم البشرى على مر الدهور(١). على أن هذا التراث الوطنى لم يكن أنجلوسكسونيا فحسب، بل يحتمل أن يكون مرجعة كذلك إلى أزمنة أبعد من الازمنة الأنجلوسكسونية . ومما يرجح هذا الاحتمال تدليل الأستاذ كولنجوود فى كتابه الذى عنوانه بريطانيا الرومانية ، بأن الازدهار المفاجىء للفن الأنجلى يرجع إلى نهضة مصدرها عبقرية السكان الأصليين الذين جاء الأنجلوسكسونيون إلى بلادهم فاتحين ، (٢) وهذه النهضة تكون أكثر ما تكون صادرة من أصحاب

---

(١) من الأمثلة على ذلك ماتحتوية الأبيات الشعرية المأخوذة من القصيدة التى عنوانها « الهائم » وهى القصيدة الواردة فى كتاب الأشعار الأنجلوسكسونية ، وهى مترجمة هنا فى عبارة منثورة، ونصها :هكذا أراد خالق البشر أن يجعل هذه الأرض خراباً ، وغدا ما بناه العمالقة الأولون خلوا من الحياة ، صفرا من صخب أرباب القصور الحصينة العالية عند ذلك لا يملك الإنسان الذى يفكر تفكيراً طويلا فى أسس الكائنات ، ويتبصر هذه الحياة المظلمة تبصراً عميقاً وينبض قلبه بالحكمة ، سوى أن يرجع بذكرياته إلى عديد المجازر البشرية الماضية ، ويقول فى نفسه هذه الكلمات : أين ذهبت الخيل ؟ وأين ذهبت الخيالة ؟ وأين ذهب أرباب العطايا والهدايا؟ وأين ذهبت قاعات الولائم الحافلة الصاخبة؟ وأين مباهج القصور ؟ واحسرتاه على أيام الفرسان وزرودهم الحربية ، واحسرتاه على مجد أيام الأمراء ! كيف ذهبت هذه الأيام ؟ وكيف استطال الظلام فى بهيم الليل ، كأن هذه الأيام الوضاءة لم تكن أبدا؟. انظر كذلك قصيدة الخربة وقصيدة ديور ، وقصيدة رائد البحار ، وغيرها من القصائد فى مجموعة الأشعار الأنجلوسكسونية ، وكذلك فى :

(Gordon : Anglo Soxon Poetry. p.82)

(٢) انظر

(R. G. Collingwood : Roman Britain, first ed. p.101)

الزعامة الدينية والثقافية وقتذاك . ومما هو جدير بالنظر هنا عدم وجود أى أثر من آثار الانجليين الوثنيين فى إقليم برنيسيا شمالى نهر نيز — وهو إقليم السيطرة النورثمبرية زمن القديس آوزوالد — إذ يدل عدم وجود أى أثر من آثار الانجليين الوثنيين فى ذلك الإقليم على احتمال بقاء عناصر وطنية قوية فى نفس الاقليم الذى أسهم بأكبر نصيب فى تاريخ الثقافة الانجلية ، وهو إقليم تاينسايد والطرف الشرقى من الحائط الرومانى (٢) .

وينطبق هذا التدليل على إقليم وسكس فى الجنوب ، وإن كان ذلك الانطباق على مقياس أصغر ، لأن كل الزعيمين آلدهلم وبونيفيس جاء من بلاد يحتلها السكسون فى العصور الأولى. وتفسير ذلك أن محبة الانجلوسكسونيين — وهم حديثو العهد بالمسيحية — وحماستهم نحو الثقافة اللاتينية والتنظيم الرومانى، لم تكن لتحدث فجأة عارضة ، لأن رجلا من طراز العالم بيده ، وهو يمثل أعلى مستوى ثقافى فى الغرب الأوربى فيما بين سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة والقرن التاسع — لا يعقل أن يكون ثمرة اصطناعية ناتجة عن وصول بعثة إيطالية للتبشير بالمسيحية بين برابرة جرمانيين فى انجلترا ، بدليل أن ظهور هذا الطراز من الرجال بين الدانيين ( أهل الدنمارك ) ، حتى بعد اعتناقهم المسيحية ، لم يكن أمراً متوقعاً أو فى حيز الإمكان . والواقع أن التغيير الذى تم فى انجلترا نتيجة دخول الانجلوسكسونيين فى المسيحية كان تغييراً

---

(٢) انظر
(Thurlow Leeds: The Archaeology of the Anglo — Saxon Settlements, pp. 70 71).

عظيما، إذ ترتبت عليه عودة التراث الثقافى القديم بعد سنوات طويلة من الغلبة البربرية المؤقتة ، فضلا عن عودة انجلترا — أو بعبارة أخرى بريطانيا — إلى أحضان أوربا وإلى ماضيها التاريخى .

وهذا هو السبب الذى جعل الثقافة الديرية المسيحية تبلغ فى انجلترا درجة من الاستقلال والذاتية لم تبلغها فى سائر أوربا ، ما عدا أسبانيا لمدة معينة . ففى الأقاليم الفرنجية ظلت الملكية تحتفظ بشىء من هيبة الدولة الرومانية القديمة ، وتمتعت الملكية الفرنجية — كما رأينا — بقدر كبير من السيطرة على الكنيسة . أما فى انجلترا فكانت الكنيسة هى الوريثة القوية المسيطرة على التراث الثقافى الرومانى القديم كله ، على عكس الممالك الإنجليزية القبلية الضعيفة المتبربرة . وكانت الكنيسة لا الدولة هى التى مهدت الطريق للوحدة ، بفضل تنظيمها العام ومجامعها الدينية السنوية وتقاليدها فى شئون الإدارة . والواقع أن الثقافة الانجلوسكسونية كانت عقيمة أشد العقم مجدبة أشد الإجداب فى الميدان السياسى، إذ دالت دولة نورثمبريا، وتردت فى مهاوى الضعف والفوضى قبل مدة طويلة من ذبول الفن الآنجلى الكنسى والثقافة الانجيلية الكنسية . وليس فى التاريخ ما يؤيد الاعتقاد بأن الرجل الانجلوسكسونى كان فى العصور الوسطى مرادف جون بول الإنجليزى فى العصور الحديثة ، إذ الواقع أن الجانب المادى من الحضارة الانجلوسكسونيه لم يكن شيئاً مذكوراً ، وكان الإنتاج الأساسى لهذه الحضارة تخريج القديسين فى الأديرة ، وتصديرهم إلى البلاد الأخرى ، وهذا ما حمل العالم بيده — برغم رهبانيته — على الاحتجاج ضد

ازدياد عدد المؤسسات الديرية العلمانية إلى درجة أضعفت القوة الحربية للدولة إضعافا خطيراً [١] .

ولكننا نرى من ناحية أخرى أن تأثير انجلترا فى الثقافة الأوربية فى ذلك العصر وصل إلى درجة فاقت تأثيرها فى أى عصر من العصور التالية . ففى الفن والدين ، وفى المعرفة والأدب ، كان الانجلوسكسونيون زعماء الثقافة فى القرن الثامن . وتفسير ذلك أنه فى الوقت الذى هبطت فيه الحضارة الأوربية إلى أسوأ حال ، كان اعتناق الانجلوسكسونيين للمسيحية بداية لتغيير تلك الحال من جزر إلى مد ، إذ أخذ الحجاج الانجلوسكسونيون يفدون إلى روما ، بوصفها مركز العالم المسيحى ، ووجدت البابوية فى الرهبان والمبشرين الانجلوسكسونيين أكثر حلفائها وخدامها تفانياً فى خدمتها . وأعظم أولئك جميعاً القديس بونيفيس الكريديتونى « رسول ألمانيا » ، وهو الذى وضع أسس العصر الثقافى الجديد ، وأثر فى تاريخ أوربا تأثيراً أعمق من أى رجل إنجليزى آخر . واختلف القديس بونيفيس عن جميع من سبقه من الكلتيين لأنه لم يكن مبشراً فحسب ، بل سياسيا وإداريا ، وهو قبل هذا وذاك خادم للبابوية ، وإليه يرجع الفضل فى تأسيس الكنيسة الألمانية فى العصور الوسطى ، وتحويل إقليمى هسه وثورنجيا نهائيا إلى المسيحية ، وهما قلب الأراضى الألمانية . وأزال القديس بونيفيس آخر معاقل الوثنية الألمانية ،

---

(١) انظر رسالة العالم بيده إلى الملك أجبرت ، وربما كانت هذه الأديرة العلمانية التى يتحدث عنها بيده فى الرسالة منظمات كاتية قديمة ، ولا سيما أنها كانت معروفة كذلك فى أسبانيا فى القرن السادس ، حيث يشير إليها القديس فركتووس الراجاوى فى كتاب الطريقة الديرية المنسوبة إليه .

بمساعدة جماعته من الرهبان والراهبات الأنجلوسكسونيين ، كما أقام أديرة وأسقفيات فى مواضع المعابد والمزارات الدينية الوثنية القديمة ، ومنها بورابورج وآمونبورج وفولدا . وبعد عودة القديس بونيفيس من روما إلى ألمانيا سنة ٧٣٩ ، استخدم بونيفيس سلطته بوصفه مندوبا بابويا لإعادة تنظيم الكنيسة البافارية ، وتأسيس الأبرشيات والأسقفيات الجديدة التى أثرت أعظم تأثير فى التاريخ الألمانى . ذلك أن البلاد الألمانية فيما وراء نهر الراين كانت حتى وقتذاك بلاداً بلا مدن ، وكان تأسيس الأسقفيات الجديدة فى تلك البلاد كفيلا بخلق مراكز جديدة للحياة الثقافية . والخلاصة أن ألمانيا غدت لأول مرة عضوا حيا فى المجتمع الأوربى ، بفضل القديس بونيفيس وجهوده الأنجلوسكسونية .

وإلى هذا التأثير الأنجلوسكسونى يرجع الفضل كذلك فى ظهور البدايات الأولى للثقافة الوطنية فى ألمانيا [1] . وليس معنى ذلك أن المبشرين الأنجلوسكسونيين نقلوا إلى ألمانيا طريقتهم التعليمية الخاصة بتزويد المتون اللاتينية بشروح من اللغة الوطنية كائنة ما تكون هذه اللغة ، بل ليس يبدو أن أوائل مطالع الأدب الجرمانى — وهى الترجمة السكسونية القديمة لسفر التكوين والملحمة الدينية التى عنوانها « هليانده » — تستند إلى شىء من التراث الأنجلوسكسونى ، إذ الواقع أن فكرة إيجاد ثقافة وطنية جرمانية كانت بعيدة عن تقاليد الكنسية فى القارة الأوربية ، وأن هذه الفكرة كانت النتاج الذى انفردت به أو اختصت به الثقافات المسيحية الجديدة فى أيرلندا وانجلترا ، ومنها

---

(١) انظر (W. Braune : Angelsachsisch und Athochdeutsch) ، المنشور فى (Beitrage zur Geschicht. der deutschen Sprache, XL III pp. 361-445,1918)

انتقلت إلى القـارة الأوربيـــة عن طريق الحركة التبشيرية فى القرن الثـــامن .

وبالإضافة إلى ذلك كان القديس بونيفيس الرجل الذى قام بإصلاح الـكنيسة الفرنجية ، إذ تخلت الأسرة الملـكية الميروفنجية المنحلة عن سلطانها الفعلى إلى رؤساء البلاط ؛ لـكن أولئك الرؤساء الذين دلوا على قوتهم الحربية بالدفاع عن بلاد الفرنجة فى وجه الفتح العربى سنة ٧٣٥ ، لم يقوموا بشىء لخدمة الثقافة ، بل ساعدوا على تدهور الـكنيسة الفرنجية . ذلك أن شارل مارتل استخدم الأديرة والاسقفيات لمـكافأة أتباعه من العلمانيين ، كما قام بنقل جميع ممتلـكات الـكنيسة إلى الدولة . ومصداق ذلك ما جاء فى رسالة كتبها القديس بونيفيس إلى البابا ، ونصها : « أن الديانة أمست تداس تحت الأقدام ، والاقطاعيات الـكنسية تمنح لعلمانيين جشعين ، أو لأفراد مشهورين بالدنس والدعارة من رجال الدين ، لأن جميع جرائمهم لم تمنعهم من الوصول إلى درجة الـكهنوتية ، ثم يظلون يرتقون فى مراتبها كلما ازدادوا فى خطيئاتهم ، ويصبحوا أساقفة . والذين منهم يستطيعون أن يفخروا بأنهم ليسوا من الزناة أو الفاسقين ، يكونون فى العادة سكيرين، أو بالصيد والقنص لاهين ، أو جنوداً لا يتبرأون من سفك دماء المسيحيين[1] » . وعلى الرغم من ذلك شمل بيبين وكارلومان ـ وهما خليفتا شارل مارتل فى مملـكة الفرنجة ـ إصلاحات القديس بونيفيس بكل رعاية ، واستطاع بونيفيس بما لديه من سلطات فوق العادة بوصفه مندوبا للبابوية ، وممثلا شخصياً للبابا ، أن ينهض بعملية تطهير الـكنيسة الفرنجية مما طرأ عليها من العلمانية .

---

(١) هذه عبارات مختصرة من الرسالة التاسعة والأربعين الى البابا زكريا . انظر
(Giles : Ep. XLIX to Pope Zacharias, p. p. 101 - 105)

وبسلسلة من مجامع دينية عظمى بين سنتى ٧٤٢ ، ٧٤٧ ، استطاع بونيفيس أن يعيد النظام إلى الكنيسة الفرنجية ، وأن يصل بينها وبين الكرسى البابوى بأوثق صلة . ومن المعروف أن بونيفيس أخفق فى تحقيق برنامجه بشأن تقرير نظام ثابت للاستئناف والرجوع إلى روما فى القضايا بعد الحكم فيها على أيدى السلطات المحلية ، كما أخفق فى الحصول من الملوك والأمراء على الاعتراف بحق البابوية فى التقليد الأسقفى فى مختلف الأسقفيات . لكنه على الرغم من أن الملك بيبن لم يرض أن ينزل عن سيطرته على الكنيسة ، فإنه عمل مع بونيفيس فى إصلاح الكنيسة ، وقبل مبدأه فى التعاون والتوافق بين الدولة الفرنجية والبابوية . ومنذئذ فصاعدا غدت الأسرة الكارولنجية هى الحامية الداعية لحركة الإصلاح الكنسى ، ولم تلبث أن وجدت فى الكنيسة والأديرة ما أعوزها من قوة للنهوض بعملها فى سبيل إعادة التنظيم السياسى فى أوربا . وهنا ينبغى أن نذكر أن الرهبان الانجلوسكسونيين — وعلى رأسهم القديس بونيفيس — كانوا هم الأولون السابقون ، الذين رأوا أهمية الاتحاد بين روح الاقدام التيوتونى وروح التنظيم اللاتينى ، وهو الاتحاد الذى كان منبعا لجميع مراحل التطور الثقافى طوال العصور الوسطى .

# الفصل الثانى عشر

## إحياء الإمبراطورية الغربية والنهضة الكارولنجية فى غرب أوربا

للعصر الكارولنجى فى ذاته أهمية تاريخية تعلو على أهمية التقدم المادى الذى أحرزه ذلك العصر . وبرهان ذلك أن الإمبراطورية التى أسسها شارلمان ، والتى كانت أضخم من أن تحكم حكما سهلا ، لم تعش طويلا بعد موت مؤسسها ، ولم تستطع على أية حال أن تبلغ فى تنظيماتها الاقتصادية والاجتماعية مرتبة دولة متحضرة . ولكنه برغم ذلك كله ، آذنت هذه الإمبراطورية بأول بزوغ للثقافة الأوربية من ظلمات ما قبل ميلادها إلى فجر الشعور بالحياة الناشطة . وكان الجرمان حتى وقتذاك يعيشون على الميراث الذى آل إليهم من الحضارة التى انتهبوها ، ثم أخذوا يتجاوبون مع ذلك الميراث فى حركة اجتماعية تجديدية . ومنذئذ غدا من المقدور أن يكون المركز الحضارى فى العصور الوسطى ، لا حول شاطئ البحر المتوسط بل فى الأراضى الشمالية ، الواقعة بين نهرى اللوار والويزر ، وهى قلب المملكة الفرنجية . وصارت تلك الأراضى مركزا لتكوين الثقافة ، وإلى تلك الأراضى ترجع أصول العناصر الجديدة التى تحكمت فى تاريخ الثقافة فى العصور الوسطى . والواقع أن الفكرة الإمبراطورية فى العصور الوسطى ، ثم الوضع السياسى للبابوية ، ثم السيطرة

الجرمانية على إيطاليا وامتداد الجرمان نحو الشرق ، ثم التنظيمات الأساسية لمجتمع العصور الوسطى فى الكنيسة والدولة ، ثم إدخال التراث الكلاسيكى فى ثقافة العصور الوسطى، كل ذلك من العناصر ترجع أصوله إلى أيام العصر الكارولنجى .

وكانت الصبغة الغالبة على هذه الثقافة الجديدة هى الصبغة الدينية ، لأنه على حين تغلب الطابع السياسى العلمانى على الدولة الميروفنجية ، كانت الإمبراطورية الكارولنجية دولة ثيوقراطية ، أى دولة تعبر تعبيرا سياسيا عن وحدة دينية . ويتضح هذا التغيير فى طابع الإمبراطورية فى الملابسات الفعلية لقيام الأسرة الكارولنجية الجديدة . وأول هذه الملابسات أن الملك الفرنجى ببين حصل على تفويض بابوى باطراح البيت المالك القديم جانبا — وهو البيت الميروفنجى ، وأنه تتوج سنة ٧٥٢ ، على يد القديس بونيفيس الأنجليزى الشهير ، حسب الطقوس الدينية التى نشأت ونمت بفضل التأثير الكنسى فى فى إنجلترا الأنجلوسكسونيه — كما نمت فى أسبانيا زمن القوط الغربيين — وهى طقوس لم تكن وقتذاك معروفة بين الفرنجة . وهكذا أدى الاعتراف بشرعية حكم الملك ببين إلى التحالف بين الملكية الفرنجية والبابوية، وهو التحالف الذى جهد القديس بونيفيس كثيرا فى تحقيقه ، والذى جعل الملكية الفرنجية منذئذ فصاعدا هى البطل الحامى للكرسى البابوى . وقبل ذلك انقطعت علاقات البابوية بالإمبراطورية البيزنطية ، بسبب السياسة اللاأيقونية التى اتبعها الأباطرة الآيسوريون ، كما زالت آخر بقية للسيطرة البيزنطية فى رافنا ، وذلك بعد حلول اللمبارديين فى إيطالية سنة ٧٥١، واضطرار البابوية إلى البحث عن دولة

غير الإمبراطورية البيزنطية لحمايتها . ومن أجل ذلك قام البابا ستيفن الثانى بزيارة الملك ببين فى مملكته سنه ٧٥٤ ، وحصل منه على معاهدة جعلت البابوية ولية على أرخونية رافنا وسائر الممتلكات البيزنطية السابقة فى إيطاليا ، فضلا عن دوقيتى سبوليتووبنفنتو . وفى مقابل ذلك قام البابا مرة ثانية بتبريك تتويج ببين ملكا على الفرنجة ، وأنعم عليه بلقب بطرق الرومان . وكان ذلك الحادث من الحوادث التوجيهية فى التاريخ ، لأنه أدى ، لا إلى تأسيس الدولة البابوية فحسب — وهى التى شاءت لها المقادير أن تعيش حتى سنة ١٨٧٠ — بل أدى كذلك إلى حماية الكارولنجيين لإيطاليا وإلى بداية رسالتهم الإمبراطورية ، بصفتهم الزعماء وأصحاب الرأى فى تنظيم العالم المسيحى الغربى .

وكان الكارولنجيون مؤهلين أحسن تأهيل للنهوض بهذه الرسالة الإمبراطورية ، لأنهم جمعوا بين العنصرين الأساسيين من التراث الأوربى ؛ إذ أرجعوا نسبهم من ناحية إلى أساقفة وقديسين غاليين ورومانيين ، ومن ناحية أخرى إلى أبطال حربيين فرنجيين . ولذا جرت فى عروقهم دماء جمعوا فيها بين الشجاعة الحربية التى اشتهر بها شارل مارتل ، وبين المثالية الدينية التى تمثلت فيما بعد فى نزول كارلومان عن مملكته ليدخل ديراً ، كما تمثلت فى شدة إخلاص الملك ببين لمصالح الكنيسة . على أن هذين العنصرين لم يظهرا معاً إلا فى شخص خليفة الملك ببين — وهو شارلمان — إذ كان شارلمان أولا وقبل كل شىء جنديا ذا موهبة للحروب والمغامرات الحربية ، وهى الموهبة التى جعلت منه الفاتح الأعظم فى عصره . غير أن شارلمان لم يكن محاربا

بربريا عاديا برغم قسوته وجموح مطامعه ، بل كانت سياسته مستوحاه من مثاليات ومقاصد عالية . ولم تكن فتوحه إكمالا للسياسة الفرنجية التقليدية الهادفة إلى التوسع الحربى ، بل كانت كذلك حروبا دينية للدفاع عن العالم المسيحى ووحدته . ومن الأمثلة على ذلك أن شارلمان استطاع بتحطيمه مملكة اللمبارديين فى غير إيطاليا ، أن يخلص البابوية من الخطر الذى ظل يهدد استقلالها مدة مائتين من السنين ، وأن يدخل إيطاليا فى حظيرة الإمبراطورية الفرنجية . ثم إن نضاله الطويل ضد السكسون كان بسبب تصميمه على إزالة آخر بقايا الوثنية الجرمانية ، فضلا عن بقايا الاستقلال السكسونى . ثم إن استيلاءه على بلاد الآفار سنة ٧٩٣ — ٧٩٤ ، هدم الدولة الآسيوية المتجرمة ، التى أفزعت أرجاء أوربا الشرقية ، وبذلك أعاد شارلمان الديانة المسيحية إلى الأقاليم الدانوبية . أما حروب شارلمان ضد المسلمين وتأسيسه لإقليم العواصم والثغور الاسبانية ، فكانت بداية للرد الفعلى المسيحى ضد التوسع الإسلامى الناجح فى أسبانيا . وهكذا استطاع شارلمان خلال ثلاثين سنة كلها حروب، أن يمد أطراف الملكية الفرنجية بعيداً إلى نهر الألب والبحر الأبيض المتوسط ونهر الدانوب ، وأن يوحد العالم المسيحى الغربى فى دولة إمبراطورية عظيمة وأن يؤسس مع الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الأموية فى قرطبة علاقات قائمة على شىء من المودة والخير .

ثم كان تتويج شارلمان إمبراطورا رومانيا سنة ٨٠٠، وإحياء الإمبراطورية الغربية نتيجة لذلك، خاتمة لمراحل تنظيم العالم المسيحى الغربى ، تنظيما جديداً . وبهذه المرحلة الختامية اكتمل الاتحاد بين الملكية الفرنجية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وهو الاتحاد الذى بدأت مرحلته الأولى بجهود

القديس بونيفيس الانجلوسكسونى والملك ببين الفرنجى . ومع هذا فمن الخطأ أن يقال بأن العنصر الثيوقراطى فى حكم شارلمان كان معتمداً على لقبه الإمبراطورى ، أو بأن شارلمان استمد الطابع العالمى لسلطانه من التقاليد الإمبراطورية للدولة الرومانية القديمة .

والواقع أنه على مر الأيام ، وبتأثير مستشاره الانجلوسكسونى ألكوين، — وهو تأثير لم يقل قوة عن تأثير بونيفيس فى العصر السابق — تكونت فى مخيلة شارلمان نظرة عالية مستعلية لسلطانه الشخصى ، على أنه مندوب العناية الإلهية لزعامة العالم المسيحى . لكن هذه النظرة العليا استندت إلى تعاليم الإنجيل وأقوال القديس أوغسطين ، لا إلى التقاليد الكلاسيكية المنسوبة إلى الإمبراطورية الرومانية القديمة . وذلك لأن الدولة الرومانية القديمة كانت — ولم تزل حتى بعد أن صارت بيزنطية — آخر الإمبراطوريات التى تنبأت الكتب المقدسة بزوالها ، وآخر مثال لمملكة الأرض دون مملكة السموات ، على حين تحلى الإمبراطور الفرنجى بصفة أعلى من هذا وذلك بكونه حاكما ومرشداً لرعيته المسيحيين أبناء الله . وهذا هو ما اعتقده آلكوين وغيره من مؤلفى تاريخ حياة شارلمان وعصره . ولذا اعتقد شارلمان بأنه داود الجديد من حيث الحكمة وفصل الخطاب ، كما اعتقد بأنه يوشيا عصره . وكما أعاد الملك يوشيا حكم شريعة الله فى مملكة يهوذا القديمة ، كذلك كان شارلمان مصدر القانون للكنيسة، وحامل السيفين ، أى سيف السلطة السياسية وسيف السلطة الدينية (١) .

---

(١) انظر (Libri Carolini, I, i, 3; 11, ii, 19, III, 15, etc) ، وكذلك (Alcuin, Ep. 198, etc)، حيث كتب ألكوين قائلا إن هناك ثلاث قوى =

وسيطرت هذه المثالية الثيوقراطية على جميع نواحى الحكم الكارولنجى ، بحيث بدت الإمبراطورية الفرنجية الجديدة دولة دينية أكثر مما كانت الإمبراطورية البيزنطية ، مع العلم بأن الإمبراطورية البيزنطية هى الدولة التى تمازجت فيها النواحى السياسية بالنواحى الدينية تمازجا بالغ التعقيد .

ذلك أن الإمبراطور كان حاكم الكنيسة ، فضلا عن الدولة ، وامتدت تشريعاته إلى أدق القوانين الخاصة بسلوك رجال الدين ، وتنظيم العقيدة المسيحية ، والطقوس الدينية . ومن ذلك أن مجموعة القوانين والمراسيم الكارولنجية المعروفة باسم التنظيمات، اشتملت فيما اشتملت على نصوص خاصة بمراعاة أيام الأحد وتأدية الترانيم الدينية ، وشروط القبول للراغبين فى الرهبانية ، وحياة الأديرة ، كما اشتملت على النصوص المتعلقة بالدفاع عن الأطراف الإمبراطورية ، وبالإدارة الاقتصادية للبيوت والضياع والأراضى الملكية . ومن ذلك أيضاً أن شارلمان طلب ذات مرة من جميع القسس ردوداً كتابية بشأن الطريقة التى يتبعها كل منهم فى التعميد بكنيسته المحلية ، على أن يقوم الأساقفة بجميع تلك الردود ، وإرسالها إلى القصر الملكى ، ليطلع عليها شارلمان بنفسه .

وكانت حكومة الإمبراطورية كلها حكومة دينية إلى درجة كبيرة ؛ إذ اشترك الأسقف والكونت اشتراكا متساويا فى شئون الإدارة المحلية بجميع

---

= علياف هذا العالم ، هى البابوية فى روما، والإمبراطورية فى القسطنطينية ،والعزة الملكية لشارلمان ؛ والقوة الثالثة أعلى هذه القوى لأن المسيح اختاره ليتولى زعامة العالم المسيحى . انظر (Cam. Med. Hist, II, p. 617) وتطبيقا لهذه الآراء استخدم آلكوين عبارة « السيطره المسيحية » بدلا من « السيطرة الرومانية » فى مراجعته لكتب الصلوات الكارولنجية .

الكونتيات الثلاثمائة التى احتوت عليها الإمبراطورية ، على حين اجتمعت معظم نواحى الإدارة المركزية فى أيدى رجال الدين من القضاة الإمبراطوريين للمحكمة العليا ، ورجال الكنيسة الخاصة بالقصر الكارولنجى (١) ؛ حيث كان رئيس هذه الكنيسة الخاصة هو المستشار الأول للامبراطور وصاحب أحد المقامات العليا فى الإمبراطورية .

وحقق شارلمان لنفسه الرقابة والاشراف على الإدارة المحلية ، عن طريق النظام الكارولنجى الصميم ، وهو نظام المبعوثين الملكيين ، الذين كانوا يذهبون إلى الكونتيات الامبراطورية فى دوائر قضائية ، مثلما يفعل قضاة المحاكم الجنائية الانجليزية فى انجلترا فى العصر الحاضر . وهنا كذلك كان الأساقفة ورؤساء الأديرة هم الذين يعهد إليهم بأهم هذه المبعوثيات .

وتتضح الروح الثيوقراطية التى ترسمتها الحكومة الكارولنجية تمام الوضوح فى خطبة غريبة لأحد مبعوثى شارلمان ، وهى لا تزال باقية ، ومطلعها « أننا أرسلنا إلى هنا بأمر سيدنا ومولانا الإمبراطور شارلمان لأجل تحقيق خلاصكم الأبدى فى الدار الآخرة . ونحن نهيب بكم أن تعيشوا فى الفضيلة ، وفقا لشريعة الرب ، وفى عدالة وفقاً لشريعة هذه الحياة الدنيا . ونريد منكم أن تعرفوا ، أولا وقبل كل شىء ، أن عليكم أن تؤمنوا بإله واحد ، الأب والابن

---

(١) صارت هذه الهيئة فى العصر الكارولنجى بمثابة مجمع كنسى مقدس ، فضلا عن كونها مجلساً ملكياً هاماً فى شئون الادارة والحكم . وكانت هذه الهيئة فى الأصل فئة من رجال الكنيسة القائمين على حراسة رداء القديس مارتن التورى ، وهو حامى المملكة الفرنجية وشفيعها ، ولذا صارت هذه الفئة هيئة من رجال الحاشية الإمبراطورية الملازمة لشخص الإمبراطور الكارولنجى .

والروح القدس . . أحبوا الله حبا يملأ قلوبكم ، وأحبوا جيرانكم كما تحبون أنفسكم ، وأعطوا الصدقات للفقراء على قدر استطاعتكم » . وبعد ذكر واجبات كل طبقة من طبقات الناس ، وكل فرد من الأفراد ، على اختلاف الأحوال والمشارب ، من زوجات وأولاد ورهبان وكونتات وموظفين حكوميين ، يختتم صاحب هذه الخطبة خطبته بقوله : « أن الرب لا يخفى عليه شيء ، وأن الحياة لقصيرة فى هذه الدنيا ، ولا تدرى نفس بأى يوم تموت ، فكونوا لذلك دائماً على أهبة »[1] .

وبمثل هذه الروح الثيوقراطية كتب شارلمان أول كتاب منه إلى البابا ليو الثالث يصف نفسه بأنه « ممثل الله فى الأرض ، وأن عليه أن يحمى جميع أبناء الله ويحكم بينهم بالعدل» وأنه « سيد وأب ، وأنه ملك وكاهن ، وهو زعيم المسيحيين ومرشدهم جميعاً » .

وبديهى أن هذه الصفات لا تستطيع أن تتفق ألبته والسلطة البابوية التقليدية ، لأن شارلمان نظر إلى البابا على أنه قسيسه الخاص ، وقال ذات مرة للبابا ليو الثالث فى صراحة وجلاء : أن وظيفة الملك كائنا ما كان هى أن يحكم بين الناس ، وأن يدافع عن الكنيسة ، وأن واجب البابا هو أن يصلى ويبارك ويدعو لصاحب هذه الوظيفة الملكية . وهكذا بدا أن تحطيم المملكة اللمباردية ، فى شبه جزيرة إيطاليا فى القرن السابع ، لم يؤد إلى شيء سوى زيادة المتاعب البابوية ، إذ جعل روما فى عزلة بين دولتين إمبراطوريتين

---

(١) انظر Fustel de Coulanges: Les transforations de la royauté Franque, p. 588.

لا تحترمان استقلال البابوية ، وهما الإمبراطورية الكارولنجية الفرنجية والإمبراطورية البيزنطية . ولم يلبث الخطر الكامن فى تلك العزلة أن وضح كل الوضوح فى المنازعات التى أعقبت مجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ ، إذ كان ذلك المجمع انتصارا للتحالف بين البابوية والهللينية ضد الهرطقة الشرقية التى نادى بها اللاأيقونيون فى القسطنطينية . غير أن شارلمان الذى اتسمت عقيدته الدينية بشىء مما اتسمت به عقيدة الأباطرة الأيسوريين من البساطة المكافحة فى سبيل الدين ، رفض قبول القرارات التى أصدرها مجمع نيقية الثانى ، لأنه لم يكن باستطاعة الفرنجة عموما أن يدركوا أهمية مسألة الصور المقدسة عند الشعوب الشرقية المتعلقة بالتراث الهللينى . ذلك أن الفن عند الشعوب الشمالية، على قول مسترزيجوفسكى ( وإن كان قوله لا يخلو من مبالغة)يتفق اتفاقا أساسياً مع الفن عند الشعوب الشرقية فى صفته التجريدية الكارهة للصور . يضاف إلى ذلك أن التأثير العظيم الذى كان لكتاب العهد القديم فى المحيط الكارولنجى أدى إلى موقف بيوريتانى لم يكن أقل صرامة ، فى مسألة عبادة الصور ، عن صارم موقف شارلمان من وجوب مراعاة أيام الأحد من كل أسبوع . ولذا نزل شارلمان بشخصه إلى ميدان النزاع اللاهوتى ضد العالم البيزنطى والبابوية ، وكلف جماعة من اللاهوتيين الذين فى خدمته أن يؤلفوا سلسلة من المقالات ضد مجمع نيقية الثانى ، ثم أمر بنشر هذه المقالات باسمه على أنها جزء من الكتب الكارولنجية . ثم أنه أرسل مبعوثا إلى روما برسالة تحتوى على خمسة وثمانين تحذيراً لتنبيه البابا هادريان الأول إلى ما يجب التزامه من واجبات ، وعقد أخيراً سنة ٧٩٤ مجمعاً دينياً عظيماً ضم جميع الأساقفة الغربيين فى فرانكفورت ،

حيث تقرر استنكار مجمع نيقية الثانى ونقض مذاهب عبدة الصور[١] .

ونجم عن ذلك موقف بالغ الصعوبة للبابا هادريان الأول واضطر أن يدور مع الزمن ، إذ وجد نفسه على اتفاق مع الإمبراطورية البيزنطية ضد المملكة الفرنجية والكنيسة الغربية خارج روما ، مع أن الإمبراطورية البيزنطية هى التى سلبته مقامه وأوقافه فى الشرق ، ونظرت إليه كأنه أجنبى دخيل عليها . ولو أن انقساما دينيا حدث بين الشرق والغرب فإن البابا لا يلبث أن يجد نفسه فى عزلة دون حول أو طول . أما من الناحية السياسية فكان البابا يعتمد اعتماداً كليا على قوة الفرنجة ، ولذا لم يلبث خليفة هادريان الأول فى الكرسى البابوى — وهو ليو الثالث — أن قام سنة ٧٩٥ بتقديم فروض التبعية إلى شارلمان ، على قاعدة أن شارلمان هو صاحب السيادة العامة والسلطان الأعلى .

ثم انتهت هذه الحال المتناقضة حين قام البابا ليو الثالث بالاعتراف بشارلمان إمبراطوراً رومانياً ، وتتويجه فى روما يوم عيد الميلاد سنة (٨٠٠) . غير أنه من الصعب على الباحث أن يقرر إلى أى حد قام البابا ليو الثالث بما قام به بناء على وحى من نفسه، أو لأنه كان أداه لرغبات شارلمان ومستشاريه من الفرنجة . ونؤيد شهادة آينهارد — مؤلف تاريخ حياة شارلمان — الرأى الأول من هذين الرأيين ، لكن هذه الشهادة لم تلق أى تأييد بين المؤرخين المحدثين فى فرنسا وانجلترا على الأقل. ثم إنه من المؤكد هنا أن شارلمان كان هو الرابح ، لأن

---

(١) التزم شارلمان هذه القرارات أثناء سنواته الأخيرة ، وكذلك فعل خليفته لويس التقى الذى حاول سنة ٨٢٤ — ٨٢٥ أن يقوم بدور الوسيط بين الإمبراطورية البيزنطية والبابوية. وظل الحال على ذلك المنوال حتى سنة ٨٧٠ ، حين أعلن الكاتب هنكمار الريمسى أن قرارات مجمع نيقية الثانى باطلة ، وأن مجمع فرانكفورت مسكونى لا غبار عليه .

سلطته العالمية غدت متمتعة بسند من القانون الرومانى والتقاليد الرومانية . على أن الفائدة التى عادت على البابوية لم تكن أقل وضوحاً ، لأن السيادة الملكية الفرنجية التى أنذرت بالسيطرة على السيادة البابوية ، انتقلت وقتذاك إلى روما وأضحت مرتبطة بها ، وبالتالى كذلك بالبابوية . ثم إن الولاء السياسى البابوى لم يعد موزعاً بين السلطة القانونية النظرية لإمبراطور القسطنطينية وبين السلطة الواقعية لإمبراطور الفرنجة. يضاف إلى ذلك أن شارلمان كان بصفته ملكا على الفرنجة شخصية غريبة على التقاليد الرومانية العالمية ، فأصبح مرتبطاً بعد أن صار إمبراطوراً بعلاقة قانونية واضحة مع البابوية . ومع التسليم بأن قوة شارلمان ظلت على ضخامتها ، فإنها لم تعد قوة لاسبيل إلى تعيين حدودها أو تحديدها . وفضلا عن ذلك ، فإن فكرة الإمبراطورية الرومانية العالمية لم تزل ضرورية للكنيسة ، لأنها كانت مرادفة للحضارة المسيحية ، على حين كان حكم الملوك الفرنجيين وغيرهم من الجرمان مرتبطاً بالوثنية والحرب ، بدليل الربط بينهما فى فى الصلوات فى عبادة « أعداء المجد الرومانى وأعداء العقيدة الكاثوليكية » . وصفوة القول أنه ليس من المستبعد أبداً أن تكون البابوية ، بوصفها ممثلة للعالمية الرومانية ، هى التى خطت الخطوة الأولى فى سبيل استعادة الإمبراطورية سنة ٨٠٠ ، كما فعلت ذلك مرة أخرى خمس وسبعين سنة من ذلك التاريخ ، فى شخص الإمبراطور شارل الأصلع ، وهو حفيد شارلمان .

وكيفما كان الواقع فمن المؤكد أن إعادة الإمبراطورية الرومانية ، أو تأسيس إمبراطورية العصور الوسطى بعبارة أدق ، كان له من القيمة الدينية والرمزية ما يرجح كثيراً عن أهميته المباشرة من وجهة النظر السياسية. ومع أن شارلمان جعل من ذلك الحادث ورقة دبلوماسية استخدمها فى مفاوضاته مع الإمبراطورية

البيزنطية ، فإن تتويجه إمبراطوراً لم يغير شيئاً من حياته أو حكومته، إذ الواقع أنه لم يحاول مطلقاً أن يتشبه بالقياصرة الرومانيين أو البيزنطيين بعدهم ، كما فعل الإمبراطور أوتو الثالث وغيره من أباطرة العصور الوسطى فيما بعد ، بل ظل شارلمان فرنجياً خالصاً في ملبسه ومسلكه، وفي هدفه السياسي . وأمعن شارلمان في ذلك كله إمعاناً عرض جميع ما قام به من أعمال في سبيل الوحدة الإمبراطورية للانهيار ، وذلك عندما قسم ممتلكاته بين أبنائه سنة ٨٠٦ ، وفقاً للعادة الفرنجية القديمة ، بدلا من أن يتبع المبدأ الروماني القائل بأن السيادة السياسية لا تتجزأ . وظلت هذه العادة الفرنجية القديمة سائدة بين خلفائه ، وهي التي أدت بوحدة الإمبراطورية الكارولنجية واستمرارها إلى الدمار .

والواقع أن رجال الكنيسة وأهل العلم والأدب ، لا الملوك ورجال السياسة ، كانوا هم الذين تحمسوا لقيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، لأن قيامها كان معناه عندهم إنتهاء عصور الهمجية وعودة العالم إلى النظام المتحضر . ومن الدليل على ذلك أن شارلمان كان في نظر أينهارد كأنه أوغسطس قيصر الجديد، بل أن أينهارد قاس أعمال شارلمان بمقياس المثالية الأوغسطية، على حين وصف مودوين — أسقف أوكسير — عصر شارلمان بأنه عصر النهضة للتراث الكلاسيكي القديم، إذ قال ما نصه : « وعلى مر العصور عادت التقاليد المتحضرة مرة أخرى إلى سيرتها الأولى ، ونهضت روما الذهبية المجيدة مرة ثانية إلى عالم الوجود » .

غير أنه على الرغم من أن الحركة العلمية في العصر الكارولنجي كانت شيئاً ضئيلا بالقياس إلى حركة العلماء الإنسانيين الإيطاليين ، فإنها كانت نهضة علمية حقيقية ، وكان لها من الأهمية في التطور الثقافي الأوربي ما لا يقل عن

أهمية حركة النهضة الاوربية الكبرى فى القرن الخامس عشر . وكان أعظم أعمال العصر الكارولنجى جمع العناصر المبعثرة من التراث الكلاسيكى والكنسى بعضها إلى بعض ، وتنظيمها لتكون نواة لحضارة جديدة . ويرجع الفضل فى تلك الحركة إلى تضافر قوتين سبقت الإشارة إليهما ، وهما الثقافة الديرية التى تحلت بها البعثات التبشيرية الإنجلوسكسونية والأيرلندية ، والموهبة التنظيمية التى اتصفت بها الملكية الفرنجية. ففى مطلع القرن الثامن هبطت الثقافة الأوربية إلى أدنى مستوى، ثم تحول ذلك الجزر مداً بمجىء المبشرين الأنجلوسكسونيين والإيرلنديين ، إذ كان القديس بونيفيس نفسه عالماً أديباً ، وشاعراً من طراز آلدهلم ، وامتد نشاطه الإصلاحى إلى تعليم رجال الدين وتنظيم أحوالهم المعيشية . ولذا ألف بونيفيس كتاباً فى النحو على طريقة دوناتوس وخاريسيوس وديوميدس ، وكانت مؤسسته الديرية العظمى فى فولدا هى المركز لحركة إحصائية للثقافة الأدبية وتحسين فى فن الخطوط للكتابة ، وهى حركة واسعة التأثير فى أنحاء الجزء الشرقى من الإمبراطورية الفرنجية [1] .

على أن التأثير الشخصى للامبراطور شارلمان هو الذى جعل لهذه الحركة ميداناً أوسع . وليس أوضح برهاناً على العظمة الحقيقية فى أخلاق شارلمان من الحماسة التى ألقى بها ذلك الجندى الأمى بنفسه فى ميدان إحياء العلم ،

---

(١) وكان أعظم علماء العصر الكارولنجى ـ باستثناء ألكوين وثيودلف ـ رهبانا أو تلاميذ فى فولدا ، ومنهم أينهارد ورابانوس ماوروس ، أى الأسمر ، وهو الذى تولى رآسه ذلك الدير بين سنتى ٨٢٢ ، ٨٤٢ ، وكان من تلاميذه هناك والافريد سترابو وسرفاتوس لوبوس .

ورفع مستوى التعليم فى إمبراطوريته. ووجدت النهضة الكارولنجية فى العلوم والفنون مركزها مدرسة القصر الإمبراطورى، ومن هناك انتشرت فى أنحاء الإمبراطورية عن المراكز الديرية والأسقفية، مثل فولدا، وتور، وكوربى، وسانت جال، ورايخناو، ولورش، وسانت فاندريل، وفريير، وأورليان، وأوكسير، وبافيا. وجمع شارلمان إليه فى قصره من جميع أنحاء إمبراطوريته فئـات العلماء واللاهوتيين بعضهم إلى بعض، فمن جنوب غاليا جاء ثيودلف وأجوبارد، ومن إيطاليا بولص الشماس، وبطرس البيزى، وبولينوس الاكويليانى، ومن أيرلندا كلمنت ودونجال، ومن بلاد الفرنجة إنجلبرت وأينهارد. وكما كان الحـال فى الحركة الاصلاحية الكنسية السابقة، اكتسبت الحركة الثقافية الجديدة طابعها، أولا وقبل كل شىء، من التراث الانجلوسكسونى. وموضع الأهميـة فى ذلك أن اللغة اللاتينية التى بقيت لغة حية فى فرنسا وإيطاليا، صارت وقتذاك مشوبة بتأثير اللهجات الجرمانية الوطنية فى تلك البلاد، على حين ظلت فى انجلترا، ـ وهى التى انتقلت منها تلك الحركة الثقافية إلى القارة الأوربية ـ لغة العلم والعلماء وحدهم، بفضل الدأب على دراسة المؤلفات الكلاسيكية القديمة. وكان هذا الدأب على دراستها نابعاً من الحماسة للتراث الرومانى، وهى الحماسة التى ألهمت الثقافة الانجلوسكسونية منذ أيام القديس ولفرد وبندكت بسكوب.

وكان العنوان الأكبر لتلك الثقـافة الإنجيلية هو العـالم ألكوين رئيس مدرسة يورك، وهو الذى صار حلقة الاتصـال بين ما أسماه الأستاذ المؤرخ الفرنسى هالفن حركة « ما قبـل النهضـة » الانجلوسكسونية، وبين الحركة الكارولنجية الجديدة. ودخل آلكوين فى خدمة الإمبراطور شارلمان سنة ٧٨٢، مديراً لمدرسة القصر، وغدا منذئذ فصاعداً صـاحب تأثير واضح

فى توجيه سياسة شارلمان التعليمية، فضلا عن توجيه الحركة الأدبية كلها . غير أن آلكوين لم يكن أديباً عبقريا ، بل مدرساً ونحوياً بطبعه . وكان منهجه مؤسساً على المنهج الكلاسيكى القديم المشتمل على الفنون السبعة الحرة ، وفقاً لتقاليد بوئشيوس، وكاسيودورس ، وأيزيدور ، وبيده . وكان هذا الطراز من المدرسين هو الذى افتقر إليه ذلك العصر ، واستطاع آلكوين ـ بفضل تأييد تلميذه الإمبراطور شارلمان ـ أن يحقق آراءه التعليمية على مقياس إمبراطورى ؛ وأن يجعل من مدرسة القصر نموذجاً ثقافياً للجزء الأكبر من أوربا الغربية . ويبدو كذلك أن آلكوين هو الذى عهد اليه شارلمان بمهمة مراجعة الكتاب المقدس ومجموعة كتب الصلوات ، وبذا يكون آلكوين الانجلوسكسونى هو الرائد فى الاصلاح الكارولنجى فى الطقوس الدينية ، وهو الاصلاح الذى تأسست عليه الطقوس الكنسية فى العصور الوسطى . ومن المعروف أن الطقوس الكاثوليكية الرومانية ، وصلت إلى الكنيسة الانجلوسكسونية عن طريق الأديرة البندكتية ، وها هى هذه الطقوس تصبح بفضل آلكوين الطقوس العامة للامبراطورية الكارولنجية ، وتحل محل التقاليد الغالية ، أى النابعة من كنيسة غاليا ، وهى التى سبق لها ولأحلافها من التقاليد الامبروزية والأسبانية أن سادت أقاليم غرب أوروبا ، ماعدا روما وضواحيها الملحقة لها . على أن الطقوس الكارولنجية الجديدة ظلت تحتفظ ببعض المؤثرات الغالية ، وعن هذا الطريق دخل عنصر غالى كبير فى الطقوس الكاثوليكية الرومانية نفسها .

ويتراءى تأثير آلكوين والثقافة الانجلوسكسونية كذلك فى إصلاح الخط

فى فن الكتابة ، وهو أحد الفنون التى اختص بها العصر الكارولنجى . وتدين الثقافة المسيحية الجديدة بنهضتها واستمرارها فى انجلترا وأيرلندا إلى نقل المخطوطات ، وازدياد عددها بالعمل على نسخها بخط جميل ، عالى المستوى فى الإبداع والاتقان . ونتج عن ذلك أن العلماء الكارولنجيين اتجهوا إلى انجلترا أكثر من اتجاههم إلى إيطاليا ، للحصول على مخطوطات صحيحة دقيقة ، لا من الكتاب المقدس وكتب الطقوس الكاثوليكية الرومانية فحسب ، بل كذلك من مؤلفات المؤلفين الكلاسيكيين . ولذا وفد كثير من العلماء والنساخ من الانجلوسكسونيين والأيرلنديين ، على مدرسة القصر الإمبراطورى والأديرة الأوربية العظمى (١) .

وبذل شارلمان بنفسه جهوداً خاصة للاكثار من المخطوطات عن طريق النسخ واستخدام المتون الصحيحة ، ومن بين التعليمات الصادرة لبعض المبعوثين الامبراطوريين قانون بشأن « النساخ لكيلا يخطئوا فى الكتابة » . وكثيراً ما كان شارلمان يشكو من الخطأ الذى تسرب إلى متون الصلوات الكنسية ، بسبب استعمال مخطوطات محرفة . ويرجع الفضل الأكبر إلى جهوده ، وجهود آلكوين كذلك ، فى إحلال نوع جديد من الخط محل خطوط العصر الميروفنجى المستديرةالعسيرة القراءة. ولم يلبث هذا النوع الجديد من الخط أن أصبح نموذجاً لجميع أرجاء أوربا الغربية ، ما عدا أسبانيا وأيرلندا وجنوب إيطاليا . وهذا النوع الجديد من الخط هو المعروف باسم « الخط

---

(١) كانت فولدا على سبيل المثال مركزاً لجالية ديرية انجلوسكسونية، وكانت مدرستها القائمة على نسخ المخطوطات من أهم المدارس الأوربية، وظلت تلك المدرسةتستخدم خطا من خطوط القلم الانجليزى فى الكتابة .

النسخى الكارولنجى » . ويبدو أن ذلك الخط نشأ فى دير كوربى فى النصف الثانى من القرن الثامن ، وأنه بلغ أرقى درجاته من الاتقان فى منسخة دير آلكوين فى مدينة تور . ولا شك فى أن الانتشار العام لهذا النوع من الخط يرجع إلى استخدامه على يد آلكوين وزملائه فى كتابة نسخ من كتب الطقوس الدينية الجديدة ، وهى الكتب التى صدرت بناء على الرغبة الامبراطورية .

ومن هذه الناحية يحق للنهضة الكارولنجية فى القرن الثامن أن تعد طليعة طيبة للنهضة الأوربية فى القرن الخامس عشر . بل الواقع أن تلك النهضة الأوربية الأولى أثرت تأثيراً مباشراً فيما حققته النهضة الأوربية الثانية،لأن الخط الذى استخدمه العلماء الإنسانيون فى الكتابة فى إيطاليا فى عصر النهضة الأوربية الكبرى لم يكن سوى إحياء للخط الكارولنجى ، وهو الخط الذى صار هكذا أصلا مباشراً لحروف الطباعة اللاتينية الحديثة . ثم إننا ندين للنساخ الكارولنجيين بحفظ جزء كبير من الأدب اللاتينى ، ولا يزال النقد الحديث لمتون المؤلفات الكلاسيكية يعتمد إلى حد كبير على المخطوطات التى وصلتنا من ذلك العصر الكارولنجى .

واتضح تأثير الإحياء الكارولنجى كذلك فى نواحى الفنون الزخرفية والتصويرية والعمارة ، حيث يتراءى تأثير التقاليد الإمبراطورية مسيطراً ، إلى درجة أنه قيل أن شارلمان أسس فناً معمارياً رومانياً مقدساً مثلما أسس إمبراطورية رومانية مقدسة . غير أن التقاليد الكلاسيكية القديمة كانت أكثر ضآلة فى الفنون عامة منها فى الأدب فى ذلك العصر ، لأن الفنانين الكارولنجيين

خضعوا للتأثيرات الشرقية البيزنطية ، بل الشرقية الاسلامية كذلك ، كما خضعوا من جهة أخرى لتأثير الفن الآنجلو — كلتى المختلط ، بما فيه من ميل شديد للزخارف الهندسية المنتظمة ، والرسومات اللولبية والشبكية المتموجة . وأوغل المعماريون الكارولنجيون فى هذا وذاك ، حتى أن كنيسة القصر الإمبراطورى الشهيرة فى اكس لاشابل بنيت وفق تصميم معمارى مثمن الاضلاع ، وهو تصميم شرقى محض ، مأخوذ من الشرق مباشرة ، أو عن طريق كنيسة سانت فيتال فى رافنا ، وهذا التصميم المركزى هو الذى أصبح النموذج المفضل لدى المعماريين الكارولنجيين فى ألمانيا . وعلى الرغم من ذلك كله، فإن ذلك البناء الكنسى الكبير يكشف عن عناصر كلاسيكية ، فى هندسته المعمارية وأعمدته ونلفورته وأبوابه البرونزية . وتوجد كنائس أخرى احتفظت بالتصميم الرومانى التقليدى ، وهو تصميم البازليكيا الفسيحة ذات الأعمدة المنتهية بحنية من الطوب وسقف خشبى(١) ، ومنها الكنيسة التى بناها آينهارد فى شتينباخ . ومن تلك الكنائس نبع الطراز الرومانسكى الجرمانى المتأخر — بما فيه من حنية فى طرفى البناء فضلا عن أربعة أبراج — وهو الطراز الذى اختصت به أراضى الراين وإقليم لمبارديا .

غير أن الفن الكارولنجى المختلط يبدو أوضح ما يبدو فى التصوير المنمنم والزخرفة البراقة ، لأن عديد مدارس التصوير التى انتشرت من أراضى الراين إلى الأديرة الألمانية من جهة ، وإلى مدن متز،وتور،وكوربى، من جهة أخرى، احتوت على مقادير متفاوتة العمق من مختلف العناصر الشرقية والآنجلو أيرلندية

---

(١) سبق بناء هذه الكنيسة كنائس بازيليكية فى انجلترا على يد ولفرد وبندكت بسكوب، وكانت تلك الكنائس البازيليكية من النوع السائد فى غاليا الميروفنجية .

التى تقدمت الإشارة إليها ، مع العلم بأن أخص خصائص الطراز المعمارى لهذه المدارس هو الجنوح نحو التقاليد الكلاسيكية فى نظرتها للجسم الإنسانى ، واستخدامها شكل ورقة نبات الاكنث للزخرفة . وتتضح تلك الكلاسيكية الحديثة أتم وضوح فى مخطوطات مدرسة القصر الإمبراطورى مثل أناجيل فينا الشهيرة ، وهى الأناجيل التى درج الأباطرة الألمان المتأخرون أن يحلفوا عليها يمين تتويجهم . ومن الواضح أن تلك الكلاسيكية الحديثة نبتت بتأثير النهضة البيزنطية ، وربما كان وصولها إلى الأقاليم الأوربية الشمالية على أيدى كتبة ونساخين من جنوب إيطاليا (١) . والخلاصة أن الفن الكارولنجى هو الأصل المباشر لمدارس التصوير التى ظهرت فى ألمانيا ـ ولا سيما إقليم الراين — فى القرنين العاشر والحادى عشر ، وبذا يكون ذلك الفن أحد التأثيرات الأساسية فى نشأة الطراز الفنى الخاص بأوائل العصور الوسطى .

وبلغت النهضة الكارولنجية أوجها خلال السنوات التى أعقبت وفاة شارلمان، على أيدى تلاميذ آلكوين وخلفائه، ومنهم آينهارد الذى كتب تاريخ حياة الإمبراطور العظيم ، ورابانوس الأسمر مقدم دير فولدا ، وتلاميذه ولافريد سترابو مقدم دير رايخناو ، وسرفاتوس لوبوس مقدم دير فريير . وأولئك الرجال كانوا جميعاً من كبار العلماء والحفاظ للادب الكلاسيكى ، وعن طريقهم وطريق أمثالهم وصلت المكتبات الديرية ومدارس الناسخين ، إلى أقصى درجات نموها . واقتفى خلفاء شارلمان — ولا سيما حفيده شارل الأصلع — أثر جدهم فى رعاية العلوم وتشجيعها . وفى زمن شارل الأصلع كانت مدرسة

---

(١) A. Goldschmidt : German Illumination, Carol. p. p. 7—10)

القصر الإمبراطورى فى مملكة الفرنجة الغربية تحت إشراف العالم الأيرلندى يوحنا سكوتس المعروف بإسم أريجينا ، وهو أعظم أصلاء المفكرين فى العصور الوسطى . وتشبه فلسفة يوحنا سكوتس أقوال الفلاسفة العرب فى القرنين العاشر والحادى عشر ، أكثر مما تشبع آراء مدارس الغرب الأوربى ، مع العلم بأن يوحنا سكوتس استوحى آراءه من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ، عن طريق مؤلفات ديونوسيوس الأريوباغى .

واشتهر يوحنا سكوتس بمعرفة اللغة اليونانية ، ولو أنه لم يكن وحيد ميدانه فى ذلك العصر ، بل شاركه فيه عدد من أبناء وطنه ، ولاسياسيدليوس سكوتس ، وهو من أعظم العلماء والشعراء جاذبية فى زمنه ، وكان مدرساً بمدينة لييج فى أواسط القرن التاسع . وفضلا عن ذلك فإن استمرار الاتصال بثقافة العالم البيزنطى أبقى على بقية حية من الدراسات اليونانية فى إيطاليا ، بدليل الترجمات والمؤلفات التاريخية التى قام بها أنسطاسيوس ببليكاريوس ( الكتبى) مؤلف الأجزاء الختامية من «الكتاب البابوى »[١] ، وهو كذلك الشخصية الكبرى فى النهضة الثقافية والنشاط الأدبى الذى ظهر فى روما أيام البابا نيقولا الأول والبابا حنا الثامن ( ٨٥٨ — ٨٨٢ ) . وكان الزعيم الثانى لتلك الحركة حنا الشماس المعروف بلقب هيمونيدس ( المنشد ) ، وهو صديق أنسطاسيوس ، وهو الذى خلق بمجيئه إلى خدمة البابوية حماسة للثقافة الكلاسيكية ولمدينة روما ـ بصفتها وريثة للتقاليد اللاتينية ـ وكتب

(١) جرى هذا الإسم على مجموعة القواعد التى كانت تنظم العمل فى البلاط البابوى فى العصور الوسطى ( المترجمان )

حنا الشماس تاريخ القديس جريجورى ، وأهدى كتابه للبابا حنا الثامن ، بصفة هذا البابا عنوانا لقوم روميولوس . واستوحى حنا الشماس فى ذلك التاريخ جميع المثاليات الكلاسيكية والتقاليد اللاتينية التى التزمها العلماء الإنسانيون فى أوربا زمن النهضة الأوربية الكبرى ، حتى جعل القديس جريجورى كأنه أحد البابوات الإنسانيين ، أى من طراز البابا ليو العاشر المشهور . ومن ذلك قول حنا الشماس ، ما نصه « حدث فى زمن البابا جريجورى أن شيدت الحكمة لنفسها معبداً فى روما وصارت الفنون السبعة الحرة [١] كأنها سبعة أعمدة من الحجر النفيس ، تحمل عرش الكرسى البابوى . ولم يبد على أحد من المحيطين بالبابا — من أكبرهم إلى أصغرهم — أى أثر للبربرية فى منطوقهم أو ملبسهم ، واستقرت العبقرية اللاتينية فى زيها الكلاسيكى بالقصر اللاتينى البابوى [٢] .

غير أن إطلاق هذا الوصف على روما زمن القديس جريجورى أبعد ما يكون عن الواقع ، ولا محل له ولا معنى هنا ، وإن كان طريفاً فى دلالته على المثالية الإنسانية ، التى سوف تعمل البابوية على تحقيقها ، بصفتها راعية للحضارة الكلاسيكية فى روما ، بعد ذلك بستة قرون زمن النهضة الأوربية الكبرى . والواقع أنه لم يكن فى روما فى القرن التاسع متسع لشىء فى تلك

---

(١) اطلق الباحثون اسم الفنون السبعة الحرة على أقصى ما بلغته المعرفة فى النصف الأول من العصور الوسطى فى غرب أوربا ، وانقسمت هذه الفنون إلى مجموعتين ، هما المجموعة الثلاثية وتشمل النحو والخطابة والمنطق ، والمجموعة الرباعية وتشمل الموسيقى والحساب والهندسة والفلك ( المترجان )

(٢) انظر (Johannes Diaconus: Vita Gregorii, II, 13, 14)

وكذلك (J. H. Dudden, Gregory the Great, I, p. 283)

الشمالية حين هدد المسلمون روما من الخارج ، ومزقتها المنازعات بين الأحزاب المحلية فى الداخل . ثم توقفت حركة الاحياء الثقافى فى روما بعد مقتل البابا حنا الثامن ، ولم تبق للتقاليد الكلاسيكية بقية حية إلا فى مدن الجنوب ، وهى نابلى وأمالفى وسالرنو ، حيث وجد آخر ممثلى الثقافة اللاتينية ملجأ يلجأ إليه . وهنا — وفى أواخر القرن التاسع — نظم أحد المهاجرين من أهل روما قصيدة رثائية غريبة حول اضمحلال روما ، وهى أول القصائد الهجائية التى امتلأت بالسخط على الشح والفساد فى مجتمع روما ، والتى امتلأ بأشباهها أدب العصور الوسطى[1] . غير أن هذه القصيدة اختلفت عن معظم القصائد الأخرى بأنها غير مستمدة من آراء دينية ، بل من آراء دنيوية تماماً . وأكثر من ذلك أن هذه القصيدة سرت فيها نغمة ضد رجال الدين ، وأشبهت فى محتوياتها روح النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر ، أكثر مما اشبهت روح النهضة الكارولنجية فى القرن التاسع فى الاقاليم الشمالية .

والواقع أنه لم يبق للثقافة العلمانية فى إيطاليا بقية إلا فى المدن الإيطالية المستقلة الشبيهة بالبيزنطية ، على حين غدت الثقافة العليا فى جميع ما عدا تلك المدن من

---

(١) أيتها المدينة النبيلة التى بناها قديما سيد مجيد
تدهورت يا روما بعد أن خضعت للعبيد
وملوكك هجروك منذ أمد بعيد
وانتقلت الى اليونان مكانتك ومجدك العتيد
ولم يبق بك أحد من النبلاء الكرام
واصبح احرارك يسكنون ريف اليونان
ووفد إليك الرعاع من أقاصى البلدان
حتى صار عبيد العبيد سادتك الآن . . . . . .

انظر (Poetae Aevi Carolini, ed. Traube, III, p. 555)

البلاد الأوربية الشمالية والوسطى مقصورة تماماً على الدوائر الكنسية . ولم يكن للمدن فى تلك البلاد الشمالية أى نصيب من هذه الثقافة ، إذ كانت الحياة الثقافية كلها متركزة فى الأديرة ، وفى القصور الملكية ، أو القصور الاسقفية التى أشبهت الأديرة . ومع أن التجارة والحياة المدنية لم تتوقف تماماً ، فإنها انكمشت إلى مستويات بدائية ،واستحال المجتمع كله ريفياً زراعياً . كذلك اعتمدت اقتصاديات الإمبراطورية والكنيسة على أساس ملكية الأرض ، وانتظمت الضياع الكبيرة على قاعدة أنها مجتمعات اكتفائية ، أى تكفى نفسها بنفسها ، ويدير شئونها ناظور أو ناظر،حسب الطريقة القديمة المتوارثة من إدارة الابعاديات السناتورية أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية القديمة . وكانت منتجات تلك الضياع الكبيرة تكفى لتأدية رسوم الاقامة للسيد المالك وأتباعه ، كلما جاءوا فى زياراتهم الدورية للضيعة وفقاً لنظام « رسم الاقامة فى المزرعة لمدة ليلة واحدة».وهو الرسم الوارد فى الوثائق السكسونية والنورمانية . لكن العادة جرت بأن تسد تلك المنتجات حاجات قصر السيد المالك،وذلك القصر هو قمة البناء الاقتصادى كله فى ذلك العصر . وكان القصر الكارولنجى، حسبما أثبتت الحفائر الالمانية الحديثة فى أنجلهايم وغيرها من المواضع الأثرية ، بناء شاسعاً، مترامى الاطراف، بحيث يسع جميع رجال البلاط الإمبراطورى. وأشبه ذلك القصر ، بأروقته وكنائسه وقاعاته ، دير من الاديرة ، أو القصر البابوى القديم المسمى قصر اللاتيران فى روما ، أكثر مما أشبه طرازاً من القصور الملكية الحديثة . وقبل كل شيء كان ذلك القصر الكارولنجى من الناحية

الاقتصادية اكتفائياً ، وأحاطت به المنازل والدكاكين الخاصة بأرباب المهن والعمال الذين احتاج البلاط الإمبراطورى إلى خدماتهم ، من البيارين والخبازين والحاكة والغزالين والنجارين والحدادين والصاغة .

كذلك كان الحال فى الدير الكارولنجى الذى لم يعد مكوناً من جماعة من النساك والمتعبدين القائمين على حاجاتهم بأنفسهم ، بل أضحى مركزاً إجتماعياً واقتصادياً عظيماً ، كما أضحى مالكا لضياع شاسعة وأداة لتمدين البلاد المفتوحة حديثاً ، ومسرحاً لنشاط ثقافى متعدد النواحى . وكانت الأديرة الألمانية العظمى فى العصر الكارولنجى ، وهى ترجع فى أصولها مباشرة أو فى غير مباشرة إلى جهود بونيفيس ، تشبه الدويلات المعبدية القديمة فى آسيا الصغرى وتقوم بدور مشابه فى حياة الناس التابعين لها . ففى القرن الثامن كان لدير فولدا وحده خمسة عشر ألف حقلا من الأراضى الواسعة الصالحة للزراعة ، ولدير لورش بعد قليل من ذلك التاريخ تسعمائة وإحدى عشرة ضيعة فى إقليم الراين ، وفى دير كوربى حيث بلغ عددالرهبان ثلثمائة ، سكنت حول ذلك الدير مجموعة كبيرة من أرباب المهن والفلاحين والتابعين للدير . ولدينا من التصميم الشهير لدير سانت جال فى القرن التاسع صورة للدير الكارولنجى النموذجى ، وكأنه مدينة صغيرة تشتمل فيما وراء أسوارها على كنائس ومدارس وورشات ومخازن للحبوب ومستشفيات وحمامات وطواحين ومبانى زراعية متنوعة .

ومن المستحيل على الباحث أن يبالغ فى أهمية الدير الكارولنجى فى تاريخ الحضارة أوائل العصور الوسطى ، إذ كان الدير مؤسسة قائمة على أساس اقتصادى زراعى خالص ، ويضم بين جدرانه أعلى مستويات الثقافة الروحية والدينية فى ذلك

العصر . ولم تكن الأديرة الكبرى أمثال سانت جال ورايخناو وفولدا وكوربى صاحبة الزعامة فى أوربا ، لا فى النواحى الثقافية والدينية فحسب ، بل كانت كذلك مراكز رئيسية للتقدم المادى والنشاط الفنى والصناعى . ففى تلك الأديرة ازدهرت تقاليد العلم والأدب والفن والمعمار والموسيقى والعبادات والتصوير والخط ، وهذه هى دعائم الثقافة فى العصور الوسطى . وذلك أن أصول تلك الثقافة كانت فى أسسها دينية مركزة فى الحياة الديرية . وكذلك لم تكن الثروة الديرية الهائلة — كما نتصورها نحن — ملكاً لرئيس الدير والديريين فحسب ، بل كانت أوقافاً للقديس الذى سميت كنيسة الدير بإسمه . بعبارة أخرى كانت جميع أراضى الدير من الأديرة ، كما كانت جميع نواحى نشاطه الاقتصادى ، خاضعة لحاكم فوق البشرية ، متمتعاً كذلك بحماية فوق البشرية ، وهو هذا القديس . ومن هنا كان أقنان الكنيسة عموماً طبقة مختلفة عن أقنان السادة الاقطاعيين من العلمانيين ، وكثيراً ما اختار رجال أحرار أن يتنازلوا عن حريتهم ، يصبحوا « أقنان القديسين » ، أو رجال القديسين كما كانوا يسمون .

ومن تلك الأحوال نستطيع أن نفهم فى سهولة كيف استطاعت الأديرة أن تزيل الغابات ، وتجفف المستنقعات ، وتؤسس مستعمرات زراعية مزدهرة فى مواضع كانت من قبل قاحلة غير صالحة للزراعة . ومنها دير جزيرة ثورنى الذى وصفه وليم مالمزبورى الانجليزى فى عبارة شهيرة بأنه دير بدا كالجنة وسط المستنقعات ، وكان بأشجاره ومراعيه وكرومه وحدائقه معجزة من معجزات الطبيعة والفن .

ولم تكن الأديرة مراكز زراعية وثقافية عظمى فحسب ، بل كانت كذلك مراكز للتجارة ، وبفضل ماتمتعت به من الحصانات استطاعت الأديرة أن تؤسس الأسواق لمنتجاتها ، وأن تسك النقود بإسمها ، وأن تبدأ نظاماً للأعمال المصرفية ، أى أن الأديرة قامت بوظيفة المصارف ( البنوك ) وشركات التأمين الحديثة فى صورة بدائية ، بحيث صار فى استطاعة أصحاب الأراضى أن يقوموا بأعمال ديرية ، وأن يتقاضوا مقابل ذلك معاش من دير من الأديرة ، أو أن يصبحوا مقيمين دائمين حول ذلك الدير ، دون أن يكونوا رهباناً أو ديريين ، ودون أن يكونوا خاضعين للحياة الديرية مقابل وقف أراضيهم على الدير(١) .

ولهذا عاشت الثقافة الكارولنجية طويلا بعد زوال الإمبراطورية الكارولنجية نفسها ، وظلت هذه الثقافة حية فى المراكز الديرية ، ومنها دير سانت جال الذى نزل به الرهبان الأربعة الذين يحملون إسم أكهارد ، والاثنان صاحبا اسم نوتكرز ، وذلك حين كانت أوربا الغربية تتردى فى أشد ما عرفته فى تاريخها كله تقريباً من أنواع الفوضى والأسى . ويرجع الفضل إلى جهود الأديرة فى استطاعة الثقافة الكارولنجية أن تعيش بعد سقوط الإمبراطورية الكارولنجية . ففى خلال الظلام والأسى اللذين اتصفت بهما السنوات المائة من ٨٥٠ إلى ٩٥٠ حفظت الأديرة الكبرى فى أوربا الوسطى مشعل الحضارة

---

(١) انظر (Berliére : l'Ordre Monastique, p. p. 103 - 106 and notes).

مضيئا ، بحيث لم يحدث أى عائق فى انتقال الحضارة من العصر الكارولنجى إلى عصر الإمبراطورية السكسونية التالية[1] .

(١) توجد لدينا صورة لفظية حية رائعة للحياة الاجتماعية والثقافية فى دير من الأديرة العظمى فى ذلك العصر ، وهى واردة فى حولية سانت جال تأليف اكهارد الرابع ( القرن الحادى عشر ) . وتدل هذه الصورة على أن كل دير من الأديرة ومدرسته بلغ أقصى درجات الازدهار فى المدة التى بلغت الأحوال فى أثنائها فى أوربا الغربية عموما أقصى ما بلغت من سوء ، أى من سنة ٨٩٢ إلى ٩٢٠ م .

# الفصل الثالث عشر

## عصر الفيكنج ودخول المسيحية إلى بلاد الشمال الأوربى

رأينا كيف حققت أوربا الغربية لنفسها فى العصر الكارولنجى وحدة ثقافية لأول مرة فى تاريخها ، وكيف كانت نشأة الإمبراطورية الكارولنجية نهاية لثنائية الثقافة التى اتصفت بها سنوات الغزوات الجرمانية ، كما كانت برهاناً على قبول الجرمانيين الغربيين لمبدأ الوحدة الذى عمل على تحقيقه فيما مضى كل من الإمبراطورية الرومانية القديمة والكنيسة الكاثوليكية . وهكذا تمثلت فى الثقافة الجديدة جميع العناصر التى تتكون منها الحضارة الأوربية ، وهى التراث السياسى الذى خلفته الإمبراطورية القديمة، ثم التراث الدينى الذى أنشأته الكنيسة الكاثوليكية، والتراث الثقافى الذى أبدعته الدراسات الكلاسيكية، وكل ذلك فضلا عن التراث الوطنى الخاص بالشعوب الجرمانية .

وعلى الرغم من ذلك كله فإن تلك الثقافة الجديدة كانت « تركيبا مزجيا حضارياً » قبل الأوان ، لأن التقاليد الجرمانية داخل الإمبراطورية وخارجها ظلت أشد صلابة من أن يتم هضمها وتمثيلها تماماً فى الجسم السياسى الحضارى

الجديد. ففى داحل الإمبراطورية الـكارولنجية نفسها، بدت هوة هائلة فاصلة بين الإنسانية المصطنعة التى تحلى بها رجال من أمثال العلماء سرفاتوس لوبوس والافريد سترابو، وبين المستويات العقلية التى اتصف بها النبيل المحارب أو القن الفلاح ، على حين ظلت خارج الإمبراطورية شعوب جديدة لم يمسسها تأثير المسيحية والحضارة المسيحية الرومانية . ولذا أعقبت حركة الوحدة الـكارولنجية حركة رجعية عنيفة ، حيث أنذرت موجة جديدة من الغزو الجرمانى بتدمير جميع مابناه شارلمان وأسلافه ، وإحالة أوربا إلى حال أكثر عمومية ونكالا مما أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة قبل ذلك بأربعة قرون من خلل وفوضى .

وكان المصدر الرئيسى لهذا الخطر الخارجى كامناً فى شبه جزيرة اسكندناوة، التى كانت منذ أزمنة سحيقة فيما قبل التاريخ مركزاً لحركة ثقافية نوردية ناشطة مستقلة بذاتها . وظل ذلك المركز الثقافى النوردى — أى الشمالى — جانحاً دائماً نحو البقاء منعزلا عن جميع العالم المعمور ، وغدت عزلته عن سائر أوربا أشد عمقاً منذ عصر حركة الشعوب الجرمانية فى القرنين الرابع والخامس . غير أن أسباب تلك العزلة يشوبها بعض الغموض ، ولو أنه لا شك فى أن انتهاء العلاقات التجارية التى نشطت قبلا فى ظل الإمبرطورية الرومانية ، كان أحد العوامل الرئيسية لتلك العزلة . غير أن المسألة الأكثر صعوبة هى مسألة تفسير التغيير المفاجئ الذى أدى إلى الانفجار التوسعى العنيف الذى اتصف به عصر غزوات الفيكنج ، عندما انثالت الشعوب الشمالية فجأة فى موجة من الفتوح التوسعية التى حملتهم بعيداً إلى ما وراء أطراف العالم الأوربى ، بعد أن ظلوا قابعين فى أقاليمهم الضيقة المطلة على البحر البلطى . وفى خلال القرنين التاسع

والعاشر امتد نشاط تلك الشعوب الشمالية من أمريكا الشمالية إلى بحر قزوين، ومن المحيط المتجمد الشمالى إلى البحر الأبيض المتوسط ، وهاجموا القسطنطينية وبيزا وشمال فارس وإسبانيا الإسلامية ، على حين وصلت مستعمراتهم وغزواتهم جزيرة جرينلاند وجزيرة أيسلاند وبلاد روسيا، فضلا عن نورمنديا وجزء كبير من إنجلترا وأيرلندا واسكتلندا .

أما أسرار ذلك النجاح العجيب ، فلابد لفهمها من الرجوع أولا إلى الأحوال الفريدة التى اختص بها المجتمع النوردى والثقافة النوردية ، وهى ثقافة عريقة ، وعلى جانب كبير من التطور فى بعض النواحى ، ولم يتح لها حتى وقتذاك فرص كثيرة أوقليلة للتوسع السلمى . وبلغت تلك الثقافة النوردية فى أزمنة عزلتها مستوى عاليا فريدا فى فن الحرب وقواعده الخلقية ،فلم تكن الحرب مصدرا للسلطان والثروة والمكانة الاجتماعية فحسب ، بل مشغلة دائمة كذلك للأدب والديانة والفن . وكان محور النظام الاجتماعى عندهم هو القائد العسكرى أو « الملك » الذى اعتمد سلطانه على شجاعته الشخصية ، ومقدرته على اجتذاب أتباع من المحاربين ، أكثر من اعتماده على أساس إقليمى . ولم يكن هناك قانون ثابت لتوريث العرش للابن الأكبر ، بل كان مطمع كل رجل تجرى فى عروقه دماء ملكية ، أو دماء رآسة قبلية ، وأن يكسب لنفسه شهرة عن طريق الحرب والمغامرة والكرم الواسع نحو أتباعه، على نسق البطل القصصى بيوولف. « وكان بيوولف بن سكيلد شاباً ذائع الصيت فى البلاد السكندناوية، وانتشر صيته بعيداً فى طول البلاد وعرضها. وهذا ما ينبغى لكل ملك شاب أن يقوم به من توزيع الهبات الفاخرة من أملاك أبيه، حتى إذا ما اشتعلت الحرب

فإنه يجد إخوانا طائعين يقفون إلى جانبه ، ويظلون كذلك حتى يبلغ سن الشيخوخة . وفى كل قبيلة من القبائل يسعد الرجل دائماً عن طريق الأعمال الصادرة عن المحبة [1] » .

ومن البديهى أن كان إلى جانب المحاربين عنصر آخر فى المجتمع النوردى وهو عنصر المجهود البنائى فى عمل الفلاحين وأصحاب الأراضى الموسرين « الذين يفلحون الأرض ويعبدون الرب » ، على قول الأستاذ أولريك فى كثير من التأكيد [2] . ووجد ذلك العنصر غذاء روحياً له فى عبادة آلهة الأرض وقوى الخصوبة ، وهى آلهة ــ الفانير التى تشتمل على فراى وفرايا ونجوردر ــ وكلها أوثان من جنس مختلف عن جنس أودين إله الملوك ، وآيزر إله الحرب [3] . وربما كانت الصلة بين الملكية السويدية والمعبد الوثنى القديم لتلك العبادة فى أوبسالا هى التى مكنت للنظام الملكى أن يقيم سلطانه مبكراً ، وعلى أساس متين ، فى السويد الشرقية وأراضيها الخصبة . وفيما عدا ذلك من الأراضى — ولا سيما فى النرويج — يبدو أن الممالك القبلية الصغيرة عاشت فى شغل شاغل بحروب مستمرة ، بحيث لم يبق من تلك الممالك سوى أصلحها للبقاء ، وتلك اعتمد بقاؤها على القوة الشخصية والسمعة الطيبة التى اشتهر بها ملوكها المحاربون ، كما يتضح من قصة بيوولف .

غير أنه ليس لدينا معلومات تاريخية مباشرة نستدل بها على ما كان جاريا

---

(١) انظر (Anglo Saxon Poetry, trans. R. K. Gordon, p. 4.)

(٢) انظر (A. Olrik : Viking Civilization, p.p. 102 - 103)

(٣) يجب أن نذكر هنا أن إله الفلاحين زمن الفيكنج لم يكن فراى بل الإله المحارب تور .

فى شبه جزيرة اسكندناوه فى العصر الواقع بين الغزوات الجرمانية وحركة الفيكنج ، وإن كان من المؤكد أنه كان عصر نشاط سياسى كبير ، وصحب هادر ، استطاعت الممالك الأقوى فى أثنائه أن تزيد من قوتها تدريجيا ، على حساب جيرانها . وعلى ذلك المنوال تهدمت مملكة الجياتيين على أيدى مملكة السويديين ، على حين خضع الجوتيون والهيثوبارديون لجيرانهم الدانيين الذين أقاموا لأنفسهم مملكة قوية فى القرن الثامن ، بزعامة الملك هارولد وورتوث . أما فى النرويج فإن الوحدات القبلية الصغيرة ظلت محتفظة باستقلالها إلى ما بعد ذلك العصر بكثير ، بسبب الخصائص الجغرافية لتلك البلاد ، مع العلم بأن المعلومات الأثرية تدل على أن الاتجاهات التى تقدمت الإشارة إليها كانت تعمل فى الممالك القبلية الصغيرة فى النرويج الشرقية ، وهى روماريكه وهديمارك ورنجيريكه وفستفولد ، حيث تدل المدافن العظيمة لملوك عصر ما قبل التاريخ فى راكنهاوج بمملكة روماريكه ، وفى زفاى بمملكة هديمارك ، وفى بورره بمملكة فستفولد ، على القوة المتزايدة والمكانة الكبيرة للسلطات الملكية ، وهذه المدافن تعد من أفخم الآثار التى من نوعها فى أوربا .

وكان لذلك التطور بعض التأثير ولا ريب فى حركة الانثيال والتعمير التى افتتح بها عصر الفيكنج . وليس لدينا ما يدعو إلى التشكك فى ما تنطوى عليه التقاليد الأيسلاندية من حقيقة فعلية شرحها آرى الحكيم بالتفصيل فى مؤلفه القيم عن تعمير أيسلانده[1] . غير أن بلاد النرويج الغربية — ولا سيما

---

(١) يعزو دودو مؤرخ النورمانيين حركة الفيكنج إلى أزمة ازدياد عدد السكان ، نتيجة لتعدد الزوجات فى طبقة من طبقات المجتمع الفيكنجى. وكان لذلك الازدياد السكانى ولا شك ==

مملكتى روجالاند وهوردا لاند ، وهما دولتا الحلف الأرستقراطى فى تلك البلاد — كانتا مركزين لنشاط الفيكنج لمدة قرن من الزمان ، قبل أن يحطم الملك هارولد فيرهير ( الأشقر ) قوات الزعماء القبليين الغربيين ، فى وقعة هافرسفورد . ومنذ قرون طويلة كان لتلك البلاد طابع خاص بها من التقاليد الحضارية، واتسمت هذه التقاليد فى القرنين الخامس والسادس بطابعها الأرستقراطى ، ومشابهها الملحوظة لثقافة إنجلترا الأنجلوسكسونية ، ولا سيما أقاليم الميدلاند، أى إنجلترا الوسطى . وترجع هاتان الظاهرتان ، فى رأى الأستاذ شتيليج(1) ، إلى تأثر بلاد النرويج الغربية بنفس الموجة الجرمانية التى جاءت بالأنجلوسكسونيين إلى بريطانيا ، كما جاءت بالفرنجة والبرجنديين إلى غاليا . وأخضع أولئك الغزاة الجرمانيون الوافدون من الجنوب جماعات النرويجيين أهل البلاد الأصليين ، كما جعلوا من أنفسهم طبقة حاكمة تمسكت بطقوسها الجنائزية الجرمانية وظلوا على صلتهم بالشعوب الجرمانية الأخرى فى الغرب الأروبى وسيما شعوب إنجلترا الأنجلوسكسونية . وهكذا كانت النرويج الغربية على صلة بالجزر البريطانية ، لعدة قرون قبل عصر الفيكنج ، بل الواقع أن تلك البلاد اكتسبت اسمها — أى النرويج — من تلك العلاقات البحرية ، لأن لفظ نوروای أو نورثوای يعنيان « طريق الشمال »، ومن المحتمل أن تكون التحسينات التى دخلت على وسائل الملاحة البحرية فى القرنين السابع والثامن، هى التى أدت إلى حملات قرصانية على نطاق أوسع من ذى قبل.

= بعض التأثير فى تلك الحركة — كما هو واضح من قصة النزاع بين اريك بلود آكس (صاحب السيف الدامى ) وإخوته من أبناء هارولد فيرهير ( الأشقر ) ، مع ملاحظة أن عادة تعدد الزوجات اقتصرت على الطبقة الحاكمة من الملوك والرؤساء على وجه التعميم ، وهم الذين كان منهم زعماء تلك الحركة الانثيالية .

(١) انظر (Shetelig : Prehistoire de Norvége, p. p. 183 - 188)

وكيفا كان السبب فى تلك الحملات القرصانية، فموضع الأهمية هنا هو أن شواطئ الجزر البريطانية غدت منذ القرن الثامن مزارا سنويا للأساطيل النرويجية الفيكنجية، وأن الأديرة الجزرية والساحلية — وهى التى كانت مراكز للحضارة المسيحية فى إنجلترا الشمالية — باتت فريسة سهلة لأولئك الغزاة من وراء البحار. وهكذا تم نهب دير لندسفارن وتخريبه سنة ٧٩٣، ودير جارو سنة ٧٩٤، ودير أيونا سنة ٨٠٢ ثم سنة ٨٠٦.

على أن الفيكنج الغربيين ركزوا هجماتهم على أيرلندا، ففى خلال النصف الأول من القرن التاسع تم غزو الجزيرة الأيرلندية كلها، بحيث « لم يوجد نقطة فى البلاد ليس بها أسطول »، على قول أحد المؤرخين الأيرلنديين. وهنا كذلك كانت الكنائس والأديرة أسهل المواقع للهجوم، وبذا انتهت عظمة عصر الثقافة الديرية الأيرلندية فى حمأة طامة من النهب والقتل والتخريب. ويبدو أن الزعيم النرويجى الكبير تورجايس، — وهو الذى أخذ فى إنشاء دولة فيكنجية ثابتة فى أيرلندا بين سنتى ٨٣٢، ٨٤٥ — كان يحاول عامداً متعمدا أن يقضى على المسيحية الأيرلندية، إذ أزال رفات القديس باتريك من مدينة أرماغ، وجعل من تلك المدينة مركزا لمملكته، على حين انتهك حرمة كنيسة القديس كياران فى كلونما كنواز، وهى المركز الكنسى الكبير على نهر شانون، وأقام على مذبحها نصبا تذكاريا لزوجته، وهى التى كانت نبية وثنية. ولم تؤثر وفاة هذا الملك شيئاً فى نمو قوة الفيكنج، إذ حدث سنة ٨٥١ أن جاء إلى أيرلندا الملك أولاف الأبيض، وهو ابن ملك نرويجى، وأسس مملكة دبلن التى شاءت لها المقادير أن تخضع وتظل خاضعة لحكم إيفار « ملك جميع الشماليين فى أيرلندا وبريطانيا »، ولحكم خلفائه من بعده حتى القرن الثانى عشر.

ومن ذلك يتضح أن أيرلندا التى كانت نقطة البداية فى الحركة الإحيائية للثقافة المسيحية بغرب أوربا قبل العصر الكارولنجى ، كانت كذلك أول البلاد التى وقعت فريسة للغزو الفيكنجى الجديد . ولم تلبث الثقافة المسيحية الإنجلية التى أسهمت أيرلنده فى إنشائها بسهم وفير ، أن شاركت الثقافة الأيرلندية مصيرها . ففى سنة ٨٣٥ بدأت سلسلة جديدة من الهجمات على أقاليم إنجلترا الشمالية والشرقية ، وذلك على أيدى الدانيين . وفى سنة ٨٦٧ انهارت مملكة نورثمبريا الأنجلوسكسونية انهيارا تماما ، وبدا كأن إنجلترا سوف تغدو كلها مستعمرة فيكنجية . ومع أن مملكة وسكس وسائر إنجلترا الجنوبية استطاعت أن تحتفظ باستقلالها ، بفضل جهود الملك ألفرد ، فإن جميع أقاليم إنجلترا الشمالية والشرقية ، شمالى نهر التيمز وواتلنج ستريت ، صارت مأهولة بالفيكنج ، وصارت تسمى دينلو ، أى منطقة الدانيين . ولم ينته الاستعمار السكندناوى عند أطراف تلك المنطقة ، بل كانت جميع الشواطئ الغربية للجزر البريطانية تابعة لدائرة النفوذ الفيكنجى الأيرلندى ، كما كانت أقاليم واسعة من إنجلترا الشمالية الغربية — وهى كمبرلاند وإقليم البحيرات — مأهولة بمستعمرين نرويجيين .

وهكذا شهد أواخر القرن التاسع تكوين إمبراطورية نرويجية بحرية ، ممتدة من جزيرة أيسلاند وجزر فارو إلى البحر الأيرلندى ، واشتملت هذه الإمبراطورية النرويجية على جميع الجزر الصغرى فى البحار الغربية ، فضلا عن جزء كبير من أيرلندا وشمال اسكتلندا وإنجلترا .

وفى تلك الأثناء اتخذت حركة الفيكنج طريقاً توسعياً مختلفاً بعض

الاحتلاف عن ذى قبل ، إذ اتجهت هذه الحركة نحو القارة الأوربية . وهنا كان الدانيون — لا النرويجيون — هم الذين قاموا بالدور الأكبر فى تلك الحركة الجديدة ، وكان عليهم أن يواجهوا قوة الإمبراطورية الكارولنجية الضخمة ، لا قوى القبائل الكلتية المبعثرة فى إنجلترا الأنجلسكسونية وأيرلندا .

ومنذ أيام العصر الميروفنجى الأول كانت قوة الفرنجة مخافة الدانيين وموضع ريبتهم ، كما يتضح لنا من العبارة الواردة فى قصة بيوولف ، حيث يشكو البطل ويجلاف من حرمان الدانيين من عطف الملك الميروفنجى على مر الأيام، وذلك منذ غزا هيجلاك الدانى أرض الفرنجة سنة ٥٢٠ . ثم ازدادت تلك المخافة والريبة بالفتح الكارولنجى لبلاد الفوزيين والسكسون ، وهو الفتح الذى جعل الإمبراطورية الكارولنجية متصلة اتصالا مباشراً بالبلاد الدانية ، كما جعل كيان الشعوب الوثنية الحرة فى الشمال الأوربى مهدداً أكبر تهديد . ثم حدث سنة ٨٠٨ أن شبت الحرب بين الطرفين ، إذ أنفذ الملك جوترد الدانى أسطولا للإغارة على فريزيا المحتلة بالقوات الكارولنجية وهدد بالهجوم على مدينة آخن نفسها . غير أن مقتل هذا الملك الدانى سنة ٨١٠ ، أنهى تلك الحرب وختم عليها ، ولمدة عشرين سنة لم تواجه الإمبراطورية الكارولنجية سوى إغارات متفرقة قامت بها عصابات فيكينجية من النرويج وأيرلندا . ثم حاول خليفة شارلمان — وهو ابنه لويس التقى — أن يقوم بتحويل اسكندناوة إلى المسيحية بوسائل سلمية ، فأنشأ علاقات ودية مع الملك هارولد — ابن جوترد — وأغراه أخيراً باعتناق المسيحية هو وابنه وأربعمائة من أتباعه فى مدينة ماينز سنة ٨٢٦ . ومهدت تلك العلاقات الودية للبعثات التبشيرية التى قام على رأسها أبو القديس آنسكار إلى الدانمرك والسويد ،

كما أدت إلى جعل مدينة همبورج مركزاً أسقفياً للأراضى الأوربية الشمالية . لكنه على الرغم مما لقيه القديس آنسكار من حسن استقبال لدى الملك هارولد السويدى ، وعلى الرغم مما صادفه هذا القديس من نجاح فى تأسيس كنيسة بيركا فى قلب اسكندناوة ، فضلا عن عدة كنائس فى الدانمرك ، فإن جهوده لم يقدر لها أن تثمر إلا بعد ذلك بعدة قرون . ثم آذن خلع الملك لويس التقى عن العرش الكارولنجى سنة ٨٣٣ ببداية سنوات من المنازعات العائلية الكارولنجية والحروب الأهلية التى جعلت الإمبراطورية عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضد جيرانها الشماليين ، فاستقر الدانيون فى فريزيا — وهولندا ، بعد أن دمروا ميناء دورشتيد العظمى قرب أوترخت الحالية ، وهى الميناء التى كانت لعدة أجيال مركزاً للعلاقات التجارية مع بلاد الشمال الأوربى .

وبعد سنة ٨٤٠ دأب الإمبراطور لوثير على تشجيع الإغارات الدانية على أراضى أخيه لويس الجرمانى [1] ، فى أطراف أوستراسيا وسكسونيا ، شرقى الراين . ومنذئذ اتخذت إغارات الفيكنج طابعاً جديداً ، إذ غدت حملاتهم مجهزة على مقياس كبير فى أساطيل كبيرة مؤلفة من مئات السفن ، وصارت

---

(١) دب النزاع بين أبناء الإمبراطور لويس التقى ، حول تقسيم أقاليم الإمبراطورية الكارولنجية فيما بينهم ، والإمبراطور أبوهم لا يزال على قيد الحياة . ثم توفى هذا الإمبراطور سنه ٨٤٠ ، غير أن النزاع بين الأبناء ، وهم شارل الأصلع ولويس الجرمانى ولوثير ، لم ينته إلا سنة ٨٤٣ ، وذلك باتفاقية فردان الشهيرة ، فأخذ شارل الأصلع إقليم نوستريا وأكويتين ، وأخذ لويس الجرمانى الإقليم الواقع شرقى نهر الراين من أوستراسيا ، فضلا عن بافاريا وسوابيا وسكسونيا ، على حين أخذ لوثير مجموعة الأقاليم الواقعة بين هذين القسمين ، وهى الأراضى المنخفضة والجزء الواقع غربى الراين من أوستراسيا ، بالإضافة إلى برجنديا وبروفانس وإيطاليا ( المترجان ) .

الأقاليم الغربية من الإمبراطورية الكارولنجية — فضلا عن إنجلترا — هدفاً لهجمات تخريبية سنة بعد أخرى. ولمدة خمسين سنة تقريباً، ظلت تلك الإغارات تزداد شدة حتى نال جميع الأديرة والمدن على طول الساحل الأوربى الغربى من هامبورج إلى بوردو — نصيباً كبيراً من التخريب والتدمير، واستحالت مساحات كبيرة من الأراضى الأوربية الخضراء إلى فيافى خالية من السكان، ولا سيما الأراضى المنخفضة والشمال الغربى من فرنسا، بحيث اضطرت رفات القديسين أنفسهم أن تذهب عن أضرحتها الكنسية المدفونة بها، كما اضطرت مخلفات دينية مشهورة مثل جثمان القديس مارتن وجثمان القديس كوثبرت أن تظل متنقلة حائرة من بلد إلى آخر، ولعدة سنين، طلباً للنجاة من تيار الغزو الزاحف. وعجزت جهود الملوك الكارولنجيين عن أن تصد هجمات العدو الزاحف أو أن توقف انحلال المجتمع الكارولنجى، ولا سيما جهود شارل الأصلع الذى تحملت مملكته أشد مراحل العاصفة الغازية المدمرة.

ثم شهدت السنوات العشرون الختامية من القرن التاسع نهضة انتقالية تدريجية للمسيحية وتقاليدها. وكان من علامات انتقال الحال من جزر إلى مد انتصارات الملك ألفرد فى إنجلترا سنتى ٨٧٨، ٨٨٥، ونجاح الكونت أودو ابن روبرت القوى فى الدفاع عن باريس فيما بين سنتى ٨٨٥، ٨٨٧ وانتصار الملك آرنولف فى فلاندرز سنة ٨٩١. ومع أنه كان من المستحيل أن يذهب الغزاة كلية عن البلاد — سواء إنجلترا أو فرنسا — فإن خلفاء الملك ألفرد كانوا من القوة بحيث استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على منطقة الدانيين (دينلو)، على حين جعلت المعاهدة بين الملك الكارولنجى شارل البسيط والزعيم الفيكنجى رولو، إقليم نورمانديا الذى احتله الفيكنج وقتذاك إقليما تابعاً

لهم على قاعدة التبعية الإقطاعية ، كما مهدت هذه المعاهدة كذلك معظم السبيل لاندماج المقيمين الفيكنج فى أرجاء البلاد النورمانية .

وعلى الرغم من ذلك كله ، لم يكن ثمة أمل حتى وقتذاك فى شىء من السلام لدول العالم المسيحى ، لأن الفيكنج لم يكونوا الأعداء الوحيدين الذين كان على تلك الدول أن تحاربهم ، لأنه على حين كان الفيكنج يدمرون أقاليم أوربا الغربية ويفسدون فيها ، كانت إيطاليا وسواحل البحر المتوسط هدفا لهجمات المسلمين . ففى سنة ٨٢٧ وضعت قوات الأغالبة ملوك تونس أقدامها على أرض جزيرة صقلية ، ثم استولت تلك القوات تدريجياً على أرض هذه الجزيرة كلها . ومن تلك الجزيرة أخذ المسلمون يهاجمون إيطاليا الجنوبية ، ولم يلبثوا أن دقوا أوتادهم فى ميناء بارى ومصب نهر جارجليانو ، وجعلوا منها قواعد لنشاطهم الحربى لمدة نصف قرن من الزمان . ثم أغارت جماعات من المسلمين على الممتلكات البابوية ، وهاجمت روما نفسها سنة ٨٤٦ ، وبذا أفزعت العالم المسيحى كله .

وفى تلك الأثناء تعرضت السواحل الشمالية للبحر الأبيض المتوسط لإغارات قراصنة مسلمين من إسبانيا وجزائر البايار ، وأسس أولئك القراصنة الذين كانوا يعملون فى البحر لحسابهم قاعدة لقواتهم فى الأراضى الأوربية عند فراكسينيتوم قرب دير سانت تروبيز . ولمدة قرن تقريباً — من سنة ٨٨٨ إلى ٩٧٥ — ظلت تلك القاعدة القرصنية مصدر فزع لجميع البلاد المجاورة ، بل إن مناطق جبال الألب لم تكن بنجوة من الغزاة المسلمين الذين تربصوا بجماعاتهم عند الممرات السويسرية لنهب الحجاج والتجار المسيحيين ، وهم فى طريقهم إلى إيطاليا .

وأخيراً ، وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه الضغط يخف من ناحية الشمال الأوربى ، تعرضت أوربا لخطر جديد من ناحية الشرق ، وهو خطر المجريين ، وهم قوم مترحلون مخاطون من أصول فينية وتركية مثل البلغاريين . واقتفى أولئك المجريون آثار كثير من الغـزاة الزاحفين قبلهم إلى السهول المجرية من الأراضى السهوبية ( الإستبس ) فى آسيا الوسطى وروسيا الجنوبية ، وهدموا المملـكة المسيحية المورافية الجديدة التى أقامها السلافيون فى إقليم مورافيـا ، كما أخذوا فى شن الإغارات الكثيرة بعيداً عن قواعدهم ، وعلى مقياس واسع ، كما فعل الهون والآفار قبلهم . وخربوا الجزء الشرقى من الإمبراطورية الكارولنجية تخريباً لا رحمة فيه، مثلما فعل الفيكنج فى الغرب الأوربى، ومدوا إغاراتهم تدريجياً حتى التقوا بالجماعات الإسلاميـة المنافسة لهم فى إيطاليا وإقليم بروفانس بالجنوب الشرقى من فرنسا .

وهكذا — ولمدة النصف الأول من القرن العاشر — باتت الحضـارة المسيحية الغربية على شفا جرف من الانهيار . ولم يحدث لها أن تعرضت لمثـل تلك الحال من الضغط المثلث ، حتى فى أشد أيام القرن الثامن ، لأن الهجوم عليها وقتذاك جاء من ناحية واحـدة وهى دولة الأغالبة المسلمين ، على حين اكتنفها الهجوم من جميع النواحى طيلة النصف الأول من القرن العاشر ، حتى أمسى العالم المسيحى الغربى كله جزيرة تحيط بها أمواج الغزوات الفيـكنجية والمجرية فضلا عن دولة الأغالبة المسلمين . ومن المعروف أن العالم المسيحى الغربى استطاع خلال الغزوات الجرمانية الأولى أن يعتمد على تفوقه الثقافى الذى أكسبه هيبة فى نظر أعدائه من الجرمان ، لـكنه بدا تلك المرة فاقداً لذلك التفوق، لأن مركز الثقافة الأعلى فى الغرب خلال القرن العاشر كان فى إسبانيا الإسلامية .

ولم يكن سمو العالم الإسلامى فى نواحيه الاقتصادية والسياسية أقل من سموه على العالم المسيحى الغربى فى النواحى الثقافية، لأن ما تبقى وقتذاك من نشاط تجارى فى أوربا كان مرجع الفضل فيه إلى التجارة الإسلامية التى شملت — لا حوض البحر المتوسط كله وحده — بل جميع الأقاليم الممتدة من آسيا الوسطى إلى حوض البحر البلطى ، عن طريق بحر قزوين ونهر فولجا والمحطات التجارية السويدية ، مثل نوفجورود وكييف . وهذا التبادل التجارى الإسلامى الشاسع هو الذى يفسر وجود كميات كبيرة من نقود إسلامية مضروبة بدور الضرب فى طشقند وسمرقند وبغداد ، وهى نقود عثر عليها الباحثون خلال الحفائر الاسكندناوية الخاصة بذلك العصر . وتوجد من هذه النقود بقايا عثر عليها الباحثون فى إنجلترا فى دفائن بلدة جولز بورو ، وفى خزينة الجيش الفيكنجى الذى كان معسكراً فى نورتمبريا سنة ٩١١ ، وهى خزينة عثر عليها الباحثون منذ سبعين سنة قرب مدينة برستون ، ولم تقتصر محتوياتها على نقود فحسب ، بل اشتملت كذلك على حلى كثيرة منقوشة بنقوش إسلامية . وثمة دليل أدعى للبرهان على مدى التأثير الإسلامى فى ذلك العصر ، هو الصليب البرونزى المذهب الذى عثر عليه الباحثون فى مستنقع من مستنقعات أيرلندا وعليه « بسم الله الرحمن الرحيم » منقوشة بالخط الكوفى ، وهو محفوظ حالياً بالمتحف البريطانى فى لندن .

غير أن مصير العالم المسيحى الغربى لم يعتمد على قوته أو صلابته فى ميدان المقاومة الحربية بقدر اعتماده على طاقته فى تذليل شوكة المجتمع الوثنى الفيكنجى الشمالى. ولو اعتنق الفارنجيون (الورنك) الروسيون دين جيرانهم المسلمين بدلا من الديانة المسيحية التى أخذوها عن الكنيسة البيزنطية لتغير مجرى التاريخ الأوربى، لكن المقادير شاءت أن تحتفظ الثقافة المسيحية المحطمة فى أوربا الغربية بحيويتها

الروحية ، وأن تجتذب الكنيسة الغربية بطقوسها وأسرارها القداسية جميع الشعوب السكندناوية . ولم ينته القرن العاشر حتى ثبتت المسيحية أوتادها فى البلاد الأوربيـــة الشمالية ، ولم يـكتف ملك فيـكنجى عظيم —وهو أولاف تريجفاسون — بأن يغدو ملـكاً مسيحياً فحسب ، بل نصب نفسه لنشر العقيدة المسيحية بوسائل فيـكنجية عنيفة[1] .

وظلت هذه الحركة المسيحية سائدة فى طريقها ، ولم يستطع تجديد النشاط الفيـكنجى — بعودة الهجمات الفيـكنجية على كل من إنجلترا وأيرلندا فى ذلك العصر — أن يعوق شيئاً من تلك الحركة ، بل لم تلبث وقعة كاونتارف سنة ١٠١٤ أن ختمت على خطر الفيـكنجيين على أيرلندا ، كما ساعد نجاح الدانيين فى كانوت الاستقرار فى إنجلترا على اتمام عملية اندماجهم فى الحياة الإنجليزية ، بدليل أن ملـكهم جعل انجلترا مركزاً لامبراطوريته ، وأنه حكم الأقاليم الإنجليزية وفقاً لتقاليد أسلافه زمن الملوك الانجلوسكسون ، وأنه فاق أولئك الملوك أنفسهم فى ولائه للـكنيسة وتشجيعه للأديرة . وكان ذهاب الملك كانوت حاجاً إلى روما سنة ١٠٢٦ — ١٠٢٧ ، حيث شهد تتويج الإمبراطور الجرمانى كونراد ، أحد الحوادث الهامة فى ذلك العصر ، لأنه يبرهن على دخول الشعوب الأوربيـــة الشمالية نهائياً فى المجتمع الشامل للعالم المسيحى كله ، كما يبرهن على قبول تلك الشعوب لمبدأ الوحدة الروحية الدينية . ويتضح ذلك فى مجموعة القوانين التى أصدرها الملك كانوت فى إنجلترا أواخر سنوات حكمه ، لأن هذه المجموعة تدل

---

(١) دخلت الديانة المسيحية بلاد الدانمارك قبل ذلك التاريخ ، أى زمن الملك هارولد بلوتوث « أبو سنة زرقاء » ٩٥٠ — ٩٨٦ ، وبهذا الملك يبدأ قيام دولة دانية قوية متحدة .

دلالة أوضح من أية وثيقة أخرى من وثائق ذلك العصر على تمام الامتزاج بين الناحيتين السياسية والدينية فى الدولة المسيحية ، كائنة ما تكون فى إنجلترا أو غيرها من الممالك ، كما تدل على مدى ما صار إليه القانون العام فى العالم المسيحى ، بحيث صار هو الإطار الفعلى للمجتمع الجديد الذى نشأ فى أعقاب عصر البربرية والغزوات والحروب ، وهو المجتمع الذى أخذ يظهر فى أوربا العصور الوسطى .

وهكذا برهنت الغزوات الفيكنجية على أنها كانت فائدة لأوربا ، لأنها جاءت بحياة جديدة ، ونشاط جديد للحضارة الضعيفة المصطنعة التى اتصف بها العالم الكارولنجى . ثم أن سلائل الفيكنج لم يلبثوا أن أصبحوا أبطال المسيحية ودعاتها وحاملى لواءها ، كما يتضح تمام الوضوح فى حالة النورمانيين الذين تزعموا الحركة الجديدة ونظموها للتوسع الأوربى الغربى فى القرن الحادى عشر . على أن تلك الفائدة لم تأت بدون ثمن ، لأنها أدت إلى زوال الطابع الاستقلالى من التقاليد الثقافية النوردية ، إذ تشرب المستوطنون السكندناويون عموماً — سواء فى نورمنديا أو فى إنجلترا أو فى روسيا — ثقافة البيئة التى وجدوا أنفسهم فيها ، واندمجوا تدريجياً كل الاندماج فى المجتمع الذى سبق لهم أن تغلبوا عليه وأخضعوه لسلطانهم وحكمهم . ولذا لم تلبث اسكندناوه نفسها أن فقدت استقلالها الثقافى ، وصارت على مر السنين إقليما من أقاليم الأطراف المسيحية الغربية .

ولم يبق شىء من قديم التقاليد الفيكنجية إلا ما ظل حياً فى أقصى الغرب الأوربى . والمقصود بذلك أقاليم المتلكات النرويجية التى امتدت من جرينلاند

وأيسلاند إلى البحر الأيرلندى ، حيث صارت تلك التقاليد منبعاً لثقافة نوردية أصيلة لامعة ، ليس كمثلها شيء فى القارة الأوربية . وهنا كذلك لم يكن العنصر النوردى وحيد ميدانه ، بل اتصل أهله بثقافة ثانية ، كانت هى الأخرى حتى وقتذاك فى عزلة عن التيار الرئيسى للتطور الأوربى الغربى ، وهى ثقافة أيرلندة الكلتية[1] . وفى أنحاء تلك الأقاليم كلها كانت الجالية الفيكنجية هى الطبقة الحاكمة، على حين ظل معظم السكان من الكلتيين المتوطنين، مع العلم بحدوث كثير من الاختلاط والتزاوج بين العنصرين . وبهذه الطريقة نشأت فى القرن التاسع ثقافة كلتية نوردية مختلطة ، وتأثرت بهذه الثقافة المختلطة نواحى الثقافة الأم فى كل من أيرلندا واسكندناوة . ويتراءى تأثير تلك الثقافة المختلطة واضحاً تمام الوضوح فى الطراز الفنى الجديد فى العصر الجيلنجى فى القرن العاشر ، وهو الطراز الذى أنتج نماذج فى الفن الزخرفى السكندناوى . ولا مجال هنا للشك فى مصدر التأثير الأجنبى المختلط ومداه ، على عكس الحال بشأن قضية التأثير الكلتى وحده فى الأدب السكندناوى ؛ وهى القضية التى ظلت دائماً موضعاً للجدل والمناقشة . ومن الغريب أن العلماء السكندناويين

---

(١) يقول الأستاذ أولريك (Olrik: Viking Civilisation p.120) ما نصه «كان ذلك العنصر الأيرلندى فى الثقافة السكندناوية ظاهرة قوية فريدة فى ذاتها، إذا نحن تأملنا ذلك العنصر فى جملته ، لأنه ظاهرة غير متفقة زمنيا مع التيار الرئيسى للحركة المسيحية الأولى وهى تجرى خلال القارة الأوربية. والواقع أن ذلك العنصر يتراءى كأنه أداة إغناء وازدياد لمسرح الحضارة الأصلية فى شمال أوربا، لا جزءاً من حركة جديدة متمشية مع دخول المسيحية إلى أوربا . ونظراً لما نتج عن تلك الحركة من هدم لجزء من التراث القديم ، فمن المحتمل أن تلك الحركة أحدثت ثغرة ومدخلا للتيار الرئيسى الجديد ، مع العلم بأن اتجاهات مسيحية معينة جاءت فعلا من أيرلندا . غير أن ذلك التأثير الأيرلندى أسهم بنصيب مساو على الأقل لإنتاج حضارة خاصة ، وهى حضارة عوقت بعض التعويق سرعة اندماج الشمال فى أوربا المسيحية .
انظر (Olrik : Viking Civilization, 120)

كانوا على الدوام هم زعماء القائلين بنظرية التأثير الكلتى ، على حين جعل الكتاب الإنجليز ذلك الموضوع كأنه مسألة قومية ، لبيان الطابع النوردى الخالص فى الأدب السكندناوى .

وعلى ذلك المنوال أرجع الباحث فيجفوسون جميع القصائد العظمى فى ملحمة الإدا إلى مجموعة من الشعراء المنتمين إلى الثقافة الكلت نوردية المختلطة التى أنجبتها الأقاليم الجزرية الغربية ، كما أرجع كثيراً من خصائص الأدب الأيسلاندى وابتكاراته — لا سيما ابتكار الساجا أو الملحمة النثرية — إلى مؤثرات كلتية ، فضلا عن وجود عنصر كلتى بين السكان . غير أن نظرية فيجفوسون القائلة بأصل « غربى » للقصائد الأدبية لم تعد نظرية مقبولة فى الدوائر العلمية، إلا فيما يخص قصيدة ريجثولا التى يتراءى فيها التأثير الأيرلندى قويا ولا ريب . ومن ناحية أخرى فإن نظرية فيجفوسون بصدد التأثير الكلتى فى الثقافة الإيسلاندية لا تزال مقبولة فى الدوائر العلمية نفسها ، وهى نظرية تقوم على حجج قوية . ومن الأدلة على ذلك أن كثيراً ممن استوطنوا جزيرة أيسلاند جاءوا إليها من الجزر الجنوبية ، ومعهم زوجات أو عبيد أيرلنديون، على حين حمل كثير منهم أسماء كلتية ، وعلى حين كان قليل منهم فعلا على شىء من الديانة المسيحية ، مثلى الملكة أودا الثرية الشهيرة، وهى أرملة أولاف هوايت ( الأبيض ) ملك دبلن ، أو مثل الأمير هلجة حفيد كيربهول ملك أوسورى(١) . ثم إن العنصر الكلتى من السكان لم يقتصر على طبقة الثرول ،

---

(١) كتب آرى الحكيم فى وصف الأمير هلجة مانصة « وكان هذا الأمير مزدوجا فى عقيدته أعظم ازدواج ، إذ وضع ثقته فى المسيح وسمى ضيعته باسمه ؛ ولكنه كان يتضرع ═

أى الأقنان، إذيصف كتاب لاندنامابوك ـ أى كتاب أصحاب الأراضى ـ كيف أمدت الملكة أودا رجالها من الكلتيين الأحرار بأراضى يتملكونها ، كما تدل السلالات الواردة فى ذلك الكتات ، فضلا عن الملاحم النثرية ، على أن بعض العائلات النبيلة فى أيسلاند جرت فى عروقهم دماء كلتيه [١].

وعلى هــذا ليس ثمة معنى للتشكك فى وجود عنصر كلتى فى الثقافة الأيسلاندية ، وهو عنصر يتراءى واضحاً فى أخلاق السكان ، وفى منتجاتهم الأدبية ، وذلك لأن مجموعة العناصر التى تميز الأدب الأيسلاندى من التراث القديم الشائع بين الشعوب التيوتونية — أى الملحمة النثرية والشعر السكالدى المقفى — هى بالذات مجموعة العناصر التى يختص بهـا الأدب الأيرلندى [٢].

= للاله الوثنى تور قبل القيام برحلاته البحرية ، وفى أوقات الشدة ، وفى كل الأشياء التى رأى أنها على جانب كبير من الأهمية لشخصه .
انظر (Landnamabok, III, XIV, 3)

(١) قارن ذلك بما جاء فى فهرس الجزء الأول من :
(Vigfusson and Powell : Origines Islandicae)
حيث توجد جميع الأسماء الكلتية مميزة بعلامة نجمة فوقها .

(١) انظر (Olrik : Viking Civilization, p. 107 - 120) ،
حيث يعطى هذا المؤلف صورة عامة عن التأثير الأيرلندى فى الأدب السكندناوى ، وهو التأثير الذى يراه هو واضحاً تمام الوضوح فى الملحمة النثرية ( الساجا ) ؛ ولكنة غير واضح عنده تماماً فى قصائد البطولة وأشعار البلاط المنسوبة للسكالديين . ومن المعروف أن نشأة الشعر السكالدى بدأت بدايتها الأولى فى النرويج الغربية ، ولكن يلاحظ « كما قال الأستاذ أولريك أن أول السكالديين المعروفين ، وهو براجى بوداسون ، كان متزوجاً من امرأة أيرلندية، وأنه استخدم لفظاً أيرلنديا واحدا على الأقل فىقصيدته التى عنوانها راجنا رسدرابار، وذلك على حين شابهت أشعاره فى طريقتها أوزان الشعر الأيرلندى . (op. cit., p.120)

غير أن القول بأن العبقرية الأيسلاندية — كغيرها من عبقريات الثقافات العظمى التى شهدها العالم — نبتت فى أرض أخصبها الامتزاج بين جنسين مختلفين وثقافتين مختلفتين ، لا يقلل من أصالة هذه العبقرية وإنتاجها المبتكر . وعلى فرض أن الأدب الأيسلاندى مدين للكلتيين باستخدام النثر القصصى فى الملحمة النثرية ، فليس أبعد عن أساليب الخطابة التصويرية الخيالية والمعجزات السحرية التى تطفح بها الملحمة الأيرلندية ، من الواقعية الرصينة والاستقامة السيكولوجية التى اتسمت بها الملحمة الأيسلاندية . ومن الدليل على ذلك أنه على حين ترجع الملاحم الأيرلندية زمنياً إلى الوراء — أى إلى ما قبل العصور الوسطى من عصور مضت وانتهت — تبدو الملاحم الأيسلاندية حديثة جديدة، متطلعة إلى الأمام فى نظرتها إلى الحياة والطبيعة البشرية، بالقياس إلى أى نثر أو نظم آخر فى آداب العصور الوسطى .

ومن المعروف أن الإنتاج الناضج فى ذلك الأدب الأيسلاندى يتضح تمام الوضوح فى الملاحم النثرية العظمى فى القرن الثالث عشر — أى عصر سنورى وستورلا — وهو عصر خارج عن نطاق هذا البحث . غير أن ذلك الإنتاج مؤسس تأسيساً مباشراً على تقاليد العصر الفيكنجى ، ولا سيما السنوات الواقعة بين سنتى ٩٣٠ ، ١٠٣٠ وهو العصر الذى أطلق عليه الأيسلانديون أنفسهم اسم « عصر إنشاء الملاحم النثرية » . وكان ذلك فى الواقع عصر الشخصيات البطولية التى سجلت الملاحم النثرية أعمالهم، ومنهم زعماء فيكنجيون مثل إيجيل سكالجريمسون ، وقضاة عدول مثل نجال ، وملوك مثل أولاف تريجفاسون وأولاف القديس ، وملاحون ومستكشفون مثل الرجال الصناديد

الذين استعمروا جرينلاند .واكتشفوا أمريكا الشمالية فى القرن العاشر الميلادى .

على أن بقاء ذلك العصر حياً فى أخيلة المؤرخين يرجع فيما يرجع ـ لا إلى ما خلفته تلك الملاحم النثرية من تقاليد ـ بل إلى القصائد السكالدية المعاصرة التى نظمها أمثال إيجيل سكالجريسون وكورماك ، وذلك فضلا عن أشعار البطولة القديمة التى تم تأليفها قبل ذلك العصر . ومعنى ذلك أن جزيرة أيسلاند لم تكن مبتكرة للملحمة النثرية فحسب ، بل حافظة كذلك لقصائد الإدا القديمة ؛ وبذا تكون أيسلاند هى التى ندين نحن لها بكل ما نعرف عن المعتقدات والأفكار الخلقية والروحية الخاصة بعصر الفيكنج . ومع أن التحديد التاريخى للقصائد الأدبية ظل موضع جدل مدة طويلة ، فليس ثمة شك فى اتفاق ذلك التحديد مع عصر الفيكنج تقريباً . ومع التسليم بسعة الهوة بين نواحى السذاجة والخشونة فى القصائد البدائية ، مثل «قصيدة آتلى» أو «قصيدة هامدير» وبين نواحى الخيال الكونى الرفيع فى منظومة «فولسبا» ، فإننا نستطيع أن نرى من خلال هذه القصائد كلها مثالية خلقية واحدة ، ونظرة واقعية واحدة . ولا سبيل إلى إنكار أن تصوير قصائد الإدا للحياة ينم عن خشونة وسذاجة ، ولكنها تشف كذلك عن بطولة بكل ما فى ذلك اللفظ من معنى ، بل تدل هذه القصائد على شىء أكثر من البطولة ، لأن البطلات النبيلات والأبطال المتعطشون للدماء فى الإدا ، يتسمون جميعاً بسمة روحية لا نظير لها فى عالم القصائد الهومرية اليونانية ، بل الواقع أن القصائد الأدبية أكثر شبهاً إلى روح التراجيديا فى أيسخيلوس منها إلى روح البطولة فى هوميروس ، مع ملاحظة ما هنالك من اختلاف فى موقف كل منهما من الآلهة الوثنية القديمة . ثم إن أبطال القصائد الأدية لم يجعلوا

من إحراز النصر والحصول على الغنى غاية فى ذاتها ، كما فعل أبطال القصائد اليونانية عموماً ، بل تطلعوا إلى ما هو أبعد من تلك الأهداف المباشرة : إلى امتحان نهائى ليس للنجاح فيه أية علاقة بصفة البطولة ، إذ الهزيمة لا النصر هى معيار البطل . ومن هنا نشأت أجواء الجبرية والحتمية والكآبة ، التى تدور فى أفلاكها أشخاص الدورة البطولية الأدية . ولذا كان الأبطال النيبلونجيون ، فى الإدا الإيسلاندية، مثل الأبطال الأتريديين فى الأوديسة الهوميرية ، ممن كتبت عليهم الأقدار الخافية أنواع الجريمة والدمار ، دون أية إشارة لروح الثقة المطمئنة إلى الحصول على الغنى والسعادة . ومن الأمثلة على ذلك أن كلا من هوجنى وجونار، أو همديس وسورلى ، وهم جميعاً من أبطال الإدا ، كانوا عارفين بأنهم يجولون ويصولون نحو الموت ، وبأنهم يذهبون للقاء مصائرهم وعيونهم مفتحة . غير أن نظرة القصائد الإدية إلى الحياة — على خلاف النظرة اليونانية — لا تحاول أن تبرر أساليب الآلهة للإنسان، أو أن ترى فى أعمالهم دليلا على العدالة الخارجة عن النطاق البشرى، لأن الآلهة أنفسهم يقفون فى مشيئات القدر مثلما يقع الإنسان. والواقع أن الآلهة فى القصائد الإدية ليسوا هم معبودات طبيعية غاشمة ، كما تصورها المعتقدات السكندناوية القديمة ، بل هم آلهة تهذبت طباعهم حتى أصبحوا كالإنسان . وكأنما نزلت عليهم روحية بشرية حتى أصبحوا هم أنفسهم مشتركون فى الدراما البطولية ، فتراهم يشنون حرباً عواناً دائمة ضد قوى الفوضى ، دون أن يكون من المقدور لهم أن يكونوا هم الغالبون . وترى حياتهم تخيم عليها خشية من وقوع كارثة ختامية ، وهى ما عسى أن يكون مصيراً للآلهة ، حين يلتقى الإله أودين بالذئب الضارى الشريد . وهنا فقط يكون مجال لنوع من البرهان على وجود الآلهة ، لأن مسلك الآلهة المتسم فى ظاهره بالجور نحو الأبطال

يمكن تبريره على أنه يرجع إلى حاجتهم لأصدقاء وأحلاف لهم من بنى الإنسان ضد الشر . ومثال ذلك ما جاء فى قصيدة أريكسمال ، حيث يترك الإله أودين البطل أريك يلقى الموت قبل الأوان «لأنه ليس من المعروف على وجه التأكيد متى يعتلى الذئب الشرير الأغبر عرش الآلهة » .

وهذا التصوير الفريد لتكوين العالم يجد أعلى تعبير له فى قصة الرؤيا النوردية العظمى الواردة فى قصيدة فولوسبا ، والتى يرجح أن تكون من نظم شاعر أيسلاندى أواخر العصر الفيكنجى . ففى هذه القصيدة حلت صورة شبه فلسفية للطبيعة محل الفجاجة والخشونة اللفظية التى طفحت بها الأساطير الوثنية القديمة . وكان مرجع هذه الصورة فيما يبدو هو الاتصال بالثقافة الأعلى التى اتصف بها العالم المسيحى . ومن الدليل على ذلك على وجه التخصيص الأبيات الافتتاحية من هذه القصيدة [(١)] التى تصف العماء الفطرى الذى بدت فيه الخليقة تشبه شبهاً قوياً أبيات صلوات الراهب البندكتى الألمانى فسوبرونر فى اللغة الألمانية القديمة، ونصها « لم يكن فى الدنيا أرض سهلة ولا سماء عالية ، ولا جبل ولا شجر ، ولم تكن الشمس ساطعة ، ولا القمر مضيئاً ، ولا البحر العظيم موجوداً . كان العالم وقتذاك لا شئ وكان لا نهاية له ، ولا سبيل إليه ،

---

(١) فى قديم الزمان القديم أى حين عاش يامير
ما كان بحر ولا موج ولا رمل ولا زمهرير
ولا كانت الارض ولا السماء العالية
بل هوة هائلة ومن الخضارة خالية
والشمس شقيقة للقمر وهو الذى مطلعه الجنوب =

وكان إله واحد قادر على كل شيء وهو لطيف كريم [١]» .

ويبدو كذلك أن الوصف الختامى لمصير تلك الآلهة الوثنية استمد بعض ألوانه من التصوير المسيحى ليوم القيامة . ومع هذا توجد بالقصيدة عناصر ، لا هى من عالم الفكر المسيحى ولا هى من عالم المعتقدات السكندناوية الوثنية المبنية على قوى الطبيعة . ومن الغريب بالإضافة إلى هذا وذاك ، أن نجد فى الفولوسبا فكرة تبدو لنا على درجة كبيرة من الصعوبة والغموض، وهى فكرة العودة الأبدية ، أى عودة الدنيا وتكرار حدوث جميع ما حدث من قبل :

عندما يلتقى إيزير عند مروج إيدا
ليقص علينا من جديد عظيم أعمال الرجال
ويغنى رونات قديمة من نقش أودين العظيم
ومن غريب الروائع فوق المرود ذهب موجود
بين الحشائش عبروق مقطوع من بعد آماد السنين
تلك الكنوز ملكوها أصحابها فى ماضى الزمان [٢]

غير أننا نراها خلال القصائد الأدية فى دهشة دائمة من الخليط بين التفكير العميق والأسطورة البدائية، فضلا عن الخليط بين البطولة الرفيعة والغلظة الهمجية ،

---

= مدت بأيديها اليمين نحو السماوات الكؤوب
لكنها لكنها لم تعرفن اين المقر لكى تشوب
والقمر لم يعرف له دارا إليها أن يؤوب
والنجم جاهلة بما ترسو عليه من شمال أو جنوب

وهذه الابيات الافتتاحية منقولة هنا إلى اللغة العربية من ترجمة بيللوز الانجليزية — المترجان

(١) انظر (W. p. Ker: The Dark Ages, p. 240)

(٢) انظر (B. S. Philpotts, Edda and Saga, p. 137)

وهو ما يبدو وصفه خاصة بالعقل الفيكنجى . ومن الصعب علينا كذلك أن نوفق بين القسوة الوحشية التى تحلى بها بطل الملحمة النثرية التى عنوانها ملحمة إيجيل ، وبين الحنان الشخصى الشديد الذى تنم عنه مرثية هذا البطل إيجيل فى وفاة أبنائه — وهى مرثية السوناتوريك — التى أعاد إليه نظمها شيئاً من الرغبة فى الحياة ، بعد أن كان معتزماً الانتحار (١) ، على قول الملحمة نفسها . ويتضح ذلك التناقض كذلك فى تاريخ المجتمع الأيسلاندى نفسه ، حيث ثبت ذلك التطور الثقافى العجيب فى بيئة من أشد البيئات قسوة ، وهى جزيرة أيسلاند .

---

(١) أورد المؤلف هذه الأبيات الختامية من ملحمة إيجل ، وفى هذه الأبيات يجد هذا البطل تعويضا عن سوء حظه ، وذلك بالتفكير فى فنه ، أى فن النظم والشعر . وتدل الإشارات الواردة فى الأبيات الأولى من هذه الموشحات على الإلهاودين ، كما تدل على أخت الذئب الأغبر الشرير واسمها هيل — أى إلهة الموت — وهذا هو نص هذه الموشحات .

لست عابدا إذاً ... أخا الإله فيلير
وهو الإله الأعلى ... فى ناظرى واختيارى
لكن صديق الإله ميمير . ... على شخصياً تعطف
بالخير صد البؤس عنى ... وأظن هذا أفضل
وهو الذى اعطانى فنونى ... وهو إله الحروب
وهو كبير أعداء فنرير ... وهو الذى أعطانى
خليقتى تلك التى ... جلبت على ولا تزال
أعداء معروفين لى ... من بين أرباب الخداع
وكل شىء صار صعباً ... وأخت الذئب الشقيقة
تقف فى صوب البحار ... وجميع أعداء أبينا
غير أنى ساظل دوما ... طيب القلب والطوية
متقبلا فى غير حزن ... قدوم يوم للجحيم

انظر (E. R. Edisson, Eglis Saga, p. 193 (1930) حيث توجد هذه الموشحات مترجمة من السكندناوية إلى الإنجليزية ، وما هنا محاولة لترجمتها منظومة إلى اللغة العربية (المترجمان) .

والواقع أن من معجزات التاريخ أن تنتج تلك الجزيرة الماحلة ثقافة عالية ، فضلا عن أدب رفيع ، هو أعظم ما أنتجته أوربا العصور الوسطى من نوعه ، وهى الجزيرة التى استوطنتها جماعات من القراصنة والمغامرين المتمردين على القيود الاجتماعية التى فرضتها الحياة الفيكنجية فى بلاد النرويج . ويشبه ذلك الذى حدث فى جزيرة أيسلاند لو أن مستعمرات نيوانجلند فى أمريكا الشمالية هى التى انجبت الأدب الانجليزى الاليزابيثى ، أو أن كندا الفرنسية هى التى أنجبت الأدب الفرنسى فى القرن العظيم ، أى القرن السابع عشر . ولذا كان العلماء فى المجتمع الأيسلاندى مظهراً خداعا ، على قول ( و. ب . كر ) ونصه « ويبدو أن استيطان أيسلاند كان مغامرة عنيفة قام بها زعماء غاضبون صاخبون ، وذهبت بهم هذه المغامرة العنيفة بعيداً عن الحياة المنظمة إلى أرض مستهترة من أراضى الأساطير فى العصور الوسطى ، وهى أرض كوكين حيث عاش الناس فى اللذائذ والمسرات العارمة. غير أن الحقيقة هى أن أولئك الزعماء عاشوا فى مجتمع أيسلاندى أكثر هدوءاً وأكثر إدراكا لأهدافهم وأكثر حيطا لأعمالهم ، من أى مجتمع آخر منذ سقوط أثينا فى العصور القديمة »(١) والواقع أنه كان مجتمعاً شديد الارستقراطية ، بحيث كان لكل أسرة فيه تقاليد اجتماعية عظيمة وكان البعد السحيق لذلك المجتمع ، فضلا عن افتقاره إلى الثروة المادية ، مما أدى إلى تهذيب تقاليده العامة ومصادر حياته الداخلية .

ويبدو أن ذلك المجتمع بلغ ما يبرر أقصى درجات الأحقية فى الانفصالية الوطنية ، ولا سيما عندما نجد أن فى استطاعة ذلك الصقع الأقصى من المعمورة ، كما فى استطاعة مجتمعه الذى اتخذ نفسه مكانا قصيا عن مجتمع الوحدة

---

(١) انظر (W.P.Ker.; The Dark Ages, p.314)

الأوربية ، أن ينتج على الرغم من ذلك كله أول ثمار الثقافة الأوربية الحديثة وأسرعها . على أن ذلك النجاح المدهش للعبقرية النوردية الوطنية لا ينبغى أن يعمى أنظارنا عن حقيقة هامة ، هى أن الثقافة الأيسلاندية فى تطورها الناضج تدين بدين أساسى للعالم الخارجى . ذلك أن تأثير المسيحية فى أيسلاند لم يكن عنصراً سطحيا وخارجيا فى حياة الناس — كما أرادنا بعض المؤلفين أن نعتقد — بل كان تأثيراً ذا أهمية عميقة فى ثقافتهم . ومع التسليم بأن اعتناق مجلس الآلثنج[1] للديانة المسيحية سنة ١٠٠٠ م بدا فاترا خاليــاً من الحماسة ، وكأنه كان عملا سياسياً ، حسبما جاء فى الأيسلاند نجابوك ـ أى الكتاب الأيسلاندى ـ ومع التسليم كذلك بأن رسل الديانة المسيحية إلى أيسلاند أمثال ثانجبراند ، بل أمثال الملك أولاف تريجفا سون نفسه ، لم يكونوا نماذج طيبة للأخلاق الأنجيلية المسيحية ، فإن تلك النموذجية الأخلاقية لم توجد لافى قسطنطين الأكبر،ولا فى ثاوداسيوس العظيم ،ولا فى شارلمان فى عظمته. ثم أن الاستهتاربالقانون، والاعتزاز بالفردية ، وهما اللتان اتسم بهما المجتمع الفيكنجى، لم تتلاءما بطبيعة الحال مع وجوب الطاعة الصارمة للقوانين الخلقية أو الطقوس الدينية الخاصة بالكنيسة ، ولا بد أن هاتين الصفتين انتجتا أصنافا من الناس غريبة على الروح المسيحية ، مثل ثورمود الشاعر الذى اقسم يمينا على أن يصوم تسعة من أيام الأعياد الدينية وأن يفطر ويأكل لحماً فى تسعة أيام الصيام ، إذا هو نجح فى قتل عدوه . وهذا الشاعر ثورمود هو كذلك الذى

---

(١) اطلق اسم الآلثنج على برلمان أيسلند الذى تأسس سنة ٩٣٠ م . وامتاز ذلك البرلمان بكونه أكبر سلطة قضائية فى الدولة ، فضلا عن اختصاصاته التشريعية الواسعة . (المعربان)

قال ساخراً فى حديث له مع كبير الطباخين فى دير القديس أولاف ما نصه ، « سيظل المسيح وأنا صديقين حميمين طالما اقتصر ما يفصل بيننا على قطعة من لحم فى يوم من أيام الصيام »[١] .

غير أن ذلك كله يكشف عن جانب واحد فقط من الصورة التى نحن بصددها، لأن انتقال جزيرة أيسلند إلى المسيحية لم يكن مسألة ضرورية سياسية فحسب بل قبولا لمثالية روحية أعلى ، كما يتضح من مسالك هيالتى، وهو المتحدث بلسان الديانة المسيحية فى مجلس الألثنج سنة ١٠٠٤ ، إذ جاء فى المقطوعة الثامنة من الملحمة المسيحية من كتاب الأصول الأيسلاندى ما نصه : « عقد الوثنيون اجتماعاً كبيراً اتفقوا فيه على أن يقدموا اثنين من كل عشيرة قربانا للالهة الوثنية وأن يطابوا من الآلهة إلا بأذنوا للمسيحية أن تنتشر فى البلاد . لكن هيالتى وجيزور عقدا اجتماعاً آخر من المسيحيين ، وانفقوا هم الآخرون على أن يقدموا قرابين بشرية ، لا تقل عدداً عن تلك التى قدمها الوثنيون من القرابين واقبلوا بعضهم على بعض ، وقالوا : أن الوثنيين يضحون بأسوأ الرجال ويلقون بأجسادهم من صخور الجبال أو مشارف التلال ، لكننا نختار لذلك أحسن الرجال ، ونجعل منهم هدية النصر إلى سيدنا ومولانا يسوع المسيح ، ونعاهد أنفسنا أن نحيا حياة أفضل ، وأقل إثما عن ذى قبل ، ويقدم جيزور وأنا أنفسنا هدية للنصر عن عشيرتنا »[٢] .

---

(١) انظر (Thormod Saga; Origines Islandicae, 11, 705)

(٢) انظر
(Christne Saga; viii, 7, Origines Islandicae, 1, p.p. 400-401)

والواقع أن العناصر العليا فى الثقافة الأيسلاندية ذاتها ، أخذت تنأى عن الهمجية التى اصطبغ بها المجتمع الوثنى القديم، كما أخذت تنأى عن العادات التى سار عليها ذلك المجتمع فى تقديم القرابين البشرية ووأد الأبناء ، ومن تلك العادات تمسك الإيسلانديون بواجب الأخـــذ بالثأر . وكان من رجال تلك العناصر العليا نيال قاضى الخصومات، وجيزلى سورسون ، فضلا عن مؤلف قصائد الفلوسبا .

والخلاصة أن المثالية الفيكنجية اتسمت بحب الهدم والتخريب ، فضلا عما اتسمت به من الجدب ، بحيث لم يكن فى استطاعتها أن تنتج شيئاً من الثقافات العالية ، أو أن تصل إلى مستويات ثقافية عالية ، إلا بعد أن امتزجت بالنظام المسيحى ، ونظمتها الحضارة المسيحية وهـــذبتها لمدة تزيد على قرن من الزمان . ولذا يوجد بين عصر الفيكنجيين الأولين وعصر الحروب الداخلية والمنازعات زمن المستور لونجيين[1] فترة من السلام والتقوى . وكانت الزعامة فى أثناء تلك الفترة بأيدى رجال الـكنيسة ، ومن أولئك الرجال الأسـقف العظيم جيزور الأبيض ، والقـــديس حنا الهولارى ، والقديس تورلاك السيكالهولتى . ومصداق ذلك ما جاء فى الملحمة المسيحية، ونصه «نشر الأسقف جيزير (١٠٨٢ — ١١١٨ ) ألوية السلام فى أرجاء البلاد بحيث لم يحدث ثمة نزاع كبير بين الزعماء القبليين، وبطلت عادة حمل السلاح على وجه التقريب، وكان معظم رجال

(١) ينسب المستورلنجيون إلى ستورلا ثوردارسون وهو شاعر ومؤرخ أيسلاندى عاش فى القرن الثالث عشر ( ١٢١٤ — ١٢٨٤ ) نظم كثيرا من الملاحم الساجية التى لاتزال باقية . ( المترجمان )

الدين من المثقفين والقسيسين المكرزين ، وهم فضلا عن ذلك زعماء قبليون» .
وهذا هو المجتمع الذى خلق التقاليد الأدبية الجديدة ، مع ملاحظة أن مؤسسى تلك التقاليد ، وهما سايمون المؤرخ، وآرى الحكيم، كلاهما من القسيسين ورجال العلم ، بل تلقى أولهما علومه فى باريس . ثم أننا ندين للحكيم آرى لا بمعلوماتنا عن نشأة أيسلاند ونظمها فحسب ، بل كذلك بابتكار الاسلوب الأدبى الذى مهد الطريق لإنتاج المؤرخ الأديب سنورى ستورلاسون ، فضلا عن كبار مؤلفى الملحمة النثرية . غير أن هذه الثقافة الأيسلاندية المسيحية كانت ثقافة عابرة ، مثل ثقافة مملكة نورثمبريا الآنجلية ، قبل ذلك بأربعة قرون . ومن هذه الثقافة المسيحية كانت نقطة البداية فى الاتصال بين المجتمع النوردى الموشك على الفناء، وبين الروح المسيحية الجديدة فى أوربا . ثم أعقب عصر هذه الثقافة الأيسلاندية العابرة مرحلة من تدهور فجائى انقلبت فيه عناصر الفوضى فى المجتمع النوردى على نفسها ، بعد أن عجزت عن أن تجد متنفساً للغزو الخارجى . وهنا حدث مثلما حدث تماما فى بلاد النرويج ، إذ ذهبت الطبقة الارستقراطية الأيسلاندية من الوجود السياسى نتيجة الحروب الداخلية والمصادرات، وهى الطبقة الوريثة للتقاليد النوردية القديمة والحارسة الوصية عليها ، حتى إذا جاء القرن الثالث عشر انغمس المجتمع الفيكنجى كله فى نوم عميق ، وتحول إلى مجتمع فقير من صغار الفلاحين .

# الفصل الرابع عشر

## ظهور الوحدة الأوربية في العصور الوسطى

تبدو عاصفة الغزوات البربرية التى اجتاحت أوربا فى القرن التاسع كافية وحدها لتفسير التدهور الذى أصاب الإمبراطورية الكارولنجية قبل الأوان ، ولتعليل الانحلال الذى اعترى الوحدة الأوربية الجديدة . غير أنه من الخطأ السهل أن يبالغ الباحث فى آثار تلك العاصفة ، إذ أنها لم تكن العامل الوحيد الناشط وقتذاك ، بل المقطوع به على وجه التأكيد أن الإمبراطورية الكارولنجية كانت سائرة بنفسها إلى ذلك المصير ، ولو لم تتعرض لغزوات الفيكنج والمسلمين .

ذلك أن بذور الفساد والفناء السريع تولدت فى الدولة الكارولنجية من صميم أصولها الأولى ، لأنها على الرغم من مظهرها المهيب ، كانت بناء غير متجانس الأجزاء، نعوزه الوحدة المنبثقة عن عامل داخلى حى. ثم إن الإمبراطورية الكارولنجية ادعت لنفسها أنها وريثة الإمبراطورية الرومانية القديمة، لكنها لم تكن فى الحقيقة سوى الملكية الفرنجية ، لا أقل ولا أكثر . وبذا انطوت هذه الإمبراطورية الكارولنجية على مبدأين متناقضين ، هما العالمية التى

قامت عليها التقاليد الرومانية والمسيحية من ناحية ، والذاتية القبلية التى سيطرت على أوربا الجرمانية من ناحية أخرى . ويتضح من ذلك أن الإمبراطورية الكارولنجية على الرغم من اسمها ، كانت ضعيفة الشبه بالإمبراطورية الرومانية القديمة، أو بالدول المتحضرة الأخرى فى العالم القديم ، بحوض البحر المتوسط ، بل أشبهت فى كثير من الصفات معظم الإمبراطوربة البربرية التى أقامها الهون والآفار والأتراك الغربيون الأقدمون ، وهى الإمبراطوريات التى كانت تماماً عابرة من أعمال الحرب والضرب والاستيلاء، والتى تعاقبت واحدة بعد أخرى على تخوم العالم المتحضر، ثم ذهبت فى سرعة مذهلة خلال تلك القرون .

والواقع أن الإمبراطورية الكارولنجية التى خالها أصحابها صورة من الإمبراطورية الرومانية القديمة كانت دولة خالية من القانون الرومانى ، والكتائب الرومانية ، والسناتو الرومانى ، والمدن الرومانية، بل أنها كانت كتلة من مساحات إقليمية ، لا شكل لها ، ولا تنسيق بين أجزائها ، وليس فيها مدن مركزية تقوم بدور يشبه دور المراكز العصبية فى الجسم الإنسانى ، وتشرف على دورة حياتها الاقتصادية إشرافاً مستمراً . أما موظفو هذه الإمبراطورية فكانوا ، لا هم ولاة مواطنون ، ولا هم موظفون مدنيون مدربون على شئون الحكم ، بل هم كونتات وأعيان إقليميون ، أو قادة عسكريون قبليون، أو شبه قبليين . ومع هذا كله كانت هذه الإمبراطورية نموذجاً مادياً وعنواناً لمثالية معينة ، وهى مثالية برهنت ــ برغم واضح فشلها ــ على أنها أقدر على البقاء والاستمرار من جميع الأعمال الحربية أو السياسية فى ذلك العصر ، لأنها عاشت بعد الدولة التى تولدت منها ، وبقيت حية خلال

الفوضى التى حلت فى كل مكان ، بل غدت قاعدة للنظام الجديد الذى أخذ ينبض فى الغرب الأوربى منذ القرن الحادى عشر .

أما أبطال هذه المثالية ، فهم زعماء رجال الدين من الكارولنجيين ، وهم الذين قاموا بدور كبير فى إدارة شئون الإمبراطورية الكارولنجية وتوجيه سياستها ، من عصر شالمان إلى عصر حفيده شارل الأصلع .

وبينما كان الكونتات والأعيان المدنيون يمثلون المصالح السياسية المحلية والإقليمية ، كان زعماء رجال الدين هم أصحاب المثالية الداعية إلى الإمبراطورية العالمية ، على قاعدة أنها مثالية لوحدة سياسية للعالم المسيحى ، ومصدر للدفاع والحماية للديانة المسيحية . ومن الدليل على مدى ذلك التباين بين النظرتين المدنية والدينية فى الإمبراطورية الكارولنجية قيام الأسقف أجوبارد[1] الليونى — وهو قريب شارلمان — بمهاجمة المبدأ الفرنجى التقليدى المستند إلى القانون الخاص فى شئون الحكم عامة ، ومطالبة القانونيين بإقامة قانون مسيحى عالمى لتنظيم الدولة المسيحية العالمية . وفى ذلك يقول أجوبارد أن المبادىء المسيحية ليس فيها يهودى ولا وثنى ، ولا أمى ولا بربرى ولا اسكيثى ، ولا اقطاعيون أولمبارديون أو برجنديون أو الليمانيون .

وتطبيقاً لذلك لم يكن الإمبراطور زعيماً وراثياً وقائداً حربياً للفرنجة ، بل يكاد يكون شخصية كهنوتية أقامتها المكارم الإلهية ، لتحكم بين المسيحيين ،

(١) عاش الأسقف أجوبارد فى عصر قريبه الإمبراطور شارلمان وتولى منصب أسقف ليون سنة ٨١٦ ، واشتهر بجهوده فى إصلاح الكنيسة ، وألف عدة رسائل بعضها فى اللاهوت وبعضها الأخر فى الاحوال السياسية والاجتماعية المعاصرة . ( المترجمان )

ولترشد الكنيسة وتحمى حماها . وأدى ذلك — كما رأينا — إلى تصوير ثيوقراطى للملكية ، بحيث صار الإمبراطور الكارولنجى - كأخيه الباسليوس البيزنطى - نائباً عن الله على وجه الأرض ، ورئيساً للكنيسة وللدولة معاً. وعلى هذا المنوال وصف سيدوليوس سكوتس ( حوالى سنة ٨٥٠ ) الإمبراطور بأنه شخصية مكافئة من الله لتنوب عنه سبحانه وتعالى فى تدبير شئون الكنيسة ، ولتكون بذلك صاحبة السلطان المدنى على الحاكمين والمحكومين فى مختلف البلاد والأقاليم، بل ذهب اللاهوتى كاثولف إلى القول بأن الإمبراطور يقوم مقام الله — عز وجل — فى السيادة على جميع أهل الإمبراطورية ، وهو الذى يسأل عنهم يوم القيامة ، وبأن البابا يأتى فى المرتبة الثانية ، بوصفه ممثلا للمسيح فقط [١] .

غير أن الثيوقراطية الكارولنجية اختلفت عن أختها البيزنطية فى أنها ثيوقراطية ألهمتها الكنيسة ، وأشرفت عليها ، وأنها لم يوجد حولها هيئة بيروقراطية علمانية كالتى امتلأت بها الإمبراطورية البيزنطية ، بل أشرفت عليها هيئة أسقفية استمد الإمبراطور من صفوفها معظم مستشاريه ووزرائه . ولذا لم تكد اليد الشارلمانية القوية يعاودها الفناء والزوال بموت شارلمان ، حتى أخذت المثالية الثيوقراطية تجنح إلى إعلاء شأن السلطة الدينية ، وصبغ

---

(١) انظر
( Carlyle; Medieval Political Theory in the West, I, 259-261 )
ومن الواضح أن نظرية كاثولف مستمدة من أقوال القديس أمبروز . انظر كذلك
Ambrosiaster Quaestiones Veteris et Novi Testamenti, 35 )
وقارن ذلك بما جاء فى ( Op. Cit. I, 149 )

الإمبراطورية بصبغة كنسية ، بدلا من أن تؤدى هذه الثالية الثيوقراطية إلى إخضاع الكنيسة للسلطة السياسية .

وكان زعماء الهيئة الكنسية رجال قاموا بدورهام في بناء صرح الإمبراطورية الكارولنجية، ولاسيما من كان منهم أقارب شارلمان، وهم آداهارد الكوربى ، ووالا الكوربى ، وآجوبارد الليونى . وظلت الآراء التى نادى بها أولئك الرجال هى العليا ، أثناء السنوات الأولى من عهد الإمبراطور لويس التقى بن شارلمان، على الرغم مما لحق بأداهارد من عزل مؤقت سنة ٨١٤ . ثم قام البابا ستيفن الرابع بتتويج لويس التقى إمبراطوراً فى مدينة ريمس سنة ٨١٦ ، وتأكد بذلك مرة أخرى مدى الطابع المقدس للامبراطورية ، كما تأكدت الوحدة الإمبراطورية بصدور دستور إكس لاشابل فى العام التالى ، وهو الدستور الذى ألقى بالمبادىء الفرنجية القديمة ، بصدد وراثة العرش فى زوايا الإهمال ، وأحل محلها المبدأ الرومانى القائل بأن الملكية لا تتجزأ . وتطبيقاً لذلك المبدأ، اتفق الإمبراطور لويس التقى مع أبنائه الثلاثة وهم لوثير وبيبين ولويس ، أن يكون أكبرهم وهو لوثير خليفة لأبيه فى المنصب الإمبراطورى . ومع أن أخويه بيبين ولويس صارت لكل منهما بحق الوراثة مملكة فى أقطانيا وبافاريا ، فإنهما تعهدا أن يكون كل منهما تابعاً تمام التبعية للسلطة الإمبراطورية العليا .

ودلت تلك الاتفاقية بين لويس التقى وأبنائه على انتصار المبادىء التى نادى بها رجال الدين ، فى سبيل الوحدة السياسية على جميع القوى المركزية الانفصالية الطاردة فى الحياة الفرنجية، حتى إذا حاول الإمبراطور لويس التقى -بتأثير زوجته

الثانية الإمبراطورة جوديث — أن يطرح المبدأ الذى قامت عليه الاتفاقية السابقة، ليهئ لإبنه شارل من زوجته جوديث مملكة فرعية ثالثة ، إلى جانب مملكتى أقطانيا وبافاريا ، لقى معارضة شديدة لا من ناحية إبنه الأكبر لوثير وغيره من أصحاب المصالح فحسب ، بل من ناحية زعماء الكنيسة . والواقع أن الكنيسة تدخلت تدخلا حاسماً فى السياسة الأوربية لأول مرة ، وقامت بالدور الذى قامت به فى الحوادث الدامية التى اختتمت فى مدينة كولمار بعزل الإمبراطور لويس التقى عن عرش الإمبراطور مؤقتاً سنة ٨٣٣ . غير أن أهمية ذلك العزل خفيت عن الأذهان بسبب العطف الطبيعى الذى أحس به المؤرخون نحو الإمبراطور لويس السيء الحظ ، بعد أن تخلى عنه أتباعه، وبعد أن أذله أبناؤه ، كما وقع للملك لير فى الدراما الشكسبيرية. ولذا لم يجد المؤرخون فى حادثة كولمار — التى وصفوها بأنها كانت وقعة الأكاذيب — سوى عملا مشيناً من أعمال الخيانة، التى أوحت بها الأنانية والجشع. لكن حركة المعارضة ضد الإمبراطور لويس التقى لم تكن من عمل أساقفة البلاط الإمبراطورى ورجاله ، من أصحاب الأغراض والمطامع الانتهازية ، بل من عمل رجال مصلحين ومثاليين، وقفوا أنفسهم على تحقيق أعلى ما اشتملت عليه التقاليد الكارولنجية من مثالية . ومن أولئك الرجال أجوبارد ، ووالا، وباسخاسيوس الرادبرتى اللاهوتى ، وبرنارد الفينى ، وأبو الريمسى وهو مبعوث المسيحية إلى البلاد الأوربية الشمالية . وتتضح روح التفانى والإخلاص التى اتصف بها أولئك الرجال فى مؤلفات القديس أجوبارد نفسه ، فضلا عن مؤلفات باسخاسيوس الرادبرتى الذى كان هو الآخر شاهد عيان لتلك الحوادث جميعاً ، والذى وصف مانيتيوس ترجمته لحياة والا بأنها من أعظم مؤلفات العصر

الـكارولنجى كله ، وعنوانها ذكرى أرسينى ، إذ كان والا معروفاً كذلك بهذا الاسم [1].

وكان الأسقف أجوبارد نموذجاً صارماً من التقاليد الأوربية الغربية المستمدة من ترتوليان والقديس أوغسطين [2] ، وهو موضع الإعجاب العام بفضل حماسته التى استنكر بها الأوهام والخرافات العامة، مثل الاعتقاد بالسحر وبالاستخارة ، وبالامتحان بالنار أو الماء ، وهى الحماسة التى دافع بها عن حقوق الـكنيسة وسمو السلطة الدينية الروحية . ووقف والا كذلك حياته لنصرة هذه المبادىء عينها، لـكن فى صورة أقل صرامة ، ونظر إلى المصائب التى حلت بالإمبراطورية الـكارولنجية على أنها نابعة أولا وقبل كل شىء من ازدياد الحركة نحو العلمانية ، وهى الحركة التى أدت إلى اغتصاب الإمبراطور لويس التقى حقوق الـكنيسة ، وانصراف الأساقفة أنفسهم عن الشئون الـكنسية إلى شئون الدولة . غير أن ذلك لم يمنع والا من التدخل فى مسألة الوراثة الإمبراطورية ، لأن وحدة الإمبراطورية وسلامتها لم يكونا فى نظره مسألة من مسائل السياسة العلمانية ، بل مسألة أخلاقية ، وعلى ذلك فهى مما يحق للـكنيسة ويجب عليها أن تجهر برأيها فيها ، ولو ترتب على ذلك نقد لمسلك الإمبراطور نفســه . ولذا حدث عندما كان البابا جريجورى الرابع برفقة لوثير فى كولمار أن تردد هــذا البابا فى الخروج على جارى التقاليد الخاصة بحقوق الإمبراطور ، وهى تقاليد مستمدة من

---

(١) انظر : (Manitius : Geschichte des lateinischen Literatur des Mitteltters 1, 405 - 406)

(٢) تقدمت الاشارة إلى اجوبارد ومعرفته الواسعة بنظريات امبروز، وكان اجوبارد كذلك أحد العلماء القلائل الذين درسوا مؤلفات ترتوليان فى ذلك العصر .
انظر (Manitius op. cit, I p. 386 )

العرف الإمبراطورى البيزنطى، فكان والا ورادبرت هما اللذان طمأنا البابا، [١] بتذكيره بأن له الحق — بصفته ظل الله ونائب القديس بطرس فى الأرض — أن يحكم بين الناس دون أن يحكم عليه منهم أحد ، وبذا أقنعاه بأن يكون صاحب الدور الأكبر فى الإجراءات التى انتهت بعزل الإمبراطور لويس التقى [٢] .

وكان ذلك الحادث دليلا على ظهور دعوى جديدة بسمو السلطة الدينيـة على السلطة السياسية ، وبحق الكنيسة فى التدخل فى شئون الدولة ، وهى دعوى مؤذنة بالتطور الذى امتلأت به أواخر العصور الوسطى . ومما تجب ملاحظته أن تلك الدعوى لم تبدأ من البابوية نفسها، بل من الأكليروسية الكارولنجية ، وأنها ارتبطت ارتباطاً شديداً بالصورة الثيوقراطية الجديدة للدولة، وهى الصورة التى انطوت عليها الإمبراطورية الكارولنجية . وتطبيقاً لذلك لم تكن الدولة أداة منفصلة عن الكنيسة ، متمتعة بحقوق وسلطات مستقلة بذاتها ، بل كانت

---

(١) جاء فى كتاب بسخاسيوس الرادبرتى الذى عنوانه ذكرى أرسينى مانصه « عند ذلك أعطيناه بضعة آراء مكتوبة مدعمة بأقوال الآباء والأولين ، وأقوال سلفه هو من البابوات ، مما لا يستطيع أحد معارضتها ، وهى أن سلطانه هو سلطان الرب والقديس بطرس ، وأن سلطانه على جميع الناس لأجل العقيدة المسيحية ولأجل السلام فى الكنائس ولأجل نشر كلمة الانجيل واعلاء كلمة الحق ، وأن شخصه يشتمل على جميع السلطان الأعلى المستمد من القوة الحية الصادرة من القديس بطرس ، وهو سلطان بموجبة يكون البابا صاحب الحق فى الحكم على الناس ، دون أن يكون لأحد من الناس حق فى الحكم عليه .

(٢) كتب بسخاسيوس الرادبرتى كذلك مانصه « وفى ذلك الوقت كانت كلمة الفصل للبابا نفسه ( جريجورى ) ، وبقية الأعضاء الذين ضمهم المجمع ، لأنه استمد من والده تلك العظمة والشهرة ، حتى أن أوغسطس هونريوس ( الإمبراطور لوثير ) واساه ورحب به » (op. cit. II, 18) على أن هذا النص لا يشير إلى المحاكمة الدينية التى أجراها الأساقفة ، والتى تمت بعد ذلك بشهرين فى سواسون ، تحت رآسة إيبو وأجوبارد ، وفى ذلك الوقت دب الخلاف بين الملك والا والبابا الجالس على الكرسى البابوى.

جزءاً من الـكنيسة ، أو بعبـارة أخرى ناحية من نواحى الـكنيسة. ومصداق ذلك ما جاء فى خطاب الأساقفـة إلى الإمبراطور لويس التقى سنة ٨٢٩ ، بأن الإمبراطورية «هيئة واحدة تقتسمها شخصيتان ساميتان، هما شخصية الإمبراطور وشخصية البابا » . وهكذا لم يعد فى الإمكان مساواة الإمبراطورية بالعـالم الدنيوى فحسب، ولم يعد ينظر إليها على أنها بطبيعتها هيئة غير روحية ، بل هى فى ذاتها ناحية من نواحى السلطان الدينى الروحى فى هذه الدنيا . وعلى الرغم من ذلك كانت الصورة القديمـة للإمبراطورية متغلغلة فى الفـكر المسيحى ، بتأثير مؤلفات القديس أوغسطين على وجه التخصيص . وكان من المستحيل أن تزول تلك الصورة من الأذهان ، ولذا حدث خلال العصور الوسطى كلها أنه على حين أصرت الإمبراطورية على حقها الإلهى بأنها ممثلة لله فى الشئون الزمنية ، كانت العقول الدينية تجنح دائماً إلى اعتبارها قوة دنيوية لا نصيب لها فى التراث المقدس الخاص بالمجتمع الروحى ، أى هيئة رجال الدين .

وفى العصر الـكارولنجى كله ولا ريب ، أى ما دامت الإمبراطورية الـكارولنجية باقية على وحدتها ، كان الإمبراطور منظوراً إلية على أنه عنوان مبدأ الوحدة، وزعيم المجتمع المسيحى كله. غير أنه منذ تقسيم الإرث الـكارولنجى بين أبناء الإمبراطور لويس التقى لم تعد الحال هى الحال ، بل غدت البـابوية لا الإمبراطورية من وقت ذاك فصاعدا ، هى الحارس للوحدة السياسية ، والفيصل والقاضى والحـكم بين الملوك الـكارولنجيين المتنافسين . وكان الداعى الأكبر لهـذه النظرية فى النصف الثانى من القرن التاسع هو هنكمار الريمسى ، رئيس الأساقفة فى مملـكة الـكارولنجيين الغربيين ، وهو بطـل الدفاع عن حقوق الـكنيسة ضد السلطات السياسية ، وبطل الدعوة إلى السلام والوحـدة داخل

الإمبراطورية.على أن الملوك الكارولنجيين أنفسهم أقروا هذه المبادئ ، ولا سيما الإمبراطور شارل الأصلع الذى اعترف بتبعيته للسلطان الكنسى فى العبارات الصريحة الواردة فى الإعلان التاريخى الذى أصدره سنة ٨٩٥ ، عندما بلغه خبر تدبير مؤامرة لخلعه عن العرش الإمبراطورى ، إذ استند فى ذلك الإعلان إلى الصفة المقدسة لسلطاته المجتمعة فى شخصه بعد أن باركته الكنيسة، ويضيف إلى ذلك بقوله « وبناء على هذا التبريك الكنسى ينبغى ألا يكون لأحد أن يعزلنى بدون حكم حضورى يصدر من هيئة الأساقفة الذين قاموا بصفتهم الدينية بتتويجى إمبراطوراً ، لأنهم عرش الرب ، وعلى هذا العرش يستوى الرب ، وعلى أيديهم يقضى قضاءه بين الناس . وإننى مازلت دائماً على استعداد لأن أخضع لردعهم الأبوى وقضائهم التأديبى ، وها أنا الآن أضع نفسى بين أيديهم »(١).

وهنا نرى أن حفل التتويج الإمبراطورى إرتقى إلى مستوى جديد ، بعد أن أصبح أهم أساس للسلطة الإمبراطورية ، مع العلم بأنه لم يكن له سابقاً سوى أهمية ثانوية . والواقع أن هنكمار نفسه بنى على ذلك الأساس حجته للتدليل

---

(١) انظر (Carlyle : Political Theory, p. 252) ، نقلا عن (Monumenta German. Hist ; Sect. II, No. 300 Cap. 3)

وكان ذلك العصر هو الذى وصلت فيه حفلات التتويج وطقوسها وصلواتها إلى صورتها النهائية التى عدت عامة فى أنحاء غرب أوربا خلال العصور الوسطى . ومن المعروف أن مراسم التتويج والتبريك بمسح الرأس ترجع إلى عصور بعيدة فى تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ولكنه ليس من المعروف على وجه التأكيد كيف وصلت تلك المراسم إلى الغرب ، مع العلم بأن ظهورها الأول كان فى أسبانيا فى القرن السابع، وربما حوالى ذلك الوقت كذلك فى الجزر البريطانية ، نظراً لأن أقدم دليل على ذلك هو ماورد فى كتاب الطقوس الدينية الخاص بالملك إجبرت ( والذى يرجع إلى القرن الثامن ) . ويبدو أن تلك المراسم انتقلت من إنجلترا لا من أسبانيا إلى الدولة الفرنجية سنة ٧٥٠ .

على سمو السلطة الروحية، لأنه ما دام الأساقفة هم الذين يقيمون الإمبراطور فى إمبراطوريته أو فى مملكته ، فهم أسمى منه ، وسلطته أداة فى أيدى الكنيسة، والكنيسة هى التى ترشدها وتقودها نحو غايتها الحقة . غير أن الصورة المثالية التى صورها هنكمار لإمبراطورية ثيوقراطية تدير شئونها فئة قايلة ( أوليجاركية ) من رؤساء الأساقفة ، تعارضت من ناحية مع السلطان العالى للكرسى البابوى ، ومن ناحية أخرى مع الحقوق الاستقلالية للأسقفيات المحلية . وكان صدور « المرسومات البابوية المزيفة » المنسوبة إلى المدعو إيزيدور ميركاتور ، خدمة لمصالح تلك الأسقفيات المحلية،وهى مرسومات تم تأليفها فيما بين سنتى ٨٤٧ ، ٨٥٢ ، بمدينة ليمان أو غيرها من بلاد إقليم تور بفرنسا . وكانت هذه المرسومات أخطر عملية من عمليات التزييف فى العصر الكارولنجى، لكنها لم تكن عملية فريدة على أية حال ، لأن كثيراً من علماء ذلك العصر وقفوا أنفسهم على تأليف وثائق كنسية وقدسية غير حقيقية فى حماسة فاجرة، لا تقل عن فجور حماسة علماء عصر النهضة الأوربية الكبرى فى كتابة مؤلفات على نسق المؤلفات الكلاسيكية القديمة ، ونسبتها إلى مؤلفين خياليين أو غير خياليين . وكان موقف هؤلاء وأولئك من المزيفين من التاريخ مختلفاً عن موقفنا تمام الاختلاف ، بحيث نجد من الصعب علينا أن نختار بين أن نرميهم بانعدام الوازع الخلقى فى نفوسهم ، أو أن نجد لهم عذراً من الأعذار. غير أن الدافع إلى إصدار المرسومات المزيفة يبدو لنا واضحاً وضوحاً كافياً ، وهو أن مؤلف هذه المرسومات أراد أن يدلل فى تفصيل وقرينة وثائقية لاريب فيها ، على حقوق الأساقفة المحليين فى الرجوع المباشر إلى الكرسى البابوى فى روما ضد الرؤساء الدينيين الإقليميين ، وأن يؤمن استقلال الكنيسة

عموماً ضدالسلطة السياسية العلمانية . غير أنه مهما قيل فيما كان لهذه المرسومات بعد ذلك من أهمية فى تطور القانون الكنسى وازدياد المركزية الكنسية فى العصور الوسطى ، فمن المستحيل علينا أن نرى فيها سبباً مباشراً لتطور مكانة البابوية فى أوربا الغربية فى القرن التاسع ، إذ كانت هذه المرسومات فى الواقع نتيجة لا سبباً لذلك التطور البابوى الذى نبتت جذوره فى جوف الأحوال والحوادث التى أسلفنا شرحها هنا .

ومما هو أكثر استحالة علينا من ذلك أن نعزو أى تأثير حقيقى فى السياسة البابوية للوثيقة التى أخرجتها عملية التزييف الكبرى الثانية فى ذلك العصر — وهى الوثيقة المعروفة باسم هبة قسطنطين — لأنها لم تكن فيما يبدو معروفة لدى بابوات القرن التاسع ، وظلت كذلك حتى منتصف القرن الحادى عشر، حين استخدمتها روما نفسها فى تأييد الحقوق البابوية الكبرى. ولا يزال من غير المؤكد حتى العصر الحاضر متى وأيان ولأى غرض كان تأليف هذه الوثيقة . والواقع أن النظرية القديمة القائلة بأن هذه الوثيقة طبخت فى روما فى القرن الثامن ( حوالى سنة ٧٧٥ ) ، لضمان استقلال الممتلكات البابوية ، تتعرض أحياناً لبعض الشك فى بعض الدوائر الكنسية . ويبدو من المحتمل أن تاريخ هذه الوثيقة يرجع إلى نفس العصر الذى طبخت فيه المرسومات البابوية المزيفة . ولعل أقرب النظريات إلى الصواب هى تلك التى تقول بأن هذه الوثيقة من عمل ذلك الرجل القدير الشرير انسطاسيوس، أمين مكتبة الفاتيكان أثناء المدة التالية لسنة ٨٤٨ حين كان ذلك الرجل منفياً من روما ، منصرفاً إلى التآمر مع الإمبراطور لويس الثانى ، أملا فى الوصول إلى الكرسى

البابوى[١] ، ومثل ذلك العمل يتفق على أية حال مع المطامع الشاسعة والميول التاريخية لذلك العالم المعوج المعدوم الضمير ؛ ولو أنه يبدو لأول وهلة عملا مناقضاً لعلاقة ذلك الرجل بالإمبراطور لويس الثانى . وعلى الرغم من ذلك فالمعروف أن الإمبراطور لويس الثانى كان بدوره مستعداً كل الاستعداد لإعلاء شأن البابوية كلما كان ذلك موافقاً لأغراضه ، ولا سيما أغراضه ضد الحقوق التى طالبت بها الإمبراطورية البيزنطية ، بل الواقع أنه هو الذى أكد النظرية القائلة بأن الإمبراطور يدين بمقامه الإمبراطورى إلى تتويجه وتبريكه على يد البابا ، وهى النظرية التى اتخذها رجال القانون الكنسى قاعدة لهم فى العصور الوسطى[٢] .

ومن ذلك يتضح أن مكانة الزعامة التى اكتسبتها البابوية فى المجتمع الأوربى الغربى فى ذلك العصر جاءت إليها من الخارج ، دون أن تكون هى البادئة فيها . ويشرح ذلك قول الدكتور كارليل بصدد نشأة السلطة السياسية البابوية فى روما ما نصه : « أعتقد أن أى باحث مطلع على سجل المراسلات البابوية فى القرن الثامن ، فضلا عن محتويات الكتاب البابوى فى ذلك القرن لا يستطيع إلا أن يشعر بأن زعامة التقاليد السياسية الرومانية فى الغرب فرصت

---

(١) انظر (Schnurer, Kirche und Kulter, II, 31 - 34) غير أن ليفسون تمسك بالتاريخ الأول : انظر كذلك (Levison, Konstantinische etc.) فى Miscellanea Ehrle, II, Rome, 1924)

وهناك وجهة نظر أخرى قال بها جراورت إذ برهن على أن هذه الوثيقة من عمل هلدوين الراهب بدير سانت دنيس حوالى سنة ٨١٦ .

(٢) ورد ما يؤيد هذا فى رسالة الإمبراطور لويس إلى الإمبرطور باسل، وهو الخطاب المحفوظ فى حولية سالرنيتا — انظر (Carlyle, op. cit., I, 284)

على البابوات فرضاً ، دون أن يسعوا إليها سعياً متعمداً . غير أن البابوات لم يبتعدوا عن دائرة السلطان السياسى البيزنطى إلا تدريجياً واضطراراً ، وفى خطوات بطيئة وئيدة ، لأن المفروض عقلا أنهم بصفتهم ورثة المجتمع الرومانى القديم — أينما وحينما نكون بقايا هذه المجتمع — كانوا يفضلون السلطان البيزنطى على السلطان البربرى »[1] . ومن أجل ذلك خضعت البابوية راضية فى القرن التاسع لإشراف الإمبراطورية الكارولنجية ، بل قبلت الدستور الكارولنجى الصادر سنة ٨٢٤ ، وهو الدستور الذى جعل الإمبراطور سيد الدولة السياسية فى روما ، وأعطاه الإشراف العملى على تعيين البابا . غير أن رابطة الائتلاف بين البابوية والإمبراطورية الكارولنجية أضافت بذاتها إلى الأهمية السياسية للبابوية ، حتى إذا أخذت الإمبراطورية فى الضعف والانقسام على نفسها غدت البابوية هى المنظور إليها بأنها العنوان الأعلى للوحدة الأوربية الغربية . وهكذا شهدت البابوية — فيما بين احتجابها السياسى وانطماسها فى عصرى شارلمان ولوثير ، وبين خضوعها المشين للأحزاب المحلية فى القرن العاشر — مرحلة زمنية قصيرة، بدت فيها مستعدة للحلول محل الأسرة الكارولنجية فى زعامة العالم المسيحى الغربى . ولذا نستطيع أن نقول بأن بابوية نيقولا الأول ( ٨٥٨ — ٨٦٧ ) تكاد تنبىء بما سوف تحققه البابوية من أعمال مستقبلة فى العصور الوسطى، إذ وقف هذا البابا فى وجه أعظم رجال عصره ، وهم أباطرة الشرق والغرب ، وهنكمار زعيم الكنيسة الكارولنجية ، وفوتيوس عظيم البطارقة البيزنطيين ، ونادى وحده نداء ناجحاً بوجود السلطان الروحى والاستقلال

---

(١) انظر (Op. Cit. I, p. 289.)

للكرسى البابوى ، دون أن يخشى خشية الإمبراطور لويس الثانى حين حاول هذا الإمبراطور أن يفرض إرادته على الموقف وقتذاك باستخدام القوة المسلحة .

ومع أنه لم يكن باستطاعة خلفاء البابا نيقولا الأول فى الكرسى البابوى أن يقفوا موقفه الشامخ ، فإن البابوية كانت زمن البابا حنا الثامن ( ٨٧٢ — ٨٨٢ ) هى الحصن الوحيد الحامى للإمبراطورية الكارولنجية . وكان مرجع الفضل فى تتويج الإمبراطور شارل الأصلع سنة ٨٧٤ والإمبراطور شارل السمين سنة ٨٨١ ، إلى مهارة البابا الشخصية . غير أن هذه العودة النهائية للامبراطورية لم تكن سوى ومضة عابرة ، لأن الإمبراطورية العائدة اختلفت عن إمبراطورية شارلمان ، كاختلاف شارل السمين الضعيف المريض عن سلفه شارلمان العظيم. والحقيقة أن الإمبراطورية الكارولنجية لم تعد ممثلة للواقع السياسى ، ولم تعد قادرة على أن تقف موقف الحامى للكنيسة والحضارة . وفى ذلك يقول البابا حنا الثامن « أننا نبحث عن شىء من النور ، ولا نرى سوى الظلام ، إننا نبحث عن نجدة ولا نجرؤ على أن نتعدى أسوار المدينة ، إذ المدينة نفسها تضطرم بعاصفة لا تحتمل من الاضطهاد ، لأننا لن تصل إلينا أية مساعدة لا من ابننا الروحى الإمبراطور ، ولا من أى إنسان من أية أمة من الأمم » . ثم حدث سنة ٨٨٢ أن سقط البابا حنا الثامن فريسة لأعدائه[1] ،

---

(١) أدى تدخل البابا حنا الثامن فى المشاكل السياسية المعاصرة فى غرب أوربا إلى استثارة بعض خصوم البابوية وبخاصة لامبرت دوق سبوليتو . وقد اقتحم لامبرت روما سنة ٨٧٨ ، وسجن البابا حنا الثامن فى كنيسة القديس بطرس مدة ثلاثين يوماً . وتحكى حوليه فولدا ن هذا البابا مات مقتولا سنة ٨٨٢ بأيدى بعض المقربين إليه . ( المترجمان )

وصارت روما مسرحاً لسلسلة ساخرة من حوادث القتل والمؤامرة التى بلغت أقصى ما بلغت سنة ٨٩٦ ، فى فاجعة وحشية مبكية ، وذلك عند ما نبشت جثة البابا فورموزوس من قبرها ، وحوكمت محاكمة صورية ما جنة فى حضرة البابا ستيفن السادس ، وهو الذى شاءت له المقادير أن يقتل بعد ذلك ببضعة أشهر . وهكذا انحدرت البابوية والإمبراطورية جميعاً إلى هاوية الفوضى والبربرية التى هددت بإغراق الحضارة الأوربية الغربية كلها فى بحر من الفوضى .

ومن الصعب على باحث — مهما يقول — أن يبالغ فى وصف الخلل والاضطراب فى العصر المظلم الذى أعقب انهيار تجربة الكارولنجيين وإمبراطوريتهم . وتعطينا محاضر مجمع تروسليه سنة ٩٠٩ ، فكرة عن يأس زعماء الكنيسة الكارولنجية مما سوف يأتى بعد الدمار العام الذى أصاب المجتمع المسيحى ، إذ جاء فى تلك المحاضر على لسانهم « أن المدن أقفرت من أهلها ، والأديرة تهدمت واحترقت ، وأراضى الريف غدت موحشة . . . وكما عاش الأولون من البشر فى غير قانون أو خشية من الرب ، وأسلموا أنفسهم لشهواتهم ، كذلك الآن يفعل كل رجل من الناس ما يبدو حسنا فى نظره مع احتقار القوانين البشرية والإلهية فضلا عن أوامر الكنيسة . ولذا أزهق الأقوياء أرواح الضعفاء ، وامتلأت الدنيا عنفاً ضد الفقراء ، كما امتلأت بأعمال النهب فى الممتلكات الكنسية ... والناس يلتهمون بعضهم بعضا ، كما تفعل الأسماك فى البحار » .

والواقع أن سقوط الإمبراطورية الكارولنجية أدى ، لا إلى زوال الوحدة التى تمت وشيكا فى أوربا الغربية ، والتى لم تتم إلا فى صعوبة وعناء ، بل أدى كذلك إلى انحلال التنظيم السياسى، وإلى تفكك الممالك الكارولنجية نفسها إلى عدد من وحدات إقليمية متنافرة، وحيث آلت السلطة إلى أى فرد ذى قوة كافية للدفاع عن نفسه وأتباعه ضد هجوم خارجى . وكان ذلك هو أصل ظهور الأسرات شبه القومية المحلية الجديدة فى أواخر القرن التاسع على أيدى رجال مثل روبرت الصنديد مؤسس أسرة كابيه ، وهو الذى حارب ضد الفيكنج الضاربين حول مصبات اللوار والسين ، ومثل برنو دوق سكسونيا ، وهو الذى دافع عن بلاده ضد الدانيين والونديين،ومثل بوزو بروفنسال ، وهو الذى أقامه أساقفة برجنديا ونبلاؤها ملكاً سنة ٨٧٩ ، لشدة حاجتهم إلى من يحميهم ضد الفيكنج من ناحية الشمال، والمسلمين من ناحية البحر المتوسط. غير أن هذه الممالك الجديدة لم تكن أقل ضعفاً، أو أقل تعرضاً للانهيار ، من الإمبراطورية الكارولنجية ودولها، لأن هذه الممالك تعرضت لنفس قوى الانحلال والتفكك التى هدمت الإمبراطورية ودولها معها . ومثال ذلك ماحدث فى النصف الثانى من القرن التاسع حين تحلل الموظفون المحليون من سيطرة الحكومة المركزية ، وصارت وظائف الكونتية والدوقية وظائف إقطاعية وراثية ، مغتصبة لنفسها جميع الحقوق والامتيازات الخاصة بالإمبراطورية ، أو الملكية . والحقيقة أن الكونت غدا من جميع النواحى العملية ملكاً فى كونتيته ، وكذلك غدا الدوق فى دوقيته ، وصار المبدأ الوحيد فى المجتمع الجديد هو قانون القوة وما يتعلق به من الحاجة إلى الحماية الحربية. ولم تعد الحرية الشخصية ميزة، لأن الرجل الحر الذى لم ينتسب إلى سيد من السادة كان رجلا دون حام يحميه. وهكذا أصبحت

روابط الطاعة والولاء لسيد من السادة هى الروابط الاجتماعية العامة بين الناس، وغدت ملكية الأرض مرتبطة بمجموعة معقدة من حقوق وواجبات شخصية وحربية وقضائية. ونتيجة لهذه الأحوال وأشباهها اضطرت الكنائس والأديرة إلى البحث عن حماة لحمايتها ، ثم لم يلبث أولئك الحماة أن غدوا أصحاب سلطان فعلى على الأراضى والمؤاجرين التابعين لتلك الكنائس والأديرة . والخلاصة أن الدولة وسلطاتها العامة صارت موزعة بين السلطات الإقليمية المحلية ، وامتزجت السلطة السياسية وحقوق الملكية الفردية بعضها ببعض فى العلاقة الإقطاعية الجديدة ، ولم تعد حقوق القضاء وواجبات الخدمة العسكرية إلتزامات عامة للدولة ، بل غدت مرتبطة ارتباطاً تماماً بالأرض الإقطاعية فى صورة امتيازات أو واجبات ، حسب أحوال التملك أو الاستغلال فى التنظيم الإقطاعى .

غير أنه مع العلم بأن هذا التطور نحو الإقطاعية كان الصفة الغالبة على ذلك العصر ، كانت إقطاعية القرن العاشر أبعد ما تكون عن النظام المتوازن المتناسق الذى نجده فى كتاب الروك النورمانى الخاص بانجلترا أواخر القرن الحادى عشر ، أو كتاب قوانين بيت المقدس الخاص بمملكة بيت المقدس الصليبية فى القرن الثانى عشر . وذلك لأن إقطاعية القرن العاشر كانت شيئاً بدائياً قليل التنسيق حتى وقتذاك ، أى أنها كانت نظاماً وسطاً بين الأوضاع فى دولة منظمة ذات وحدة إقليمية معينة ، وبين الأحوال السائدة فى مجتمع قبلى . ومعنى ذلك أن الإدارة المركزية المصطنعة فى العصر الكارولنجى اختفت ، ولم يبق فى محلها سوى عناصر قبلية قديمة من المجتمع الجرمانى مثل عنصر الرابطة بين الأرض والقرابة فى الأسرة ، أو عنصر الرابطة بين الزعيم

وخيوانه المحاربين . وهكذا لم تكن الرابطة الاجتماعية التى ربطت أجزاء المجتمع الإقطاعى ، هى السيطرة العامة فى الدولة ، بل إن مجتمع القرن العاشر كان من بعض الوجوه أكثر فوضى وأشد بربرية من المجتمع الجرمانى القبلى القديم ، لأنه فيما عدا ألمانيا — حيث ظل التنظيم القديم محتفظاً بحيويته — اختفت القوانين التقليدية والروح الاجتماعية الخاصة بالمجتمع القبلى ، على حين كانت الثقافة والنظم السياسية التى تتسم بها الدولة المسيحية عموما أضعف من أن تستطيع الحلول محل تلك القوى المتبربرة .

وعلى الرغم من ذلك ظلت الكنيسة على حالها ، واستمرت تحفظ تقاليد حضارة أعلى مما حولها ، بحيث كان جميع ما تبقى من ثقافة فكرية وحياة مدنية معتمداً فى استمراره على المجتمع الكنسى ، وذلك لأن الدولة فقدت كل صلة بالتقاليد المدنية ، أى الخاصة بالحياة فى المدن ، وصارت دولة زراعية تماماً ، وعاش الملوك والنبلاء عيشة زراعية متنقلة ، معتمدين على خيرات أراضيهم ، متنقلين من ضيعة إلى أخرى ، على التوالى . وفى ذلك المجتمع لم تكن ثمة حاجة إلى المدن ، فيما عدا الأغراض الحربية البحتة ، ولذا كان معظم ما يسمى بالمدن التى نشأت فى ذلك العصر حصونا ومعاقل للحماية والمأوى ، مثل ما كانت المعاقل القبلية التى سبقتها. ومن هذه المدن التى نشأت فى ذلك العصر مدن فلاندرز وألمانيا ، ومدن انجلترا الانجلوسكسونية . أما المدن القديمة فصارت من ناحية أخرى فى ذلك العصر مراكز كنسية الطابع تماما . وفى ذلك يقول الأستاذ بيرين « إن حكومات ثيوقراطية حلت بالمدن القديمة محل حكومات المجالس المدنية ( البلديات ) التى كانت سائدة بها منذ قرون» . ذلك

أن هذه المدن القديمة صارت تحت حكم الأساقفة ، ودانت بأهميتها للكتدرائيات والإدارات الأسقفية ، فضلا عن الأديرة الواقعة داخل أسوارها ، أو على مقربة منها ، مثل ديرسان جرمان ديبريه قرب باريس ، ودير وستمنستر قرب لندن . وكانت المدينة من هذه المدن القديمة مركزاً لإدارة شئون الإقليم الأسقفى ، فضلا عن الضياع الأسقفية والديرية فى كل إقليم من هذه الأقاليم . وكان معظم سكان هذه المدن من هيئة رجال الدين وأتباعهم ، ومن أجل توفير حاجات هؤلاء وأولئك قامت الأسواق فى هذه المدن ، واجتذبت الأعياد الدينية السنوية إلى تلك الأسواق أعداداً ضخمة من سكان الجهات المجاورة ، أى أن المدينة من هذه المدن غدت مركزاً دينياً لا مركزاً سياسياً أو تجارياً[1] .

وعلى ذلك المنوال كانت الكنيسة — لا الدولة الإقطاعية — هى الجهاز الحقيقى للثقافة ، إذ عاشت جميع العلوم والآداب والموسيقى والفن ، أولا وقبل كل شىء ، فى الكنيسة ، ومن أجل الكنيسة ، لأن الكنيسة كانت عنوان التراث اللاتينى فى الثقافة والنظام ، فضلا عن المثل الخلقية والروحية للمسيحية .

وبالإضافة إلى ذلك كانت الكنائس — على قدر طاقتها — هى التى تنهض بجميع الخدمات الاجتماعية التى نعدها نحن فى العصر الحاضر من واجبات

---

(١) قال الأستاذ بيرين فى ذلك الصدد ما نصه « ومنذئذ فصاعدا أضحت المدن تحت إشراف الأساقفة تماماً ، فلم يوجد فيها سوى أناس يعتمدون على الكنيسة ، من قريب أو بعيد ، إذ تألف أولئك السكان من إكليروس الكنيسة الكتدرائية والكنائس الأخرى القريبة منها ، ومن رهبان الأديرة التى تأسست بكثرة فى بعض الأحيان ، داخل الدائرة الأسقفية ولاسيما بعد القرن التاسع ، ومن معلمى المدارس الكنسية وطلابها ، ومن الخدم والصناع أحرارا وأقنانا ، وهم الذين تطلبتهم حاجات المجتمع الدينى والمطالب اليومية لتلك المجموعة من رجال الدين . » انظر
(H. Prienne; Mediaeval Cities, p. 66.)

الدولة الحديثة مثل التعليم والمساعدة للفقراء ، والعناية بالمرضى . وذلك لأن الكنيسة أفسحت لكل فرد من أفراد المجتمع المسيحى مكانا فى حظيرتها ، وكان باستطاعة كل فرد من الأفراد أن يطالب بحقوق المواطنة الروحية فيها ، على حين لم يكن لطبقة الفلاحين فى الدولة الإقطاعية أى حقوق أو أية حريات بل كانت هذه الطبقة تعد فى حكم المتاع ، أى جزءاً من السائمة اللازمة لسير العمل فى الضيعة الإقطاعية .

وإذا فمن المستحيل علينا أن نفهم حضارة العصور الوسطى بمقاييس العصور الحديثة وأحوالها القائمة على قاعدة الدولة ذات السيادة ، والمجتمع الواحد المشتمل على كل الطبقات الكائنة به ، لأن أوربا فى أوائل العصور الوسطى اشتملت فى الواقع على مجتمعين وحضارتين : فمن ناحية كان المجتمع الكنسى السلمى الذى تركز فى المدن الأسقفية ، والأديرة وهو المجتمع الذى ورث تقاليد الحضارة الرومانية فى عصورها الأخيرة ، ومن ناحية أخرى كان المجتمع الحربى المكون من الارستقراطيين الإقطاعيين وأتباعهم ، وهم الذين صرفوا أيامهم فى حروب ومنازعات محلية شخصية لا نهاية لها . غير أنه مع احتمال وقوع أفراد من هذه الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية تحت تأثير المجتمع الكنسى السلمى عن طريق رجال الدين الذين كانوا فى أغلب الأحوال من أقرباء الأرستقراطيين الإقطاعيين، فإن أولئك الارستقراطيين كانوا من الناحية الاجتماعية طبقة أكثر بدائية من الطبقة الكنسية السلمية ، لأنهم كانوا ورثة الارستقراطية القبلية السابقة التى عرفتها أوربا فى عصر الغزوات الجرمانية، وكانت قيمهم الخلقية هى قيم المحارب القبلى السابق . ثم إنه كان أقصى ما قام به أولئك الارستقراطيون الإقطاعيون هو أنهم احتفظوا بقدر قليل من النظام

الاجتماعى القبلى ، واستطاعوا حماية رعيتهم من الاعتداء الخارجى . غير أنهم كانوا فى كثير من الأحوال متبربرين ،ديدنهم النهب، ويعيشون فى معاقلهم الإقطاعية مثل الوحوش الضارية فىمغاورها، ويخرجون من معاقلهم هذه لإحراق قرى جيرانهم أو اعتراض طريق المسافر العابر الذى كان يسعى دائما لافتداء نفسه من أيديهم .

ولذا كانت المشكلة الكبرى فى القرن العاشر هى : هل سوف تتغلب الأرستقراطية الإقطاعية العنيفة على المجتمع الكنسى السلمى وتبتلعه ؟ أم هل سوف ينجح المجتمع الكنسى السلمى فى تطبيق مثاليته العليا وحضارته على الأرستقراطية الإقطاعية ، كما سبق له أن نجح مع الدول الأنجلوسكسونية والفرنجية ؟ .

ولأول وهلة تراءت الشواهد الدالة على مستقبل الحوادث أقل ملاءمة مما كانت عليه أشباهها فى العصر الذى أعقب الغزوات الجرمانية الأولى ، لأن الكنيسة نفسها كانت فى القرن العاشر فى خطر من أن يجرفها تيار الفوضى الإقطاعية الجديدة ، وذلك لأن الملوك والنبلاء الإقطاعيين انتهزوا فرصة سقوط الإمبراطورية الكارولنجية لتجريد الكنائس والأديرة من الثروة التى جمعتها فى الأزمنة السابقة . ففى بافاريا قام دوق أرنولف بتحويل أراضى الكنيسة عموماً إلى ممتلكات مدنية ، مثلما فعل شارل مارتل فى المملكة الفرنجية فى أواخر العصر الميروفنجى ، وبذا فقدت الأديرة البافارية الجزء الأكبر من

ممتلكاتها(١) . وفى غرب أوربا كانت الأحوال أشد من ذلك سوءاً ، لأن إغارات الشماليين دمرت الأديرة تدميراً كاد أن يكون تاماً ، ولأن انتشار الإقطاعية فى المملكة الكارولنجية الغربية جعل الكنيسة تحت رحمة الارستقراطية الحربية الجديدة التى استخدمت الأراضى الكنسية فى منح الإقطاعات لأتباعها . ومثال ذلك أن هيوكابيه صار رئيساً علمانياً لمعظم الأديرة الغنية الواقعة فى ممتلكاته الكبيرة ، وعلى مقياس أصغر اقتفى جميع الأمراء المحليين هذه السياسة الإقطاعية .

وهكذا أحال ظهور الإقطاعية أحوال الكنيسة فى القرن العاشر إلى درجة أكثر ضعفا وخللا مما كانت عليه أيام انحلال الدولة الميروفنجية قبل مجىء القديس بونيفيس ، إذ تسلم الأساقفة ورؤساء الأديرة فى هذا القرن تقليد وظائفهم الدينية من الملك أو الأمير الإقطاعى ، شأنهم فى ذلك شأن سائر الإقطاعيين ، وباشروا إقطاعاتهم على أنها إقطاعات روحية ، على قول المصطلح الكنسىوقتذاك، إشارة إلى قيام أصحابها من الأساقفة ورؤساء الأديرة بأنواع الخدمة الدينية مقابل ما لا يستطيعون القيام به من الخدمة العسكرية فى الجيش الإقطاعى. وتدهورت الحال حتى صارت الأسقفيات الدينية الكبرى فى أيدى أبناء الأرستقراطية الإقطاعية الذين بدد كثير منهم موارد أسقفياتهم فى الإنفاق على محظياتهم وندمائهم ، مثل أرتشيمبالد رئيس أساقفة سانس فى فرنسا فى القرن العاشر . . بل إن قواعد العفة لم تعد مرعية فى الأديرة ، على حين أخذ

---

(١) فقد دير تيجرنسى مالا يقل عن ١١٧٤٦ ضيعة من مجموع ضياعه البالغة ١١٨٦٠ ضيعة ، انظر (Haucke : Kirchengeschichte etc. II, 9, note 3)

بعض رجال الاكليروس يعيشون عيشة زواجية علنية ، وكثيراً ما أورثوا أبناءهم وظائفهم الدينية .

وأدهى من ذلك وأعظم أن الكنيسة لم تعد تولى وجهها نحو روما والبابوية طلبا للإرشاد الخلقى والزعامة الروحية ، لأن البابوية نفسها سقطت فريسة لنفس العلة التى انتشرت بين الكنائس المحلية ، وصارت البابوية ألعوبة فى أيدى أقاية شرسة فاسدة من أهل روما ، بل هبط الكرسى البابوى إلى أسفل أعماق الانحطاط زمن البابا ثيوفيلاكت ونساء بيته ، وعلى رأسهن ماروزيا المشهورة ، التى حملت لقب العضوية الرمزية فى مجلس الشيوخ الرومانى وقتذاك ، وكانت هذه المرأة محظية لأحد البابوات ، وأماً لبابا ثان ، وقاتلة لبابا ثالث .

وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تكن الأحوال من الظلمة والسوء واليأس بالدرجة التى يحق للباحث استنتاجها من خلال جميع هذه المخازى والنقائص ، لأن تلك الأحوال المظلمة لم تكن سوى آلام المخاض المؤذنة بمولد مجتمع جديد، إذ تولدت فى ثنايا القرن العاشر واضطراباته مجموعة الأمم الجديدة فى أوربا المسيحية . ثم أن ثمار الثقافة الكارولنجية لم تكن ذهبت كلها مع الريح ، بل بقيت تقاليدها حية صالحة لتطبيقها من جديد على أحوال المجتمع الإقليمى أو القومى ،أينما وجدت القوة البناءة التى تستطيع الإفادة من تلك التقاليد. وأكثر من هذا أن القوة البناءة الجانحة إلى النظام ، وجدت نموذجاً ومبدءاً للزعامة السياسية فى التقاليد الملكية المسيحية التى أنجبتها المثالية الكارولنجية. والواقع أن الملكية المسيحية كانت هى النظام الوحيد المعروف لثقافتى المجتمعين

الإقطاعى والدينى، كما كانت هى الأداة المشتملة على تقاليد هاتين الثقافتين، وذلك لأنه على حين كان الملك هو السليل المنحدر من الرئيس القبلى والزعيم الحربى فى المجتمع الإقطاعى ، كان هذا الملك فى نفس الوقت وريثا للملكية الثيوقراطية التى أنجبتها التقاليد الكارولنجية ، وكان لذلك متحلياً بصفة شبه مقدسة ، نظراً لقدسية طقوس التتويج والتبريك عند اعتلائه العرش الملكى . ولذا كان الملك هو الحليف الطبيعى للكنيسة ، وفى الأساقفة والأديرة دعامات رئيسية لسلطاته ، وتتمثل هذه الصفة المزدوجة للملكية فى العصور الوسطى فى نوعين مختلفين تمام الاختلاف من الملوك، وهما أولا ملوك الحرب أمثال سوين الدانمركى، أو هارالد هاردرادا الإنجليزى ، وأولئك هم الذين لم يمنعهم كونهم على المسيحية أن يكونوا من أتباع تقاليد المحارب المتبربر فى كل شىء . وثانياً ملوك السلام والملوك القديسون، أمثال ونسلاس ملك بوهيميا وإدوارد التقى ملك إنجلترا ، وروبرت الثانى ملك فرنسا، وأولئك هم الذين جعلوا أنفسهم خداماً للمجتمع الروحى ، وعاشوا عيشة الرهبان المتوجين . غير أنه يندر العثور ، فيما عدا هذه الأمثلة على ملوك بلغت فيهم إحدى هاتين الصفتين هذه الدرجة من النقاوة ، بل اتسم النوع الغالب من ملوك العصور الوسطى بهاتين الصفتين معاً ، على نسق ما نرى فى الملوك من أمثال القديس أولاف ملك النرويج وكانوت ملك الدانمرك وإنجلترا ، والأباطرة السكسونيين ، وملوك وسكس فى إنجلترا الجنوبية .

وللملوك مملكة وسكس أهمية خاصة بهم دون غيرهم من ملوك ذلك العصر ، وهى أنهم كانوا أول الذين أخذوا على أنفسهم مهمة إعادة البناء القومى بروح من التقاليد الكارولنجية ، وأول الذين بدأوا عملية التآلف بين

الملكية القومية والكنيسة القومية ، وهو التآلف الذى انطبعت به روح ذلك العصر . وبلغ ذلك التآلف من التمام فى مملكة وسكس ، بحيث اندمجت المجامع والمجالس الكنسية الأنجلوسكسونية فى المجالس الملكية العلمانية ، وصار التشريع الكنسى فى القرنين العاشر والحادى عشر من عمل الملك ومجلسه العام ، حيث احتل رجال الكنيسة مكان الصدارة . وعلى ذلك المنوال كان الملك هو البادئ فى إصلاح الكنيسة ، وفى إعادة الحياة الديرية التى كادت الغزوات الدانية أن تدسرها تدميراً . يضاف ذلك أن مملكة وسكس ـ بالقياس إلى غيرها من الممالك الأخرى ـ هى التى نستطيع أن نتتبع فيها بوضوح نمو ثقافة جديدة مؤسسة على لغة قومية، على نسق التقاليد الكارولنجية، وذلك برعاية الملكية القومية . والواقع أن فى قيام الملك ألفرد بالترجمات الشهيرة لمؤلفات كل من القديس جريجورى ، والمؤرخ هورشيوس ، والفيلسوف بوئشيوس ، والعالم بيده ، مايدل دلالة عملية واضحة على محاولة عامدة إلى تكييف الثقافة الأولى ـ التى اختص بها عالم الثقافة الرومانية اللاتينية القديمة ـ إلى مايلائم حاجات الثقافة القومية الجديدة.[1] وفى ذلك يقول الملك ألفرد فى مقدمته التى كتبها للترجمته لكتاب القديس جريجورى وعنوانه «عناية الراعى برعيته» ما نصه: «يبدو لى أن من العمل الصالح لدينا كذلك أن ننقل بعض الكتب التى ينبغى أن يعرفها جميع الناس

---

(١) قام نوتكار لابيو ( ت ١٠٢٢ ) المدرس الشهير بمدرسة سانت جال بخدمة مشابهة فى ألمانيا ، بعد ذلك بقرن من الزمان ، إذ ترجم مؤلفات بوئشيوس — بما فى ذلك ترجمته اللاتينية لكتاب المقولات لأرسطو ـ ومؤلفات مارتيانوس كابلا ، فضلا عن عدة مؤلفات أخرى . غير أن نوتكار يكاد يكون وحيد ميدانه فى أوربا ، لأن إحياء الدراسات الكلاسيكية فى القارة الأوربية زاد فى سيطرة اللغة اللاتينية على مادونها من اللغات القومية الناشئة ، على حين تلاشى تأثير الثقافة الأنجلوسكسونية التى ظلت دائماً نصيرة اللغات القومية .

إلى اللغة التى نستطيع أن نفهمها نحن جميعاً ، وبذا نستطيع ـ وسوف نستطيع لو توافر السلم بيننا بمعونة الله — أن نوجه جميع أبناء انجلترا على التعليم ، ونقصد بذلك أبناء الرجال الأحرار القادرين على تربية أولادهم . وذلك ، قبل أن يبلغ أولئك الأولاد سن الإعداد لأى شىء آخر ، حتى يستطيعوا قراءة اللغة الإنجليزية جيداً. ولندع أولئك الذين نرغب فى تعليمهم أكثر من ذلك، ابتغاء ترقيتهم إلى مرتبة أعلى من العلم ، يتلقوا دروساً فى اللغة اللاتينية » ومما يجب ملاحظته هنا أن الملك ألفرد نهض بهذه الترجمات الكثيرة بمساعدة فريق من العلماء الأجانب فى بلاطه ، وهم على قوله فى مقدمته المذكورة «بليجموند رئيس الأساقفة فى مملكتى، وآسر أسقفى الخاص ، وجريمبالد وجون، قساوسة القداس فى كنيستى الخاصة » .

وعلى مقياس أكثر اتساعاً وبنتيجة أكثر دواما مما نهض به الملك ألفرد ، قام الملوك السكسونيون فى ألمانيا بأمثال ما بدأه هذا الملك وخلفاؤه فى المملكة الأنجلوسكسونية ، فى جنوب انجلترا ، فى سبيل الأحياء الثقافى . ومن المحتمل أن تكون جهود الملوك السكسونيين فى ألمانيا مدينة بشىء غير قليل من حماستهم الثقافية لمنهج أسلافهم من الإنجليز فى ذلك الميدان ، بدليل أن هنرى الصياد ملك سكسونيا سعى إلى محالفة إنجلترا بأن أصهر بيته إلى بيت ألفرد بزواج ابنه أوتو الأول بابنة الملك الإنجليزى آثلستان ؛ كما توجد فى سياسة هنرى كذلك بضع نواح يرى المؤرخون الحديثون فيها سوابق أنجلوسكسونية[1] .

(١) يتضح هذا التأثير بصفة خاصة فى التشابه بين منطيات الملك هنرى الخاصة بالمدن والقلاع فى أقاليم الأطراف والثغور الوندية وبين تشريع الملك الإنجليزى إدوارد الكبير الخاص بمدن إقليم دانلو ( أرض الدانيين ) انظر :
(Cambridge Mediaeval History, III, p. 183 and note)

غير أن هنرى الصياد نفسه كان متبربراً عديم الثقافة ، ولم يكن للثقافة مجال في تفكيره ، كما لم يكن للكنيسة نصيب من رعايته ، بل كان يحكم فى ألمانيا حكم زعيم محارب على رأس اتحاد قبلى . وكان سلطانه مستنداً ، لا إلى الصفات العالمية التى التصقت بالملكية الكارولنجية ، بل إلى ولاءخيوانه السكسونيين الذين ظلوا حافظين لتنظيماتهم وتقاليدهم القبلية ، بالقياس إلى سائر القبائل الألمانية . وتتضح قوة هذا الشعور القبلى فى كتاب ويدوكند الذى عنوانه تاريخ السكسونيين ، وهو التاريخ الذى تسرى فيه روح من العصبية القبلية الخاصة ، ولو أنه من تأليف راهب من رهبان دير كورفيه ، وهو مركز الثقافة الكنسية فى إقليم سكسونيا ، ويرجع أصله إلى العصر التالى لإحياء الإمبراطورية[1] .

وكان الملك أوتو الأول ابن هنرى الصياد أول من أعاد التقاليد الكارولنجية إلى سيرتها الأولى، وربط بينها وبين العصبية القبلية السكسونية. ذلك أنه — على عكس أبيه هنرى — لم يكتف بانتخابه على يد الإقطاعيين العلمانيين ، بل حرص كل الحرص على أن تقوم الكنيسة بتتويجه وتبريكه بمدينة إكس لاشابل ، وهى العاصمة القديمة للإمبراطورية الكارولنجية ، وفقاً للطقوس والتقاليد الكنسية المهيبة المقدسة . وابتدأ الملك أتو الأول كذلك

---

(١) ويتضح ذلك التطويع للعناصر الجرمانية على أيدى الثقافة الديرية المسيطرة وضوحاً مماثلا فى كتاب آكهارد الأول الذى عنوانه والتاريوس . وكان آكهارد راهباً من رهبان سان جال ( حوالى ٩٢٠ — ٩٣٠ ) ، والكتاب نفسه محاولة تسترعى الانتباه لصوغ التقاليد القومية فى الشعر القصصى الألمانى فى القالب الكلاسيكى للملحمة اللاتينية . غير أن تأثير الأفكار المسيحية يبدو هنا أقوى وأكثر دلالة على قرب ظهور الأدب الجديد الذى اتسم به العالم المسيحى فى العصور الوسطى .

سياسة التعاون الوثيق مع الكنيسة ، وهى السياسة التى جعلت الهيئة الأسقفية أقوى دعامة للسلطة الملكية ، ولم تلبث هذه الهيئة أن صارت بدورها أداة للحكومة العلمانية ، على مقياس أوسع مما كانت عليه أيام الكارولنجيين . ويوضح ذلك أن الأسقف لم يظل معاوناً للكونت المحلى ومشرفاً عليه — كأيام الكارولنجيين — بل اتخذ لنفسه وظائف الكونت وامتيازات الكونتية ، وبدأ يجمع فى شخصه الصفة المزدوجة للأمير الأسقف الذى عرفته العصور الوسطى أميراً على إمارة كنسية ، لا على أسقفية دينية . ومن البديهى أن هذه الظاهرة كانت مناقضة تماماً للاستقلال الروحى للكنيسة ، وللمبدأ القانونى الكنسى الخاص بالانتخابات الأسقفية ، لأنه كان من الضرورى للملوك أن يحتفظوا فى أيديهم بحق تعيين الأساقفة ، ولاسيا بعد أن صار الأساقفة هم الأدوات الوحيدة للإدارة الملكية . من أمثلة ذلك أن دوقية اللورين كانت بيد برونو رئيس أساقفة كولونيا ، وهو كذلك أخو الملك أتو الأول ، كما أن الأسساقفة كانوا هم الذين يضبطون زمام كبار الإقطاعيين المشاغبين ، ويحافظون على السلطة الملكية فى أنحاء المملكة الألمانية .

غير أن ذلك الامتزاج بين الكنيسة والملكية لم يؤد إلى صبغ الكنيسة بصبغة سياسية فحسب ، بل أخرج الملكية كذلك من ضائق البيئة القبلية ، وأدخلها فى دائرة الاتصال بالمجتمع المسيحى الأوربى الغربى العام . وبذا ظلت البابوية رأس الكنيسة الكاثوليكية رغم ضعف بعض البابوات وانحطاطهم . وكان الملك أو الأمير الذى يهوى السيطرة على شئون الكنيسة فى بلاده مضطراً إلى الحصول أولا وقبل كل شىء على معاونة روما والبابوية . بالإضافة إلى ذلك كانت جميع التجارب والتقاليد الكارولنجية السابقة مما جعل

الإمبراطورية المسيحيــة الجديدة تتجه نحــو روما للحصــول على التــاج الإمبراطورى .

وربما رأى المؤرخون القوميون فى العصر الحاضر أن إحياء الإمبراطورية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى تضحية مؤسفة بالمصالح الحقيقية للمملــكة الألمانية ، فى سبيل مثالية عليا بعيدة المنال . غير أن الإمبراطورية المسيحية العالمية كانت فى نظر السياسيين وقتذاك حقيقة لا تقل عن ألمانيا فى وضوحها فى الأذهان ، وأن إحياء الملــكية الــكارولنجية فى الأراضى الألمــانية كان تعبيراً طبيعياً عن رغبة صادقة فى إحياء الإمبراطورية المسيحية العالمية . ومن المعلوم أن فترة مدتها سبع وثلاثين سنة مضت منذ وفاة آخر الأباطرة الكارولنجيين الرسميين ، وأن روما كانت فى معظم تلك السنوات فى قبضة أعظم شخصيات بيت ثيوفيلاكت — وهو الملك ألبيريك — الذى كان له من الصولة ماجعله قادرا على إبقاء منافسيه بعدين عن أن ينالوا منه شيئاً ، كما جعله قادرا على تعيين سلسلة من البابوات الجديرين بشغل الــكرسى البابوى . غير أن ابنه — وهو البابا حنا الثانى عشر ذو السيرة السيئة — كان عاجزاً كل العجز عن أن يحل محل أبيه ألبيريك ، ولم يلبث أن ألجأته الحوادث إلى اقتفاء أثر بابوات القرن الثامن بدعوته أوتو الأول ملك ألمانيا، لمساعدة البابوية ضد ملك إيطاليا .

ومن ذلك يتضح أن أوتو الأول لم يقم بشىء جديد، بل إنه سلك طريقاً مألوفاً مطروقا معروفاً تمام المعرفة، عندما لبى نداء البابا ، كما لباه كثير من الملوك قبله ، وذهب إلى إيطاليا سنة ٩٦١ ، لتقديم المساعدة المطلوبة واستلام التاج الإمبراطورى مقابل تلك المساعدة . غير أن مجيء الملك أوتو الأول إلى إيطاليا

تلك السنة أحدث تغييراً عميقاً فى الموقف الأوربى ، إذ أدى مرة أخرى إلى اتصال أوربا الشمالية بالعالم المتحضر فى حوض البحر الأبيض المتوسط بعد قطيعة طويلة ، ولا سيما أن إيطاليا كانت رغم اضطرابها السياسى مقبلة وقتذاك على عصر إحياء اقتصادى وثقافى ، بفضل اتصال المدن التجارية الجنوبية والادرياتية — وهى نابلى وأمالفى وسالرنو وأنكونا والبندقية — بالحضارة الإسلامية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهى مدن بيزنطية فى حضارتها وثقافتها إلى درجة كبيرة. وكان تأثير هذه المدن باعثاً على النشاط فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية فى سائر المدن بشبه الجزيرة الإيطالية ، وبخاصة فى مدن السهل اللمباردى وفى إقليم روماجنا الإيطالى.

واقترن ذلك الإحياء العام فى شبه الجزيرة الإيطالية بيقظة جديدة فى الشعور القومى والتقاليد المدنية القديمة، فأخذت مدينة البندقية تختال فى بهاء شبابها تحت حكم أول دوق من أدواقها العظماء — وهو بطرس أورسيولو الثانى — على حين عمل حكام إيطاليون آخرون من شاكلة ألبيريك وكريسنتيوس على إعادة ذكرى روما وعظمتها السالفة .

وكانت الثقافة المدنية وتقاليدها القديمة لاتزال حية باقية فى المدن الإيطالية عموماً ، وكانت تلك المدن وحدها دون غيرها من مدن غرب أوربا لاتزال تملك مدارس علمانية ، حيث احتفظ النحويون بشىء من قديم مستوى مدارس الخطابة فى العصور الرومانية السابقة . وأنجبت تلك المدارس العلمانية علماء من أمثال ليودبراند الكريمونى وليو الفيرسلى، وستيفن النوفارى ، وجونزو النوفارى كذلك ، وغيرهم ممن نافسوا العلماء الديريين الشماليين فى علومهم ، وفاقوهم

فى سرعة البديهة وقوة اللسان ، مثلما نرى فى الرسالة العجيبة التى أفحم فيها جونزو النوفارى راهباً من رهبان دير سانت جال بسيل من الحجج والسباب بعد أن تجرأ هذا الراهب على نقد نحويته . ويتضح استمرار المؤثرات الكلاسيكية — بل الوثنية القديمة كذلك — فى الثقافة الإيطالية وقتذاك فى قصة فلجارد النحوى الراقى ، الذى استشهد فى سبيل اعتقاد فى حرفية الإلهام الصادر من آلهة الشعر القديم — وهم هوارس وفيرجيل وجوفينال — كما تتضح هذه المؤثرات الكلاسيكية فى صورة أكثر جاذبيةفى القصيدة الساحرة التى عنوانها « يا تمثال فينوس العجيب»، والتى نظمها شاعر مجهول منفيرونا. ولا مشاحة فى أنذلك كله كأن لم يكن سوى ناحية واحدةمن الثقافة الإيطالية؛ لأن هذه الثقافة لم تخل من عناصر دينية يوماً من الأيام ، بدليل أن الشاعر المجهول الذى أشرت إليه هنا نقلا عن مانيتيوس هو كذلك مؤلف القصيدة التى عنوانها « ياروما النبيلة » ، وهو الوصف التعبيرى المتواتر الذى يرمز إلى مدينة روما كما تصورها المثالية المسيحية. وهذه المثالية نفسها هى التى تسرى فى القصيدة الرائعة التى تنشد فى عيد صعود العذراء إلىالسماء ، وأولها «يامريم المقدسة !! أنى لك هذا ؟ » ، وهى القصيدة التى ترجع إلى عصر أوتو الثالث ، وتكاد تكون الإنتاج الأدبى الوحيد بين أيدينا من نماذج الثقافة المستمدة من الروح الرومانية القديمة فى ذلك العصر . (١)

غير أن إحياء الثقافة الإيطالية فى القرنالعاشر ، وما اصطبغ به ذلكالأحياء

(١) هذه القصيدة واردة فى :
(Novati : L' influsso del Pensiero Latino etc. p. p. 137 - 130)

من الاستقلال التام عن أوربا الشمالية كان مقترناً ولا شك بنوبة من الاضمحلال الدينى والاضطراب الخلقى – كما حدث فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر – إذ صار الكرسى البابوى فى القرن العاشر عبد المحسوبيات العائلية، والحزبيات السياسية، وغدا فاقدا مقامه العالى فى العالم المسيحى. والواقع أن مركز البابوية بات محوطا بأشد الأخطار، ولا سيما أن الكنيسة شمالى جبال الألب أخذت تتأثر بعالى المثاليات الخلقية الجديدة التى أوجدتها حركة الإصلاح الديرى فى البلاد الأوربية الشمالية، بل بدأت فعلا فى ترتيب شئونها الداخلية وفقاً لهذه المثاليات العالية. ومن الدليل على ذلك ما حدث فى المجلس الدينى الذى انعقد فى سانت بازل دى فيرزى سنة ٩٩١، حين أعلن الأساقفة الفرنسيون صريح اعتقادهم فى إفلاس البابوية، إذ قال المتحدث باسمهم وقتذاك — وهو أرنول الأورليانى – ما نصه : « هل من القانون أن يخضع قساوسة الرب فى أنحاء العالم — وهم الذين بعلومهم وفضائلهم ممتازون — لوحوش بشرية امتلأت بطونها بمخازيها وتجردت قلوبها من أية معرفة إنسانية أو إلهية، من أمثال البابا حنا الثانى عشر أو البابا بونيفيس السابع؟ إنه ليبدو أننا نشهد مجىء المسيح الدجال، لأن هذا الذى نراه هو الارتداد الذى أنذر به إنجيل حنا الرسول، لا بين الأمم بل بين الكنائس(١) ». ولو أن إيطاليا ظلت فى عزلة عن أوربا الشمالية لكان من الطبيعى أن تتجه روما نحو الإمبراطورية البيزنطية، وهو ما تعمدته سياسة أليبريك وغيره من زعماء الأرستقراطية فى روما وقتذاك ولكان هناك

---

(١) انظر (Gerberti, Acta Concillii Remensis) فى Monumenta Germ. Hist. Script, III, 672) وكذلك Fleury, Historia ecclesiastique, L, Lvii, cc. xxi - xxvi)

خطر حقيقى أن يشهد القرن الحادى عشر انقساما كبيراً — لا بين روما البيزنطية — بل بين قديم عالم البحر الأبيض المتوسط وبلاد الشرق ، وبين الشعوب الفتية فى أوربا الشمالية . غير أن ذلك الخطر لم يتحقق ، لأن الحركة الإصلاحية فى أوربا الشمالية لم تتعصب ضد البابوية، كما حدث فى القرن السادس عشر ، بل حالفتها وتعاونت معها لتجديد الحياة الدينية فى العالم المسيحى الغربى. وكان أول من شغل الكرسى البابوى من رجال تلك الحركة الاصلاحية وأول من مهد الطريق للعصر الجديد ، هو الرجل الذى تحدث باسم الأساقفة الفرنسيين فى مجلس سانت بازل دى فيرزى ، وأعلن نيابة عنهم اعتقادهم الصريح فى إفلاس البابوية ، وهو جربرت الأوريلاكى الذى اتخذ لنفسه اسم سلفستر الثانى عند اعتلائه الكرسى البابوى .

غير أن لم يكن من المستطاع أبدا أن يحدث ذلك التغيير لولا وجود الإمبراطورية فى غرب أوربا ، لأن إحياء الإمبراطورية فى ألمانيا ومجيئها إلى إيطاليا هو الذى أنقذ البابوية من خضوعها للأحزاب المحلية فى مدينة روما ، وهو الذى أعادها إلى نفسها وإلى مكانتها فى كافة أوربا . ومن المعروف أن إحياء الإمبراطورية بدأ فى أول الأمر كأنه لا يعنى شيئاً سوى إخضاع البابوية لملك ألمانى ، بدلا من زعيم محلى رومانى . غير أنه على الرغم من ذلك ، فإن الأحوال الجديدة غيرت أفق السياسة الإمبراطورية تغييراً لم يكن منه بد ، لأن تلك الأحوال جاءت بأهداف أوسع وأكثر عالمية مما سبقها. وأول ذلك أن الإمبراطورية فقدت تدريجياً طابعها السكسونى ، وصارت دولة عالمية ، إذ تزوج أتو الأول الملكة البرجندية الإيطالية إديليد، على حين كان ابنها أوتو الثانى زوجا

فيما بعد للأميرة البيزنطية ثيوفانو ، وهى الأميرة التى جلبت معها إلى الغرب تقاليد البلاط الإمبراطورى البيزنطى . وبذا جمع نسل ذلك الزواج، وهو أوتو الثالث ، تقاليدالإمبراطورية المسيحية العالميةفى صورتيهاالكارولنجية والبيزنطية فى شخصه ، إذ أخذ عن أمه وعن فيلاجاتوس — البيزنطى الأصلى القالورى الموطن — أرفع المؤثرات الثقافية فى العالم البيزنطى،على حين كان أستاذه برنوورد الهيلدشيمى عالماً وفناناً ، وسياسياً جامعا لأحسن ما فى التقاليد الكارولنجية من تقاليد الشمال الأوربى. وفضلا عن ذلك كان أوتو الثالث شديد الاستجابة للمؤثرات الروحية العليا التى أخذت تسرى فى ذلك العصر ، بدليل ما نرى من صداقة هذا الإمبراطور الشخصية للقديس أد البرت البراغى ، ومن اتصالاته بالقديس رومولد والقديس نيلوس ، وهما قائدا الحياةالتنسكية فى إيطالياوقتذاك .

وبهذه الصفات وما يترتب عليها من سلوك ، لا عجب أن تكونت فى رأس أوتو الثالث صورة إمبراطورية، هى بيزنطية أكثر منها جرمانية، وأن يكرس حياته لتحقيق أهداف هذه الصورة من الحقوق والمثاليات العالمية . ومن أجل تحقيق هذه الأهداف خالف أوتو الثالث تقاليد القرون السالفة بتعيين برونو — وهو ابن عمه — فى الكرسى البابوى، بدلا من عضو من أعضاء رجال الدين فى روما . غير أن أوتو الثالث لم يجد فى برونو ضالته المنشودة ، بل وجدها فى جربرت الأوريلاكى ، وهو فى غير شك أعظم العلماء وألمعهم فى عصره، إذ وجد فيه أوتو الثالث روحا صديقة قادرة على معاونته فى العمل الذى كرس حياته لإتمامه . وكان أوتو الثالث حتى وقتذاك مدركا نقص الثقافة الأوربية الغربية

بالقياس إلى الثقافة البيزنطية ومستوياتها العالية ، فكان معلمه جربرت هو الذى أفهمه أن الغرب الأوربى — لا الدولة البيزنطية — هو الوارث الحقيقى للتقاليد الرومانية . وكان جربرت كذلك هو الذى أثار فى نفس الإمبراطور رغبة شديدة فى إحياء التراث القديم . ومن الدليل على ذلك كله ما كتبه جربرت مخاطباً الإمبراطور أوتو الثالث ونصه « لا ينبغى أن يعتقد أهل إيطاليا أن بيزنطة اليونانية وحدها هى التى تستطيع أن تفخر بالدولة الرومانية ، أو بالفلسفة التى اشتهر بها إمبراطورها ماركوس أوريليوس . إننا نحن الإمبراطورية الرومانية ! نعم إننا نحن ! إن قوة الإمبراطورية تعتمد على إيطاليا الخصيبة ، وعلى غاليا وجرمانيا الآهلتين بالسكان ، وعلى شجاعة ممالك السيثيين الصناديد . وأنت أغسطس بيننا . أنت قيصر إمبراطور الرومان ، لأنك جئت من أشرف الدماء البيزنطية فتفوقت على اليونانيين فى السلطان ، ولأنك هيمنت على أهل روما وإيطاليا بحق الوراثة ، وبذا سموت بالحكمة وفصل الخطاب على كل من الاثنين معا . (١) »

ولما أعقبت وفاة برونو إقامة جربرت الأوريلاكى فى الكرسى البابوى باسم سلفستر الثانى ، مضى أوتو الثالث بمساعدة هذا البابا فى تنفيذ خططه فى سبيل تجديد الإمبراطورية ، وإعادة روما إلى مكانتها الحقة ، على أنها المدينة الإمبراطورية ، والمركز الأوحد للعالم المسيحى . ومن المعروف أن محاولات الإمبراطور أوتو الثالث — ولا سيما الصورة البيزنطية التى اتخذتها تلك المحاولات — أثارت سخرية المؤرخين المحدثين الذين لم يروا فيها سوى أوهام صبيانية

---

(١) انظر (Lettres de Gerbert, ed. J. Havet, No. 187, p. 173)

فى ملابس بيزنطية[١] . غير أن الواقع هو سياسة أوتو الثالث رغم عدم تأديتها إلى أية نتائج سياسية واضحة كانت أكثر معنى تاريخياً من أى عمل من الأعمال التى قام بها السياسيون المعاصرون ، لأن تلك السياسة دلت على ظهور وعى أوربى جديد ، إذ اشتملت على جميع القوى التى دخلت فى بناء الوحدة الأوربية فى العصور الوسطى — وهى التقاليد البيزنطية والكارولنجية بصدد الإمبراطورية المسيحية ، ثم العالمية الكنسية التى نادت بها البابوية ، ثم المثالية الروحية التى نادى بها المصلحون الديريون – من أمثال القديس نيلوس ، والقديس رومولد – ثم الروح التبشيرية التى امتلأ بها القديس أدالبرت ، ثم المبادئ الإنسانية الكارولنجية التى تحلى بها جربرت الأوريلاكى ، ثم الإخلاص القومى للفكرة الرومانية التى آمن بها بعض الإيطاليين ، مثل ليو الفرتشلى . وهكذا كانت سياسية أوتو الثالث نقطة البداية التى أخذت التقاليد القديمة من عندها تسير جنبا إلى جنب ، ثم تمتزج كلها فى الثقافة الجديدة فى أوربا الغربية فى العصور الوسطى ، أى أنها كانت تطوى القرون إلى الوراء — إلى أيام القديس أوغسطين — ، كما كانت تطويها إلى الأمام ، إلى أيام دانتى والنهضة الأوربية الكبرى . ومن المعروف أن الإمبراطورية المثالية التى أراد أوتو الثالث أن تتكون من مجموعة من الأمم المسيحية تحكمها سلطات

(١) لم يكن العنصر البيزنطى فى بلاط أوتو الثالث صادرا عن تقليد مصطنع لمراسيم أجنبية، كما ظن بعض المؤرخين فى العصر الحديث ، بل كان نتيجة طبيعية للتقاليد شبه البيزنطية السائدة فى روما نفسها ، وفى الإمبراطورية كذلك فى القرن العاشر . ومن الدليل على ذلك ظهور شارل الأصلع فى ملابس بيزنطية فى مجلس بونثيون سنة ٨٧٦ ، إشارة إلى تتويجه إمبراطورا واستلامه التاج الإمبراطورى . انظر : (Halphen: La Cour d' Otton III á Rome) فى (Melanges d'Archéologié et d'Histoire, xxv, 1905)

إمبراطورية وسلطات بابوية متوافقة متكاملة ، معتمدة بعضها على بعض ، لم تشأ لها المقادير أن تتحق وتوضع موضع التجربة . غير أن تلك الإمبراطورية النظرية أوجدت نوعا من الحياة المثالية الشبيهة بالقضايا الأفلاطونية ، وظلت تلك الإمبراطورية جاهدة فى سبيل تحقيقها فى مجتمع العصور الوسطى . ذلك أن مثالية أوتو الثالث هى نفس المثالية التى سرت فى تفكير دانتى ، وهى التى أمدت الوحدة الثقافية فى أوربا العصور الوسطى ، خلال القرون الواقعة بين أوتو الثالث ودانتى ، بصبغة سياسية مفهومة . ثم إن تلك المثالية لم تكن عقيمة فى نتائجها العملية بالدرجة المظنونة عادة، لأن السنوات القليلة التى حكم فيها أوتو الثالث وجربرت معا، شهدت نهضة الأمم المسيحية الجديدة فى أوربا العصور الوسطى، وإلى جهودهما النابعة من شدة إخلاص أوتو الثالث لذكرى صديقه أدالبرت قديس بوهيميا ، يرجع تحرير البولنديين والمجريين من تبعيتهم للكنيسة الألمانية المحلية وحصولهم على هيئة كنسية خاصة بهم ، وهى الهيئة التى كانت الشرط الذى لا بد منه لتحقق الاستقلال فى ثقافتهما القومية .

ودل ذلك كله على تعديل جوهرى فى التقاليد الإمبراطورية الكارولنجية ، فلم تعد وحدة العالم المسيحى مفهومة على أنها وحدة لدولة ثيوقراطية إمبراطورية النزعة ، أى نوع من قيصرية جرمانية، بل مجموعة من الأمم الحرة يتزعمها الجالس على الكرسى البابوى فى روما، والإمبراطور الجالس على العرش الرومانى القديم . ثم إنه كان من المألوف حتى وقتذاك أن يؤدى دخول الديانة المسيحة فى إقليم من الأقاليم إلى تبعية ذلك الإقليم سياسياً إلى الدولة التى جاءت منها الديانة الجديدة ، مع تحطيم التقاليد الوطنية القديمة فى ذلك الإقليم . وهذا هو السبب الذى جعل الونديين، وغيرهم من شعوب البحر

البلطى يقاومون الكنيسة فى بلادهم أعند مقاومة . غير أن أواخر سنوات القرن العاشر شهدت مولد سلسلة جديدة من الدول المسيحية التى امتدت من شبه جزيرة اسكندناوة إلى حوض الدانوب . وبفضل هذه الدول شهد القرن الحادى عشر زوال الوثنية من البلاد الشمالية ، واندماج غرب أوربا كله فى وحدة العالم المسيحى . وفى نفس الوقت بلغ ظلام العصور المظلمة منتهاه ، وأخذت حياة جديدة تدب فى كل مكان فى غرب أوربا ، ونهضت قوى اجتماعية وروحية جديدة ، وأخذ المجتمع الأوربى الغربى يحتل مكانه على أنه وحدة مستقلة ، جنباً إلى جنب مع قديم حضارات العالم الشرقى .

# خاتمة

يستحيل على مؤرخ باحث أن يرسم خطا مستقيما يفصل به بين عصر وآخر من عصور التاريخ ، لا سيما حين يكون البحث متعلقا بتاريخ نشأة الحضارة الأوربية ، وما تنطوى عليه تلك النشأة الحضارية بالذات من ضخامة وتعقيد . وعلى هذا فليس فى اختيار الحد الزمنى الذى اخترته أنا لتحديد هذه الجولة التاريخية سوى وقفة عملية ، لا تحديدا علميا . غير أنه لا ريب فى أن مطالع القرن الحادى عشر توافق نقطة تحول فاصلة فى التاريخ الأوربى ، لأنها نهاية العصور المظلمة ، وبداية الإحياء المستمر فى الثقافة الأوربية الغربية . ذلك أن الإحياءين الثقافيين السابقين ، فى عصرى جستنيان وشارلمان ، كان كل منهما حركة جزئية عابرة ، وأعقبت كل حركة منهما مرحلة اضمحلال هبطت بأوربا إلى حضيض أعمق بربرية واضطرابا مما عرفته قبل كل من هذين الإحياءين العابرين، على عكس ما حدث فى مطالع القرن الحادى عشر، حين بدأت حركة نهضة شاءت لها طبيعتها أن تستمر فى غير انقطاع حتى العصور الحديثة . ودلت هذه الحركة الجديدة عن نفسها فى صور جديدة ، فى كل ميدان من ميادين النشاط العام — فى التجارة والحياة المدينية[1] ، وفى التنظيم السياسى ، وفى الديانة والفنون والآداب ، كما وضعت هذه الحركة الجديدة أسس العالم الحديث ، لا بإنشاء المنشآت والنظم التى غدت خصيصة بالثقافة الأوربية ،

---

(١) هذا اللفظ أحسن تأدية للمعنى المطلوب وهو النسبة إلى المدينة للتمييز بين المقصود هنا وبين لفظ المدنية بمعنى الحضارة . ( المترجم )

بل بتكوين تلك المجموعة من الأمم التى نطاق عليها اسم أوربا ، والتى هى أكثر كثيراً من وحدة جغرافية .

على أن هذه الحضارة الأوربية الجديدة لم تشمل حتى وقتذاك أوربا كلها ، أو غرب أوربا كله ، لأن أوربا كانت فى مطلع القرن الحادى عشر — كما كانت لعدة قرون قبــلا — لا تزال مقسمة بين أربع أو خمس دوائر ثقافية مختلفة، ولم تــكن دائرة العالم المسيحى الغربى أعظم تلك الدوائر قوة أو تحضراً. وتفصيل ذلك أن الحضارة النوردية فى أوربا الشمالية الغربية ، وهى الحضارة التى بدأت تصبح وقتذاك جزءاً من العالم المسيحى ، ظلت حافظة لثقافة خاصة ذات تقاليد مستقلة . وفى الجنوب كانت الثقافة الإسلامية فى أسبانيا وشمال إفريقيا ، وهى الثقافة التى شملت جميع الجزء الغربى من حوض البحر الأبيض المتوسط . وفى شرق أوربا سيطرت الثقافة البيزنطية على بلاد البلقان وحوض بحر إيجه ، وظلت محتفظة بمراكز لها فى جزء كبير من الغرب الأوربى، أى فى جنوب إيطاليا وحوض البحر الادرياتى والمــدن الإيطالية التجارية ، وهى البندقية وأمالفى وبيزا . وفى الشمالى الشرقى الأوربى وهو الجزء الممتد من البحر الأسود إلى البحر الأبيض الشمالى والبحر البلطى ، كانت دائرة الســلافيين والبالطيين والفنوأوجريين، وكان معظم أولئك لا يزال متبربرا وثنيا ، مع العلم بأن تلك الدائرة بدأت وقتذاك تتأثر بمؤثرات من الثقافة البيزنطية من الجنوب ، ومن الثقافة النوردية من شبه جزيرة اسكندناوه ، ومن الثقافة الإسلامية من آسيا الوسطى وبحر قزوين .

ومن ذلك كله يتضح أن الثقافة الجديدة التى ننظر إليها على أنها غربية وأوربية صميمة اقتصرت فى معظمها على الأقاليم الداخلية من الإمبراطورية الكارولنجية السالفة، وأنها اتخذت مركزها فى الأقاليم الفرنجية القديمة، الواقعة فى شمال فرنسا وغرب ألمانيا .

وفى القرن العاشر تعرضت تلك الثقافة الجديدة — كما رأينا — لضغط عنيف من كل جانب ، حتى أخذت أطرافها تنكمش انكماشا غير ضئيل . لكن القرن الحادى عشر لم يلبث أن شهد انقلاب التيار مع سرعة ملحوظة فى امتداد الثقافة الأوربية إلى كل ناحية من النواحى . ففى الغرب مثلا امتد الفتح النورمانى إلى انجلترا ، وأخرجها من دائرة الثقافة النوردية التى ظلت مدة قرنين من الزمان وهى تنذر بالاستيلاء على تلك البلاد ، وبذا أدخل الفتح النورمانى بلاد انجلترا مرة أخرى فى دائرة المجتمع الأوربى الغربى الجديد. وفى الشمال والشرق أخذت الثقافة الغربية تسيطر تدريجيا على السلاف الغربيين وتتغلغل بمؤثراتها الثقافية فى اسكندناوة ، على حين انطلقت هذه الثقافة الغربية جنوبا فى حماسة دينية صليبية هائلة ، لا نتزاع حوض البحر الأبيض المتوسط كله من الدول الإسلامية .

وبذا فرضت أمم الإمبراطورية الكارولنجية سيطرتها الاجتماعية ومثاليتها الثقافية على جميع الأمم المجاورة ، بحيث نستطيع أن ننظر إلى الوحدة الكارولنجية السابقة على أنها فى غير مبالغة أساس ونقطة بداية لجميع مراحل التطور فى الحضارة الأوربية الغربية فى العصور الوسطى . ومن المعلوم أن الإمبراطورية الكارولنجية ذهبت عنها وحدتها السياسية منذ أمد طويل ،

وأن كلا من فرنسا وألمانيا آخذ فى الشعور أكثر فأكثر بالفوارق القومية بين البلدين ، لكن الحياة السياسية استندت فى كل منهما إلى تقاليد كارولنجية واحدة، كما تركبت ثقافة كل منهما من عناصر واحدة ، وإن اختلفت درجات هذه العناصر فى النسبة والمقادير . ثم إن فرنسا وألمانيا كانتا لا تزالان فى صميمهما التاريخى هما مملكة الفرنجة الغربيين، ومملكة الفرنجة الشرقيين ، لكنهما كانتا تشعران بما بينهما من اختلاف أكثر مما تشعران بما بينهما من تشابه ، كشعور الأخوين الشقيقين اللذين أشبه أحدهما أمه والآخر أباه . غير أن الزعامة الحضارية فى فرنسا وألمانيا تولدت فى كل من هاتين المملكتين الجديدتين فى الأقاليم التى كانت تعرف باسم الأقاليم الوسطى فى الإمبراطورية الكارولنجية السالفة ، وهى الأقاليم التى تغلغلت فيها الثقافه اللاتينية واللسان اللاتينى منذ القدم . وهذه فى فرنسا هى مجموعة الأقاليم التى غلبت عليها العناصر الجرمانية أو النوردية ، أى فرنسا الشمالية واللورين وبرجنديا وفلاندرز ، وإقليم حوض الراين. وكانت نورمانديا أعظم تلك الأقاليم كلها فى مستقبل الحوادث،لأنها هى الإقليم الذى بدت فيه العناصر النوردية واللاتينية على أشد ما تكون من تقابل حاد واتصال مفاجىء مباشر ، وذلك هو ما جعل نورمانديا بالذات هى الزعيمة فى حركة التوسع الحضارى الجديد .

والواقع أن تلك الأقاليم الوسطى الممتدة من نهر اللوار إلى نهر الراين كانت هى الموطن الحقيقى لثقافة العصور الوسطى والمنبع الرئيسى للجهود والمنشآت التى اختصت بها تلك العصور . ففى تلك الأقاليم نشأ المعمار القوطى ، ونشأت أعظم المعاهد العلمية ، ونهضت حركة الإصلاح الديرى والكنسى ، وبدأت نداءات الحروب الصليبية . وكانت تلك الأقاليم كذلك مراكز التطور

فى تكوين الدولة الإقطاعية،وفى الحركة القومونية الخاصة بشمال أوربا،وفى نظام الفروسية ، كما كانت أيضاً هى الأقاليم التى اكتمل فيها الامتزاج بين الشمال الأوربى الجرمانى النوردى وبين النظام الروحى الكنسى والتقاليد الثقافية اللاتينية . ثم لم يلبث عصر الحروب الصليبية أن شهد مستويات خلقية ودينية جديدة،دالة على انتقال البطولة الوثنية القديمة ـ التى اتسمت بها الثقافة الجرمانية والنوردية الحربية ـ إلى صور مسيحية عسكرية محاربة . ومما يدل على ذلك أننا نجد فى أغنية رولان ـ التى كتبت فى القرن الحادى عشر ـ نفس البواعث التى سرت عموماً فى الملاحم الوثنية القديمة ، وهى بواعث إخلاص المحارب لسيده ، والابتهاج بالحرب من أجل الحرب، وتمجيد الانهزام فى ميدان القتال، إذ صارت هذه البواعث كلها مجندة فى خدمة العالم المسيحى ، داخلة فى حظيرة الآراء المسيحية . ومثال ذلك رفض الفارس الفرنسى رولان فى عناد شديد أن ينفخ فى بوقه إعلاناً لهزيمته ، وما فى ذلك الرفض من موافقة تامة لتقاليد الشعر الوثنى القديم،مع العلم بأن أغنية رولان كتبت فى القرن الحادى عشر، وفيما يلى نص ما جاء فى هذه الأغنية الشهيرة :—

« ثم ولى رولان وجهه شطر أرض أسبانيا ، حتى يرى الملك شارل وجنوده أن رولان مات ميتة تابع مخلص مقدام فى زحفه ضد المسلمين . ثم قام رولان إلى صلاته فى الميدان ، واعترف وصلى صلاة كلها ورع وتقوى ، وبسط يديه فى قفازهما ضارعاً إلى السماء أن يغفر الرب له ذنوبه [1] » .

---

(١) انظر (The Song of Roland, lines 2360 - 2365)
وقارن ذلك بما ورد فى (lines 2366 - 2396.)

ومن المعلوم أن المثالية البطولية وجدت قبل ذلك مكاناً فى آداب الأمم المسيحية ، ولا سيما فى المنظومة الإنجليزية التى عنوانها قصيدة مالدون[1]، والتى جاء فيها مانصه «سوف يزداد تفكيرنا عمقاً ، وسوف تزداد قلوبنا حماسة ، كما سوف تزداد شجاعتنا عظمة ، وذلك كلما أخذت قوتنا الغاشمة فى التضاؤل». غير أنه لم يوجد حتى أيام هذه المنظومة سوى طيف ضئيل من الروح المسيحية[2]، لأن التقاليد الوثنية القديمة ظلت باقية على حالها لم يقودها شىء خلال العصور المظلمة التى سبقت مطالع القرن الحادى عشر . والواقع أن المجتمع الأوربى الغربى اصطبغ خلال تلك العصور المظلمة بثنائية خلقية شبيهة بثنائية الحضارة فى تلك العصور، فكانت هناك مثالية خاصة بالرجل المحارب ومثالية أخرى لرجل الدين والكنيسة ، وظل المحارب متعلقاً روحياً بعالم الوثنية الشمالية وبربريته دون أن يتأثر بشىء كثير من الدين . وظل الحال على ذلك المنوال حتى القرن الحادى عشر ، حين اندمجت الطبقة الحربية فى الحياة الروحية فى العالم المسيحى بفضل

---

(١) مالدون مدينة إنجليزية على ساحل انجلترا الجنوبى ، وعندها وقعت واقعة حربية سنة ٩٩٣ ، وقف فيها الزعيم بريثنوث بجنوده فى وجه الغزاة الشماليين واستشهد هذا الزعيم فى ميدان القتال والدفاع عن انجلترا الجنوبيه ، ونظم بعض المعاصرين هذه الأحداث فى الملحمه المعروفة باسم هذه الوقعة . (المترجان)

(٢) من المعروف المقطوع به أن كلمات الزعيم بريثنوث وهو على فراش الموت ، كانت تسرى فيها نغمة دينية ونصها «أحمدك بإله الناس على كل تلك المباهج التى تمتعت بها فى الحياة الدنيا . أيها الإله الرحيم، ها أنذا الآن فى أشد الحاجة لأن تشمل أنت روحى بلطفك ، حتى تصعد روحى إليك وتنتقل فى سلام إلى رعايتك ، يامالك الملائكة» . غير أن الذروه الخلقية فى تلك القصيدة توجد لا فى تلك الكلمات بل فى آخر كلمات الرجل الذى تطلق عليه قصيدة مالدون اسم الرفيق القديم ونصها « إنى بلغت من السن عتياً، ولست أبغى أن أسير بعيداً ، لكننى أريد أن ألقى بنفسى إلى جانب مولاى ، إلى جانب الرجل الذى أحببت حباً جماً » انظر الحاشية السابقة . وكذلك :

(Anglo - Saxon Poetry, tr. R. K. Gordon, p. p. 364 - 367)

نشأة الفروسية التى دلت بنظامها على امتزاج بين التقاليد الجرمانية النوردية الوثنية والتقاليد والمسيحية ، فى وحدة العصور الوسطى . وظل ذلك النظام صفة من صفات المجتمع الغربى الأوربى منذ عصر « أغنية رولان » فصاعدا إلى العصر الذى مات فيه آخر نماذج الفروسية فى العصور الوسطى، وهو الفارس الفرنسى بايارد ،ميتة تابع مخلص مقدام فى زحفه نحو العدو ، مثل سلفة رولان، وكان ذلك فى عصر مارتن لوثر ونيقولا ماكيافللى ، أى فى القرن السادس عشر. ولذا كانت العصور الوسطى هى عصر الكاثوليكية الجرمانية النوردية، واستمرت هكذا مادام التحالف مستمراً بين البابوية الكاثوليكية والشمال الجرمانى النوردى ، وهو التحالف الذى بدأه القديس بونيفيس والملك ببين الفرنجى فى القرن الثامن ، ووطدت دعائمة حركة الإصلاح الكنسى فى الشمال الغربى من أوربا فى القرن الحادى عشر، وهذه الحركة هى التى كان منبعها بلاد اللورين وبرجنديا وغيرها من الأقاليم الوسطى التى تقدمت الإشارة إليها.ثم انفصم ذلك التحالف لأول مرة ، على يد بونيفيس آخر ، وهو البابا بونيفيس الثامن، وملك آخر من ملوك الفرنجة وهو فيلب الرابع «الجميل»، وذلك فى نهاية القرن الثالث عشر . ومع أن ذلك التحالف لم يستطع أن يقوم قائمته الأولى ألبتة ، فإنه ظل حجر الزاوية فى الوحدة الأوربية الغربية، وذلك إلى حين صارت البابوية نفسها إيطالية تماماً ، وغدت الأمم الأوربية الشمالية الغربية بروتستانتية المذهب بعد أن كانت على الكاثوليكية.

ولكن على الرغم من أن حضارة العصور الوسطى كانت حضارة مسيحية مركزها الشمال الغربى من أوربا، فإن تلك الحضارة ولت وجهها - مثل الفارس رولان — شطر الجنوب الإسلامى والبيزنطى ، وبذا استطاع ملوك نورمانيون

أن يتملكوا فى صقلية بعد المسلمين ، واستطاع ملوك من اللورين أن يحكموا فى بيت المقدس والرها زمن الحروب الصليبية ، كما استطاع ملوك وأمراء برجنديون وفلمنكيون أن يحكموا فى البرتغال وأثينا والقسطنطينية ، وما زالت بقايا قلاع هؤلاء وأولئك ماثلة فى جزر البلوبونيز وقبرص والشام وفلسطين .

وكان لذلك الاتصال الحضارى بالمسلمين والبيزنطيين ومستوياتهما العالية تأثير حاسم فى غرب أوربا ، بل كان ذلك الاتصال من أهم العناصر فى تطور الحضارة الأوربية كلها فى العصور الوسطى . وظهر ذلك من ناحية فى نشأة التقاليد البلاطية الأرستقراطية الجديدة فى غرب أوربا ، وفى نهضة الأدب الأوربى القومى الجديد ، كما ظهر من ناحية أخرى فى دخول التقاليد العلمية العربية اليونانية،وقيام الحركة الفكرية الجديدة فى الغرب الأوربى(١) . وظلت تلك المؤثرات صاعدة واضحة فى سماء المعرفة ، حتى سطعت إلى جانبها مؤثرات حركة النهضة الأوربية الكبرى ، وهى مؤثرات نابعة من إحياء التقاليد الكلاسيكية.ووافق ذلك فتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية، وانعزال غرب أوربا عن العالم الإسلامى، حتى إذا انتهت العصور الوسطى أدارت أوربا ظهرها للشرق ، وأخذت تنظر غربا ، شطر المحيط الأطلنطى .

---

(١) تناول المؤلف هذه النواحى من حضارة العصور الوسطى فى مقالة عنوانها :

(The Origins of The Romantic Tradition)

وهى مطبوعة فى مجلة (The Criterion, vol. xi (1932), p. p. 222 - 248)

وتناول المؤلف هذه النواحى مرة ثانية فى مقالتين عنوانهما على التعاقب :

(The Origins of the European Scientific Tradition)

وهى مطبوعة فى مجلة :

(The Clergy Review, vol. II (1931) p p. 108 - 121 and 194 - 205)

ومن ذلك يتضح أن وحدة الحضارة التى أنجبتها العصور الوسطى لم تكن لها صفة الدوام ، لأنها قامت على أسس من الوحدة بين الكنيسة والأمم الأوربية الشمالية الغربية ، مع شىء غير قليل من المؤثرات الشرقية الإسلامية والبيزنطية . غير أن انتهاء تلك الوحدة الحضارية لم يكن معناه انتهاء الوحدة الأوربية الغربية ، بل العكس ، إذ صارت هذه الحضارة أكثر استقلالا ، وأكثر اكتفائية ذاتية ، وأكثر « غربية » عن ذى قبل . ثم إن فقدان الوحدة الدينية بظهور المذاهب البروتستانتية لم يؤد إلى انقسام الغرب الأوربى إلى وحدتين ثقافيتين متضادتين أجنبيتين بعضهما عن بعض ، كما كان يحدث لو أن هـذا وقع قبل ذلك بأربعة أو خمسة قرون . وعلى الرغم من الانقسام الدينى حفظت أوربا وحدتها الحضارية ، ما عدا أن هذه الوحدة صارت تستند إلى تقاليد ثقافية مشتركة ، وتبعية مستمدة من التقاليد الثقافية الكلاسيكية ، لا إلى عقيدة كنسية دينية مشتركة . وبعبارة أخرى حلت قواعد النحو اللاتينى محل الطقوس الدينية اللاتينية ، وصارت هذه القواعد رباطاً للوحدة الفكرية ، كما حل العلماء المهذبون والمدنيون محل الرهبان والفرسان ، وصاروا هم عناوين الثقافة الأوربية الغربية . ولذا أعقبت القرون الأربعة التى سادت فيها الحضارة الكاثوليكية الجرمانية النوردية المتأثرة بالمؤثرات الإسلامية والبيزنطية ، أربعة قرون أخرى سادت فيها المذاهب الإنسانية الجديدة والاستقلال الحضارى الأوربى الغربى .

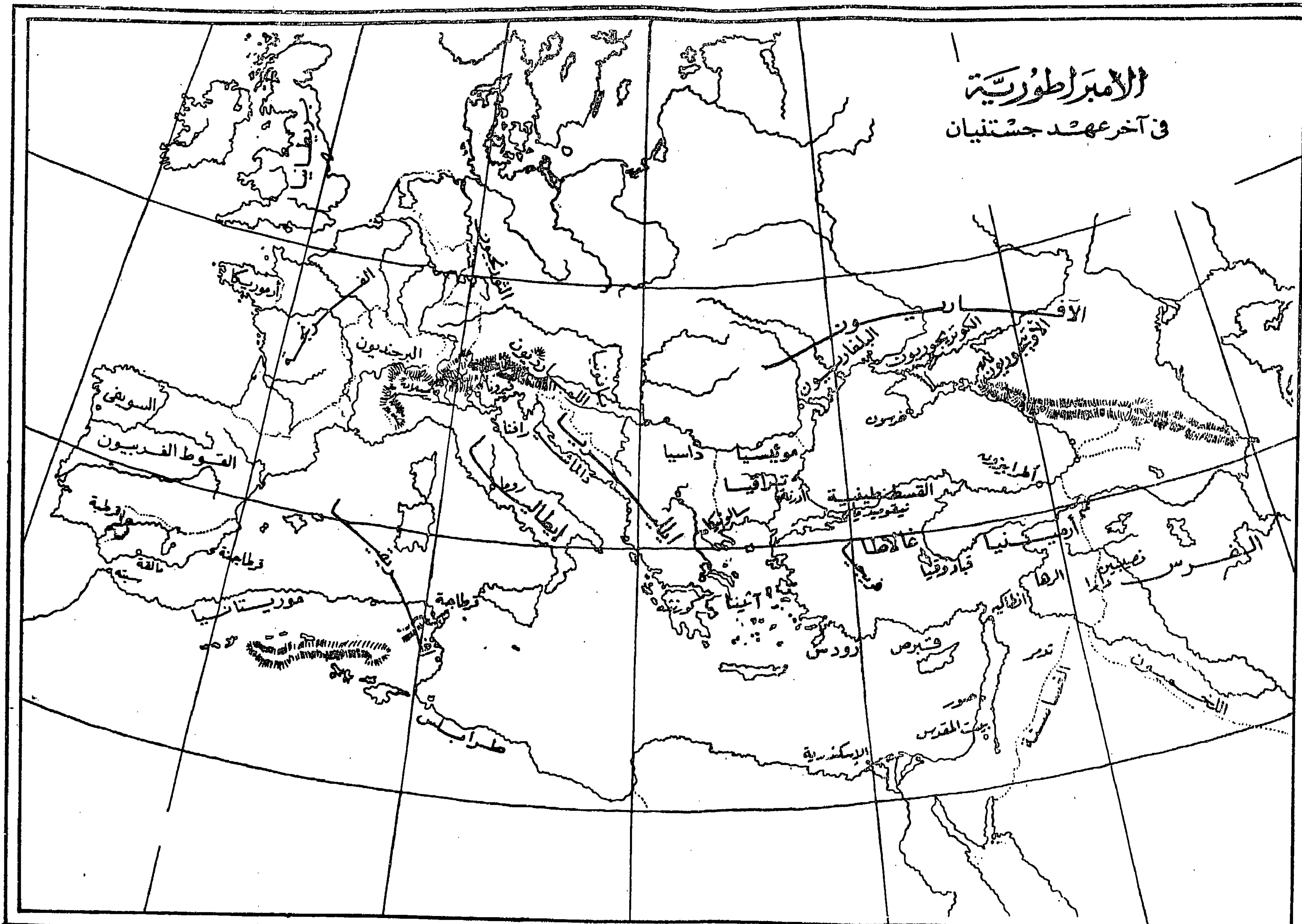
وفى العصر الحاضر تواجه أوربا خطر انهيار الحضارة العلمانية الأرستقراطية التى قامت على أساسها المرحلة الثانية من مراحل وحدتها . وها نحن أولاء نشعر مرة

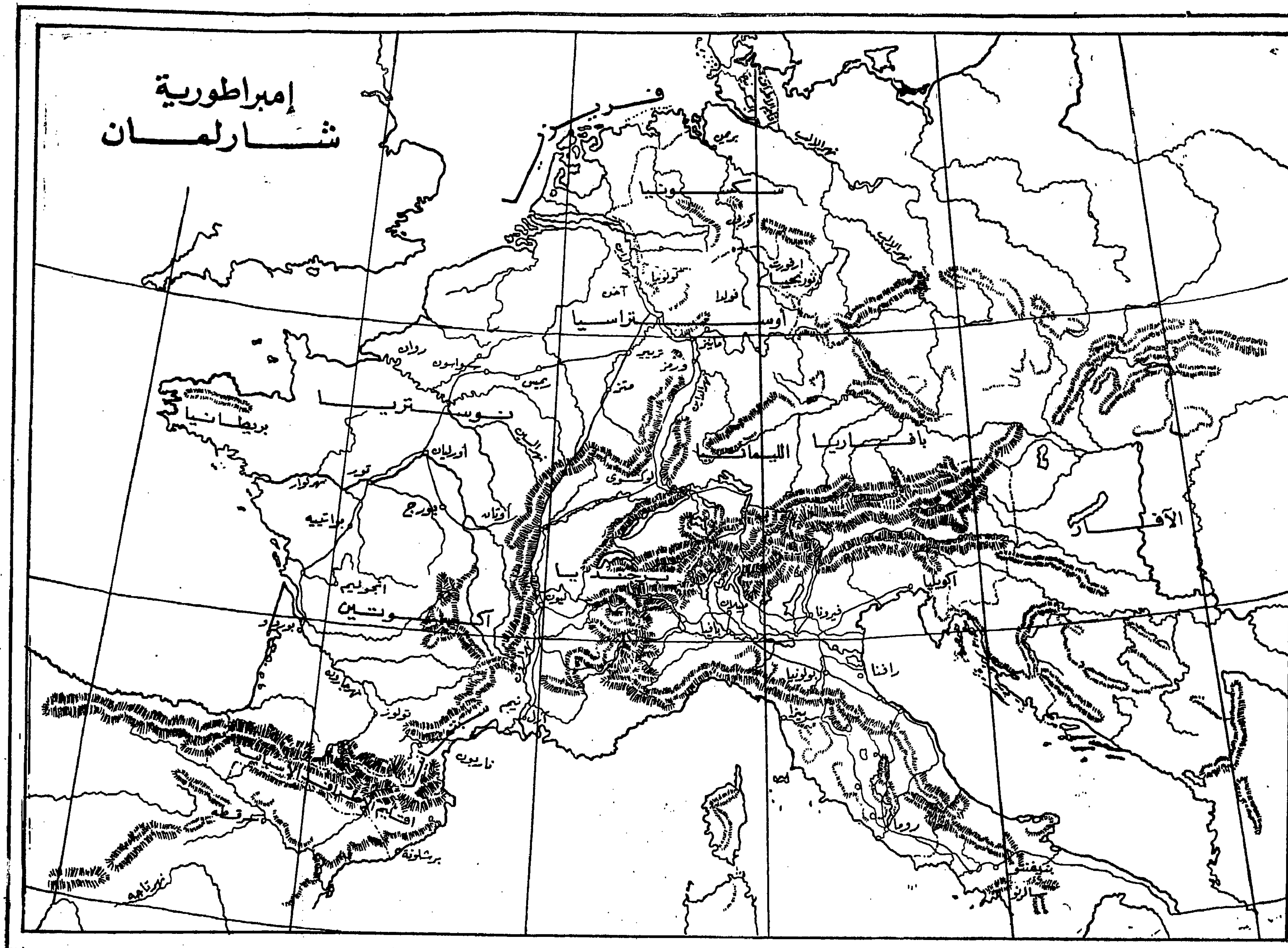
أخرى بالحاجة إلى وحدة روحية أو خلقية على الأقل ، كما نشعر بعدم كفاية الحضارة الأوربية القائمة على قواعد المذاهب الإنسانية والاتجاهات الغربية البحتة ، لأننا لم نعد نستطيع أن نقنع بحضارة أرستقراطية علمانية تستمد وحدتها من أشياء ظاهرية سطحية ، وتغفل عميق الحاجات الطبيعية الروحية فى الإنسان . ثم إننا لم نعد نثق وثوقنا القديم فى سمو الحضارة الغربية على سائر الحضارات ، وفى حقها فى السيطرة على العالم ، وذلك لأننا بدأنا — نحن أرباب الحضارة الأوربية الغربية — نشعر بحقوق الأمم والثقافات المتخلفة ، ونحس بالحاجة إلى مزيد من الصلة بالتقاليد الروحية الشرقية . أما كيف يكون إشباع تلك الحاجة ، أو هل يكون فى الإمكان إشباعها ، فليس فى استطاعتنا فى الوقت الحاضر إلا أن نفكر ونفكر . ولكنه من الخير أن نذكر أن وحدة الحضارة الأوربية لا تعتمد كل الاعتماد على تقاليد الثقافة العلمانية والتقدم المادى اللذين أحرزتهما خلال القرون الأربعة الماضية ، بل توجد فى أوربا تقاليد أكثر عمقاً من تلك التقاليد. وعلينا أن نرجع إلى عصر ما قبل عصر المذاهب الإنسانية، وإلى ما قبل عصر الانتصارات السطحية التى اصطبغت بها الحضارة الحديثة ، إذا نحن أردنا أن نكشف عن القوى الاجتماعية والروحية الأساسية التى أسهمت فى تكوين أوربا والحضارة الأوربية .

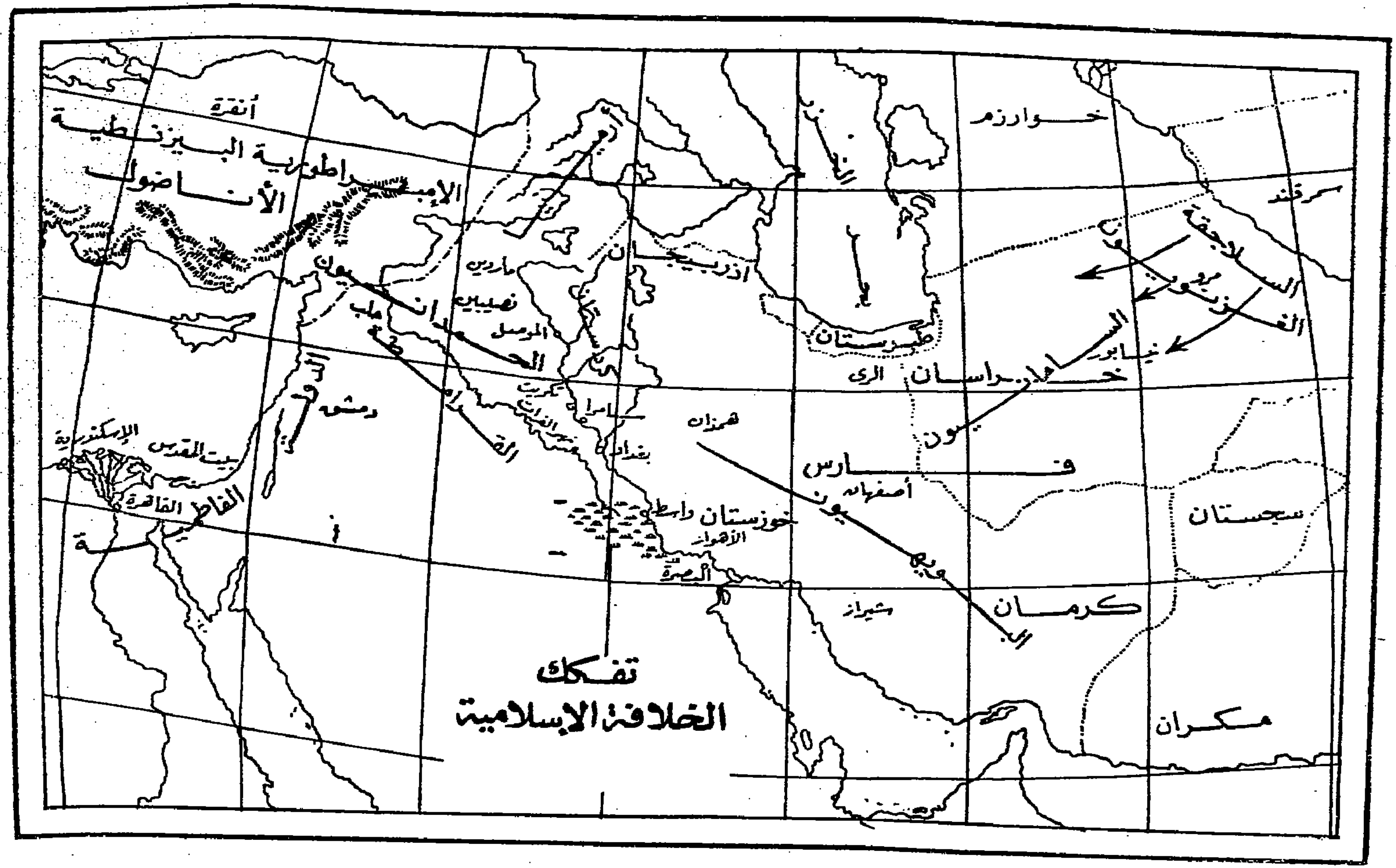
# ١ – فهرس الأعلام

## ٢ – فهرس البلاد والأماكن

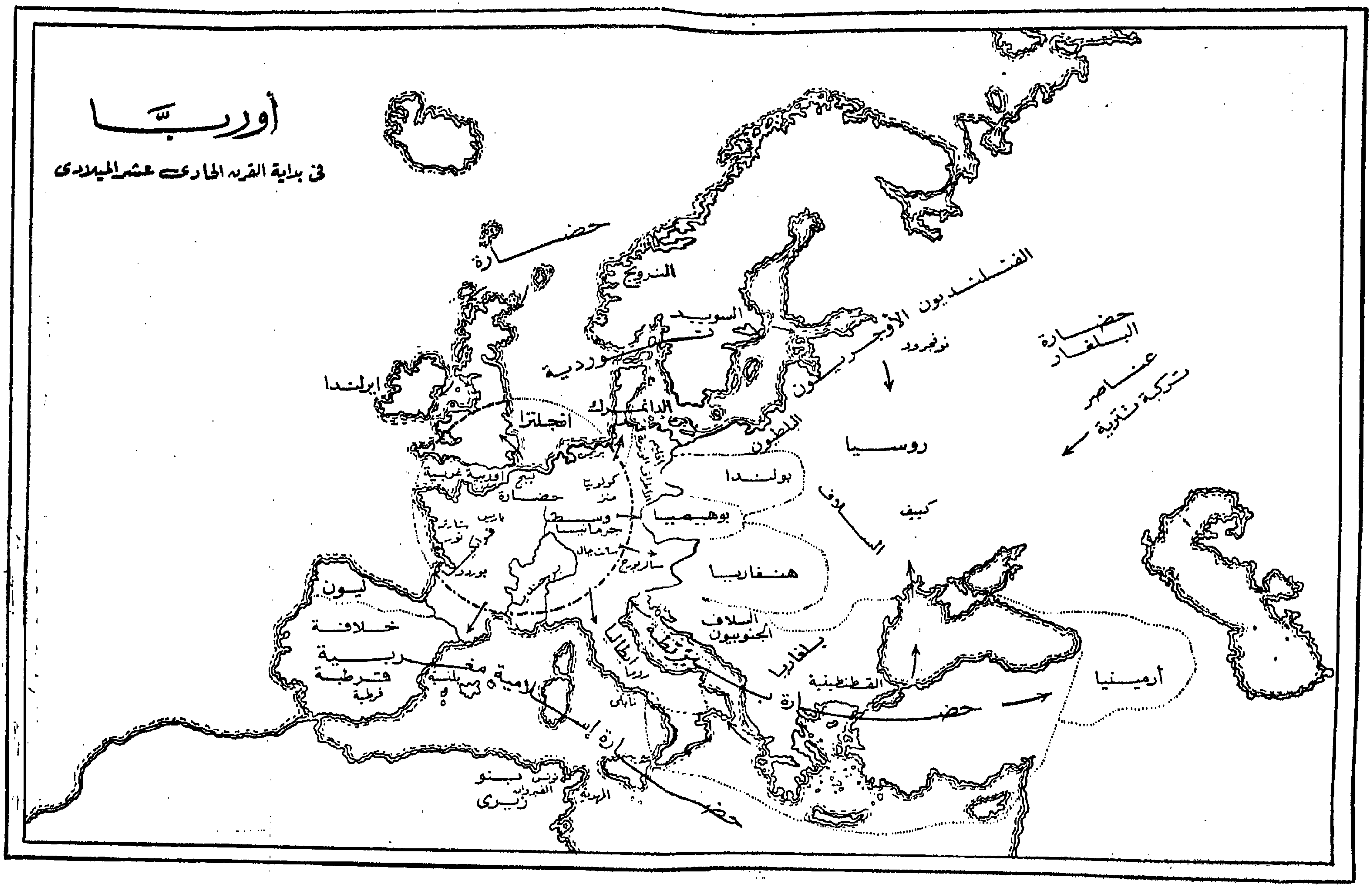
مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين . القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦


الامبراطورية
في آخر عهد جستنيان
أرموريكا
البرجنديون
السويفي
القوط الغربيون
قرطبة
قرطاجنة
مالقة
سبتة
موريتانيا
قرطاجة
طرابلس
رافنا
روما
إيطاليا
داسيا
موئيسيا
تراقيا
القسطنطينية
نيقوميديا
أثينا
رودس
قبرص
غلاطيا
قباذوقيا
أرمينيا
الفرس
نصيبين
الرها
تدمر
بيت المقدس
الإسكندرية
الآفاريون
البلغاريون
خرسون


إمبراطورية
شارلمان
فريزن
سكسونيا
أوستراسيا
نوستريا
بريطانيا
اليمانيا
بافاريا
الآفار
برجنديا
أكوتين
روما
رافنا
برشلونة
تولوز
بواتييه
بورج
روان
ريمس
متز
تريير
آخن
فولدا
ماينز
ميلان
فيرونا



تفكك
الخلافة الإسلامية
أنقرة
الإمبراطورية البيزنطية
الأناضول
خوارزم
سمرقند
ماردين
نصيبين
الموصل
حلب
أذربيجان
طبرستان
الري
خراسان
نيسابور
دمشق
بيت المقدس
الإسكندرية
القاهرة
تكريت
سامراء
بغداد
الفرات
همذان
فارس
أصفهان
سجستان
خوزستان
واسط
الأهواز
البصرة
شيراز
كرمان
مكران



أوربا
فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى
حضارة
النروج
السويد
الفنلنديون
الأوجريون
نوفجرود
حضارة البلغار
عناصر تركية تترية
نوردية
ايرلندا
انجلترا
الدانمرك
البلطيون
روسيا
بولندا
كييف
السلاف
بوهيميا
جرمانيا
باريس
هنغاريا
ليون
خلافة
قرطبة
برشلونة
رومية
ايطاليا
نابولى
السلاف الجنوبيون
بلغاريا
القسطنطينية
أرمينيا
بنو زيرى
تونس
المهدية

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦

١٩٦٧